

آية الله العظمى مكارم الشيرازي

تفاسير القرآن العظيم

شرح عصري جامع لنهج البلاغة

بمساعدة مجموعة من الفضلاء
إعداد: عبد الرصيم الصمراي

الجزء الثالث



www.haydarya.com

آية الله العظمى الشيخ ناصر مكازم الشيرازي

تفاسات الوائلي

شرح عصري جامع لنهج البلاغة

الجزء الثالث



بمساعدة مجموعة من الفضلاء
إعداد: عبد الرهيم المصري

مكارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -

نفحات الولاية: شرح عصری جامع لنهج البلاغة / ناصر مكارم الشيرازي؛ بمساعدة مجموعة من الفضلاء؛ إعداد عبدالرحيم الحمراي. - قم: مدرسة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام، ۱۴۲۶ ق. = ۱۳۸۴.

ISBN 964-8139-58-X (دوره)

ISBN 964-8139-17-2 (ج. ۳)

ج

کتابنامه

فهرستویسی بر اساس اطلاعات فیبا.

عنوان اصلی: پیام امام امیرالمؤمنین: شرح تازه و جامعی بر نهج البلاغه

۱. علی بن ابی طالب عليه السلام، امام اول، ۲۳ سال قبل از هجرت - ۴۰ ق. نهج البلاغه - نقد و تفسیر ۲.

علی بن ابی طالب عليه السلام، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. - کلمات قصار. الف. علی بن ابی

طالب عليه السلام، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. نهج البلاغه. شرح. ب. حمراي، عبدالرحيم، ج. عنوان.

د. نهج البلاغه. شرح

۲۹۷/۹۵۱۵

BP ۳۸ / ۰۲ / م ۷

هوية الكتاب

اسم الكتاب: نفحات الولاية (شرح عصری جامع لنهج البلاغة) / الجزء الثالث

المؤلف: سماحة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي بمساعدة مجموعة من الفضلاء

اعداد: عبدالرحيم الحمراي

المطبعة: سليمانزاده

الطبعة: الاولى

الكمية: ۱۰۰۰ نسخة

عدد الصفحات: ۴۰۸ صفحة

حجم الغلاف: كبير

الناشر: مدرسة الامام علي ابن ابي طالب عليه السلام

عنوان الناشر: قم، شارع الشهداء، فرع ۲۲، تلفكس: ۰۰۹۸-۲۵۱-۷۷۳۲۴۷۸

ردمك: ۹۶۴-۸۱۳۹-۱۷-۲

عنواننا في الإنترنت: www.Amiralmomeninpub.com

السعر: ۳۰۰۰ تومان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بمساعدة مجموعة من الفضلاء

١- محمد جعفر الامامي

٢- محمد رضا الاشتياني

٣- محمد إحساني فر

٤- محمد جواد أرسطا

٥- إبراهيم البهادري

٦- سعيد داودي

٧- أحمد القدسي

وقال عليه السلام

«لَا تُقَاتِلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ
الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ».

الشرح والتفسير

الفارق بين الخوارج وأهل الشام

تعرضت بعض الخطب السابقة للخوارج، فقد أشارت بعضها إلى الأمور المهمة في سيرتهم ومواقفهم وما آل إليه مصيرهم. ويتضمن كلامه ﷺ هنا الإشارة إلى الأسلوب الذي يتم من خلاله التعامل مع الخوارج بعده ﷺ فيقول «لاتقاتلوا الخوارج بعدي». استناداً إلى صراعه المرير ﷺ الذي خاضه ضد الخوارج، ولا سيما في النهروان التي وجه فيها ضرباته الماحقة إلى فلولهم، وكونهم يشكلون أعدى أعداء الإسلام حتى قتل على أيديهم، فإن مثل هذا الكلام يبدو مستغرباً في عدم التعرض لهم ومقاتلتهم، إلا أن الإمام ﷺ يقدم دليلاً بهذا الشأن فيقول «فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه» وقد صرح السيد الرضي (ره) بأن مراد الإمام ﷺ «يعني معاوية وأصحابه». فالواقع هو أن الإمام ﷺ أراد أن يجنب أصحابه فتح جبهتين وأن يكرسوا قوتهم تجاه عدو واحد كان يتمثل آنذاك بمعاوية وحزب بني أمية المقيت ورهطهم وأعوانهم من أهل الشام. فما لاشك فيه أن أصحاب الإمام ﷺ لن

١. سند الخطبة: جاء هذا الكلام في المحاسن للبيهقي ومروج الذهب للمسعودي وعلل الشرائع للصدوق والتهذيب للشيخ الطوسي (مصادر نهج البلاغة ١/٢: ٤٠).

يصبحوا بعده كما لو كان ﷺ بينهم، أضف إلى ذلك، ليس لديهم القدرة على التحرك ضمن جبهتين، ومن هنا أوصاهم بلم الشمل وتعبئة قواهم وطاقاتهم ضد عدو واحد. ولا سيما أنّ الخوارج كانوا من الناقين على حكومة معاوية، ولعلمهم يقفون إلى جانب المؤمنين في قتالهم لأهل الشام. وناهيك عما سبق فإنّ الخوارج كانوا في مركز حكومة أمير المؤمنين ﷺ ويشكلون جزءاً من الجبهة الداخلية، وعليه فقد كما يسعهم زعزعة هذه الجبهة وتصديق الحالة الأمنية دون أدنى عناء؛ الأمر الذي دفع بالإمام ﷺ لأنّ يوصي بالكف عن مقاتلتهم بعده. وهكذا يتضح الرد على ذلك التساؤل المعروف الذي عجز البعض من شرّاح نهج البلاغة عن الرد عليه. فقد أثاروا هذا السؤال: لم قاتل الإمام ﷺ الخوارج بنفسه بينما نهى أصحابه عن مقاتلتهم بعده؟ لم شهر سيفه بوجوههم بينما نصح أصحابه بغمد السيوف وعدم التعرض لهم؟

ونقول في الجواب على هذا السؤال أنّ الظروف التي كانت سائدة على عهد الإمام ﷺ تختلف كلياً عنها بعده ﷺ، والقائد الحكيم ينبغي أن يأخذ بنظر الاعتبار هذه الظروف كل يوم، بل كل ساعة فلا يعيش الجمود ويكتفي بأسلوب واحد في المجاهدة والصراع.

وبغض النظر عما تقدم فإنّ الإمام ﷺ ينكر السبب الذي يقف وراء هذا الأسلوب في المجاهدة فيقول «فانّ من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فأدرکه». فهناك فارق واضح بين الفريقين؛ فالخوارج حفنة من الجهال ظنت أنّها خرجت من أجل الحق، إلا أنّ تعصّبها وجهلها إنتهى بها إلى الحيرة والضلال، أمّا معاوية ورهطه فإنّهم يتجهون عن علم نحو الباطل. وبناءً على هذا فماذا يسع الإنسان أن يقاتل من هذين الفريقين إذا كان لا بدّ له من القتال ويتعذر عليه عملياً مواجهة الفريقين؟

قطعاً سيرجح قتال الفريق الثاني، فإذا فرغ منه وتمكن من دحره، آنذاك سيقف بوجه الفريق الأول. ولعلّ الحديث الذي نقله المبرد في الكامل يشير إلى هذا المعنى من أنّ قتال معاوية وأهل الشام كان أولى من قتال الخوارج، فقد جاء في الحديث أنّ الخوارج قاموا على معاوية بعد شهادة أمير المؤمنين علي ﷺ حين كان في الكوفة، فبعث معاوية برسوله إلى الإمام الحسن ﷺ في الكوفة - وهم بالخروج إلى المدينة - لأنّ يتصدى للخوارج، فأجابه ﷺ بأنّه كف عن قتاله حقناً لدماء المسلمين، فهل يقاتل الخوارج نيابة عنه وهو يرى أنّه أحقّ منهم بالقتل.^١

١. شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئي ٤/٣٨٣؛ الكامل للمبرد ٢/١١٦٤.

الجدير بالذكر أن الخوارج قد إرتكبوا أعظم جناية عرفها العالم الإسلامي والتي تمثلت بقتلهم لعلي عليه السلام؛ الأمر الذي أخبر عنه الإمام عليه السلام في عصره، مع ذلك لم يفكر الإمام عليه السلام في التآمر منهم، بل نهى من بعده حتى عن قتالهم، وهذا نموذج آخر من نماذج ذروة عدالته التي لا يرى مثلها في تاريخ القادة والزعماء. وأخيراً نقول أنّ وصية الإمام عليه السلام نافذة مادام الخوارج لم يارسوا عليّاتهم الإجرامية في البلاد الإسلامية؛ وإلاّ فاذا إرتكبوا مثل هذه الأعمال كان لا بدّ من معاملتهم على أنّهم محاربون مفسدون في الأرض.



تأملان

١- أضلّ من الخوارج

لاشك أنّ الخوارج - وبلاستناد إلى ممارستهم وصفاتهم آفة الذكر وما ذكره المؤرخون عن عقائدهم وآرائهم - فرقة ضالة ومنحرفة تشكل خطراً جدياً على الإسلام، إلاّ أنّ الإمام عليه السلام وعلى ضوء هذه الخطبة يرى في معاوية ورهطه أنهم أضلّ من تلك الفرقة سبيلاً، ثم يوصي أصحابه بأنّ الأولوية في القتال إنّما تتجه صوب معاوية وأهل الشام لا الخوارج. وقد علق ابن أبي الحديد على هذا الأمر فقال: وقد طعن كثير من أصحابنا في دين معاوية، ولم يقتصروا على تفسيقه، وقالوا عنه إنّ كان ملجداً لا يعتقد النبوة، ونقلوا عنه في فلتات كلامه وسقطات ألفاظه ما يدلّ على ذلك.

وروى الزبير بن بكار في "الموفقيات" - وهو غير متهم على معاوية، ولا منسوب إلى اعتقاد الشيعة، لما هو معلوم من حاله من مجانبة علي عليه السلام، والانحراف عنه -:

قال المطرف بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي عليّ معاوية، وكان أبي يأتيه، فيتحدث معه، ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقله، ويعجبُ بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة، فأمسك عن العشاء، ورأيتُه مغتماً فانتظرتُه ساعة، وظننتُ أنّه لأمرٍ حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال يا بُنيّ، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وما ذلك؟ قال: قلت له وقد خلوتُ به: إنّك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً فإِنَّك قد

كبرت؛ ولو نظرت إلى إختوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك مما يبتقى لك ذكره وثوابه؛ فقال: هيات هيات! أي ذكر أرجو بقاءه! مَلِكٌ أخو تيمٍ فعَدَل، وفعل مافعل، فما عدا أن هَلَكَ حتى هَلَكَ ذُكْرُه؛ إلا أن يقول قائل: أبو بكر؛ ثم ملك أخو عديٍّ، فاجتهد وشمَّرَ عشر سنين؛ فما عدا أن هَلَكَ حتى هَلَكَ ذُكْرُه؛ إلا أن يقول قائل: عمر؛ وإن ابنَ أبي كبشة^١ ليصاح به كل يوم خمس مرات: «أشهد أن محمداً رسول الله»، فأى عملي يبقى؟ وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أبالك! لا والله إلا دَفْنَا دَفْنَا^٢.

«فقد أثر هذا الكلام حتى في المغيرة بن شعبة المعروف بفساده وانحرافه، فلم يذهب إلى تكفير معاوية فحسب، بل رآه من أكفر الناس وأخبثهم» ثم خاض ابن أبي الحديد في أفعال معاوية وحياته الطاغوتية وتصرفاته المجانية للعدل والمروءة؛ الأمر الذي يؤكد عمق ما أورده الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة. فقال ابن أبي الحديد:

وأما أفعاله المجانية للعدالة الظاهرة من لبسه الحرير، وشربه في آنية الذهب والفضة؛ حتى أنكر عليه ذلك أبو الدرداء، فقال له: إني سمعت رسول الله ص يقول: «إن الشارب فيها ليُجرَّجِر في جوفه نار جهنم»، وقال معاوية: أما أنا فلا أرى بذلك بأساً، فقال أبو الدرداء: مَنْ عذيري من معاوية! أنا أخبره عن الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وهو يخبرني عن رأيه! لا أساكنك بأرضٍ أبداً. نقل هذا الخبر المحدثون والفقهاء في كتبهم في باب الاحتجاج على أن خبر الواحد معمول به في الشرع؛ وهذا الخبر يقَدَح في عدالته، كما يقَدَح أيضاً في عقيدته، لأن مَنْ قال في مقابلة خبرٍ قد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما أنا فلا أرى بأساً فيما حرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم»، ليس بصحيح العقيدة ومن المعلوم أيضاً من حالة استثنائه بمال النبي، وضربه مَنْ لا حدَّ عليه، وإسقاط الحدِّ عمّن يستحق إقامة الحدِّ عليه، وحكمه برأيه في الرّعيّة وفي دين الله، واستلحاقه زيادا؛ وهو يعلم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، وقتله حُجْر بن عديٍّ أصحابه ولم

١. العلامة المجلسي في «بحار الانوار» في معرض شرحه لهذا الموضوع، وهو لماذا كان معاوية بن أبي سفيان يدعو الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم بابن أبي كبشة، عند ذكره إياه، فيقول: إن مشركي العرب كانوا أيضاً يدعون الرسول بهذا الاسم، وذلك لأن «ابن أبي كبشة» هو من قبيلة «خزاعة» والتي كانت على اختلاف مع قبيلة قريش، حول مسألة عبادة الاصنام، فابن أبي كبشة كان من مخالفي عبادة الأوثان. «بحار الانوار ٢١٣/١٨».

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢٩/٥.

يجب عليهم القتل، ومهانتة لأبي ذرّ الغفاري وجبّه وشتمه إشخاصه إلى المدينة على قَتَبٍ بعير وطاء لإنكاره عليه، ولعنه علياً وحسناً وحسيناً وعبد الله بن عباس على منابر الإسلام، وعهده بالخلافة إلى ابنه يزيد، مع ظهور فسقه وشُرِّبه المسكر جهاراً، ولعبه بالنرد، ونومه بين القيان المغنّيات، اصطباحه معهنّ، ولعبه بالطنبور بينهنّ، وتطريقه بني أمية للوثوب على مقام رسول الله ﷺ وخلافته، حتى أفضت إلى يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد، المفتضخين الفاسقين؛ صاحب حَبَابة وسلامة؛ والآخر رامي المصحف بالسّهام وصاحب الأشعار في الزندقة والإلحاد.

ولا ريب أنّ الخوارج إنّما بريء أهل الدين والحقّ منهم، لأنّهم فارقوا عليّاً برثوا منه، وما عدا ذلك من عقائدهم، نحو القول بتخليد الفاسق في النار، القول بالخروج على أمراء الجور؛ وغير ذلك من أقاويلهم؛ فإنّ أصحابنا يقولون بها، ويذهبون إليها، فلم يبق ما يقتضي البراءة منهم إلا براءتهم من عليّ؛ قد كان معاوية يلعنه على رؤوس الأشهاد وعلى المنابر في الجمع والأعياد، في المدينة ومكة وفي سائر مدن الإسلام؛ فقد شارك الخوارج في الأمر المكروه منهم؛ وامتازوا عليه بإظهار الدين والتلزم بقوانين الشريعة، والاجتهاد في العبادة، وإنكار المنكرات، وكانوا أحقّ بأن يُنصَرُوا عليه من أن يُنصَر عليهم، فوضح بذلك قول أمير المؤمنين: «لا تقاتلوا الخوارج بعدي»، يعني في مُلك معاوية.

٢ - جهل اتباع الحق وعلم اتباع الباطل

إنّضح من كلام الإمام عليه السلام أنّه رجع الخوارج على أهل الشام من أتباع معاوية واستدل على ذلك بقوله: «فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه» ولا تقتصر هذه المقارنة على عصر الإمام عليه السلام؛ بل لا يخلو عصر ومصر من هاتين الفرقتين، فازلنا نرى اليوم بعض الفئات المعادية للإسلام التي تحت الخطى نحو الباطل وقد شمّرت عن سواعدها للقضاء على الإسلام والمسلمين؛ في حين هنالك الفئات الأخرى التي تنشد الحق إلا أنّها لن تبلغه، وهي الأخرى معادية للإسلام والمسلمين. ولا ينبغي للمسلمين أن ينظروا ذات النظرة لهاتين الفئتين، بل عليهم أن يمنحوا الأولوية في الصراع للفئة الأولى، وذلك لعدم وجود سبيل إزاء الفئة الأولى - التي تنهج الفساد والباطل عن علم - سوى الصراع المسلح، بينما تحتاج الفئة

الثانية إلى قدر من الوعظ والإرشاد والانفتاح على التعاليم الإسلامية الحقة.
 وقد أثبت هذا الأسلوب جدواه في موقعة النهروان بتوبة أغلب الخوارج وانابتهم إلى
 الحق بعد سماعهم لمواعظ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد جاء في الأخبار أن ثمانية
 آلاف منهم قد رجعوا عن ضلالتهم ولم يبق سوى أربعة آلاف منهم.





لما خوف من الغيلة^٢

«وَإِنَّ عَلِيَّ مِّنَ اللَّهِ جُنَّةً حَصِيْنَةً فَإِذَا جَاءَ يَوْمِي انْفَرَجَتْ عَنِّي أَسْلَمَتْنِي
فَحِينِيذٍ لَا يَطِيْشُ السَّهْمُ وَلَا يَبْرَأُ الْكَلْمُ».

❦❦❦

الشرح والتفسير

لماذا أخشى الموت؟

قيل في سبب هذا الكلام أن أصحاب الإمام ﷺ كانوا يخبرونه عن سوء نية ابن ملجم، وقد قامت عدة قرائن واضحة تكشف عن سوء نيته، حتى ذكروا أن الإمام ﷺ كان يخطب الناس يوماً فجلس ابن ملجم أمام المنبر وهو يقول: «وَاللَّهِ لَأُرِيحَنَّهُمْ مِنْكَ» فلما إنتهى الإمام ﷺ من خطبته. أمسكه البعض ممن سمعه وأتوا به إلى الإمام ﷺ. فقال ﷺ: دعوه، ثم قال، وإنَّ عليَّ من

١. سند الخطبة: روى مقدمة هذا الكلام ابن كثير في البداية والنهاية نقلا عن كتاب أبي داود، وتوفي أبي داود لعمرة وثلاثين سنة قبل السيد الرضي (ره)، ورواها الزمخشري في ربيع الأبرار مع اختلاف يفيد أنه نقلها من مصدر آخر غير نهج البلاغة. ورواها الأمدى في غرر الحكم في حرف الالف (مصادر نهج البلاغة ٤٢/٢). كما وردت في كتاب صفين لنصرين مزاحم الذي عاش في القرن الهجري الثاني (نهج البلاغة طبعة جماعة مدرسي الحوزة العلمية).

٢. «غيلة» على غرة بغير شعور من المقتول كيف يأتيه القاتل، كما ورد «الاغتيال» بمعنى القتل الحيلة، ومن مصاديقه أيضاً بعض الأذى الذي يتعرض له البدن دون القتل.

اللَّهُ...^١ نعم قال الإمام عليه السلام: «وإن على من الله جنة حصينة، فإذا جاء يومي انفرجت عني وأسلمتني؛ فحينئذ لا يطيش^٢ السهم^٣ ولا يبرأ^٤ الكلم^٥». والعبارة إشارة إلى سنة كونية ثابتة، وهي أن الإنسان لا يغادر هذه الدنيا ما لم يحن أجله، وعليه فأجل الإنسان بيد الله، ومفهوم ذلك أن إرادته هي التي اقتضت أن يبقى فلان إلى الوقت الفلاني، ومما لا شك فيه أن أحداً لا يسعه الوقوف بوجه هذه الإرادة، ومن هنا يمكن اعتبار الأجل الإلهي جنة حصينة إزاء بعض الحوادث؛ المعنى الذي ورد كراراً في نهج البلاغة، ومن ذلك قوله عليه السلام: «إن الأجل جنة حصينة»^٦.

كما قال في موضع آخر «كفى بالأجل حارساً»^٧ بل يمكن القول بأن هذا المعنى قد ورد في الآية الحادية عشرة من سورة الرعد: «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» وجاء في تفسير الآية أن الإمام الباقر عليه السلام قال: «يقول: بأمر الله من أن يقع في ركي أو يقع عليه حائط أو يصيبه شيء حتى إذا جاء القدر خلّوا بينه وبينه يدفعونه إلى المقادير وهما ملكان يحفظانه بالليل وملكان بالنهار يتعاقبان»^٨. وهنا يبرز هذه السؤال وهو لو كان الأمر كذلك، فليس هنالك من ضرورة في حفظنا لأنفسنا من المخاطر ونسعى لأن نقيها بعض الحوادث من قبيل الزلازل والأعاصير والأمراض وحوادث الدهس

١. مصادر نهج البلاغة ٤٢/٢-٤٣، كما رواه المرحوم ابن ميثم في شرحه لنهج البلاغة ١٥٧/٢.

٢. «يطيش» من مادة «طيش» على وزن عيش بمعنى خفة العقل وتستعمل للسهم حين يخطئ الهدف وكان السهم لم يعمل على ضوء العقل، وفسره البعض بكل خفة (كتاب العين ومقاييس اللغة ولسان العرب).
٣. «سهم»، وهو في الأصل واحد النبل، والمركب من النصل والنبل، والجمع، أسهم وسهام، ومن هنا يستعمل أحياناً لتعيين النصيب والقائده، ويستعمل للقرعة.

ويطلق اصطلاح السهم على النصيب والحظ والفائدة، «والمساهمة» تأتي بمعنى القرعة، ومن هنا وفي حال إجراء القرعة فإن أسماء المقترعين تكتب على نصل السهم، ثم تخلط فيما بينها، ثم تتم عملية انتخاب احد السهام، فيكون الاسم المكتوب عليه هو الفائز بالقرعة.

٤. «يبرأ» من مادة «برء» على وزن قرب بمعنى التحسن من المرض «وبرء» بمعنى الخلق، ومنه «البارئ» بمعنى الخالق.

٥. «الكلم» بالفتح على وزن نظم بمعنى الجرح. ومن هنا يقال للحديث الذي يترك أثراً على القلوب بالكلام.

٦. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٢٠٢.

٧. نهج البلاغة، الكلمات قصار، ٦-٣.

٨. تفسير البرهان ٢٨٣/٢.

والاصطدام، بل يجب علينا أن نندفع بكل قوة وعدم مبالاة واكترات وخشية من هذه الحوادث؟! وللإجابة على هذا السؤال ينبغي الألتفات إلى أن أجل الإنسان على نوعين: أجل حتمي وأجل غير حتمي، والأجل الحتمي هو الأجل الذي لا رجعة فيه، من قبيل مقدار نبض قلب الإنسان الذي قدر له العمل إلى اللحظة الفلانية، بالضبط كالساعة التي تعمل إلى أجل معين يتعلق بوجود البطارية فيها، فمتى ما نفذت قوة البطارية توقفت الساعة عن العمل. أما الأجل غير الحتمي فهو الأجل الذي يمكن إجتنابه؛ وهو على قسمين: قسم تحت تصرف الإنسان بحيث يسعه إجتنابه من خلال رعاية الموازين العقلانية من قبيل التترس والتدرع وإرتداء الخوذة في ساحة القتال التي تحول عادة دون اغلب حالات القتل، فقد وكل للإنسان التعامل بحذر مع مثل هذه الأمور، وهو المسؤول عن هذه الحوادث، أمّا القسم الآخر فهو الأجل غير القطعي الخارج عن إرادة الإنسان من قبيل بعض حوادث المرور أو عدم التحسب من الوقوع في البئر أو إنهيار الجبل وما إلى ذلك من الأمور التي لا يمكن التكهن بوقوعها. وهنا يأتي دور الملائكة الحفظة الذين يحفظون الإنسان من هذه الحوادث ما لم يصل أجله الحتمي، فاذا بلغ أجله تركوه وتلك الحوادث. وبالطبع فإنّ هذا القسم الأخير هو الآخر يمكن تقسيمه إلى نوعين: مشروط وغير مشروط والمشروط ما تتولى فيه الملائكة حفظ الإنسان شريطة قيامه ببعض الاعمال من قبيل التصدق والدعاء وصلة الرحم وما إلى ذلك من المندوبات، بينما لا يشترط مثل هذه الأعمال في غير المشروط. والخلاصة ليس هنالك من تخلف في الأجل المحتوم بينما يمكن تغيير الأجل المشروط أو المعلق من خلال التدبير والاحتياط أحياناً، والقيام ببعض الاعمال المندوبة من قبيل التصدق والدعاء وصلة الرحم أحياناً أخرى، كما يمكن ذلك من خلال الملائكة الموكلة بحفظ الإنسان من الأخطار غير المحتومة. ومن هنا يتبين عدم التعارض بين الآيات القرآنية من قبيل: «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ»^١ والآية الشريفة «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا»^٢ مع الآية المباركة: «لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ...»، ولا مع الروايات التي

١. سورة الاعراف / ٣٤.

٢. سورة المنافقون / ١١.

صرحت بتأخير أجل الإنسان إثر التصدق والدعاء، وهكذا يتضح الجمع بين كافة هذه الايات والروايات على ضوء التقسيم الثلاثي أو الرباعي الذي ذكرنا للأجل.^١



١. لقد وردت هذه الأقسام بالتفصيل في التفسير نمونه ٢٠٧/١٨ في ذيل الآية ١١ من سورة فاطر.



الخطبة ١



يحذر من فتنة الدنيا

نظرة إلى الخطبة

الخطبة كما يفهم من عنوانها تحذير للجميع من فتنة الدنيا، حيث يشير الإمام ﷺ فيها إلى موضوعين مهمين: الأول أن الدنيا قد تكون مصدر شقاء الإنسان أو سعادته؛ الأمر الذي يتوقف على طبيعة النظرة إلى الدنيا والتعامل معها. فالدنيا مذمومة وهي مصدر بؤس وشقاء إن كانت هدفاً وإنشدت الأنظار إلى زخارفها وأموالها وثرواتها، في حين ممدوحة هي الدنيا ومصدر سعادة الإنسان وفلاحه إذا كانت وسيلة ومزرعة الآخرة وأداة للوصول إلى القيم والمثل الإنسانية. الموضوع الآخر الذي أشار إليه الإمام ﷺ هو فناء الدنيا وتقلب أحوالها، وتشبيهها بفيء الظل الذي يلجأ إليه الإنسان للراحة وسرعان ما يزول.



١. سند الخطبة: كتب صاحب مصادر نهج البلاغة في سند هذه الخطبة: لا ترديد في أن ما ورد في هذه الخطبة قسم من خطبة طويلة إختار السيد الرضي (ره) بعضها، وأضاف لقد أوردت هنا ما أورده الأمدى في غرر الحكم في حرف الالف، أما التفاوت في بعض العبارات والأضافات في نقل الأمدى تفيد أنه استقى هذه الخطبة من مصدر آخر غير نهج البلاغة (لا بد من الالتفات هنا إلى أن الأمدى صاحب غرر الحكم من علماء القرن الهجري السادس، بينما عاش السيد الرضي في القرن الهجري الرابع ٤٤٢هـ).

«الْإِنِّ الدُّنْيَا دَارٌ لَا يُسَلَّمُ مِنْهَا، إِلَّا فِيهَا وَلَا يُنَجَّى بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا: ابْتُلِيَ
النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً، فَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لَهَا أُخْرِجُوا مِنْهُ وَحُسِبُوا، عَلَيْهِ وَمَا
أَخَذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ وَأَقَامُوا فِيهِ؛ فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ كَفْيٍ
الظَّلِّ، بَيْنَمَا تَرَاهُ سَابِغًا حَتَّى قَلَصَ، وَزَائِدًا حَتَّى نَقَصَ.»



الشرح والتفسير

الدنيا قل زائل

لما كانت زخارف الدنيا وزينتها تدعوا إلى المبالغة في التعلق بها؛ الأمر الذي يفضي إلى
مقارفة الذنوب والمعاصي والانحراف عن الصراط المستقيم والسقوط في هاوية الضلال فإن
القادة الربانيين لا ينفكون عن تحذير أتباعهم منها، وهذا ما نلمسه بوضوح في معظم
نهج البلاغة الذي أورد التحذير تلو التحذير على لسان خطبه ورسائله وقصار كلماته.
والخطبة التي نحن بصدددها هي نموذج من هذا التحذير الذي ضمنه الإمام عليه السلام ستة أمور مهمة،
فقد استهل ذلك قائلاً: «ألا وإن الدنيا دار لا يسلم منها إلا فيها» والدليل واضح لانقاش فيه؛
لأن من أهم أسباب السلامة هو كسب الفضائل الأخلاقية والتحلي بالقيم والمثل المعنوية
وعبودية الله وطاعته، والتي لا تتسنى إلا في هذه الدنيا، وليس للإنسان من فرصة سوى في
هذا العالم دون العوالم الأخرى، ومن هنا قال الإمام عليه السلام لاتنال السلامة من الدنيا إلا فيها. ثم
قال عليه السلام: «و لاينجى بشيء كان لها» أي إن كانت الدنيا هي دافع نشاطات الإنسان وغاية
أعماله وأفعاله وحتى إتيانه بالعبادات إذا كان ينطوي على هدف دنيوي ويشوبه الرياء
والسمعة فأنها لن تكن سببا لنجاته، بل ستفضي إلى هلاكه وشقائه. ثم أشار في الأمر الثالث
إلى كونها ميدان إمتحان: «ابتلي الناس بها فتنة»؛ فالدنيا مليئة بالنعم إلى جانب المشاكل

والمصائب؛ فالنعمة وسيلة للإمتحان، كما المصيبة إمتحان من نوع آخر. فهل تطغي النعمة الإنسان أم تشده إلى الله، وهل يؤدي شكر النعم عملاً فضلاً عن شكرها لساناً؟ وهل يستشعر قلبه اليأس حين المصيبة ويشكو ربه، أم يصبر عند المصاب ويشكر؟ فالإنسان يعيش الإمتحان في هذين الأمرين كل يوم طيلة حياته في الدنيا، وهذا قانون خالد انبثق منذ خلق آدم ﷺ وسيستمر إلى يوم القيامة، فقد قال القرآن الكريم بهذا الشأن: «أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ»^١. ثم قال ﷺ في الأمر الرابع: «فما أخذوه منها لها أخرجوا منه وحوسبوا عليه». ثم واصل كلمه قائلاً: «وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه، وأقاموا فيه» والعبارة إشارة إلى النظرتين المعروفتين في نهج البلاغة، النظرة إلى الدنيا كوسيلة والأخرى كغاية؛ فان كانت إمكانات هذه الدنيا والأموال والثروات والنعم والمقام والجاه وسيلة لنيل السعادة والحياة الأخرية الهنيئة فليس هناك أفضل منها، وإن كانت صنماً يسجد له الإنسان فليس هناك أسوأ منها. فالنظرة الاولى تسوق الإنسان إلى الورع والتقوى والطهر والعفاف بينما تدعوه النظرة الثانية إلى الحرص والطمع والظلم والذلة والهوان. والنظرة الاولى تحيل النعم الدنيوية الفانية إلى نعم أخروية باقية، في حين تكون النظرة الثانية سبباً لزوال النعم وبقاء التبعات. ومن هنا تتضح عليه مدح الدنيا في أغلب الآيات والروايات، إلى جانب ذمها في البعض الآخر. فلعل البعض يفسر ذلك بالتناقض للوهلة الاولى، بينما كل واحدة منها صحيحة في مكانها وكأن الواحدة منها مكملة للأخرى، فالمدح يرتبط بالدنيا الوسيلة، والذم بالدنيا الهدف والغاية. وسنعرض لهذا الموضوع بالتفصيل في الأبحاث القادمة ذات الصلة. وأخيراً يكشف الإمام ﷺ اللثام عن حقيقة الدنيا ليشبهها بفي الظل الذي يمر سريعاً فقال: «فإنها عند ذوي العقول كفيء الظلّ، بينما تراه سابغاً^٢ حتى قلص^٣، وزائداً حتى نقص»

١. سورة العنكبوت / ٢ - ٣.

٢. «سابغ» من مادة «سبوغ» بمعنى الامتداد، ونعمة سابغة تطلق على النعم الدائمة الممتدة، واسباغ الرضوء مواصلته بالماء دون الاسراف.

٣. «قلص» من مادة «قلوص» على وزن خلوص بمعنى إنقبض وارتفع، وفي الخطبة بمعنى زوال الظل بحلول عتمة الليل.

فقد ورد الظل بمعناه المطلق سواء ظل الأشياء قبل الزوال أو بعده، ويطلق أحياناً على ما قبل الظهر خاصة الذي تزيله الشمس تدريجياً، أما «فئي» فهي تعني الظل بعد الزوال (لأن مفهوم هذه المفردة يتضمن الرجوع والعودة) الذي يتسع كلما إقتربت الشمس من أفق المغرب ويزول إثر غروب الشمس وحلول الظلمة. وكان الإمام عليه السلام أشار إلى حقيقة مهمة وهي أن أصحاب الدنيا يجمعون الأموال والثروات كل يوم بحيث تزداد كلما إقترب عمرهم من نهايته، إلا أنها تزول وتنعدم من الوجود بغروب شمس العمر، وتنتهي كل هذه الثروات بحلول ظلمة الموت. ونختتم تفسير هذه الخطبة بالقول أن الإمام عليه السلام دائم التحذير من مغبة التعلق بالدنيا والاعترار بها وفضحها بمختلف الطرائف والأمثال وذلك للأسباب التالية: أولاً: أن حبّ الدنيا والاعترار بها يمثل مادة الذنوب والمعاصي؛ الأمر الذي يجعل القائد الرباني محذراً أتباعه وملفتاً إنتباههم إلى عظم هذا الخطر على الدوام، وثانياً: شهد عصر الإمام عليه السلام وما سبقه بعض الفتوحات الإسلامية التي درت على المجتمع الإسلامي ما لا يحصى من الغنائم والثروات والإمكانات؛ الأمر الذي جعل أفراد الأمة تعيش حالة من السباق للتكالب على هذا الحطام، وهذا ما أفرز حالة من الانحراف والاختلاف والتشتت والابتعاد عن التواضع في الحياة والاقبال على الراحة والدعة والضعف أمام العدو من خلال التقاعس عن الجهاد، ومن هنا كان الإمام عليه السلام لا يرى أدنى فرصة إلا واغتنمها من أجل إعادة الأمة إلى مسارها الإسلامي الصحيح. وقد وعظهم بسيرته وحياته قبل وعظهم بلسانه.



في المبادرة إلى صالح الاعمال

نظرة إلى الخطبة

جرى الحديث في هذه الخطبة - كما في الخطبة السابقة - عن تقلب أحوال الدنيا وضرورة الزهد فيها، داعياً الناس إلى الاستعداد والتأهب للآخرة. ثم صور الدنيا بهذه الصورة «وما بين احدكم وبين الجنة أو النار الا الموت أن ينزل به، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة، لجديرة بقصرا لمدة، وأن غائباً يحدوه^٢ الجديدان: الليل والنهار، لحري بسرعة الأوبة». ثم يختتم ﷺ خطبته بدعوة الناس إلى التوبة والإنابة إلى الله ويحذر من الغفلة عن الموت والاعتزاز بالأمل الذي يصد عن الآخرة، فاذا باغت الإنسان الموت وكان غارقاً في شهواته ومعاصيه صعب عليه مفارقة الدنيا.



١. سند الخطبة: ورد بعض هذه الخطبة في كتاب الغرر والدرر للآمدي مع بعض الاختلاف عما ورد في نهج البلاغة، مما يشير إلى أنه إقتبسها من غير مصدر نهج البلاغة، كما نقل بعضها السبطين الجوزي في تذكرة الخواص بالاضافة إلى ما ورد في نهج البلاغة، وهذا يعني أنه استقاه من مصدر آخر غير نهج البلاغة، وصرح في كتابه بأنه يذكر عبارات أمير المؤمنين ﷺ المتصلة السند (مصادر نهج البلاغة ٤٧/٢ - ٤٨).

٢. «يحدو» من مادة «حدو» على وزن ضرب، و «حداء» على وزن دعا، وفي الاصل بمعنى، الغناء للابل أثناء سوقها بصوت خاص، وذلك عندما يريد سائق الابل الاسراع في السير، والصحيح «حداء» وفي لسان عامة الناس يُقال «حددي».



في المبادرة إلى صالح الاعمال

نظرة إلى الخطبة

جرى الحديث في هذه الخطبة - كما في الخطبة السابقة - عن تقلب أحوال الدنيا وضرورة الزهد فيها، داعياً الناس إلى الاستعداد والتأهب للآخرة. ثم صور الدنيا بهذه الصورة «وما بين احدكم وبين الجنة أو النار الا الموت أن ينزل به، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة، لجديرة بقصر المدة، وأن غائباً يحدوه^٢ الجديدان: الليل والنهار، لحري بسرعة الأوبة». ثم يختم ﷺ خطبته بدعوة الناس إلى التوبة والإنابة إلى الله ويحذر من الغفلة عن الموت والاعتزاز بالأمل الذي يصد عن الآخرة، فاذا باغت الإنسان الموت وكان غارقاً في شهواته ومعاصيه صعب عليه مفارقة الدنيا.



١. سند الخطبة: ورد بعض هذه الخطبة في كتاب الغرر والدرر للآمدي مع بعض الاختلاف عما ورد في نهج البلاغة، مما يشير إلى أنه إقتبسها من غير مصدر نهج البلاغة، كما نقل بعضها السبطين الجوزي في تذكرة الخواص بالاضافة إلى ما ورد في نهج البلاغة، وهذا يعني أنه استقاه من مصدر آخر غير نهج البلاغة، وصرح في كتابه بأنه يذكر عبارات أمير المؤمنين عليه السلام المتصلة بالسند (مصادر نهج البلاغة ٤٧/٢ - ٤٨).

٢. «يحدو» من مادة «حدو» على وزن ضرب، و «حدأ» على وزن دعا، وفي الاصل بمعنى، الغناء للابل أثناء سوقها بصوت خاص، وذلك عندما يريد سائق الابل الاسراع في السير، والصحيح «حدأ» وفي لسان عامة الناس يُقال «حددي».

القسم الأول

«فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ، وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جَدَّ بِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظْلَكَكُمْ، وَكُونُوا قَوْمًا صِيحَ بِهِمْ فَاثْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبَدَّلُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدىً».

ۛۛۛۛ

الشرح والتفسير

الموت يلقي بظلاله على الجميع

يستهل الإمام عليه السلام خطبته بتحذير الجميع من الدنيا والالتفات إلى سرعة زوالها والهدف من خلق الإنسان فيها، والاستغراق في الغاية التي ينبغي أن ينشدها في هذه الحياة. فقد قال عليه السلام: «فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ» كل مالديكم من الله وقد أمطركم بوابل نعمه وآلائه فانتم عباده ولا يصح لكم الخروج على أوامره وعصيانه. أما التأكيد على التقوى في هذه الخطبة وسائر الخطب مما لا يحتاج إلى أدنى إيضاح كون التقوى تشكل اللبنة الأساس للمؤمن والعمل الصالح، الأمر الذي ورد التأكيد عليه كراراً في القرآن حتى عد الوسيلة للتفاضل «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَأْتِكُمْ»^١ وهي خير الزاد «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»^٢. ثم قال عليه السلام: «و بادروا آجالكم بأعمالكم»، وكأنَّ السباق قد بلغ ذروته بين الإنسان والموت، فلو طبع حياته بالعمل الصالح فإنه سيصل غايته قبل أن يحل به الموت فيحول دون بلوغ تلك الغاية. والواقع أن غاية الإنسان تتمثل بالعبادة والسمو والتكامل والقرب الإلهي؛ الأمور التي يمكن

١. سورة الحجرات / ١٣.

٢. سورة البقرة / ١٩٧.

للإنسان بلوغها إذا تحلى بالورع والتقوى والعمل الصالح قبل حلول أجله وانتهاء عمره، وإلا سيفاجئه الموت دون الظفر بغايته وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم: «وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ»^١ ثم اتبع ذلك بالقول: «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا» أي ليست هناك من استجابة لمثل هذه الطلبات هناك. ثم قال ﷺ: «وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَىٰ لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ» فالدنيا ومتاعها ونعمها إلى زوال وتبدل وعدم استقرار، بينما تتصف نعم الآخرة بالدوام والخلود، فهل من عاقل يتردد في مثل هذه الصفقة وذلك بان يشتري ذلك المتاع الخالد بهذا المتاع الفاني؟ ابتاعوا من مادة ابتياع بمعنى الشراء، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في عدة آيات، منها «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»^٢، فهذه الآية - التي شرحت المقايضة المعنوية والإلهية للناس مع الله باروع بيان وضمن عشرة تأكيدات - إنما تشمل كافة ميادين الحياة البشرية وإن وردت بشأن الجهاد؛ لأن الجهاد جزء من مفردات هذه الحياة، وقد جاء شبيه هذا المعنى في الآية العاشرة من سورة الصف «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ...»^٣ فهل هناك أعظم وأربح من هذه التجارة التي يمثل طرف الإنسان فيها الله سبحانه الكريم الغفور الرحيم من جانب، ومن جانب آخر يرضى الله بهذه المعاملة لأن يبادل الإنسان بهذا المتاع الفاني والزائل الذي يفقده الإنسان شاء أم أبى بذلك المتاع الخالد الذي يأبى الزوال والفناء؟! ثم قال ﷺ: «وَتَرَحَّلُوا^٤ فَقَدْ جَدُّ بِكُمْ» في إشارة إلى أن الرحيل من الدنيا ليس بالهزل ولا السهل اليسير، بل أمر جدي بالغ الصعوبة فلسان حال كافة أعضائنا الباطنية والظاهرية هو الرحيل، ويعاضد ذلك

١. سورة المنافقون / ١٠.

٢. سورة التوبة / ١١١.

٣. «ترحلوا» من مادة «رحلة» بمعنى السفر والرحيل من مكان إلى آخر.

٤. «جد بكم» من مادة «جد» بمعنى حثثتم وازعجتم إلى الرحيل، كما تأتي بمعنى الأهمية، ويراد بها أيضاً الأسفار السريعة.

إستزاف القوى الجسمانية، إلى جانب الآفات والأحداث والبلاءات وأنواع الأمراض التي تدفع بالإنسان إلى الرحيل.

ثم أمر الإمام عليه السلام واستناد لما مر بالتجهز والتأهب فقال: «واستعدّوا للموت فقد أظلكم» وبالطبع ليس المراد بالتأهب والاستعداد للموت أن يكف الإنسان عن السعي والعمل ويقاطع الدنيا ويقع في زاوية من داره ينتظر الموت، بل المراد الاكثار من الأعمال الصالحة وتهذيب النفس وتركيتها والتحلي بالفضائل ومكارم الأخلاق والمسارة في «الباقيات الصالحات»، وبعبارة أخرى التزود للدار الآخرة والقدوم عليها بما ينجي الإنسان من عقباتها. أمّا العبارة «فقد أظلكم» فهي تفيد قرب الموت؛ لأنّ الأشياء القريبة فقط هي التي تظل الإنسان. والواقع ليست هنالك من مسافة بين الإنسان والموت، فقد يستسلم للموت أقوى الأقوياء إثر حادثة بسيطة تحيل كيانه عظماً ولحماً خاوياً، كما قد يموت رغم عنفوان شبابه بفعل سكتة قلبية، بل قد تخنقه اللقمة الصغيرة فتميته، وزبدة القول لولا الغفلة التي طغت على الناس بتناسي الموت لما استطاع البشر ممارسة الحياة بهدوء وسكينة ولو للحظات. ثم قال عليه السلام: «وكونوا قوماً صريح بهم فانتبهوا، وعلّموا أنّ الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا»^١.

ولعل المراد بمن يصيح في الناس ويوقظهم من نوم الغفلة، هو ذلك الملك الذي أشار إليه الإمام الباقر عليه السلام مروياً عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«له ملكٌ ينادي كلَّ يومٍ! لدوا للموت وابنوا للخراب!»^٢

أو المراد به العناصر الداخلية في جسم الإنسان والتي تؤدي بالتدريج إلى ضعف الجسم وكأنّها تهتف به إلى الرحيل. وقد وردت عدة أشعار في الديوان المنسوب للإمام عليه السلام بهذا

١. تفيد القرائن الواردة في الخطبة ان «فاستبدلوا» وردت بصيغة الماضي كالمفردة «فانتبهوا» لأنّ كليهما نتيجة للعبارة السابقة، فالانتباه نتيجة صراخ اليقظة وتبدل الدنيا بالآخرة نتيجة العلم بموضعهما، والعجيب أن أغلب صراخ نهج البلاغة صرحوا بأن «فاستبدلوا» فعل أمر؛ الأمر الذي يغير مفهوم هذه العبارة والعبارات اللاحقة.

٢. منهاج البراعة للعلامة الخوئي ٣٣٩/٤؛ وقد ورد هذا المعنى في الكلمة ١٣٢ من قصار كلمات نهج البلاغة حيث قال عليه السلام: «إن لله ملكاً ينادي في كل يوم: لدوا للموت، واجمعوا للفناء وابنوا للخراب».

الشأن، نرى من الجفاء عدم التعرض لها، فقد قال:

إلى م تجر أذيال التّصابي و شيبك قد نضا برد الشّباب
 بلال الشّيب في قوديك نأدى بأعلى الصّوت حيّ على الدّهَاب
 خلقت من التّراب وعن قريب تغيب تحت أطباق التّراب
 طمعت إقامة في دار ظعن فلا تَطْمَع فَرَجْلِكَ فِي الرِّكَّابِ
 و أرخيت الحجاب فسوف يأتي رسولٌ ليس يحجب بالحجاب
 أعمار قصرك المرفوع؟ أقصرًا فإنّك ساكن القبر الخراب!¹

وأخيرا إختتم كلامه الذي أشار فيه إلى الدنيا وتقلب أحوالها وضرورة الاستعداد فيها إلى سفر الآخرة بعبارة أوردها بمنزلة الدليل والبرهان على ما قال: «فإنّ الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سدئى»^٢ والعبارة في الواقع إشارة إلى برهان المعاد المعروف (برهان الحكمة) الذي يصرح بأنّ هدف خلق الإنسان إذا اقتصر على هذه الحياة القصيرة وما يكتنفها من أيام المطعم والملبس والنوم فانما هو العبث بعينه، فلا يمكن أن يكون هذا هو الهدف من هذا الخلق العظيم وهذه السموات والأرضيين وما يكتنفها من العجائب والغرائب وهذه البنية العجيبة لخلق الإنسان بهذا التعقيد والدقة والنظام، فجميع القرائن الموجودة في عالم خلقه الإنسان والأكوان تشير إلى عظم الهدف الذي قام من أجله الخلق، وهو الهدف العظيم الذي خلق الحكيم من أجله الإنسان والعالم، والذي يكمن في تكامل الإنسان وقربه من الله ونيله سعادة الدارين.



١. منهاج البراعة ٣٩٩/٤.

٢. «سدئى» من مادة «سدو» على وزن سرو بمعنى الالهمل والعبث، ومن هنا تطلق العرب «سدئى» على الابل التي لاراعي لها وترعى كيفما تشاء، والعبارة بمعنى تعني أن الله لم يخلقكم عبثاً دون هدف.

القسم الثاني

«وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزَلَ بِهِ، وَإِنَّ غَايَةَ تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ، وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصْرِ الْمُدَّةِ، وَإِنَّ غَائِبًا يَخْذُوهُ الْجَدِيدَانِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأُوبَةِ، وَإِنَّ قَادِمًا يَقْدُمُ بِالْفَوْزِ أَوْ الشَّقْوَةِ لِمُسْتَحِقٍّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ، فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ [تحرزون] بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَدًا».



الشرح والتفسير

التزود قدر المستطاع

واصل الإمام عليه السلام خطبته بالإشارة إلى ثلاثة أمور مهمة: الأول «و ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به» أي إن كنت حذرتكم من الدنيا ودعوتكم إلى التزود للآخرة بالتقوى والعمل الصالح ومبادرة الأجل، فذلك لقصر المسافة بينكم وبين الجنة أو النار، فما أسرع أن تروا أنفسكم في الجنة أو النار إذا حلّ الموت بِناديكم. فالمؤمن الفطن ليقف على مدى قصر هذه المسافة ويراه على ضوء الآية القرآنية: «إِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأُنشِقُ الْقَمَرُ»^١، خاطفة من حيث الزمان، كما يراها كذلك على مستوى المكان على ضوء الآية الشريفة: «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا»^٢ وَتَرَاهُ قَرِيبًا»^٢ وبالطبع فالآية إشارة إلى القيامة الصغرى لا الكبرى، وتفسير ذلك أن للإنسان قيامتان: ١- القيامة الكبرى التي يحشر فيها جميع الأولين والآخرين ليحاسبوا على أفعالهم. فالمحسنون إلى الجنة والأتمون إلى النار. ٢- القيامة الصغرى

١. سورة القمر / ١.

٢. سورة المعارج / ٦.

التي تحل بالفرد عند موته فتقطع علاقته بالدنيا وتغلق صحيفة أعماله فتكون حفرة قبره روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال «إِنَّ لِلْقَبْرِ كَلَاماً فِي كُلِّ يَوْمٍ يَقُولُ: أَنَا بَيْتُ الْغَرْبَةِ... أَنَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حَفْرَةٌ مِنْ حَفْرِ النَّارِ»^١. طبعاً يراد بهذه الجنة والنار الجنة والنار البرزخية لا جنة القيامة ونارها. على كل حال فإن الإمام عليه السلام تحدث عن قرب القيامة وسرعة ثوابها وعقابها وإن رآها عبيد الدنيا بعيدة ثم قال عليه السلام: «وإن غاية تنقصها اللحظة، وتهدمها الساعة، لجديرة بقصر المدة» والمراد بالغاية هنا عمر الإنسان أو إختتام هذا العمر حيث يأخذ بالتناقص كل يوم، ويتحطم ركن منه بمرور كل ساعة ولحظة، فالعمر ليس سوى هذه الساعات واللحظات وهي الحقيقة التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: «وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ»، كما أشار إليها الإمام عليه السلام بقوله: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ»^٢. ومن العجب العجيب أن تسأل أحدهم عن قيمة عمره فلا تراه مستعداً لاستبداله بأي شيء بينما يقضي أغلب أوقاته لاهياً عابثاً دون أن يحترم الوقت، والحال ليس العمر سوى هذه الأوقات. ولا بأس هنا بذكر هذه الطريقة التي أوردتها المحقق التراقي أحد كبار الفقهاء في كتابه الفكاهي الواعظ طاقديس الذي ذكر فيه تلك المواعظ على هيئة الشعر. فقال أن طراراً ذهب إلى بقال وسأله ما ثمن الجوز؟ قال: كل ألف جوزة بعشرة دراهم. سأل: فما ثمن المئة؟ قال: درهم واحد. سأل: ما ثمن العشرة؟ قال: عشر الدرهم. حتى سأله عن ثمن الجوزة الواحدة. فقال: لا قيمة لها. قال الطرار: فان كان كذلك فأعطني واحدة. فأعطاه. ثم عاد وطلب واحدة. فأعطاه ثم عاد ثالثة وسأله واحدة. وهنا إلتفت إليه البقال وسأله: من أين أنت؟ أجاب: من بلدة فلان. فقال: أيها الماكر، اذهب واخدع غيري (أتريد أن تقتني متاعى بالمكر والخداع) وهكذا يقوم بعض الجهال من أهل الغفلة بهدم ساعات عمرهم ولحظاته بالمكر والخداع وبالطبع فهم لا يخذعون سوى أنفسهم فيضيعون هذا العمر الذي لا تعدله قيمة. ثم قال عليه السلام: «وإن غائباً يحدوه الجديان: الليل والنهار،

١. الكافي ٢٤٢/٣.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار ٧٤/.

لحرىً بسرعة الأوبة»^١ والمراد بالغائب هنا الأجل، وكأنه الناقة السريعة الجادة في الحركة حيث يجدها المجددان الليل والنهار وهما بمثابة الراعي الذي يحدوها إلى الحركة، ومن الطبيعي أن هذه الناقة - الأجل - ستصل بسرعة إلى هذا الإنسان، أمّا التعبير بالمجددين عن الليل والنهار وذلك لتجددهما على الدوام واستبدال أحدهما بالآخر، والتعبير بالآوبة التي تعني الرجوع، واستناداً إلى القرآن الكريم والأدلة الحسية واليقينية في أن الإنسان كان في البداية مادة خالية من الحياة، ثم دبت فيه هذه الحياة، وأخيراً سيعود إلى ما كان حين الموت، ثم يبعث وتذب فيه الحياة من جديد باذن الله: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»^٢ وقد ورد هذا المعنى في قصار حكم نهج البلاغة «إذا كنت في إدمارٍ والموت في إقبالٍ فما أسرع الملتقى»^٣. هذا وقد فسر بعض شراح نهج البلاغة الغائب في العبارة بالإنسان لأنه غاب عن وطنه ومنزله الأصلي الآخرة والتي يجب عليه الرجوع إليها، والليل والنهار يسوقانه سريعاً إلى ذلك المنزل. ويبدو أن هذا التفسير ينسجم والقول: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»^٤ وما ورد في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن: «و اعلم يا بني أن من كانت مطيته الليل والنهار، فإنه يساربه وإن كان واقفاً، ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعاً»^٥. إلا أن الذي يبعد هذا التفسير هو عدم خلوه من التكلف في تفسير الغائب بالإنسان، أمّا تفسيره بالأجل يبدو أقرب وأنسب ثم قال عليه السلام: «و إن قادمًا يقدم بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة» ومن الواضح أن المراد بالقادم هنا الإنسان الذي ينطلق في حركته من الدنيا إلى الآخرة ولا يحمل سوى السعادة أو الشقاء، فما أحراه أن يتزود بخير العدة وأفضل الزاد ليفوز بسعادة تلك الدار. وذهب بعض الشراح إلى أن المراد بالقادم هنا الموت وأجل الإنسان وأنه يرد بالسعادة أو الشقاء، فعليه أن يتأهب كأفضل ما ينبغي له ليفوز بالسعادة. ويرجح هذا التفسير على سابقه لأنه ينسجم ومفهوم

١. أوبة له معنى مصدرى وإياب بمعنى الرجوع والإجابة.

٢. سورة البقرة / ٢٨.

٣. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٨.

٤. سورة البقرة / ١٥٦.

٥. نهج البلاغة، الرسالة ٣١.

العبارة السابقة «وإن غائباً...» والمراد بأفضل العدة التقوى، التي أشار إليها القرآن بفضلها خير الزاد «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»^١. ومن هنا خلاص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة «فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً» في إشارة إلى أن ما في الدنيا يمكنه أن يكون تلك المعنوية في الآخرة، وهل المعنويات هناك سوى الاعمال الصالحة هنا والتقوى والورع التي عدت خير الزاد، فكما أن الزاد الدنيوي يقي المسافر من مخاطر الموت والجوع وآفات السفر، فكذلك زاد التقوى بالنسبة للآخرة وهذا ما ورد التأكيد عليه في الروايات، فقد جاء في الحديث أن علياً عليه السلام قال: «التقوى حرز لمن عمل بها»^٢ وقال في موضع آخر: «التقوى حصن حصين لمن لجأ إليها»^٣ وقال: «لجأوا إلى التقوى فإنه جنة منيعة»^٤.



١. سورة البقرة / ١٩٧.

٢. غرر الحكم، ح ١١٢٨.

٣. غرر الحكم، ح ١٥٥٨.

٤. غرر الحكم، ح ٢٥٥٣.

القسم الثالث

«فَاتَّقَى عَبْدُ رَبِّهِ، نَصَحَ نَفْسَهُ، وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَإِنَّ أَجْلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ، وَأَمَلُهُ خَادِعٌ لَهُ، وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ، يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيُرْكَبَهَا، وَيُمْنِيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا، إِذَا هَجَمَتْ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا؛ فَيَأْخُذُ بِهَا حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذِي عَقْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشَّقْوَةِ! نَسَأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ وَلَا تُقْصِرُ [تقتصروا] بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةً وَلَا تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدَامَةً وَلَا كَابَةً».



الشرح والتفسير

الإنسان والغفلة

قال الإمام عليه السلام مستهلاً قوله بقاء التفريع كنتيجة لما سبق: «فَاتَّقَى عَبْدُ رَبِّهِ، نَصَحَ نَفْسَهُ، وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ»^١ فقد أوصى عليه السلام بالتقوى كتوضيح لقوله عليه السلام: «فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا»؛ لأنها خير الزاد إلى المعاد، ثم خاض في التفاصيل بثلاث عبارات: الأولى نصح النفس ومن ثم التوبة وأخيراً غلبة الشهوة والتي تمثل بمجموعها وصفة كاملة لسعادة البشرية؛ البشرية التي قد تغفل عن نصح نفسها ولا تفكر في التوبة وتدارك ما فرط منها؛ الأمر الذي يجعلها أسيرة أهوائها وشهواتها. ثم تطرق عليه السلام إلى موضوع يمثل الدليل على ما ورد سابقاً «فإنَّ أَجْلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ، وَأَمَلُهُ خَادِعٌ لَهُ، وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ، يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيُرْكَبَهَا، يُمْنِيهِ

١. إن الأفعال وإن وردت بصيغ الماضي إلا أنها تفيد معنى الأمر. وكان السامع على درجة من الطاعة بحيث يمثل الأوامر قبل سماعها.

التوبة ليسوفها^١ إذا هجمت منيته عليه أغفل ما يكون عنها» واستناد إلى أن جملة «أغفل ما يكون عنها» حالية ففهوم العبارة هو أن مثل هذا الإنسان الأسير للشهوات والوساوس الشيطانية يكون في أشد مراحل الغفلة إذا هجم عليه الموت، فان فتح عينه وأفاق إلى نفسه لا يرى أمامه إلا الأجل وقد سبق السيف العذل. كما يحتمل إلا تكون إذا شرطية في العبارة وتفيد المفاجئة والمباغته، فيكون مفهوم العبارة «يباغته الموت، وهو في أشد حالات الغفلة» وبالطبع فإن نتيجة كلا التعبيرين واحدة وهي حلول الموت دون الاستعداد له. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «فيالها حسرة على كل ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة، وأن تؤذيه أيامه إلى الشقوة!». أجل ليس هناك رأس مال أعظم من ساعات عمر الإنسان وأيامه، فلعل ساعة من الساعات تقود الإنسان إلى ذروة الكمال والعظمة والمجد فيخرج الإنسان فيها على غرار الحرير يزيد الرياحي من زمرة الأشقياء ليلتحق بصفوف الصالحين والشهداء. أو يغتنم لحظة فيسدد ضربة موجعة لجسد الكفر بحيث يكون ثوابها أفضل من عبادة الثقلين، (كما صرح بذلك رسول الله ﷺ بشأن ضربة علي عليه السلام يوم الخندق)، أو يبني ليلة على فراش ليكسب تجارة عظيمة الربح والفائدة، كالليلة التي بات فيها أمير المؤمنين علي عليه السلام على فراش رسول الله ﷺ ليلة الهجرة. فلو غفل الإنسان عن قيمة هذه الساعات واللحظات في حياته ولم يستشمرها بما يعادها، أفلا يدعو ذلك إلى الاسئ والحزن، ومن هنا أعرب الإمام عليه السلام عن أسفه وعمق حسرته على مثل هذا الإنسان وأخيراً يختم الإمام عليه السلام خطبته بهذا الدعاء العظيم: «نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره^٢ نعمة ولا تقصر به عن طاعة ربه غاية، ولا تحل به بعد الموت ندامةً ولا كآبةً^٣».

فالإمام عليه السلام يعلم الجميع ثلاثة دروس بهذه العبارات التي أوردتها بصيغة الدعاء: الأول

١. «يسوفها» من «التسويق» بمعنى التأخير في العمل واصل العبارة «سوف أنفل كذا».
 ٢. «تبطر» من مادة «بطر» على وزن نظر بمعنى بقر الشيء ومنه «البيطار» الذي يبقر بطن الحيوان، ثم أطلق على كل طغيان وتجاوز للحد في السرور عند إقبال النعم، ويمكن القول بان البطر السكر والغرور الذي تفرزه النعمة، فالعبارة تعني لاتطغيه ولا تسدل على بصيرته حجاب الغفلة عما هو صائر إليه.
 ٣. «كآبة» على وزن خرابة لها معنى المصدر وإسم المصدر وتعني الامتعاظ والانكسار من الهم والحزن، وقيل تطلق على الامتعاظ من الحزن الظاهر على الوجه.

الحذر من الغرور والسكر عند النعمة، الثاني الحذر من الأهداف المادية التي تصد عن طاعة الله والثالث التحذير من عدم التزود للآخرة والشعور بالندم والخيبة والخسران حين حلول الأجل.

تأملات

١ - فلسفة خفاء الموت

لقد أشارت الخطبة إلى أحد الأسرار المهمة للخلق والذي يكمن في خفاء الموت «فإنَّ أجله مستورٌ عنه»؛ فلا أحد يعلم هل سيبقى حياً إلى ساعة أخرى أم سيموت؟ فهو اليوم مخبر وغدا يخبر عنه، وهو اليوم في مجلس عزاء صاحبه، وغدا صحبه في مجلس العزاء الذي يقام على روحه. ومما لا شك فيه أنَّ عمر الإنسان إذا إتضح لصاحبه جرماً لا يخفى من المفساد؛ الأمر الذي أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام في توحيد مفضل المعروف: تأمل الان يا مفضل ماسترى الإنسان علمه عن مدة حياته فإنه لو عرف مقدار عمره وكان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش مع ترقب الموت وتوقعه لوقت قد عرفه، بل كان يكون بمنزلة من قد فنى ماله أو قارب الفناء فقد استشعر الفقر والوجل من فناء ماله وخوف الفقر، على أن الذي يدخل على الإنسان من فناء العمر أعظم مما يدخل عليه من فناء المال لأنَّ من يقل ماله يأمل أن يستخلف منه فيسكن إلى ذلك، ومن أيقن بفناء العمر إستحكم عليه اليأس وإن كان طويل العمر ثم عرف ذلك وثق بالبقاء وانهمك في اللذات والمعاصي وعمل على أنه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب في آخر عمره، وهذا مذهب لا يرضاه الله من عباده ولا يقبله (ومن هنا حجب الإنسان عن معرفة العمر ليعيش دائماً بين الخوف والرجاء).^١

٢ - الاغترار بالاماني

أشار الإمام عليه السلام في الخطبة إلى الآمال والاغترار بها فقال عليه السلام: «وأملة خادع له». والسؤال

١. بحار الأنوار ٨٣٣ - ٨٤ (ح توحيد مفضل).

الذي يطرح نفسه هنا؛ لماذا وكيف تخدع المال الإنسان فيعيش أفضل ساعات عمره في الوهم والخيال الفارغ؟ ونقول في الجواب أن دائرة الآمال ليست محدودة قط، فالكثير يعتقد أنه سينام مطمئن البال من ناحية السكن على الدوام إذا ما حصل على دار متواضعة، فلا تمر عليه مدة حتى يراها صغيرة ضيقة، فاذا إنتقل إلى دار أوسع رآها هي الأخرى لا تتناسب وشأنه، بل هنالك الكثير من الأفراد الذين يمتلكون القصور ولم تظماً جذوة عطشهم المتقدة دائماً فما زالوا يطمحون إلى قصر أفخم وأعظم. وزبدة الكلام فلو أعطي الإنسان جبلين من ذهب لابتغى لهما ثالثاً. وبالطبع لا تقتصر هذه الآمال على مجال دون آخر، بل هي عامة وشاملة لا تدع صاحبها يستريح ولو لبرهة فتهدر جميع طاقاته وتبدد قواه وتشدها إليه، والحال ليست هذه الآمال سوى خيالات موهومة كاذبة والتي وصفها الإمام عليه السلام بالخادعة.

٣ - تزيين الشيطان

من النقاط المهمة التي أشارت إليها الخطبة تزيين الشيطان للذنوب والمعاصي، وهذا ما نوه إليه القرآن الكريم في الآية الثالثة والاربعين من سورة الانعام بشأن الأمم السابقة: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَبْسَرٍ نَّوْءٍ وَنَجْزِيَنَّهُم أَجْرَهُم بِأَبْسَرٍ نَّوْءٍ وَنَجْزِيَنَّهُم أَجْرَهُم بِأَبْسَرٍ نَّوْءٍ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^١. كما ورد في سورة الحجر على لسان الشيطان حين لعنه الله وطرده من رحمته وتصدى لمعاداة بني آدم وإغوائهم: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَالْأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^٢. ويحصل هذا التزيين الشيطاني الباطل والوسوسة لمقارفة اللذات واضفاء طابع الحلاوة على بعض الخطايا وهنا يبدأ إمتحان الإنسان في كيفية التعامل مع هذه الملذات العابرة التي تنتهي لذتها وتبقى تبعثها. وهنا يبرز هذا السؤال وهو أن بعض الآيات القرآنية نسبت إلى الله تزيين هذه الأعمال، فكيف التوفيق بين هذه الآيات وتلك التي ذكرت سابقاً؟ يتضح الجواب على هذا السؤال من الآية الرابعة من سورة النمل التي قالت: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ». فالآية تشير إلى أن هذا التزيين الإلهي يمثل نوعاً من العقاب لأولئك الأفراد

١. سورة الحجر / ٣٩ - ٤٠.

٢. سورة الحجر / ٣٩ - ٤٠.

المنحرفين المجانين للإيمان، وبعبارة أخرى فإن أعماهم كانت مدعاة لأن يتركهم الله ليقعوا في مخالب الشيطان فلا يوليههم دعمه وإسناده. وبناءً على ذلك فإن الطائفتين من الآيات تشيران إلى حقيقة واحدة، ولعل هذا هو المعنى الذي أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله: «و الشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ، يَزِينُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيُرْكَبَهَا».

٤ - عمر الإنسان حجة عليه

حجبة العمر واحدة من الأمور التي أشارت إليها خطبة الإمام عليه السلام. فكيف يكون عمر الإنسان حجة عليه؟ يبدو أن الله سبحانه وتعالى يلقي الإنسان طيلة عمره مجموعة كافية من العبر والدروس والحوادث التي تثير لديه حس الوعي واليقظة، إلى جانب الوصايا والتعاليم التي يحملها إليه أنبياء الله وأوصيائهم. ومن هنا صرح القرآن الكريم بأن أصحاب النار حين يصطرون إلى الله بأخراجهم من النار ليعملوا صالحاً: «وهم يصطرون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل» يخاطبون: «أَو لَمْ نُعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ»^١.

٥ - سكر النعم

المسألة الأخيرة التي تعرضت لها الخطبة، هي تلك الظاهرة التي تعترى بعض الأفراد الضحليين من جراء وفور النعمة والتي عبرت عنها الخطبة بالبطر؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن في الآية السابعة والأربعين من سورة الانفال: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ» وكما ذكرنا آنفاً فإن المراد بالبطر هنا طغيان الإنسان إثر وفور النعم بما يجعله يهتك حجاب الورع والتقوى وطاعة الحق سبحانه، وهي الحالة التي غالباً ما يعيشها الأفراد من أصحاب النعمة البعيدين عن معاني الإيمان والاعتزان في الشخصية؛ فيعيش حالة من الغرور والسكر بما يجعل من المتعذر عليه السيطرة على نفسه والحد من طغيانها وجماعها.

وهذا ما يؤدي به في خاتمة المطاف إلى الذلة والهوان، ومن هنا جاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «ينبغي للعاقل أن يحتوز من سكر المال وسكر القدرة وسكر العلم وسكر المدح وسكر الشباب» ثم يختم هذا الحديث بقوله: «فإن لكل رياحاً خبيثةً تسلب العقل وتستخف الوقار»^١. نعم سكر هذه الأمور أثقل من سكر الخمرة وأصعب إفاقة منه، فسكر الخمرة قد لا يستغرق أكثر من ليلة، بينما قد يمتد سكر الأمور الآنفة الذكر طيلة عمر الإنسان.





وفيها مباحث لطيفة من العلم الإلهي

نظرة إلى الخطبة

لما كان ذكر الله والتوجه إلى الله بأسمائه وصفاته يلهم الإنسان القوة والصمود ويدعوه إلى ممارسة مسؤوليته في جهاد العدو، فإنّ الإمام ﷺ لا ينفك قبل القتال وخلال من توجيه الأمة نحو الله وصفاته الجلالية والجمالية، ومن ذلك هذه الخطبة التي خطبها الإمام ﷺ على أعتاب قتاله لمعاوية ورهطه من أهل الشام، والتي يذكر فيها صفات الله عامة ولا سيما بشأن العلم والقدرة بهدف تفعيل قوة الأمة وتعبئة طاقاتها في ظل الالتفات إلى هذه الصفات.

١. سند الخطبة: نقل الصدوق (ره) هذه الخطبة مع بعض الاختلاف في كتابه التوحيد وأضاف: أنّ الإمام ﷺ خطبها حين جهز الجيش ثانية لقتال معاوية. ومن بين المحدثين الذين نقلوا هذه الخطبة المرحوم الأمدي في غرر الحكم، وإن عاش بعد السيد الرضي. إلا أنّ اختلاف عباراته مع عبارات السيد الرضي (ره) يفيد أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة ٥٠٢/٥).

القسم الأول

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حَالٌ خَالًا، فَيَكُونُ أَوْلًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِرًا، يَكُونُ ظَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِنًا، كُلُّ مُسَمًّى بِالْوَحْدَةِ غَيْرُهُ قَلِيلٌ، وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرُهُ ذَلِيلٌ، وَكُلُّ قَوِيٍّ غَيْرُهُ ضَعِيفٌ، وَكُلُّ مَالِكٍ غَيْرُهُ مَمْلُوكٌ، وَكُلُّ عَالِمٍ غَيْرُهُ مُتَعَلِّمٌ، وَكُلُّ قَادِرٍ غَيْرُهُ يَقْدِرُ وَيَعْجَزُ، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرُهُ يَصْمُ عَنْ لَطِيفِ الْأَصْوَاتِ، وَيُصِمُّهُ كَبِيرُهَا، وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعْدَ مِنْهَا، وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرُهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ الْأَلْوَانِ وَلَطِيفِ الْأَجْسَامِ، وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرُهُ بَاطِنٌ، وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرُهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ».

8008

الشرح والتفسير

الحمد والثناء

لابد من الالتفات إلى مسألة في بحث الصفات حيث تقود الغفلة عنها إلى الغواية والضلال وهي أن صفات جمال الله وجلاله ليست لها أي شبه بصفات المخلوقات. فن صفاته العلم والقدرة إلا أنها ليست من قبيل علمنا وقدرتنا، إنه سميع وبصير ولكن ليس كسمعنا وبصرنا، وذلك لأن ذاته لامتناهية من جميع الجهات وهي تفوق الجسم والعوارض الجسمانية، ومن هنا تطالعنا الاعاجيب حين نرد بحث الصفات الربوبية، ومن ذلك على سبيل المثال أن الصفات المتضادة في عالم المخلوقات، تكون إلى جانب بعضها البعض الآخر في العالم الربوبي. فالأول في عالم المخلوقات مثلاً ليس آخر، والآخر ليس أول، والظاهر ليس باطن، والباطن ليس ظاهر، بينما تتصف الذات الإلهية المقدسة بأنها ظاهرة وباطنة وأولى وآخره. أضف إلى ذلك فالصفات في عالم المخلوقات تظهر الواحدة بعد الأخرى بالتدرج ثم تتبلور وتتكامل، أما الصفات

الإلهية فلا تعرف المسيرة التدريجية ولا التقدم والتأخر. فقد إستهل ﷺ الخطبة بالإشارة إلى هذا الأمر «الحمد لله الذي لم تسبق له حالٌ حالاً، فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً» ومن هنا فليس هنا لك من وجود قبله ولا بعده، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ»^١ كما قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كَلَّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ»^٢. فالحق أن الوجود الأزلي والأبدي ليس له من أول ولا آخر، ولا يعني نعته بالأول والآخر سوى أن جميع المخلوقات متوقفة في وجودها عليه سواء في بداية ظهورها أو في إستمرار حياتها. أمّا وصفه بالظاهر والباطن فيعني أن أصل وجوده وصفاته أظهر من كل شيء، وذلك لأن الأدلة على وجوده وصفاته تصل إلى عدد النجوم والكواكب والكائنات الحية وأوراق الأشجار وحصى الصحاري، بل بعدد ذرات العالم التي يعجز عن علمها وتصورها أحد غيره؛ ولكن لما كانت الذات الإلهية لامتناهية ولا يسع أحد تصورها كما هي: «لاستحالة احاطة المحدود باللامحدود» فإن هذه الذات خفية على جميع الناس بما فيهم الأنبياء والأوصياء والأولياء، وحيث إن الناس يتعرفون بادي ذي بدء على آثاره في دائرة الوجود ثم يلتفتون إلى ذاته المقدسة فإنه يمكن القول: إنه ظاهر قبل أن يكون باطن، وحسب تعبير بعض الفلاسفة المسلمين: «خفاؤه لشدة ظهوره»، أوليست الشمس التي تمثل إحدى مخلوقاته خفية لشدة ظهورها؟ وهل من السهل على الإنسان النظر إلى قرص الشمس. ثم إنتقل الإمام ﷺ إلى المقارنة بين عشر من صفات الكمال والجمال مع شبيهاها لدى المخلوقات ليثبت عمق الفارق بينها وأن حقيقة الكمال مقتصرة على ذاته، وكل ما سواه رصيده العيب والنقص فقال ﷺ: «كل مسمى بالوحدة غير قليل» فالعبارة إشارة إلى نقطة مهمة وظريفة في باب توحيد الصفات والذات، لأن وحدته تفيد كون ذاته وصفاته لامتناهية، وتعني عدم وجود الند والشبيه، أمّا الوحدة في المخلوقات فهي وحدة عددية وتطلق في مقابل الكثرة، وبالطبع فإن هذه الوحدة تفيد القلة، بينما تشير وحدته إلى عظم وجوده الذي يتجاوز حدود الزمان والمكان وفي نفس الوقت هو في كل زمان ومكان، وهذا ما

١. سورة الحديد / ٣.

٢. سورة القصص / ٨٨.

أشارت إليه الخطبة من أن أوصافه غير أوصاف مخلوقاته، فإذا كانت الوحدة بالنسبة للمخلوقات تفيد القلة، فهي تفيد الكثرة والعظمة بالنسبة لله. فقد جاء في توحيد الصدوق: إن إعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين أتقول إن الله واحد؟ قال فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام دعوه فإن الذي يريد الأعرابي هو الذي نريده من القوم، ثم قال: يا أعرابي إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام، فوجهان منها لا يجوز أن على الله عز وجل، ووجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوز أن عليه فقول القائل: واحد يقصد به باب الاعداد فهذا ما لا يجوز، لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد أما ترى أنه كفر من قال ثالث ثلاثة، وقول القائل هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز لأنه تشبيهه وجلّ ربنا وتعالى عن ذلك وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه كذلك ربنا،^١ وقول القائل: إنه عز وجل أحدي المعنى يعني به أنه لا يتقسم في وجود ولا عقل ولا وهم كذلك ربنا عز وجل ثم قال عليه السلام في بيان الصفة الثانية: «وكل عزيز غيره ذليل» فالعزة سواء كانت بمعنى القدرة القاهرة أو الحرمة والعظمة فهي لا تليق سوى بذاته المقدسة، ولأن غيره من الملوك وإن كان عزيزاً فهو ذليل في قبضة قوانين عالم الخلق والقضاء والقدر، أضف إلى ذلك فالجميع محتاج إلى الذات الإلهية، كما أن عزته ذاتية وعزة من سواه عرضية متوقفة على تلك الذات، ومن هنا فليس لأحد من الموجودات إمكانية الوقوف أمام هذه العزة، ولكل عزته بمقدار قربه من تلك العزة المطلقة؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم بالقول: «أَيَّبَتُّغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً»^٢، والآية العاشرة من سورة فاطر: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً». ثم قال في الصفة الثالثة: «وكل قوي غيره ضعيف» لأن القوة في عالم المخلوقات نسبية؛ فكل كائن قوي إذا ما قورن بمن دونه وضعيف بالنسبة لمن فوقه، وهكذا الأمر حتى تنتهي إلى الذات المقدسة، فهناك القوة اللامتناهية التي

١. توحيد الصدوق، بحسب ما نقله عن بحار الأنوار ٢٠٦٣، ح ١.
ومن أجل التوضيح أكثر حول حقيقة التوحيد، ووحداية الله سبحانه وتعالى، يرجى مراجعة كتاب «نفحات القرآن ٢٦٠/٣ وما بعد».
٢. سورة النساء / ١٣٩.

لا يتصور قوة أعظم منها لتقارن بها. ومن هنا فإن أقوى الأفراد قد يهزم أمام أضعف مخلوقات من قبيل الذبابة أو النملة أو حتى المكروب الذي تصعب مشاهدته بالعين المجردة بحيث يمرض الإنسان بمرض يعيي الأطباء عن علاجه، وعليه فوصف ما سوى الله بالقوة إنما هو وصف مجازي والقوي بالمعنى الحقيقي هو الله. وهذا ما أكدته الآية ١٦٥ من سورة البقرة: «أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» وقال في الصفة الرابعة: «وكل مالك غيره مملوك» لأن الملكية الحقيقية تتبع من الخلق؛ فالمالك الحقيقي من خلق كافة الكائنات التي لا تحتاج إليه في بداية خلقها فحسب، بل تحتاج إليه في بقائها واستمرار حياتها. ومن هنا فإن ملكية غير الله اعتبارية ومجازية، وبعبارة أخرى: إذا ملكنا شيئاً فإن الله هو الذي ملكناه، وإلا فلا يملك أحد حتى النبي الأكرم ﷺ شيئاً، ومن هنا قال: «لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرَأً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ»^١. كما صرحت الآية ٦، من سورة آل عمران: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وقال في الصفة الخامسة «وكل عالم غيره متعلم» لأن علمه سبحانه ذاتي وهو الذي يفيض العلوم على النفوس، وعليه فلم يسبق بجهل ليعلم وليس لعمله من حدود، بل علمه عين ذاته لا متناهي؛ بينما لكل ما سواه علم مبسوق بجهل. فلم يكن للإنسان علم حين لم يكن موجوداً، فلم وجد أودع الله فطرته بعض العلوم، كما حصل على بعض العلوم أيضاً عن طريق الحس والتجربة، كما تعلم على يد الآخرين، والأنواع الثلاثة تشكل نوعاً من أنواع التعلم، وعليه فجميع العلماء - سوى الله - متعلمون، والذات الإلهية فقط الموصوفة بالعلم الأزلي اللامتناهي. القرآن الكريم من جنبه قال: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»^٢ وقال في الصفة السادسة: «وكل قادر غيره يقدر ويعجز» ودليل ذلك عدم تناهي ذاته ومحدودية ماسواه، فلما كانت قدرته عين ذاته فهي مطلقة لامتناهية، أمّا غيره فقدورته محدودة مهما كان، وعليه فهو يقدر على بعض الأشياء ويعجز من غيرها، بل قد يقوى على القيام بأمر في ظروف ويعجز عن

١. سورة الاعراف / ١٨٨.

٢. سورة النحل / ٧٨.

القيام به في أخرى. ومن هنا نقف على زيف المغالطة التي تتساءل إذا كانت قدرة الله مطلقة إلى هذا الحد فهل يسعه أن يحصر هذا العالم في بيضة دون أن يصغر شيء من العالم أو تكبر البيضة. فالسؤال خاطئ، لأن مفهومه هل يستطيع الله أن يكبر الدنيا وتكون البيضة بهذا الحجم ويكبرها لتسع الدنيا، بعبارة أخرى كأن السؤال هل أن الله قادر على أن يصغر الدنيا ولا يصغرها في نفس الوقت ويجعل البيضة بقدر الدنيا وفي نفس الوقت لا يجعلها كذلك؟ ومن الطبيعي ألا يكون هناك جواباً للسؤال الخاطئ. ويبدو أن مثل هذا السؤال قد طرح على أمير المؤمنين عليه السلام: «هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة؟ فقال عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز والذي ذكرت لا يكون»^١ وزبدة الكلام فإن قدرة الله ذاتية وغير محدودة وأزلية وأبدية، وكل ما غيره منه، وليس له من قدرة سوى ما يفيضها عليه.

وقال في الصفة السابعة: «وكل سميع غيره، يصم عن لطيف الأصوات ويصم كبرها، ويذهب عنه ما بعد منها» فالسمع لدى الإنسان إنما يحصل عن طريق انتقال الأمواج والذبذبات بواسطة الاذن الخارجية والداخلية والسيوان وطبلة الاذن وسائر أعضائها، ولما كانت هذه الأعضاء محدودة، فإن سمعه هو الآخر محدود لا يسعه التقاط كافة الأصوات، وكما صرح بعض العلماء من ذوي الاختصاص بان الاذن لا يسعها سماع سوى الاصوات التي تتراوح أطوالها الموجية بي ستة عشر إلى عشرين ألف ذبذبة في الثانية، أي لا يسع الإنسان إدراك ما قل عن ست عشرة ذبذبة في الثانية، كما لا يسعه إدراك ما تجاوز العشرين ألف ذبذبة في الثانية. طبعاً هذه الذبذبات ليست واحدة لدى جميع الكائنات، فهناك بعض الحيوانات التي لها سمع يفوق نيره لدى الإنسان، فهي تسمع حتى الأصوات ذات الأطوال الموجية الأقصر، مع ذلك لا يسعها سماع جميع الأصوات. أضف إلى ما تقدم فإن الأطوال الموجية إذا بلغت حداً فاتها قد تشق غشاء الاذن وتقضي على حس السمع لديه،

١. بحار الانوار، ١٤٣/٤ ح ١٠، وورد مثل هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام في الكافي، ٧٩/١ ح ٤، كما جاء في بحار الانوار أن الشيطان سأل المسيح عيسى عليه السلام هذا الجواب فأجاب به هذا السؤال (بحار الانوار، ٢٧١/١٤ ح ٣).

ومن هنا نرى بعض العسكريين يضعون أصابعهم في آذانهم ويبتعدون عن الأماكن التي يفجرون فيها الأسلحة حذراً على سماعهم. وأخيراً فإن سمع الإنسان يضعف كلما إبتعد عن مصدر الصوت مهما كان عظيماً، ومن هنا يوصف السمع بالعجز، فالواقع هنالك ما لا يحصى من الاصوات التي تحيط بنا إلا أننا نعجز عن سماعها. أما سمع الحق سبحانه فلا يحتاج إلى واسطة ووسيلة، وسمعه جزء من علمه، أي أنه عليم بجميع الأصوات، فلا يحجزه سمع صوت عن آخر، ولا يؤذيه صوت ولا يبتعد عنه آخر، وكلها لديه على السواء: «قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»^١. وقال في الصفة الثامنة: «وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرُهُ يَعْمَى عَنِ خَفَى الْأَلْوَانِ وَلَطِيفِ الْأَجْسَامِ» فالباصرة لدى الإنسان وسائر الكائنات تحصل بواسطة العين التي تتشكل من عدة طبقات لكل منها وظيفة خاصة من قبيل الشبكية والقزحية والبؤبؤ التي تتعاضد جميعاً لرؤية الصور في الخارج، مع ذلك فهناك أنواع من الأشعة التي يتعذر على العين رؤيتها، ناهيك عن إنعدام الرؤية لديها في الظلام، في حين لا يخفى على الله شيء وهو محيط بجميع الأشياء «أَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»^٢ فالسمع والبصر الحقيقي إنما يختص بالذات الإلهية المقدسة وقال في الصفتين الأخيرتين: «وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرُهُ بَاطِنٌ، وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرُهُ ظَاهِرٌ» وهذه الصفات تستند في الواقع إلى ذاته اللامتناهية ومحدودية ذوات ما سواه، فلما كانت ذاته القدسية لامتناهية فإن آثاره شملت جميع عالم الوجود وساد ظهوره المطلق كل زمان ومكان، أما سائر الكائنات فهما كان لها من ظهور فهو محدود، ومن هنا يمكن القول بأنها توصف بالظهور والخفاء، فهناك الكواكب والمجرات التي تفوق بحجمها الشمس وتفوقها نوراً وضوءاً، إلا أننا لانرى لها أي أثر، والعكس صحيح فإذا تجاوزنا قليلاً دائرة المنظومة الشمسية لبدت لنا الشمس باهتة حتى تنعدم بالمرّة إضافة إلى ذلك، فإن كل هناك من ظهور لشيء - مهما كان نسبياً ومحدوداً - فإن ذلك ببركة وجود الله، وإلا فجميع الممكنات مظلمة وقاتمة في ذاتها، ونور الله هو الذي يمنحها هذا الظهور، هو بالضبط كذرات الغبار المعلقة في الهواء المعدومة الرؤية إلا أنها تبدو للعيان وتظهر إذا ما

١. سورة الأنبياء / ٤.

٢. سورة الشورى / ١١.

إخترقت أشعة الشمس ادنى ثقب في الغرفة. أمّا ما قاله الإمام عليه السلام: «وكل باطن غيره غير ظاهر» إشارة إلى هذه الحقيقة وهي أنّ الذات الإلهية الخافية على جميع الكائنات بما فيها الأنبياء والأولياء والخارجة حتى عن حدود العقل، إلّا أنّ آثارها قد سادت جميع الوجود بما جعلها ظاهرة، بينما تفتقر سائر الوجودات للظهور إذا كانت خافية باطنة، ولو كانت ظاهرة لما كانت باطنة، فالإنسان مثلاً ليس عارياً إذا كان مستوراً، كما أنّ العاري ليس مستوراً، والذات الإلهية فقط المستورة في عريها والعارية في سترها.^١ وقد قال القرآن الكريم في الآية الثالثة من سورة الحديد «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ».



١. لقد وردت العبارة المذكورة في أغلب نسخ نهج البلاغة بهذه الصورة «وكل ظاهر غيره غير باطن وكل باطن غيره غير ظاهر» وذهب أغلب شراح نهج البلاغة إلى وجوب إشتغال العبارة على «غير» في العبارة «...غير باطن...غير ظاهر» أو حذفها، حتى زعم البعض خطأ نسخة صبحي الصالح التي لم تتضمن غير في العبارة الأولى، بينما وردت في العبارة الثانية، وبالطبع فإن هذا ما يقتضيه سياق العبارة، ولكن وما ورد سابقاً لا يمكن الزعم بأن هذه النسخة خاطئة، ويمكن توجيه العبارة بما أوردناه من تفسير.

القسم الثاني

«لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلَا تَخَوْفٍ مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ، وَلَا اسْتِعَانَةٍ عَلَى نِدِّ مَثَاوِرٍ، وَلَا شَرِيكِ مُكَائِرٍ، وَلَا ضِدِّ مُنَافِرٍ، وَلَكِنْ خَلَائِقُ مَرْبُوبُونَ، وَعِبَادٌ دَاخِرُونَ، لَمْ يَحُلْ فِي الْأَشْيَاءِ فَيُقَالُ: هُوَ كَائِنٌ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا فَيُقَالُ: هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ، لَمْ يُوَدَّ خَلْقُ مَا ابْتَدَأَ، وَلَا تَدْبِيرُ مَا ذَرَأَ وَلَا وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ، وَلَا وَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِيمَا قَضَى وَقَدَّرَ، بَلْ قَضَاءٌ مُتَقَنَّ، عِلْمٌ مُحْكَمٌ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ، الْمَأْمُولُ مَعَ النِّقْمِ الْمَرْهُوبُ مَعَ النِّعَمِ».

٤٥٧٨

الشرح والتفسير

تجليات جلال الله وجماله

يواصل الإمام عليه السلام حديثه عن الصفات الإلهية ذات الأثر التربوي في حياة الإنسان فقال عليه السلام «لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان، ولا تخوف من عواقب زمان، ولا استعانة على نديا ماثور،^٢ ولا شريك مكائر،^٣ ولا ضد منافر^٤»، إننا غالباً ما نرتكب بعض الأخطاء بحق صفات الجلال والكمال من جراء مقارنة الأشياء بوجودنا وصفاتنا وأفعالنا، فنعتقد مثلاً بأن أفعال الله على غرار أفعالنا تهدف النفع وقضاء الحاجة، والحال أن وجوده مطلق

١. «ند» على وزن ضد بكسر النون النظير والمثيل ولا يكون إلا مخالفاً، ومن هنا فسر «بالضد» أحياناً.
٢. «مثارور» من مادة «ثور» جاءت بمعنى الحركة والانبعاث والاثارة، ومن هنا فان «إثارة» تعني تفرق الشيء، و«مثارورة» تأتي بمعنى وثوب شخصين ليقف أحدهما في وجه الآخر، ويقال أيضاً لكل ضدين، ومن هنا يأتي معناها بمعنى المحاربة.
٣. «مكائر» من مادة «كثرة» بمعنى الزيادة، ويطلق على الشخص الذي لديه رغبة في الزيادة، والذي يتفاخر بالمال والسلطة والجاه بالمكائر.
٤. «منافر» من مادة «النفرة» بمعنى الابتعاد والامتناع من الشيء.

غني من جميع الجهات ومن هنا كان جامعاً لجميع الكمالات وليس للنقص والحاجة من سبيل إلى ذاته المقدسة. وبناءً على ما تقدم فإن أفعاله ليست من قبيل أفعالنا، ولما كان الله فاعلاً حكيمًا، فإن أفعاله منزهة من العبث ولا بد من تحري أهداف أفعاله خارج وجوده وبالنظر إلى عبادته. والوصف الذي تضمنته العبارة قد أشار إلى هذا الأمر، حيث ينفي عن أفعال الحق سبحانه كافة الأهداف التي تستبطن رفع الحاجة والنقص. فهدفنا من أغلب أفعالنا هو مضاعفة قدراتنا واستزادة قوتنا، وأحياناً هدفنا التحسب لبعض المساوئ والعقبات التي قد تلوح في آفاق مستقبلنا، وقد يكون اللهم بالغلبة على من يمشدون ضعفاً أو يهبون لمواجهتنا من نظرائنا، وقد يكن الوقوف بوجه من ينافسنا من الأفراد الذين يعيشون من حولنا، وأخيراً فقد نهدف إلى إزالة بعض العقبات التي تعترض طريقنا، ومن هنا فإن كافة أفعالنا إنما تفرزها طبيعة مثل هذه الأهداف. أما الوصف الذي أورده الإمام عليه السلام بشأن الله سبحانه إنما يشير إلى أن أفعاله لا تستند لأي من هذه الأهداف. فليس هنالك من ضعف في قدرة الله ولا يخشى من أحداث المستقبل، وليس له من شبيهه أو نظير يسعه منافسته، وليس له من يطمع فيه من شريك وأخيراً ليس هنالك من موانع أو عقبات تعترض طريقه، وليس لهذه الأمور من سبيل إلى ذاته، بل وجودنا الناقص بالذات إنما يصاب بهذه الأمور. وهنا يبرز هذا السؤال وهو إذا كانت جميع هذه الأمور منتفية على الله سبحانه، فما هدفه من الخلقة؟ ورد الرد على هذا السؤال في العبارة اللاحقة من الخطبة «ولكن خلأق مربوبون، وعباد داخرون»^١ نعم فليس هدف الله من الخلق تحقيق نفع، بل هدفه الجود على العباد؛ الأمر الذي أكده التعبير «مربوبون» في العبارة الذي يعطي معنى التربية والتكامل، كما أشير إلى المعنى المذكور أيضاً بقوله «عباد داخرون»، وذلك لأن تكامل الإنسان إنما يمر عبر عبوديته. وبناءً على هذا فإن العباد والمخلوقات ليست شبيهة ومضادة لله فقط، بل هي تستفيض من رحمة الله ولطفه وفضله. ثم قال عليه السلام: «لم يحلل في الأشياء فيقال: هو كائن،^٢ ولم ينأ عنها فيقال: هو منها

١. «داخرون» من مادة «دخور» على وزن حضور بمعنى الذلة والصغر، تستعمل في الأمور السلبية كما تستعمل في الأمور الإيجابية حينما يوصف عباد الله بصفة «داخرون» فيعني ذلك التسليم والتواضع أمام الحق.
٢. في الكثير من نسخ نهج البلاغة التي تعرض لشرحها الشارحون جاءت هذه الجملة والتي وردت أعلاه

بائن»، وبالنظر إلى أنّ الذات الالهية منزّهة عن المكان والزمان فان هذين الوصفين يعدان من النتائج الحتمية. فليس هنالك من موضع يحتاج إليه ويحل فيه من تنزهت ذاته وفاقت الزمان والمكان، ومن هنا يتعذر تصور البعد والقرب عليه سبحانه، فكل هذه الأمور إنما تصدق على الأشياء المحدودة، فاذا حلت في مكان قربت من شيء وبعدت عن آخر، أما الذات الإلهية المقدسة فهي مطلقة لامتناهية حاضرة في كل مكان وهي قريبة من كل شيء ولا يحويها مكان؛ الأمر الذي ورد في القرآن: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^٤ وجاء فيه أيضاً ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^٥ وكذلك ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^٦. ومن الواضح أن هذه الصفات الكمالية أثرها البالغ في تربية الإنسان، حيث يرى الله سبحانه معه أينما كان فيتخرج من مقارفة الذنب والمجاهرة بالمعصية. ثم قال ﷺ: «لم يؤده خلق ما ابتداء، ولا تدبير ما ذرا، ولا وقف به عجز عما خلق»، فقد أشارت العبارة إلى بعض الأمور المهمة التي تعود جميعاً إلى قدرته الازلية. الأول أن الخلق الأول الذي يتطلب قدرة أكثر لم يشق عليه سبحانه (لم يؤده من مادة أود على وزن عود بالفتح يعني الثقل)، والآخر أن ربوبية الخلق وتدبير شؤونه لم يخلق له أية صعوبة أو مشكلة، وأخيراً أن قدرته لم تنفد من جراء خلقه لكل هذا الخلق، بل له أن يخلق ما لا نهاية من العوالم بقوله: «كن» ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^٧. ويمكن أن يكون للعبارة الأخيرة معنى آخر وهو أن خلق هذه المخلوقات لم يعجزه عن إدارتها؛ وتكون العبارة في هذه الحالة تأكيد لما ورد في العبارة السابقة. وهذه الصفات هي الأخرى نابعة من ذاته اللامتناهية؛ لأن العجز والتعب والثقل إنما يصدق على الذات المحدودة القدرة التي تسعى للقيام بما يفوق

٤. بهذه الصورة «فيقال: هو فيها كائن» ولا ريب في أن مفهوم هذه الجملة التي جاءت في هذه النسخة هي أوضح، وفي النسخة التي دون النص منها، فإن كلمة «فيها» جاءت مُقدّرة.
٥. «ينأ» من مادة «نأى» على وزن رأى بمعنى ابتعد، والبعض فسرها بمعنى الابتعاد عن الشيء والاتجاه إلى نقطة بعيدة.

٤. سورة الحديد / ٤.

٥. سورة ق / ١٦.

٦. سورة البقرة / ١١٥.

٧. سورة يس / ٨٢.

قدرتها؛ وليس هنالك من مفهوم للصغير والكبير والثقيل والخفيف والسهل والصعب على الذات اللامتناهية القدرة - ثم قال ﷺ: «ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدر، بل قضاء متقن، وعلم محكم، وأمر مبرم» فالإنسان وبعلمه المحدود قد يتخذ قرارا مهما وحاسما إلا أن تكشف بعض الحقائق قد تشبه عن ذلك القرار، كما يقف أحيانا على عمق خطأه فلا يواصل الطريق الذي ابتدأه. أما من كان علمه أزلي ولا يخفى عليه شيء في عالم الوجود ولا تتكشف له حقائق جديدة، وله إحاطة تامة وكل زمان ومكان حاضر عنده، فليس من سبيل للشبهة والشك إلى تدبيره وعزمه وتقديره. ونقول مرة أخرى أن هذه الصفة تستند إلى كون الذات والصفات الإلهية لامتناهية. ثم يحتتم الإمام ﷺ الخطبة بالقول: «المأمول مع النعم، المرهوب مع النعم» وهذا ما أشار إليه القرآن مرارا وكرارا ومن ذلك قوله: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^١ وقوله «أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ»^٢. نعم فإن المشاكل مهما بدت معقدة أمكن حلها بلطف الله وفضله، والنعم مهما كانت واسعة شاملة فإن قبضها ليس صعب على الإرادة الإلهية. وعليه فلا يمكن اليأس عند البلاء والشدة، ولا الغفلة عند الرفاه والنعمة ومن هنا فإن المؤمن يعيش الخوف والرجاء على الدوام في حياته. والصفات الأخيرتان تستندان أيضاً إلى الذات والصفات اللامتناهية، فلما كانت قدرته لامتناهية فإن حل الصعاب سهل يسير عليه سبحانه كما يسهل عليه سلب النعم ممن يكفرها. فأدنى زلزال يمكنه أن يقضي على منطقة برمتها، كما أن مرضاً خطيراً يمكنه أن يودي بحياة الآلاف بل الملايين من الأفراد، أو أن برودة أو حرارة يمكنها أن تميمت الآلاف الأشخاص.



نقطة مهمة

الآثار التربوية لمعرفة الله

مما لا ريب فيه ان معرفة الله سبحانه وتعالى، والاحاطة باسمائه وصفاته، لها أهمية كبيرة،

١. سورة الانشراح / ٥-٦.

٢. سورة الاعراف / ٩٧-٩٨.

وكل أحد يجب أن يستفيد أتم الفائدة من هذه المعرفة، وبتعبير آخر «إن نفس المعرفة تمثل الطريق إلى التكامل والقرب من الله سبحانه وتعالى»، ولكن، وفي هذه الحالة يجب أن لا ننسى بأن الاهتمام بصفات الجمال والكمال لها تأثير مهم في تربية النفوس الانسانية والاتجاه إلى الكمال المطلق، وتسوق الانسان إلى مرحلة الوصول إلى المثل، ولو كان بدرجات متدنية جداً.

وبعبارة أوضح: عندما نقول بان الله عالم وقادر ومهيمن ونحده لقدرته ونثني عليه لهيمنة وملكوته، فكيف نرتضي لانفسنا ان نعيش في جهل مطلق وضعف وعدم مقدرة كاملة؟ ان حمدنا وتقديرنا لله من شأنه أن يزيد في عزتنا وكمالنا واقتدارنا، ويدعونا إلى الرفعة والمنزلة العالية، وهذا كله في باب «صفات الذات».

أما عن «صفات الافعال»، فعندما نحمد الله لرحمانيته ورحيميته، ونقول «رَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ»، بل لقول: ان رحمته الخاصة بالرغم من كونها تختص بعباده من أهل التقوى والايان، الا أن رحمته العامه، تشمل العدو والصديق وان مائدة رحمته ونعمته اللامتناهية وسعت كل شيء.

فكيف يمكننا ان نستفيد من هذه الصفة الرفيعة والسامية، لكننا لا نرحم صديقنا ولا عدونا، بل ان قلوبنا في بعض الاحيان خالية من أي نوع من الرحمة؟ ومن هنا فان الاهتمام بكافة الصفات الكمالية، سواء صفات الذات أو صفات الافعال، وهي «الجود والسخاء والمغفرة والعزة والعفو والاحسان، وامثالها» والتي بإمكانها ان تكون شعاعاً ينعكس في وجودنا فيجذبنا اليه.



في تعليم الحرب والمقاتلة
والمشهور أنه قاله لأصحابه ليلة الهرير،^٢ أو أول اللقاء بصفين

نظرة إلى الخطبة

بين الإمام عليه السلام في هذه الخطبة أساليب الحرب وفنون القتال بعبارات جزلة واضحة إلى جانب التأكيد على القيم الروحية والمثل المعنوية التي تشكل الدافع للقتال وتسوق المقاتل إلى التضحية في سبيل الله، كما أشار ضمناً إلى أحداث معركة صفين والوظائف التي ينبغي أن يمارسها المؤمنون في تلك الواقعة وقد اختلفت أقوال الشراح بشأن زمان الخطبة، فذهب ابن أبي الحديد إلى أن الإمام عليه السلام خطبها - حسب أغلب الروايات - ليلة الهرير، بينما ذكر نصر بن مزاحم أنه خطبها أول صفين في شهر صفر عام ٣٧ هـ وروى مؤلف كتاب مصادر نهج البلاغة عن الطبري صاحب كتاب بشارة المصطفى - من علماء القرن السادس للهجرة - أن ابن عباس قال: عقم النساء أن يأتين بمثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ما كشفت النساء ذيوهن

١. سند الخطبة: رواها جمع كثير من المؤرخين والمحدثين قبل السيد الرضي وبعده ومنهم نصر بن مزاحم في كتاب صفين والحفاظ في البيان والتبيين وقرات بن ابراهيم الذي عاش على عهد الإمام الرضا عليه السلام في تفسيره المعروف والمسعودي في مروج الذهب (مصادر نهج البلاغة ٥٢/٢).

٢. «ليلة الهرير»: والمقصود به نجاح وعواء الكلاب ليلاً من شدة البرد. و«هرير»: وتعني في الأصل صوت الكلب المنخفض، وهو دون النباح، والذي يطلقه من قلة صبره على البرد. وليلة الهرير هنا، هي الليلة المعروفة، من ليالي حرب صفين المملوءة بالحوادث، حيث استمرت فيها الحرب من النهار إلى طوال الليل، وكانت ليلة قارصة البرد مملوءة بالخوف والمخاطر، حيث هلك في هذه الليلة عدد كبير من جيش معاوية على يد أبطال جيش الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

عن مثله، لا والله ما رأيت فارساً يوزن به لرأيته يوماً ونحن معه بصفين، وعلى رأسه عمامة سوداء، وكان عينيه سراجاً سليطاً. تتوقدان من تحتها، يقف على شردمة شردمة يخطبهم، حتى إنتهى إلى نفرأنا فيهم، وطلعت خيل لمعاوية تدعى بالكتيبة الشهباء، عشرة الاف دارع على عشرة آلاف أشهب، فاقشعرها الناس لما رأوها، وانحاز بعضهم إلى بعض، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: فيما الخنع والنخع - يا أهل العراق - هل هي إلا أشخاص مائلة فيها قلوب طائرة لو مستها سيوف أهل الحق لرأيتموها كجراد بقية سفته الريح في يوم عاصف، ألا فاستعشروا الخشية، وتجليبوا السكينة، ادرعوا الصبر، وغضوا الأصوات، وقلقلوا الأسياف في الأغماد قبل السلة....^١



القسم الأول

«مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ، وَتَجَلَّبَبُوا السَّكِينَةَ، وَعَضُّوا عَلَى النَّوَاجِدِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ. وَأَكْمَلُوا اللَّأَمَةَ، وَقَلَقُوا السُّيُوفَ فِي أَعْمَادِهَا قَبْلَ سَلِّهَا، وَالْحَظُّوا الْخَزْرَ، وَأَطَعْنُوا الشَّرْرَ، وَنَافِحُوا بِالظُّبَى، وَصَلُّوا السُّيُوفَ بِالْخَطَأِ».

٤٠٠٣

الشرح والتفسير

طائفة من الفنون القتالية

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى تسعة من أساليب وفنون القتال العملية في ساحة المعركة فقال عليه السلام: «معاشر المسلمين استشعروا الخشية، وتجلببوا السكينة» استشعروا من مادة شعار من الثياب ما يكون دون الدثار وهو يلي الجلد، أي اجعلوا الخوف من الله تعالى شعاركم، وتجلببوا من مادة جلباب الثوب المشتمل على البدن وعادة ما يطلق على الثوب الذي تستر به المرأة رأسها وعنقها وبعض صدرها وظهرها، وهو أطول من الخمار وأقصر من الرداء. فالأمر الأول الذي يؤكد الإمام عليه السلام وجوب اختلاطه بروح المقاتل وقلبه هو خوف الله وخشيته والشعور بالمسؤولية تجاه أوامر الله في طاعتها وإمتثالها، ولعل هذا أهم الدوافع التي ينبغي أن يتحلى به المقاتل المؤمن فيمنحه الثبات والصمود تجاه العدو. الأمر الثاني الذي أكده الإمام عليه السلام هو أن يتحلى المقاتل بالسكينة والحلم والوقار، وذلك لأن أدنى اضطراب في ميدان القتال أمام العدو إنما يكشف عن الضعف والعجز، وهذا ما يجعل العدو في مطمع من إقتحام الميدان واللجوء إلى الهجوم. والواقع أن الأفراد الأقوياء والشجعان يتصفون دائما بالتماسك وضبط النفس، بينما يعيش الضعفاء والجنباء حالة من الاضطراب والقلق على الدوام. وقد قال

القرآن الكريم بشأن السكينة وأهميتها: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا»^١ وهذه السكينة كانت هي العامل الذي وقف وراء إنتصار المسلمين في كافة الغزوات التي خاضوها ضد معسكر الكفر والشرك، وهي التي شددت أزر النبي ﷺ أثناء تلك الشدائد كدخوله ﷺ إلى غار جبل ثور وكان العدو يقف على باب الغار بحثاً عنه. ثم قال ﷺ: «وَعَضُوا عَلَى النَّوَاجِذِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى^٢ لِلسَّيُوفِ عَنِ الْهَامِ^٣» قوله ﷺ «عَضُوا عَلَى النَّوَاجِذِ» جمع ناجذ وهو أقصى الاضراس، وللإنسان أربعة نواجذ في كل شق، ويسمى الناجذ ضرس الحلم، لأنه ينبت بعد لبلوغ وكمال العقل، ويقال إن العاض على نواجذه ينبو السيف عن هامته نبوأمأ، وهذا مما يساعد التعليل الطبيعي عليه، وذلك أنه إذا عض على نواجذه تصلبت الأعصاب والعضلات المتصلة بدماعه، وزال عنها الاسترخاء، فكانت على مقاومة السيف أقدر، وكان تأثير السيف فيها أقل وصرح بعض شراح البلاغة قائلاً: هذا كلام ليس على حقيقته، بل هو كناية عن الأمر بتسكين القلب وترك اضطرابه واستيلاء الرعدة عليه. ثم قال ﷺ: «وَأَكْمَلُوا اللَّامَةَ»^٤، اللأمة بالهمزة الدرع، وإكمالها أن يزداد عليها البيضة والسواعد ونحوها، ويجوز أن يعبر باللأمة عن جميع أداة الحرب، كالدرع والرمح والسيف، وأراد الإمام ﷺ بهذه العبارة: أكمل السلاح الذي تحاربون العدو به. ثم قال ﷺ: «وَقَلَقُوا^٥ السَّيُوفَ فِي أَعْمَادِهَا^٦ قَبْلَ سَلْتِهَا» فالعبارة تنطوي على أهمية قصوى وان بدت صغيرة للوهلة الاولى، وذلك لتلا يدوم

١. سورة الفتح / ٤.

٢. «أنبي» من مادة «نبو» على وزن نبض بمعنى ارتفاع شيء عن شيء آخر والابتعاد عنه، وبهذا الدليل يستعمل هذا الاصطلاح عندما تعجز السيوف عن أداء دورها، حيث تتعد السيوف عن تحقيق الهدف.

٣. «الهام» جمع «الهامة» بمعنى مطلق الرأس وهو كائن ذاروح، وأحياناً يستفاد من هذا الاصطلاح بشكل مطلق.

٤. «الأمّة» على وزن رحمة، وهي في الأصل بمعنى الاجتماع والاتفاق، ومن هنا، فعندما يلتحم الجرح ويشفى، فيقال له «التيام» و«الأمّة» تأتي بمعنى الدرع، ولعل تسميتها بهذا الاسم جاء من قرب حلقاتها واجتماعها وارتباطها، وأحياناً يطلق هذا الاصطلاح على أي سلاح.

٥. «قلقوا» السيوف من مادة «قلقلة» على وزن مرحمة بمعنى حركوا السيوف.

٦. «أعماد» جمع «عمد» على وزن رند بمعنى بيت السيف، ومن هنا تطلق على بعض النباتات التي تختفي أشواكها في حواف أوراقها.

مكثها في الاجفان فيصعب سلها وقت الحاجة إليها، الأمر الذي قد يؤدي إلى بعض الأخطار التي لا يمكن معالجتها في ساحة الحرب. ثم قال ﷺ: «و الحظوا الخزر، واطعنوا الشزر»، الخزر أن ينظر الإنسان بعينه، وكأنه ينظر بمؤخرها وهي أمانة الغضب، كما تستعمل أحياناً حين عدم الإكترات، وقائدة مثل هذا الأسلوب في ميدان القتال أولاً: إشعال وتأجيج نيران الغضب في الباطن بحيث تشد كافة القوى الداخلية وتتضاعف طاقة الإنسان وقدرته، والآخر أن النظر بكامل العين يدل على الخوف والوهن والعجز، الأمر الذي يجعل العدو أكثر جرأة وجسارة. وشزر على وزن نذر بمعنى الشنت وأكثر ما تستعمل لفظة الشزر في الطعن عن اليمين والشمال، ولعل الإمام ﷺ أراد سلب إحساس العدو بالأمن فيما إذا تركزت ضربات المجاهدين على جانب واحد، كما يتأهبوا لتسديد الضربات الاجهاضية. فالواقع إن مثل هذه العبارات تكشف مدى خبرة الإمام ﷺ بفنون القتال وخطط الحرب. ثم إختتم وصاياه بالقول: «ونافحوا بالظبا، وصلوا السيوف بالخطا» نافحوا من النفع على وزن الفتح بمعنى النفع كناية عن شدة الاقتراب من العدو، والظبا طرف السيف وحده، والمراد كافحوا وضاربوا. والمراد بقوله ﷺ: «صلوا السيوف بالخطا» أن اليد قد لا تكفي أحياناً لضرب العدو بالسيف ولا بد من التقدم بضع خطوات والضرب بالسيف.



تأمل

الفنون القتالية في الماضي والحاضر

تمثل الفنون القتالية في الوقت الراهن علماً من العلوم المهمة التي ينبغي تدريسها في الكليات العسكرية وتعلمها على مدى سنوات وممارستها في ساحات التدريب، فالواقع أن تجاهل مثل هذه الفنون لا يجعل أعظم الجيوش أن تتقدم في ميادين القتال وإن جهز بأحدث الاسلحة المتطورة. ومن هنا كان أتباع المدرسة الإسلامية مطالبين بتعلم كافة هذه الفنون من أجل الدفاع عن مبادئ الدين ومصالح البلاد، ولعل ذلك يمثل واجباً كفائياً، بل واجباً عينياً. فما لاشك فيه أن الاسلحة لم تكن بهذا التعقيد كما لم تكن الفنون والخطط الحربية بهذه الدقة

التي هي عليها اليوم، مع ذلك فقد كانت لتلك الحروب أساليبها وقوانينها التي عرض الإمام عليه السلام بالشرح إليها، والتي تكشف عن مدى خبرة الإمام عليه السلام ومراسه للحرب. ولعل هنالك من يقول أن تعلم فنون القتال إنما يؤدي إلى سفك المزيد من الدماء، الأمر الذي أكد عكسه في الوصايا والتعاليم الإسلامية ولا سيما الأوامر الحربية، حيث تحرص هذه التعاليم على الدماء وتدعو إلى الحد قدر المستطاع من سفك الدماء. والجواب إن ماورد في هذه الخطبة أمّا يمثل الامتداد الطبيعي لتلك التعاليم، لأنّ المقاتل إذا ألم بأساليب القتال وفنونه أمكنه تحقيق النصر الخاطف السريع على العدو بأقل التضحيات. أضف إلى ذلك فإن العدو إذا وقف على قدرة الخصم ومهارته في فنون القتال واستماتته من أجل الأهداف الإسلامية قد يركع ويستسلم فيرجح السلام على الحرب، الأمر الذي يحسم المعركة ويقلل من سفك الدماء.

القسم الثاني

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بَعِثَ اللَّهُ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاعاودُوا الْكُرَّ،
وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ، فَإِنَّهُ عَارٌّ فِي الْأَعْقَابِ، وَنَارُ يَوْمِ الْحِسَابِ وَطِيبُوا عَنْ
أَنْفُسِكُمْ نَفْسًا، وَامْشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْيًا سُجْحًا، وَعَلَيْكُمْ بِهَذَا السَّوَادِ
الْأَعْظَمِ، وَالرُّوَاقِ الْمُطَنَّبِ، فَاضْرِبُوا ثَبَجَهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي حِسْرِهِ، قَدْ
قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ يَدًا، وَأَخَّرَ لِلنُّكُوصِ رِجْلًا. فَصَمْدًا صَمْدًا حَتَّى يَنْجَلِي لَكُمْ عَمُودُ
الْحَقِّ «وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ».

۳۰۰۳

الشرح والتفسير

الثبات والمقاومة

خاض الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة برفع معنويات جنده وأوصاهم بالثبات في القتال بغية إستئصال شأفة العدو فقال لهم: «واعلموا أنكم بعين الله» فاذا علم الإنسان أنه بعين سيده القادر على كل شيء والمحيط به فانه يستلهم منه العزم والقوة وعدم الشعور بالوحدة من جانب، ومن جانب آخر يلفت نظره إلى عظم المسؤولية والوظيفة التي ينبغي أن ينهض بعبئها. وقد ورد هذا المعنى في قصة نوح عليه السلام حين أمر بصنع السفينة «وَأَصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا»^١ في إشارة إلى أن العدو قد يحاول أن يعيقك عن القيام بهذا العمل من خلال السخرية والاستهزاء، أو من خلال ممارسة الحرب الدعائية والضغط النفسية، فلا تكثر هذه الأمور ولا تخف فانك تعمل وفق المشيئة الإلهية الغالبة. وهو ذات المعنى الذي ألمحت إليه

الآية الشريفة: «وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا»^١ في إطار رباطة جأش النبي الأكرم ﷺ حيال تكالب الأعداء. ثم قال ﷺ: «و مع ابن عمّ رسول الله» ابن عمه الموصوف باخوته ووصيه ومن كان يتبعه اتباع الفصيل إثر أمه. وعليه فلا ينبغي أن تشعرُوا بأدنى شك وترديد في مسيرتكم فاندفعوا بكل ما أوتيتم من قوة لقتال عدوكم، هذا في الوقت الذي يمثل فيه عدوكم سلالة أعداء رسول الله ﷺ، فوالد معاوية هو أبو سفيان الذي كان أعدى أعداء رسول الله ﷺ وعليه فهو غاصب للخلافة لا بدّ من مقاتلته وإعادته إلى الحق. أمّا تأكيد الإمام عليّ عليه السلام قرابته من النبي ﷺ ورغم كونه أمراً متعارفاً لدى العقلاء - الذين يرون قرابة الشخص أعلمهم بما جاء مالم يقيم الدليل على خلافه - إلاّ أنّه يمكن أن يكون إشارة إلى حديث الثقلين الذي جعل فيه رسول الله ﷺ أهل بيته في مصاف القرآن ودعا الأُمَّة إلى وصيتين هما في الواقع بمثابة اللازم والملزوم، فقال: «فعاودوا الكرّ، واستحيوا من الفرّ، فإنّه عارٌ في الأعقاب، ونارٌ يوم الحساب» فالعدو قد لا ينهار من كرة واحدة ولا بدّ من الكرة تلو الكرة لاضعاف العدو والقضاء عليه من جانب، من جانب آخر لا تحدثوا أنفسكم أبداً بالفرار من جبهات القتال، فإنّ ذلك عار يوصم به جيبيكم كما تجروه على أعقابكم من بعدكم فإن الابناء يعيرون بفرار آبائهم^٢، وبغض النظر عن ذلك فإن هذا الفرار سيكون وبالاً عليكم يوم الحساب فتردون النار، لأنّ الفرار من الزحف يعد من الكبائر، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا خِيفًا فَلَاتُؤَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ» وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ»^٣. ثم يؤكد ﷺ الجهاد بأمرين من قبيل اللازم والملزوم أيضاً فيقول: «و طيبوا عن أنفسكم نفساً^٤ و امشوا إلى الموت مشياً سجحاً» سجح على وزن صحف

١. سورة طه / ٤٨.

٢. لا بدّ من الالتفات هنا إلى أنّ هذا التفسير على أساس أنّ «أعقاب» جمع «عقب» على وزن نسب بمعنى الأولاد، وإن كان عقب على وزن قفل بمعنى العاقبة وما يؤول إليه الأمر فإنّ مفهوم العبارة سيكون «إنّ الفرار من الجهاد عار في عاقبة أمركم» إلاّ أنّ التفسير الأول أنسب.

٣. سورة الأنفال / ١٥ - ١٦.

٤. جملة «طيبوا نفساً» تستعمل كتعبير عندما يستقبل الانسان شيئاً بالرضا وطيب خاطر، وفي هذه الموارد تأتي بعنوان تمييز منصوب.

تعني المستقيم وهي تستعمل بشأن الطرق المستوية والمستقيمة، ولما كان المشي سهلاً في مثل هذه الطرق فإنها تطلق على السهل أيضاً. ومن هنا ورد في المثل العربي المعروف «ملككت فاسجج». فالإمام عليه السلام يرى أن الشهادة في سبيل الله ضالة أهل الإيمان، فيؤكد عليهم عدم الاكتفاء برفض الخشية والخوف من الشهادة، بل لا بد من إستقبالها بكل رحابة صدر، فطريقها سهل يسير ولا بد من ركوبه لمعانقتها. وقد كان الإمام عليه السلام نموذجاً بارزاً لهذا الكلام حتى أقسم قائلاً: «والله لابن أبي طالب أنس بالموت من الطفل بثدي أمه»^١ وهو الذي صرح عند ما ضربه ابن ملجم: «فزت ورب الكعبة».

ثم قال عليه السلام في إشارة إلى مركز تجمع جيش الشام والخيمة التي تربع داخلها معاوية: «وعليكم بهذا السواد الأعظم، والرواق المطنّب، فاضربوا ثبجه» فقد يطمع العدو وتشتد شوكته لو حمل عليه من هنا هناك مع مراعاة الحذر والاحتياط، وعلى العكس من ذلك لو كانت الحملة مصوبة إلى قلب عسكر العدو لانهارت روحية العدو وتحطمت معنوياته، فإن الهجوم على المركز يكشف عن مدى القوة والاعتدار، ومن هنا إستفاد الإمام عليه السلام هذه القضية النفسية ليأمر جيشه بالهجوم على قلب العدو ومركز قيادته. والسواد الأعظم كناية عن التجمع الكبير الذي يبدو أسوداً من بعيد، والمراد به هنا عسكر الشام. الرواق على وزن كتاب غراب الفسطاط، وهو هنا إشارة إلى الخيمة الكبيرة المضروبة لمعاوية، المطنّب المشدود بالأطناب جمع طنّب بضمّتين وهو حبل يشد به سرادق البيت والثبج بالتحريك الوسط وقوله عليه السلام: «فاضربوا ثبجه» تعني الهجوم على قلب جيش الشام وخيمة معاوية. ثم أورد الإمام عليه السلام الدليل على ما قال: «فإن الشيطان كامنٌ في كسره^٢ وقد قدّم للوثبة^٣ آيداً، وأخر للنكوص^٤ رجلاً»، والمراد بالشيطان هنا معاوية حيث جمع الأفكار والأعمال الشيطانية بينا ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنه أراد بالشيطان عمرو بن العاص، كما قيل قد يراد به الشيطان الحقيقي «ابليس» الذي كان يتلاعب بمعاوية وعسكره آنذاك. وقد صور الإمام عليه السلام بهذه العبارة روحية معاوية الذي كان يعد نفسه للهجوم من جهة وهو يهجم بالنكوص والفرار من جهة

١. للوقوف بصورة أعمق على هذا الموضوع راجع الخطبة الخامسة من المجلد الأول.

٢. «كسر» على وزن مصر شقه الأسفل، كناية عن الجوانب التي يفر إليها المنهزمون.

٣. «وثبة» من مادة «وثب» على وزن نصر بمعنى الظفر والنصر، كما تعني القفز للاستيلاء على الشيء.

٤. «نكوص» بمعنى الانسحاب والتراجع عن القيام بعمل، وعادة ما تستعمل بشأن التراجع عن أعمال الخير.

أخرى؛ ولا غرو فهذه هو الاسلوب المتبع لدى الساسة الماديين، فليس لهم من هدف مقدس يقاتلون من أجله، ومن هنا يهربون هروب الشاة من الذئب إذا ما جابهتهم ثلثة من المؤمنين. فقد صرح القرآن الكريم بشأن أعوان الشيطان في مجابهتهم للمؤمنين وكيفية تخلي الشيطان عنهم قائلاً: «وَإِنَّ زَيْنَ لَهْمَ الشَّيْطَانِ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ»^١ ولا يقتصر هذا الأمر على الشيطان - إبليس - فهذا هو ديدن شياطين الانس الذين يزجون باتباعهم في الأحداث الساخنة ثم يخذلونهم في الظروف الحرجة. ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته قائلاً: «فصمداً صمداً! حتى ينجلى لكم عمود الحق وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ» فالواقع إن هذه العبارة تمثل نتيجة لما أورده الإمام عليه السلام ودعا إليه صحبه؛ أي أنكم قد وقفتم الآن على التعليقات الكافية والفتن القتالية وكيفية الهجوم على مركز تجمع العدو، فما عليكم إلا الثبات والصمود والمقاومة لاندحار الباطل وانتصار الحق. ثم يعدهم بالنصر استناداً إلى البشارة التي تضمنتها الآية ٣٥ من سورة محمد صلى الله عليه وآله: «وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ». وعليه فالخطبة تمثل درساً عظيمة في التعرف على أساليب القتال وعناصر النصر دون أن تقتصر على زمان الإمام عليه السلام. ويشير التأريخ إلى مدى التأثير الذي لعبته كلمات الإمام عليه السلام حتى ورد في كتاب صفين لنصر بن مزاحم أن الإمام عليه السلام حين أورد هذه الكلمات ودعا صحبه أثناء صفين للهجوم على أهل الشام انطلق أكثر من عشرة الاف خلف الإمام عليه السلام ووثبوا إلى رماحهم وسيوفهم ونبأهم فانقضوا على جند معاوية حتى إقربوا من خيمته فكاد يقضى عليه لو لاتلك الخدعة التي عمد إليها ابن العاص في رفع المصاحف على أسنة الرماح.^٢

١. سورة الانفال / ٤٨.

٢. «صمد» على وزن حمد، وجاء على معنيين، أحدهما «القصد» والثاني «الاستحكام والصلابة» وليس مستبعد ان يكون يرجع أصل المعنيين إلى أصل واحد، لان القصد يحصل اذا كان هناك استحكام وصلابة خاصة.

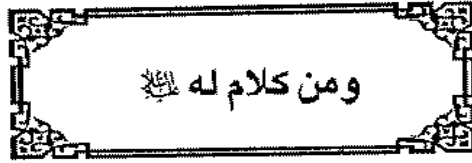
و«صمد» على وزن سبب، بمعنى الشخص الذي يقصده المحتاجون، وتعني: المكان الرفيع والسامي، وكذلك يأتي بمعنى الشيء المحلوء، وكل هذه المعاني لها تناسب مع المعنى الاصلي لهذا الاصطلاح.

وقد ورد في الجملة اعلاه كتعبير عن المقاومة والصمود البصر والتحمل في مواجهة العدو.

٣. شرح نهج البلاغة للمرحوم تستري ٥٤٣/١٣.



الخطبة ١



قالوا: لما إنتهت إلى أمير المؤمنين ﷺ أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله ﷺ قال ﷺ: ما قالت الانصار؟ قالوا: قالت: منا أمير، ومنكم أمير؛ قال ﷺ:

نقرة إلى الخطبة

الخطبة تمثل ردّاً حاسماً على زعمين بشأن خلافة رسول الله ﷺ. الأول وهو اجتماع طائفة من الناس في سقيفة بني ساعدة لتعيين الخلافة دون الالتفات إلى وصية النبي ﷺ بهذا الشأن فطالبت الأنصار بالشورى وأن ينتخب منهم أمير وآخر من المهاجرين. ففند الإمام ﷺ هذا الزعم بحديث عن رسول الله ﷺ. والثاني إستدلال المهاجرين على الأنصار بأحقيتهم بالخلافة. فاستدل عليهم الإمام ﷺ بنفس إستدلالهم في أحقية أهل البيت ﷺ بالخلافة إن كان إستدلالهم صحيحاً.

١. سند الخطبة: تعتبر هذه الخطبة من الخطب المعروفة لأمير المؤمنين علي ﷺ والتي روتها عدة مصادر من قبيل نهاية الارب للتويري وتاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير في حوادث سنة ١١ هو كتاب السقيفة لأبي بكر الجوهري، كما ورد بعضها في صحيح البخاري وصحيح مسلم، مصادر نهج البلاغة ٥٨/٢-٦٠.

«فَهَلَّا احْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَصَّى بِأَنْ يُحَسَّنَ إِلَى مُحْسِنِيهِمْ وَيُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِيهِمْ؟ قَالُوا: وَمَا فِي هَذَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ ﷺ: لَوْ كَانَ الْإِمَامَةُ [الامارة] فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِهِمْ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: فَمَاذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ قَالُوا احْتَجَّتْ بِأَنَّهَا شَجَرَةُ الرَّسُولِ ﷺ: فَقَالَ ﷺ: احْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ».

٤٥٥٥

الشرح والتفسير

الاستدلال المنطقي على الخلافة

أوردنا سابقاً أنّ الإمام خطب بهذه الخطبة لما إنتهت إليه أنباء السقيفة وأنّ الأنصار قالت للمهاجرين منا أمير ومنكم أمير، فقال ﷺ: «فهلّا احتججتم عليهم بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصّى بأن يحسن إلى محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم؟»^١ فاستفسره الحاضرون «قالوا: وما في هذا من الحجّة عليهم؟» فردّ عليهم الإمام ﷺ: «فقال: لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم» فن الواضح أنّ وصية أحد بآخر تفيد أنّ تصريف الأمور بيد الموصى إليه، لا بيد ذلك الذي أوصى به. بالضبط كالأب الذي يسافر فيوصي ولده الأكبر قائلاً: أوصيك باخوانك خيراً. ففهوم ذلك أنّي فوضتكم القيام بالأعمال وأودعتكم إخوانك. وعليه فالذي يستفاد من حديث النبي ﷺ أنّ الحكومة ليست للأنصار، إلّا أنّ أصحاب السقيفة لم يلتفتوا لهذا الأمر وانحوا الأنصار بالقوة عن الخلافة. وقد استدل

١. روي هذا الحديث في صحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب فضائل الأنصار، أنّ النبي ﷺ قال: «إنّ الأنصار كرشى وعيبي . . . فاقبلوا من محسنهم وراعفوا عن مسيئهم». صحيح مسلم، ١٩٤٩/٤، طبع دار إحياء التراث العربي.

المتأخرون بمثل هذا الكلام على إثبات صحة دعواهم، ومن ذلك ما رواه ابن أبي الحديد قائلاً: حين توفي سعيد بن العاص، دخل ابنه عمرو بن سعيد على معاوية، فسأله معاوية: إلى من أوصى بك أبوك؟ فقال عمرو: لقد أوصى إليّ ولم يوص بي. فتعجب معاوية من جوابه وقال: «إنّ هذا الغلام لا شدة» فعرف منذ ذلك الحين بين الناس بالاشدق أي الخطيب البليغ. ثم طرح الإمام عليه السلام سؤالاً آخر بهذا الشأن: «ثمّ قال: فماذا قالت قريش؟» فردوا عليه: «قالوا: احتجّت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم» فذهب الإمام عليه السلام إلى أنّ ذلك حجة عليهم «فقال: احتجّوا بالشجرة، وأضاعوا الثمرة». فإذا كانت الشجرة ذات أثر كان ثمرها أعظم أثراً. والعجيب ما أورده الشارح البحراني الذي أورد احتمالين بشأن المراد بالثمرة في هذه العبارة: أحدهما علي وأولاده، والآخر السنة النبوية التي توجب استحقاق علي عليه السلام للخلافة والولاية. فمن الواضح أنّ الاحتمال الثاني مستبعد رغم موافقته للاحتمال الأول، فإذا كانت الشجرة ترمز للقرب فإن ثمرها يكون أكثر قرباً، وعليه فليس المراد بهذه الثمرة سوى أهل البيت عليهم السلام.

تأمل

الخلافة وقصة سقيفة بني ساعدة

روي أنّ النبي صلى الله عليه وآله لما قبض، اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد قبض، فقال سعد بن عبادة لابنه قيس - أو لبعض بنيه: إني لا أستطيع أن أسمع الناس كلامي لمرضي؛ ولكن تلقّ مني قولي فأسمعهم. فكان سعد يتكلّم، ويستمع ابنه ويرفع به صوته ليُسمع قومه.

قال الطبري ثم خاطب سعد الانصار وذكرهم بسبقهم إلى الاسلام حين عادته العرب وقد لبث رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث عشرة سنة في مكة فلم يجبه إلا القليل، حتى انبرتم للدفاع عن الاسلام ونصرة النبي صلى الله عليه وآله ووقفتم إلى جانب الحق، إلى أن قبض النبي صلى الله عليه وآله وهو راض عنكم فانتم أولى بالخلافة من غيركم.

فحدثه الحديث، ففرع أبو بكر أشدّ الفرع، وخرجا مسرعين إلى سقيفة بني ساعدة؛ وفيها

رجالاً من أشرف الأنصار؛ ومعهم سعد بن عبادة فقام أبو بكر فقال: إن رسول الله ﷺ لما بُعث عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخالفوه وشاقّوه، وخصّ الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه الإيمان به والمواساة له، والصبر معه على شدة أذى قومه، ولم يستوحشوا الكثرة عدوّهم؛ فهم أول من عبّد الله في الأرض، وهم أول من آمن برسول الله، وهم أولياؤه عترته، وأحقّ الناس بالأمر بعده، لا ينازعهم فيه إلا ظالم؛ وليس أحد بعد المهاجرين فضلاً وقدماً في الإسلام مثلكم؛ فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا نمناز دونكم بمشورة، ولا نقضي دونكم الأمور.

فقام الحباب، وقال:

يا معشر الأنصار، لا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من الأمر، فإن أبوا عليكم ما أعطيتموهم فأجلوهم عن بلادكم، وتولّوا هذا الأمر عليهم، فأنتم أولى الناس بهذا الأمر، إنّه دان لهذا الأمر بأسيافكم من لم يكن يدين له. أنا جُذئِلُها المحكك، وعُدَيْقُها المرجب، إن شتمت لنعيدتها جذعة، والله لا يرُدُّ أحدٌ على ما أقول إلا حطمتُ أنفه بالسيف.

فقال عمر: هيات! لا يجتمع سيفان في عُمد؛ إن العرب لا ترضى أن تؤمّركم ونبيها من غيركم.

قال: فلما رأى بشير بن سعد الخزرجي ما اجتمعت عليه الأنصار من تأمير سعد بن عبادة - وكان حاسداً له وكان من سادة الخزرج - قام فقال:

أيها الأنصار، إنا وإن كُنّا ذوي سابقة، فإننا لم نردّ بجهادنا وإسلامنا إلا رضاً ربّنا وطاعة نبينا، ولا ينبغي لنا أن نستطيل بذلك على الناس، ولا نبتغي به عوضاً من الدنيا، إن محمداً ﷺ رجلٌ من قريش؛ وقومه أحقُّ بميراث أمره، وإيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر؛ فاتقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم.

فقام أبو بكر، وقال: هذا عمر وأبو عبيدة، بايعوا أيهما شتم؛ فقالوا: والله لا نتولّى هذا الأمر عليك.

ولما رأت الأوس أن رئيساً من رؤساء الخزرج قد بايع، قام أسيد بن حضير - وهو رئيس الأوس - فبايع حسداً لسعد أيضاً، ومنافسةً له أن يلى الأمر، فبايعت الأوس كلّها لما بايع

أسيد، وأراد عمر ان يقتل سعدا إن لم يبايع، إلا أنه خشى من تهديد سعد بعد أن نصحه ابوبكر بالكف عنه.

وفسد الأمر فتركوه، فكان لا يصلِّي بصلاتهم، ولا يجمع بجماعتهم، ولا يقضي بقضائهم؛^١ ولو وجد أعوانا لضاربهم، فلم يزل كذلك حتى مات أبوبكر، ثم لقي عمر في خلافته؛ وهو على فرس، وعمر على بعير، فقال له عمر: هيهات يا سعد! فقال سعد: هيهات يا عمر! فقال: أنت صاحب من أنت صاحبه؟ قال: نعم أنا ذاك؛ ثم قال لعمر: والله ما جاؤني أحد هو أبغض إليّ جواراً منك، قال عمر: فإنه من كرهه جوار رجل انتقل عنه؛ فقال سعد: إني لأرجو أن أخلّيها لك عاجلاً إلى جوار من هو أحبُّ إليّ جواراً منك ومن أصحابك؛ فلم يلبث سعد بعد ذلك إلا قليلاً حتى خرج إلى الشام، فمات بجوران ولم يبايع لأحد؛ لا لأبي بكر ولا لعمر ولا لغيرهما.^٢ والمعروف ان سعد قد قتل بيد خالد بن الوليد بأمر عمر حيث كمن له في الليل ورماه بسهمين ثم التى جسده في بئر وشاع بين الناس ان الجن قتلت سعد بن عبادة. والطريف ما نقل عن مؤمن الطاق (محمد بن النعمان الاحول) المعروف بدفاعه عن أهل البيت حيث سئل لم لم ينازع علي ابابكر على الخلافة قال: خشى ان تقتله الجن.^٣

وقال المرحوم العلامة الاميني بهذا الخصوص «وكان من حشدهم اللهم رجال من الجن رموا سعد بن عبادة أمير الخزرج».^٤

وحين حج عمر سمع من يقول «إن مات عمر بايع فلانا»^٥ فغضب عمر وصعد المنبر ثم قال: لا يقول أحد ذلك انما كانت بيعة أبي بكر فتنة وتمت... ولكن الله وقي شرها.

أضواء على السقيفة

١ - يتبين مما مر معنا سابقاً أن الشورى التي عقدت في السقيفة لم تكن شرعية منتخبة من

١. تاريخ الطبري ٤٥٥/٢ (بتلخيص).

٢. شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ١٠/٦.

٣. شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ١٧/٢٢٣ (ذكر ذلك على أنه أحد اعتراضات الشيعة على ابي بكر حيث يعتقد البعض أنه أمر بقتل سعدا).

٤. الغدير ٣٧٩/٩ (لهام بمعنى الجيش العظيم).

٥. يبدو المقصود هو علي عليه السلام (شرح البخاري للقسطلاني ٣٥٢/١١، نقلاً عن البلاذري في أنساب الاشراف).

قبل الأمة كما أراد أن يصورها البعض، بل حضرها بعض الأنصار على أمل تحقيق أهدافهم، ثم التحق بهم بعض المهاجرين لينافسونهم على الخلافة، حتى آلت الأمور إلى تنصيب أبي بكر.

٢ - تفتقر السقيفة إلى الشرعية من الناحية الدينية، كما تفتقر إليها من الناحية السياسية على ضوء الاعراف والقوانين الحاكمة في الأنظمة السياسية، وذلك لأنها لو كانت ممثلة لجميع الأمة لوجب أن يحضر ممثلاً عن الأنصار وآخر عن المهاجرين، بينما نعلم أن قرابة رسول الله ﷺ المتمثلة بأهل بيته لم تحضر ذلك الاجتماع.

٣ - تفيد أحداث السقيفة أن انتخاب الأصلح لم يكن هو المعيار المعمول به في الخلافة، وكأنهم اعتمدوا الميراث أسلوباً في التعامل معها بحيث كان كل يدعي سهم معيناً فيها، ومن الواضح أن من لديه هكذا نظرة إلى الخلافة، لا يسعه أن ينتخب الأصلح لابتداء الأمة.

٤ - لم تتطرق السقيفة من قريب أو بعيد إلى وصايا النبي ﷺ بالخلافة، رغم علم الجميع بأن النبي ﷺ أوصى الأمة قائلاً: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي؛ ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً». أفلم يكن يدعو هذا الحديث الشريف الذي روته أغلب مصادر الفريقين حتى عدّ متواتراً والذي صرح به الرسول ﷺ في عدة مناسبات، من حضر السقيفة إلى الرجوع إلى القرآن وأهل البيت ﷺ قبل أن يفرضوا أهدافهم على الأمة ويتحكموا في مصيرها؟^١ أو لم يكن حديث الغدير المتواتر عن النبي ﷺ مانعاً لأهل السقيفة مما أقدموا عليه بشأن الخلافة؟ أو لم يسمعوا بحديث يوم الدار حين نص رسول الله ﷺ منذ أوائل دعوته على خلافة علي عليه السلام ووصايته، أو ما أورده آخر ساعات عمره الشريف وقوله إني بقلبي ودواة؟! طبعا قد يبدو ذلك عجيباً منذ الوهلة الأولى، إلا أنه سرعان ما يزول، حيث النبي ﷺ على فراش الموت ودعى بقلم ودواة فمنعوا من ذلك وتفوهوا باشنع الكلمات ضد أطهر الكائنات من بني آدم رسول الله ﷺ؛ الأمر الذي يكشف عن وجود خطة مسبقة بشأن الخلافة، بحيث لم يكن ليحول دونها حتى أحاديث رسول الله ﷺ ووصاياه. وما ذلك إلا الطمع في الخلافة

١. روى هذا الحديث ثلاثة وعشرين صحابياً على الأقل عن رسول الله ﷺ. وللوقوف على أسماهم والعبارات المختلفة التي وردت في رواياتهم يمكن الرجوع إلى المجلد التاسع من رسالة القرآن ٦٢٧-٧٩ أو خلاصة عقبات الانوار ١٠٥/٢-٢٤٢ وإحقاق الحق ٤٣٨/٤ والسيرة الحلبية ومستدرک الحاكم والصواعق واسد الغابة وسنن البيهقي.

وحب الجاه والمنصب التي تجعل الإنسان يتجاهل كل القيم والحقائق التي لا يشوبها أدنى شك أو ريب.^١ وهنا يتضح عمق كلام أمير المؤمنين عليه السلام «احتجوا بالشجرة، وأضاعوا الثمرة».



١. حديث «القلم والدواة» أو «القلم والقرطاس» من الأحاديث العجيبة في أمر الخلافة، وقد روته أشهر مصادر العامة صحيح البخاري. فقد ورد في هذا الكتاب في باب مرض النبي صلى الله عليه وآله عن سعيد بن الجبير عن ابن عباس قال: لما حضرت رسول الله صلى الله عليه وآله الوفاة قال: هلموا أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده. فقال بعضهم: إن رسول الله قد غلبه الوجد وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله. فاختلف من في البيت واختصموا فمن قائل يقول: القول ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله ومن قائل يقول: القول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط واللغو والاختلاف، غضب رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: قوموا، إنه لا ينبغي لنبي أن يختلف عنده هكذا فقاموا، فمات رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك اليوم. فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله، يعني الاختلاف واللفظ. (صحيح مسلم ١٢٥١٣ كتاب الوصية، باب ٥ طبع دار إحياء التراث العربي). كما نقل هذا الحديث صحيح البخاري بطرق مختلفة (صحيح البخاري، المجلد السادس، باب مرض النبي صلى الله عليه وآله ووفاته، ص ١٢ دار الجيل بيروت).



لما قلد محمد بن أبي بكر مصر، فملكته عليه وقتل

نظرة إلى الخطبة

كان عليه السلام قد ولي محمد بن أبي بكر مصر، فلما اضطرب الأمر عليه بعد صفين وقوي أمر معاوية طمع في مصر. وقد كان عمرو بن العاص بايعه على أن يكون معه في قتال علي، وتكون مصر له طعمة، فبعثه إليها بعد صفين في ستة آلاف فارس، وقد كان فيها جماعة عظيمة ممن يطلب بدم عثمان وكانوا يزعمون أن محمداً قتله فانضافوا إلى عمرو، وكان معاوية كتب إلى وجوه مصر، أما إلى شيعته فبالترغيب، وأما إلى أعدائه فبالترهيب، وكتب محمد بن أبي بكر إلى علي عليه السلام بالقصة يستمده بالمال والرجال، فكتب إليه يثبته ويعدده بذلك بأسرع ما يمكن، فجعل محمد يدعو أهل مصر إلى قتال عمرو، فانتدب معه أربعة آلاف رجل، فوجه ألفين مع كنانة ابن بشر لاستقبال عمرو، وبقي هو في ألفين، فابلى كنانة في ذلك اليوم بلاءً حسناً وقتل من عسكر عمرو خلقاً كثيراً، ولم يزل يقاتل حتى قتل، فلما قتل تفرق الناس عن محمد. وأقبل عمرو يطلب محمداً فهرب منه مختفياً، فدخل عمرو فسطاطه. وخرج معاوية بن خديج الكندي، وكان من امراء جيش عمرو، في طلب محمد فظفر به، وقد كاد يموت عطشاً، فقدمه فضرب عنقه، ثم أخذ جثته فحشاها في جوف حمار ميت وأحرقه. وقد كان علي عليه السلام وجه لنصرته مع مالك بن كعب إلى مصر نحو ألفي رجل، فسار بهم خمس ليال، ورود الخبر إلى

علي عليه السلام بقتله وأخذ مصر فجزع عليه السلام جزعاً ظهر أثره في وجهه ثم قال: رحم الله محمداً كان
غلاماً حدثاً وقد أردت...!



«وَقَدْ أَرَدْتُ تَوَلِيَةَ مِصْرَ هَاشِمِ بْنِ عَتْبَةَ، وَلَوْ وَلَّيْتُهُ إِيَّاهَا لَمَا خَلَى لَهُمُ
الْعَرِصَةَ، وَلَا أَنْهَزَهُمُ الْفُرْصَةَ، بِلَا ذَمٍّ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، فَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ
حَبِيبًا، وَكَانَ لِي رَبِيبًا».

٤٠٠٨

الشرح والتفسير

محمد بن أبي بكر وحكومة مصر

كما ورد في شأن الخطبة فأنها ناظرة إلى حملة جيش معاوية على مصر وقتل عامل
أمير المؤمنين علي عليه السلام محمد بن أبي بكر. فقد استهل الإمام عليه السلام ببعض الكلمات التي تشتم منها
رائحة الذم لبعض أصحابه فقال: «وَقَدْ أَرَدْتُ تَوَلِيَةَ مِصْرَ هَاشِمِ بْنِ عَتْبَةَ، وَلَوْ وَلَّيْتُهُ إِيَّاهَا
لَمَا خَلَى لَهُمُ الْعَرِصَةَ،^١ وَلَا أَنْهَزَهُمُ الْفُرْصَةَ» فالعبارة تفيد أن الإمام عليه السلام ورغم محبته لمحمد
بن أبي بكر وثقته به وما يتصف به من إيمان وصدق، إلا أنه كان يرجح توليه هاشم بن عتبة
المعروف بالمرقال الذي كان أشجع من محمد وأقوى وأعظم تجربة، ويسبدو أن طائفة من
أصحاب الإمام عليه السلام كانت ترى ضرورة ولاية مصر من قبل محمد كونه ابن أبي بكر وأكثر
معرفة بمصر وأهلها، ومن هنا كان له نحو هيمنة على الرأي العام المصري وقبولاً لديه. أما
الإمام عليه السلام فلم يكن يرى فيه مقومات الصمود المتوفرة في هاشم بفعل صغر سنه وقلة تجربته،
رغم إتصافه بما لا يخفى من الصفات بيد أن تلك الطائفة مارست ضغوطها كتلك التي مارستها
بشأن التحكيم فلم يكن من الإمام عليه السلام سوى الاستجابة. فالإمام عليه السلام وبخ هذه الكلمات تلك

١. «عرصة» من مادة «عرص» على وزن غرس كل بقعة واسعة بين الدور، والمراد ما جعل لهم مجالاً
للمغالبة، وأراد بالعرصة عرصة مصر، وكان محمد قد فر من عدوه ظناً منه أنه ينجو بنفسه، فأدركوه وقتلوه.
٢. «انهز» من مادة «نهز» على وزن نبض بمعنى القيام والحركة وانتهاز الفرصة إغتنامها.

الطائفة، ولو فسحوا المجال ليتصرف كما أراد لما ضاعت مصر بهذه السهولة. ولكن وبغية الحيلولة لما قد يقتدح إلى الأذهان من أن كلامه ﷺ يستبطن ذم محمد بن أبي بكر، فقد أردف كلامه بالقول: «بلاذم لمحمد بن أبي بكر، فلقد كان إلي حبيباً، وكان لي ربيباً» فالواقع أن محمداً لم يقصر في وظيفته وقد بذل كل ما بوسعه ولكن كان هذا أقصى طاقته. جدير بالذكر أن الإمام ﷺ لما أخبر بقتل محمد بن أبي بكر قال «رحم الله محمداً! كان غلاماً حدثاً، لقد كنت أردت أن أولى المرقال هاشم بن عتبة مصر، فإنه لو ولاها لما خلا ابن العاص وأعانه العرصة، ولا قتل الأوسيفه في يده بلاذم لمحمد، فلقد أجهد نفسه فقضى ما عليه». أما قوله: «فقد كان لي حبيباً، وكان لي ربيباً» فلأن الإمام ﷺ تزوج من أسماء أم محمد بن أبي بكر بعد وفاة أبيه فترى محمد في أحضان الإمام ﷺ فسار على هديه حتى أنه كان يرى الإمام ﷺ أبيه، وهكذا كان يرى الإمام ﷺ فيه ابنه الحبيب.

تأملان

١- من هو هاشم المرقال؟

«هاشم» ابن «عتبة ابن أبي وقاص»، وكان أبوه عتبة من ألد أعداء الرسول الأكرم ﷺ ولكن ابنه هاشم كان من المسلمين الغيارى، ومن أصحاب النبي ﷺ وأصحاب أمير المؤمنين ﷺ وله حديث مشهور يخاطب به أمير المؤمنين ﷺ فيقول: واللّه، لو أعطوني كل ما على الأرض وتحت السماء على أن أحب أحداً من أعدائك، أو أبض أحداً من مجيك لما فعلت.

كان في حرب «صفين» مع علي ﷺ وكان يرجو أن ينال وسام الشهادة في طريق الله ومع علي بن أبي طالب ﷺ فحارب بشجاعة منقطعة النظير، وكان يدعى «المرقال»، بمعنى سريع الحركة، وأخيراً، نال ما يريد، فبعد حرب طاحنه خاضها في ميدان صفين تقلد وسام الشهادة، وقد حزن لشهادته الإمام علي ﷺ وجيشه باجمعهم.

وبعد ذلك حمل الراية ابنه وهاجم جيش معاوية، وحارب بشجاعة منقطعة النظير، وبعدها وقع في الأسر، وعندما أخذوه أسيراً إلى معاوية، فكان له حديث مع معاوية وعمرو بن العاص، دافع فيه بعنف عن علي بن أبي طالب عليه السلام مما حدى بمعاوية إلى أن يسجنه في إحدى سجونته.^١

ورد عن أحوال هاشم عندما كان يحارب في صفين، حيث قاتل قتالاً شديداً فبينما هو في أصحابه إذ خرج عليهم فتى شاب وشد يضرب بسيفه ويلعن ويشتم، فقال له هاشم: ان هذا الكلام بعده الخصام، وان هذا القتال بعده الحساب، فاتق الله فانك راجع إلى ربك فسائلك عن هذا الموقف وما أردت به، قال: فاني أقاتلكم لان صاحبكم لا يصلي كما ذكر لي وأنكم لا تصلون، وأقاتلكم لان صاحبكم قتل خليفتنا وانتم وازرتموه على قتله، فقال له هاشم: وما أنت وابن عفان؟ إنما قتله أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وقرأ الناس حين أحدث إحداثاً وخالف حكم الكتاب، وأصحاب محمد صلى الله عليه وآله هم أصحاب الدين وأولى بالنظر في أمور المسلمين، وأما قولك صاحبنا لا يصلي فهو أول من صلى لله مع رسول الله وأفقّه في دين الله، وأما من ترى معه فكلهم قاريء الكتاب لا ينام الليل تهجداً، فلا يغروك عن دينك الاشقياء المغرورون، قال الفتى: يا عبدالله أني لا ظنك أمراً صالحاً أخبرني هل تجد لي من توبة؟

قال: نعم، تُب إلى الله يتب عليك.

قال الراوى: فذهب الفتى راجعاً.

فقال رجل من أهل الشام: خدعك العراقي.

قال: لا ولكن نصحني.

أجل، كان أصحاب علي عليه السلام مثل الإمام علي عليه السلام في ميدان الوغى، يحاربون ويتصحون ويهدون اهل الضلالة من اعدائهم، ولم يكن همهم قتال الاعداء بل كان سعيهم هدايتهم وارشادهم. وعلى أي حال فان «هاشم» و«عمار» قاتلا في صفين بشجاعة وبسالة منقطعة النظير ونالا وسام الشهادة وقد حزن لشهادتهما الإمام علي عليه السلام واصحابه.^٢

١. مصادر نهج البلاغة ٦١/٢ بتصرف.

٢. سفينة البحار ومصادر نهج البلاغة ٦١/٢ فما بعد ومصادر اخرى.

٢- محمد بن أبي بكر

أم محمد بن أبي بكر أسماء بنت عميس، كانت تحت جعفر بن أبي طالب، وهاجرت معه إلى الحبشة، فولدت له هناك عبدالله بن جعفر الجواد، ثم قتل عنها يوم مؤتة، فخلف عليها أبو بكر الصديق، فأولدها محمداً، ثم مات عنها، فخلف عليها علي بن أبي طالب، وكان محمد ربيبه وخريجه، وجارياً عنده مجرى أولاده، رضع الولاء والتشيع منذ الصبا، فنشأ عليه، فلم يكن يعرف له أبا غير علي، ولا يعتقد لأحد فضيلة غيره، حتى قال عليه السلام: محمد إبنى من صلب أبي بكر. ومن الأمور المهمة في حياة محمد بن أبي بكر أنه كتب إلى الإمام عليه السلام حين ولاء مصر أنه لا علم لي بالسنة، فكتب إليه كتاباً، كان ينظر فيه ويتأدب بأدبه، فلما ظهر عليه عمرو بن العاص وقتله، أخذ كتبه أجمع، فبعث بها إلى معاوية، فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويتعجب منه، فقال الوليد بن عقبة وهو عند معاوية وقد رأى إعجابه به: مر بهذه الأحاديث أن تحرق، فقال معاوية: مه، لا رأي لك! فقال الوليد: أفن الرأي أن يعلم الناس أن أحاديث أبي تراب عندك تتعلم منها! قال معاوية: ويحك! أتأمرني أن أحرق علماً مثل هذا! والله ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكم. فقال الوليد: إن كنت تعجب من علمه وقضائه فعلام تقائله؟ فقال: لو لا أن أبا تراب قتل عثمان ثم أفتانا لأخذنا عنه. ثم سكت هنيهة، ثم نظر إلى جلسائه فقال: إنا لا نقول إن هذه من كتب علي بن أبي طالب، ولكن نقول: هذه من كتب أبي بكر كانت عند ابنه محمد، فنحن ننظر فيها، ونأخذ منها.^١

❦❦❦



في توبيخ بعض أصحابه

نظرة إلى الخطبة

تعتبر هذه الخطبة من الخطب التي تعبر عن لوعة الإمام عليه السلام بعد الغارات والحملات التي كان يشنها أهل الشام على البلاد الإسلامية وتجابه بكل برود من قبل أتباعه. فقد تضمنت أشد الذم لتلك الجماعة من الكوفة الموسومة بالضعف والهوان والتي جعلت الإمام عليه السلام يشعر بياسها من عدوها، ويبدو أن الإمام عليه السلام لجأ إلى هذه العبارات أملاً في إثارتهم وتعبثهم ضد أهل الشام.



١. سند الخطبة: نقلها بعض المحدثين قبل السيد الرضي (ره) كالبلادزي (المتوفى عام ٢٧٩ هـ) في أنساب الأشراف واليعقوبي (المتوفى عام ٢٨٤) في تاريخه. ويفهم من رواية اليعقوبي أن الإمام عليه السلام خطبها بعد غارة النعمان بن بشير على عين التمر (مصادر نهج البلاغة ٦٠/٢).

«كَمْ أَدَارِيكُمْ كَمَا تُدَارِي الْبِكَارُ الْعَمِدَةَ، وَالثِّيَابُ الْمُتَدَاعِيَةَ، كُلَّمَا حِيصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهْتَكَتْ مِنْ آخَرَ، كُلَّمَا أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مَنْسِرٌ مِنْ مَنْاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ، وَانْجَحَرَ انْجِحَارَ الضَّبَّةِ فِي جُحْرِهَا وَالضَّبُعِ فِي وَجَارِهَا، الدَّلِيلُ وَاللَّهُ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ وَمَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقِ نَاصِلِ، إِنَّكُمْ وَاللَّهِ لَكَثِيرٌ فِي الْبَاطِحَاتِ، قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ. وَإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ، وَ يُقِيمُ أَوْدَكُمْ وَلَكِنِّي لَا أَرَى إِصْلَاحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِي أَضْرَعَ اللَّهُ خُدُودَكُمْ، أَتَعَسَّ جُدُودَكُمْ! لَا تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُمُ الْبَاطِلَ وَلَا تُبْطَلُونَ الْبَاطِلَ، كَابْطَالِكُمُ الْحَقَّ».

٤٠٠٨

الشرح والتفسير

عظم الشكوى من الاصحاب الضعفاء،

يفهم من مضمون الخطبة مدى معاناة الإمام عليه السلام بصفته قائداً لتلك العصاة التي طبعت على العصيان والتمرد والتي مهدت السبيل أمام العدو لتسديد ضرباته الماحقة إليهم، فيعرض لها بالتوبيخ والذم، عليها تعود إلى رشدتها وتفيق إلى نفسها فتوحد صفوفها وتهب للوقوف بوجه عدوها. وتكشف عبارات الخطبة - وخلافاً لما يظنه بعض الجهال - مدى مداراة الإمام عليه السلام لهذه الجماعة الضعيفة المشتتة حتى سئم من مداراتهم وشعر بالتعب فقال عليه السلام: «كم أداريكم كما

تدارى البكار^١ العمدة^٢، والثياب المتداعية^٣، كلما حيصت^٤ من جانب تهتكت من آخر،
فالتشبيهات التي أوردها من قبيل التشبيهات الغاية في الروعة والدقة التي تكشف النقاب عن
طبيعة أهل الكوفة، فالتأريخ يشير إلى مدى الضعف والوهن الذي ساد عسكر الإمام عليه السلام بعيد
موقعة صفين بفعل ما كانوا عليه من جهل وذل وهوان. فقد كان جلهم من الأفراد الذين
خلدوا إلى الدعة والرحة وعدم التمتع بالآفاق والأفكار التي تجعلهم يتعرفون على ما حولهم
من الأحداث. فلم تكن تهتز لهم قصبة رغم الحملات والغارات المباغثة التي كان يشنها أهل
الشام على هذه المنطقة أو تلك من مناطق البلاد الإسلامية، وهم يرتكبون أفضع الجنايات
وأبشع الجرائم إلى جانب سلبهم الأموال واخراهم للدور. فقد شبههم الإمام عليه السلام بادئ ذي بدء
بالنوق الفتية التي أعدت حديثاً للركوب وقد يجرح أحياناً سنامها. ومن الواضح أن هذا هو
حال النوق في بداية عهدنا وأن عليها أن تتحمل حتى يشد ظهرها ويستحکم سنامها. أما
تلك الجماعة فلم تتعرض إلى ذلك الحمل الخفيف في موقعة صفين حتى جثت على ركبتيها، مع
ذلك فإن الإمام عليه السلام عاملها بمنتهى المداراة عليها تنهض وتستعيد قوتها وشجاعتها. وفي التشبيه
الثاني شبههم بالاسمال الخلقة البالية التي تشق بأدنى حركة، فاذا خيبت من جانب شقت
وتمزقت من آخر. نعم فهو لاء قد فقدوا كل عناصر الصمود والثبات إثر ضعفهم وخلودهم إلى
الراحة والنكوص عن القتال، فكانوا كلما جمعوا من جانب تفرقوا من آخر، فما أعظمها من
مشكلة أن يبتلئ قائد شجاع وحكيم بمثل هذا الجيش المهزوم. حقا كان الإمام عليه السلام يعيش حالة
مذهلة من الألم والمعاناة والاحباط، وهذه قمة المظلومية التي شهدها الإمام عليه السلام. ثم أشار عليه السلام إلى

١. «البكار» جمع «بكر» على وزن مكر من مادة «بكور»، الفتى من الابل، ولا بد من لالتفات إلى أنها تستعمل
بشأن الإنسان أيضاً وجمعها أبكار. و«بكر» على وزن مكر، ويطلق على الصغير من أنثى الابل وجمعها
«أبكار».

٢. «عمدة» من مادة «عمد» على وزن حمد بمعنى إقامة الشيء بالعمود، وتطلق على الدابة التي انفتح داخل
سنامها من الركوب وظاهره سليم.

٣. «متداعية» من مادة «دعوت»، وهذا الاصطلاح يستعمل للأشخاص يدعون بعضهم الآخر إلى شيء معين،
ومن هنا يطلق على قطعة القماش البالية والتي عندما تتمزق إحدى زواياها كأنما تدعوا الزاوية الأخرى لتكون
مثلها، يطلق على هذه القطعة البالية «المتداعية».

٤. «حيصت» من مادة «حيص» على وزن حوض بمعنى خيبت .

مدى ضعفهم وذلتهم عليهم يصلحون أنفسهم: «كلّما أطلّ^١ عليكم منسراً^٢ من مناسر أهل الشام أغلق كل رجل منكم بابه، وانجحر^٣ انجحر الضبة^٤ في جحرها، والضبيع^٥ في وجارها^٦» والتشبيه بالضبة ينطوي على عدة أمور منها أنّ الضبة تعرف بالحماقة إلى درجة أنها قد تضل حتى جحرها فتعمد إلى جعل جحرها قرب صخرة بغية الاهتداء إليه، أضف إلى ذلك فهي تتصف بانعدام العاطفة بحيث تأكل أحياناً صغارها، وأخيراً شبههم بانثى الضباب الضبة مبالغة في وصفهم بالجبن والفرار، لأن الانثى أجبن وأذل من الذكر. كما شبههم بالضبع لحماقتهم وسائر الصفات التي أوردناها في الخطبة السادسة ومنها أنّها تنام رغم تهديدها من العدو الذي يمكن في كهفها فيجعلها تخلد إلى النوم حتى يمسك بها دون أن تبدي أدنى مقاومة والواقع أنّ أحداث صفين تعد شاهداً حياً على ما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبة بشأن أهل الكوفة وكيف كانت حماقته تجعله يفقد الفرصة وزمام المبادرة بماجر الولايات عليهم وعلى إمامهم عليه السلام وعلى كافة المسلمين. ثم أضاف الإمام عليه السلام اللثام عن مدى ضعفهم فقال: «الدليل والله من نصرتموه! ومن رمي بكم فقد رمي بأفوق ناصل^٧» والسهم الأفوق الناصل المكسور الفوق، المزروع الفصل، والفوق موضع الوتر من السهم، وهذا مثل يضرب لمن استنجد بمن لا ينجده. ثم قال عليه السلام: «إنكم والله لكثير في الباحات^٨ قليل تحت الرايات» فقد

١. «أطل» من مادة «طل» على وزن حل بمعنى الاشراف على شيء وهي هنا إشارة إلى إقتراب جيش الشام.
٢. «منسر» على وزن منزل من مادة «نسر» القطعة من الجيش البالغ عددها مئة إلى مئتين والتي تمر أمام جيش كثير.
٣. «انجحر» من مادة «جحر» على وزن جهل بمعنى دخل الجحر.
٤. «ضبه» على وزن دبه بمعنى أنثى الضب، وفي الاصل جاءت من مادة «ضبت» بمعنى إنسياب الماء بشكل بطيء وأمثال ذلك.
٥. «ضبيع»، يطلق على نوع من السباع.
٦. «وجار» من مادة «وجر» على وزن فجر بمعنى صب الدواء في الحلق، ومن هنا فان زحف الضبع في جحره له شبه بذلك، ويقال لجحر الضب والحيوانات الأخرى «وجار».
٧. وهنا فان الفعل «رُمي» جاء بصورة فعل مجهول، في حين إن هذا الفعل تكرر في الخطبة ٢٩ بهذا التعبير ولكن جاء بصيغة فعل معلوم، وبما انهما يعطيان معنى واحداً في كلا الحالتين، لذا فلا مانع من الاستفادة من التعبيرين في الترجمة.
٨. «باحات» من مادة «بوح» بمعنى الاتساع والظهور، ويراد بها ساحة الدار. ومن هنا فانه يطلق على الساحة الواسعة والظاهرة للعيان، «الباحة».

إعتادوا على الراحة والرفاه ولذة العيش، وهذا هو سبب ذلهم وهوانهم وجرأة العدو عليهم. ثم قال ﷺ «وإني لعالم بما يصلحكم، ويقيم أودكم،^١ ولكني لأرى إصلاحكم بإفساد نفسي». فقد ذكر الشراح تفسيرين لهذه العبارة لا يتناحيان مع بعضهما، ولعل كلاهما صادق: الأول أنه أستطيع أن أفعل ما يفعله معاوية ويستميل زعماء القبائل والناس بأموال بيت مال المسلمين، إلا أني لا أفعل ما يسخط الله، ولا أقيم دعائم حكومتي على حساب الفقراء والضعفاء وهضمهم حقوقهم، والثاني يمكنني أن أفعل ما يفعله الآخرون من حملكم بالقوة على قتال العدو. فقد جاء في كتاب الغارات أن الإمام ﷺ خاطب أهل الكوفة قائلاً: «و الله لقد ضربتكم بالذرة التي أعظ بها السفهاء فما أراكم تنتهون، ولقد ضربتكم بالسياط التي أقيم بها الحدود فما أراكم ترعوون، فما بقي إلا سيفي! وإني لاعلم الذي يقومكم بإذن الله ولكني لأحب أن أتى تلك منكم»^٢. ونموذج ذلك قد تمثل بالحجاج حين هجم جيش المهلب (أحد زعماء الخوارج) وسدد ضرباته القاصمة لحكومة بني أمية، فبعث الحجاج من نادى بالكوفة من تخلف عن قتال جيش المهلب اخربت داره على رأسه وضربت عنقه بالسيف، ولم يستثن من ذلك حتى الكهول والمرضى. وبالطبع فقد عمل بذلك عدد من المستبدين من قبل الحجاج وبعده. فالإمام ﷺ يشير إلى سهولة اللجوء إلى هذا الأسلوب، إلا أنه لا يليق بشأنه وعلو منزلته، وأنه لا يفعل ذلك لأنه يفسد دينه. وهنا يطرح هذا السؤال: أو ليس الدفاع عن الحكومة الإسلامية وقتال أعدائها واجباً؟ فلم لا يحمل الناس قهراً على القتال؟ والجواب على هذا السؤال يتضح من خلال ذكر هذه المسألة، وهي أن أصل هذا العمل صحيح، وللحكومة الإسلامية أن تلجأ إلى القوة في مثل هذه الحالة، إلا أن هذا الأمر يستلزم عدة تبعات قد تكون في نهاية الأمر مخالفة لأحكام الشرع، ونموذج ذلك واضح في قضية الحجاج الذي كان يضرب بالسيف البري والمذنب على حد سواء. أضف إلى ذلك فإن هذا العمل قد يستبطن بعض ردود الفعل السلبية من البعض وإساءتها لفهم القوانين الإسلامية، وذلك لعدم قبول هذا العمل من قبل الجميع، ولعل بعض الضغوط تدعو البعض إلى الردة والتمرد على أحكام الدين والقرآن.

١. «أود» من مائة «أود» على وزن قول بمعنى العوج. و «أود» على وزن سند، ويطلق على الاعوجاج «الأود».

٢. الغارات ٤٢/١.

ومن هنا لم يلجأ النبي ﷺ قط إلى مثل هذا الأسلوب، بل لم يعمل به أي من الخلفاء بعد النبي ﷺ. وعليه فقد درج الإمام عليه السلام وعلى غرار ما كان يفعله رسول الله ﷺ من اعتماد الترغيب والترهيب في تعبئة الأمة لخوض غمار الجهاد. ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالدعاء عليهم جزاء لأعمالهم: «أضرع^١ الله خدودكم، وأتعس^٢ جدودكم! لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل، ولا تبطلون الباطل كما يبطلكم الحق!» فالواقع أن دعاء الإمام عليه السلام لم يكن سوى نتيجة أعمالهم، فمن ترك الجهاد لا يذيق سوى الذل والهوان، وما ذلك إلا لجهلهم بالحق وعدم نهوضهم به واقبالهم على الباطل. وهذا هو البؤس والشقاء الذي يحتاج اليوم مجتمعاتنا الإسلامية. فهذه المجتمعات تعرف الباطل، مع ذلك تقلده وتقتني آثاره، بينما تجهل الحق واتباعه، والأنكى من ذلك هناك من هم للوقوف بوجه الحق رافعا راية الباطل والضلال. والحال إن هذه الطاقات والإمكانات لا بد أن تجند في سبيل الله وإحقاق الحق وإبطال الباطل.



١. «أضرع» من مادة «ضرع» بمعنى الرضاع «وضع الثدي في الفم»، ويأتي معناها أيضا بمعنى المناسب في الأشياء، ومن هنا فإن هذا المصطلح يستعمل للتعبير عن الدولة.
 ٢. «أتعس» من مادة «تعس» على وزن «ترس» بمعنى الهفوة والسهو والزلة وكذلك يأتي بمعنى السقوط، و«أتعاس» من باب افعال بمعنى الهلكة.
 ٣. «جدود» جمع «جد» وفي الأصل بمعنى أب الأب أو أب الام، وتأتي بمعنى الرزق والموفقية الاجتماعية، وأحيانا بمعنى الفائدة، حيث أتت هنا بهذا المعنى.

وقال عليه السلام

في سحرة اليوم الذي ضرب فيه

«مَلَكَتْنِي عَيْنِي وَأَنَا جَالِسٌ فَسَنَحَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأُودِ وَاللَّدَدِ فَقَالَ ادْعُ عَلَيْهِمْ فَقُلْتُ أَبْذَلْنِي اللَّهُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ وَأَبْذَلَهُمْ بِي شَرًّا لَهُمْ مِنِّي».

❦❦❦

الشرح والتفسير

رؤية رسول الله ﷺ

روى محمد بن حبيب البغدادي في كتاب المغتالين عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال: عدت أمير المؤمنين علي عليه السلام فقال: ادن مني (كأنه لم يرد إسماع الآخريين)، بينما كانت النسوة تبكي. فقال عليه السلام: «ملكتني عيني وأنا جالسٌ فسَنَحَ لي رسول الله ﷺ...» على كل حال

١. سند الخطبة: نقله كثير من المحدثين قبل السيد الرضي (ره) ومنهم ابن سعد في الطبقات وأبو الفرج الاصفهاني في مقاتل الطالبين وابن عبد ربه في العقد الفريد وابن قتيبة في الإمامة والسياسة والمرحوم السيد المرتضى في الغرر والدرر والشيخ المفيد في الإرشاد. مصادر نهج البلاغة ٦٤/٢.

٢. «سنح» من مادة «سنوح» على وزن حضور، بمعنى العبور السريع لشيء في مقابل الانسان، وكذلك تأتي بمعنى عرض الشيء أمام الانسان. وقد فسر عدد من أرباب اللغة لفظ «سانح» بحركة الشيء من اليسار إلى اليمين وفي مقابل الانسان، وعلى

فإن هذا الكلام يعبر عن مدى الاذى الذي تعرض له ﷺ من تلك الجماعة. وبالطبع فهذه ليست المرة الاولى التي يشكو فيها الإمام ﷺ بل ورد ذلك في أكثر من خطبة من خطب نهج البلاغة والتي تفيد بأجمعها عدم معرفة مقامه ﷺ ورعاية حرمة إلى جانب الآذى والألم الذي جرعه إياه. فقد إستهل كلامه ﷺ بالقول: «ملكنتني عيني وأنا جالس» فالعبارة «ملكنتني عيني» من فصيح الكلام الذي أراد به ﷺ غلبي النوم، لأن العين هي العضو الأول الذي تظهر عليه آثار النوم، ومن هنا استعملت كناية عن مفهوم النوم. ثم قال ﷺ: «فسنح لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت: يا رسول الله! ماذا لقيت من أمتك من الاود واللدد؟». لعلنا لا نرى نظيراً للإمام ﷺ من أولياء الله طلية التاريخ ممن جوبهوا بمثل هذا العداء والتمرد العصيان والآذى. ولم يقتصر ذلك على تلك المدة التي حكم فيها، بل إمتد ليشمل حتى تلك الفترة التي أصبح فيها جليس الدار مدة خمس وعشرين سنة، فقد تعرض لمثل ذلك الآذى طيلة الخلافة الراشدة ولا سيما إبان خلافة عثمان حين ضاق ذرعاً بالممارسات الخطيرة التي طالت بيت مال المسلمين فحاول الإصلاح لإعادة الأمور إلى مجاريها، فجوبه بسخط واسع ونقمة عامة، الأمر الذي بلغ ذروته حين آلت إليه الخلافة. وعليه فلا يبدو من العجيب أن يشكو الإمام ﷺ الأمة إلى النبي ﷺ رغم ما وصف به من الصبر والتحمل، فهو الذي صبر وفي العين قذى وفي الحلق شجى. ولنرى جواب النبي ﷺ لعلي ﷺ: «فقال: «أدع عليهم»، فقال الإمام ﷺ: «فقلت: أبدلني الله بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً لهم مني»، والسؤال الذي يقتدح إلى الذهن: لم أمر الرسول ﷺ بالدعاء عليهم وهو الموصوف بأنه «رحمة للعالمين»؟ ونقول في الجواب أن طغيان طائفة من الناس وتمرداها قد يصل درجة تغلق معها كافة منافذ الرحمة بوجهها فلا تبقى لنفسها سوى العذاب وسلب النعمة، وهكذا نرى الأنبياء الذين يمثلون ذروة الصبر والتحمل والحكمة واللطف والرحمة يرون هذه المفردات إنما تتجسد في الدعاء على أقوامهم بعد وصولهم إلى مرحلة لا يرجى بعدها هدايتهم. فهذا نبي الله نوح ﷺ قد جهد تسعمائة وخمسين سنة في تبليغ رسالة ربه وتحمل ذلك الآذى في سبيل هداية قومه، ولما لم ير

القاعدة فان ذلك يعتبر طالع أو فال خير، ويقابل ذلك اصطلاح «بارح» وهي الحركة من اليمين إلى اليسار، وهو طالع غير مبارك وغير حسن.

من سبيل سوى الدعاء عليهم تضرع إلى الله سبحانه قائلاً: «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا»^١ فاغرقوا جميعاً بالطوفان. على كل حال فان سيرة الإمام عليه السلام تجسدت في مداراة الأعداء فضلاً عن الأصدقاء، حتى أوصى مالكا حين ولاه مصر باستشعار قلبه الرحمة لكافة الناس بغض النظر عن أديانهم ومعتقداتهم: «فالناس صنفان اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق» ومن هنا كان لا بد من تصور مدى الاذى والتمرد الذي واجهه الإمام عليه السلام حتى اضطر إلى الدعاء عليهم. جدير بالذكر الادب الذي تحلى به الإمام عليه السلام حيال رسول الله ﷺ حيث لم يقدم على الدعاء عليهم إلا بعد أن أذن له النبي ﷺ. مضمون الدعاء هو الآخر جدير بالتأمل حيث سأله أولاً النجاة من هؤلاء المردة ثم سأل الله أن يسلبهم نعمة وجوده ويسلط عليهم حاكماً ظالماً ليجرعهم مرارة أعمالهم. اما العبارة «أبدلهم بي شراً لهم مني» لا تعني أن الإمام عليه السلام كان والعياذ بالله سيئاً وقد سأل الله أن يسلب عليهم أسوأ منه، لأن مفردتي الخير والشر في الادب العربية لا تقتضي جزماً معاني صيغة التفضيل، وهكذا العبارة «أبدلني الله بهم خيراً منهم» فاولئك كانوا نفاقاً وشرراً ولم يكونوا من الاخيار. والشاهد على ذلك عدة آيات قرآنية كآية الخامسة عشرة من سورة الفرقان: «قُلْ أَذْكَاءٌ خَيْرٌ أَمْ جَنْةٌ الْخُلْدِ» والآية السادسة والعشرون من سورة الصافات: «أَذْكَاءٌ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةٌ الزُّقُومِ». على كل حال استجيب دعاء الإمام عليه السلام ليستشهد الإمام عليه السلام بعد أن ضرب في محرابه ففاز ببقاء الله وجوار رسوله ﷺ، بينما تسلط من بعده معاوية ويزيد والحجاج على أهل العراق ليجرعوه الموت غصة بعد غصة.

وقال السيد الرضي (ره) آخر الخطبة «يعني بالأود: الإغوجاج، وباللدد: الخصام. وهذا من أفصح الكلام».

تأملان

١- أصحاب علي عليه السلام

لاشبهة ولا ريب أن أتباع الإمام علي عليه السلام على ثلاث طوائف: الطائفة الاولى الخالص

الأوفياء الذين كانوا يدورون حول الإمام عليه السلام كيفما دار ويضحون من أجله بالغالي والنفيس من قبيل مالك الأشتر وعمار بن ياسر ورشيد الهجري وميثم التمار وكميل بن زياد وأمثالهم. الطائفة الثانية الجهال الذين لم يعرفوا مقام الإمام عليه السلام ولم يدركوا شرائط الزمان والمكان، ولم يقفوا على أخطار معاوية وحكومته في الشام، كما لم يكونوا يحضرون في ميدان القتال، وهم أفراد سذج متلونون لا يعتمد عليهم في أي عمل من الأعمال والطائفة الثالثة هي الزمرة الحاقدة التي إعتادت العبث بأموال المسلمين على عهد عثمان، الأمر الذي طالبوا به علياً عليه السلام ولم يكونوا يفكرون سوى في الأموال والمناصب - بغض النظر عن الطرق المؤدية إليها - إلى جانب كون أكثر يشكلون جواسيس معاوية عيونه في الكوفة. مع ذلك كان الإمام عليه السلام يعامل الجميع بالرفق والمدارة حفظاً على مصالح المجتمع الإسلامي، بينما يضطر أحياناً لدمهم وتوبيخهم علمهم يفيقون إلى أنفسهم أما شكواؤه وأنيته منهم فيمكن الوقوف عليه في هذه الخطب:

١ - قال في الخطبة الخامسة والعشرين: «وإني والله لأظن أن هؤلاء القوم سيذالون منكم باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم... اللهم إني قد مللتهم وملوني وسئمتهم وسئموني».

٢ - قال في الخطبة السابعة والعشرين: «فيا عجباً عجباً! - والله - يميم القلب ويجلب الهمة من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم! فقبحاً لكم وترحاً... يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال وعقول ربات الرجال، لوددت أنني لم أركم ولم أعرفكم».

٣ - قال في الخطبة التاسعة والعشرين: «أيها الناس! المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصم الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء! تقولون في المجالس: كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلت: حيدي حياه».

٤ - قال في الخطبة التاسعة والستون: «كم أداريكم كما تداري البكار العمدة، والخياب الم تداعية! كلما حيصت من جانب تهتكت من آخر».

٥ - قال في الخطبة السابعة والتسعين: «أيها القوم الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة أهواؤهم المبتلى بهم أمراؤهم... يا أهل الكوفة! منيت منكم بثلاث واثنتين: صم ذوو أسماع وبكم ذوو كلام وعمى ذوو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء».

٦- قال في الخطبة المئة وتسعة عشر: «ما بالكم أمخرسون أنتم؟!... ما بالكم لا سدّتم لرشدٍ ولا هديتم لقصدٍ».

٧- قال في الخطبة المئة والحادية والعشرين: «أريد أن أدأوي بكم وأنتم دأوي كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها! اللهم قد ملّت أطباء هذا الداء الدوي».

٨- قال في الخطبة المئة والثالثة والعشرين: «و كأنّي أنظر إليكم تكشّون كشيش الضب لا تأخذون حقاً ولا تمنعون ضيماً».

٩- قال في الخطبة المئة والخامسة والعشرين «أف لكم! لقد لقيت منكم برحاً، يوماً أناديكم ويوماً أناجيكم، فلا أحرار صدقٍ عند النداء ولا إخوان ثقةٍ عند النجاء».

١٠- قال في الخطبة المئة والحادية والثلاثين: «أيتها النفوس المختلفة والقلوب المتشكّقة، الشاهدة أبدانهم، والغائبة عنهم عقولهم، أظأركم على الحق وأنتم تنفرون عنه نفور المعزى من وعوغة الأسد».



٢ - الأفراد الملعونون

كما مر معنا في شرح الخطبة فإنّ الأنبياء والأوصياء قد اجتهدوا في إصلاح أقوامهم ودعوتهم إلى الحق بالحكمة والمواظظة الحسنة وتحملوا كافة المشاق والصعاب بكل صبر وجلد، إلا أنّهم كانوا يرون أحياناً كافة أبواب الأمل قد أغلقتها تلك الأقوام بوجهها بحيث لم يعد هنالك من أمل في هدايتها، فلم يكن أمامهم من سبيل سوى الدعاء عليها؛ أملاً في إجتثاث أولئك الفسدة واستبدالهم بآخرين. وإننا لنلمس نماذج من ذلك الدعاء في السيرة المفعمّة بالعفو والرحمة لرسول الله ﷺ ومنها:

١- جاء في الأخبار أن الحكم بن العاص عم عثمان كان كثيراً ما يسخر من رسول الله ﷺ ويؤذيه من خلال مشيه خلفه وإتيانه ببعض الحركات حيث كان يحرك كتفيه ويكسر يديه خلف رسول الله ﷺ إستهزاءً منه بمشيته النبي ﷺ حتى إنفتت إليه النبي ﷺ وقال له: هكذا كن

فبقى الحكم على تلك الحال من تحريك أكتافه وتكسر يديه، ثم نفاه رسول الله ﷺ من المدينة ولعنه.^١

٢- روي أن ابن مسعود قال: كنا مع النبي ﷺ صلى في ظل الكعبة وناس من قريش وأبوجهل نحروا جزوراً في ناحية مكة فبعثوا وجاءوا بسلاها فطرحه بين كتفيه، فجاءت فاطمة ﷺ فطرحته عنه، فلما انصرف قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم كسني يوسف» قال: عبدالله: ولقد رأيتهم قتلى في قليب بدر.^٢

٣- ومن ذلك أنه دعا على مضر فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم كسني يوسف، فاصابهم سنون، فاتاه رجل فقال: فوالله ما أتيتك حتى لا يخطر لنا فحل ولا يتردد رائح^٣، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم العنهما واركسهما في الفتنة ركساً ودعهما في النار دعاً» فما قام حتى مأكّل شيء، ودام عليهم جمعة، فأتوه فقالوا: يا رسول الله ﷺ إنقطعت سبلنا وأسواقنا، فقال النبي ﷺ: حوالينا ولا علينا، فانجابت السحابة عن المدينة وصار فيما حولها وأمطروا أشهراً.^٤

٤- وورد في الحديث أن رسول الله ﷺ لما مر بعمرق بن العاص والوليد بن عقبة بن أبي معيط وهما في حائط يشربان ويغنيان بهذا البيت في حمزة بن عبدالمطلب حين قتل:

كم من حوارى تلوح عظامه
ورآء الحرب عندنا يجر فيقبراً

فقال النبي ﷺ: اللهم العنهما واركسهما في الفتنة ركساً ودعهما في النار دعاً.^٥

٥- وجاء في الخبر أن رسول الله ﷺ أخذ يوم بدر كفاً من حصي فرمى به في وجوه قريش وقال: «شاهت الوجوه» فبعث الله رياحاً تضرب وجوه قريش فكانت الهزيمة، فقال رسول الله ﷺ: اللهم لا يفلتن فرعون هذه الأمة أبوجهل بن هشام. فقتل منهم سبعون، وأسر

١. بحار الأنوار ٥٩/١٨.

٢. بحار الأنوار ٥٧/١٨.

٣. بحار الأنوار ٢٣٠/١٧.

٤. بحار الأنوار ٢٣٠/١٧.

٥. بحار الأنوار ٧٦/٢٠.

منهم سبعون^١. وبالطبع فان دعاء النبي ﷺ ولعنه لم يقتصر على هؤلاء؛ الأمر الذي يشير إلى أن أولياء الله ورغم تحملهم كل عناء المواجهة مع الاعداء، الا أنهم كانوا لا يرون من أمل في المقابل فيضطرون للدعاء عليه، وهذا ما ورد في خطبة الإمام ﷺ اقتداء برسول الله ﷺ.



في ذم أهل العراق

وفيهما يوبخهم على ترك القتال والنصر يكاد يتم، ثم تكذيبهم له

نظرة إلى الخطبة

ورد في بعض الروايات خطب علي ﷺ فقال: «لو كُسرَتْ لي الوِسادة لحكمتُ بين أهل التوراة بتوراتِهِمْ، وبين أهل الإنجيل بإنجيلِهِمْ، وبين أهل الفرقان بفرقانِهِمْ، وما من آية في كتاب الله أنزلت في سهلٍ أو جبلٍ إلا وأنا عالمٌ متى أنزلت، وفيمن أنزلت». فقال رجل من القُعود تحت منبره: يا لله وللدَّعوى الكاذبة! وقال آخر إلى جانبه: أشهد أنك أنت الله رب العالمين! (فقد كان أحدهما مفرطاً والآخر مفرطاً).

وروى المدائني أيضاً قال: خطب علي ﷺ، فذكر الملاحم، فقال: «سلوني قبل أن تفقدوني، أما والله لتتشفرنَّ الفتنة الصماء برجلها، وتطأ في خطامها».

يا لها من فتنة شبت نارها بالحطب الجزل، مقبلة من شرق الأرض رافعة ذيلها، داعية

١. سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغة هذا مختار من خطبة خطب بها ﷺ بعد صنين وقد روى طرفاً منها ابن دأب المعاصر لموسى الهادي الخليفة العباسي في كتابه الاختصاص. ورواها المفيد في الارشاد. وقال ابن أبي الحديد: وقد روى هذا الكلام «ما أتيتكم إختياراً...» على وجه آخر «ما أتيتكم إختياراً ولا بحتكم سوقاً»، والظاهر من كلامه أنها رواية غير النهج وأنها خطبة واحدة مع الخطبة ٩٧ التي فصلها السيد الرضي (ره). مصادر نهج البلاغة ٦٦٢.

ويلها، بدجلة أو حوها. ذاك إذا استدارَ الفلّك، وقلتم: مات أو هلك، بأيّ واد سلك!
فقال قوم تحت منبره: لله أبوه! ما أفصحه كاذباً!

على كل حال فإنّ الخطبة قد وردت بعد واقعة صفين حيث يعرض بالذم لجيشه الذي
أوشك على تحقيق النصر النهائي والقضاء على فتنة بني أمية. ومن هنا شبههم الإمام عليه السلام بالمرأة
الحامل التي أوشكت على وضع الحمل أسقطت جنينها، فمات قيمها وطال تأيمها وورثها
أبعدها، فأصبحت بئسة شقية. ثم إختتم الخطبة بالرد على من كذب حديثه وتجاهل ما أخبر
به الإمام عليه السلام من حقائق بسبب الجهل والحمق. فالخطبة هي الأخرى تكشف عن مدى
مظلومية الإمام عليه السلام.

«أَمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ
 أَمْلَصَتْ وَمَاتَ قَيْمُهَا، وَطَالَ تَأْيِمُهَا، وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَا. أَمَّا وَاللَّهِ! مَا أَتَيْتُكُمْ
 اخْتِيَارًا، وَلَكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ (اتَيْتُكُمْ) سَوْقًا. وَلَقَدْ بَلَّغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عَلِيُّ
 يَكْذِبُ، قَاتَلَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى فَعَلَى مَنْ أَكْذَبُ؟ أَعَلَى اللَّهِ؟ فَإِنَّا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، أَمْ
 عَلَى نَبِيِّهِ؟ فَإِنَّا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ! كَلَّا وَاللَّهِ. لَكِنَّا لَبْهَجَةٌ غَبِئْتُمْ عَنْهَا، وَلَمْ
 تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا. وَيُلُ أُمُّهُ كَيْلًا بِغَيْرِ ثَمَنِ! لَوْ كَانَ لَهُ وَعَاءٌ» وَ لَتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ
 بَعْدَ حِينٍ».

٤٥٥

الشرح والتفسير

الشكوى من الاتباع الجهلاء

كما أشرنا سابقاً فإن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة بعد موقعة صفين، حيث بات النصر
 الحاسم وشيكاً، بينما إنشقت طائفة من جيش الإمام عليه السلام إثر حيلة معاوية وعمرو بن العاص
 ففقدت فرصة النصر، وأنكى من ذلك أحدث شقاقاً وخلافاً في جيش الإمام عليه السلام، الخلاف
 الذي بلغ ذروته حتى أدى إلى وقوع تلك الحرب الأهلية. فالإمام عليه السلام وبفعل هذه الحادثة
 المروعة الأليمة يذم أهل العراق ويقول: «أما بعد يا أهل العراق، فإنما أنتم كالمرأة الحامل،
 حملت فلما أتمت أملصت^١ ومات قيمها، وطال تأيمها،^٢ وورثها أبعدها» فالعبارة تتضمن
 عدة تشبيهات: الأولى شبه أهل العراق بالمرأة حيث لم يدافعوا برجولة عن عزتهم وشرفهم،
 ثم لم يكتف بهذا التشبيه ليضيف إليه الحمل حيث كان باستطاعتهم وبطاعتهم للإمام عليه السلام أن

١. «أملصت» من مادة «ملص»، أسقطت وألقت ولدها ميتاً، كما تعني فقد ان الشيء سريعاً.

٢. «تأيم» من مادة «أيم» على وزن زيد فقدان الزوج وتستعمل بشأن الزوج والزوجة.

يلدوا ذلك النصر المبارك الذي يضع حدا لغارت أهل الشام وتطاولهم على حرمة الإسلام والمسلمين، إلا أنهم أسقطوا ذلك النصر في آخر اللحظات بفعل جهلهم. فقد خدع القوم بحيلة عمرو بن العاص حين رفع المصاحف على أسنة الرماح، فتعالت الأصوات بالرجوع إلى القرآن، حتى هدد الإمام عليه السلام بالقتل إذا لم يرجع مالك الأشتر ويكف عن القتال ولم يكن سوى بضع خطوات بينه وبين معاوية. فقتل هذه المرأة إذا فقدت زوجها ولم تحظ بزواج مناسب وماتت غصة في هذه الدنيا، فمن الطبيعي أن يرثها الأبعد، فليس لها من ولد يكون لها إمتداداً، وليس لها زوج يكيها (على فرض أن ليس لها أب وأم). وذهب البعض إلا أن هذا الكلام إشارة إلى نبوءات على ما سيصيب أهل العراق من جراء سوء تدبيرهم في صفين، حيث سيفقدون إمامهم لجهلهم وتمردهم فيسلط عليهم البعداء فيسومونهم سوء العذاب، وهذا ما وقع بالفعل، ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى هجرته من المدينة إلى الكوفة التي إستندت إلى الاضطرار وليس فيهم ما يجعل الإمام عليه السلام يهاجر إليهم، على العكس من أهل المدينة الذين إندفع إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد كانوا أهلاً لحب رسول الله صلى الله عليه وآله وإقباله عليهم. فقال: «أما والله ما أتيتكم أختياراً؛ ولكن جئت إليكم سوقاً». والتأريخ يشير إلى هذه الحقيقة وهي لولا موقعة الجمل لما إنطلق الإمام عليه السلام إلى البصرة، ولو كان لأهل الحجاز أن يقضوا على فتنة الناكثين لما إستنجد بأهل الكوفة، ولولا خطر معاوية الذي كان يهدد البلاد الإسلامية لما إستقر الإمام عليه السلام في الكوفة وهجر المدينة وغادر قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسيدة النساء. والواقع أن العبارة رداً على إشكال في علة قدوم الإمام عليه السلام إلى الكوفة وهي بهذه الصفات الذميمة، فقد أجيب عن هذا الإشكال بأن الإمام عليه السلام أتى مجبراً لا مختاراً. ثم قال عليه السلام: «ولقد بلغني أنكم تقولون: عليّ يكذب، قاتلكم الله تعالى! فعلى من أكذب؟ أعلى الله؟ فأنا أول من آمن به! أم على نبيّه؟ فأنا أول من صدّقه» فالحقيقة التي لا غبار عليها هي أن الإمام عليه السلام أول من آمن من الرجال بالله، كما تشير حياته إلى أنه لم يسجد لصنم ولم يعبد سوى الله وأنه أول من صدق برسول الله صلى الله عليه وآله ووقف إلى جانبه طيلة الدعوة. ولعل الكلام يشير إلى بعض إخباره بالمغيبات والحوادث التي كانت خافية على أولئك الناس، وقد انطلق ذلك التكذيب من قبل تلك الفرقة المنافقة التي كانت متغلغلة في صفوف أهل الكوفة والتي كانت تنسب للإمام عليه السلام إلى الكذب كلما أخبر عن

وقوع بعض الحوادث بصفته «تعلّم من ذي علم». كما يمكن أن تكون العبارة إشارة إلى الأحكام والمعارف الإسلامية التي تعلمها الإمام عليه السلام من القرآن الكريم أو من النبي صلى الله عليه وآله وعجزت أفكار المنافقين عن إدراكها وفهمها. وقد صرح ابن أبي الحديد قائلاً: وإذا تأملت أحواله في خلافته كلها وجدتها هي مختصرة من أحوال رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته، كأنها نسخة منتسخة منها في حربه وسلمه وسيرته وأخلاقه وكثرة شكايته من المنافقين من أصحابه والمخالفين لأمره، وإذا أردت أن تعلم ذلك علماً واضحاً فاقراً سورة «براءة» فيها الجمل الغفير من المعنى الذي أشرنا إليه^١. ومن الواضح أنّ أول موحد ومؤمن بالله ومصدق بالنبي صلى الله عليه وآله لا يكذب قط ولا يتكلم بما لا يعلم إنما يفترى الكذب من لا يؤمن بالله ولا يعرف للورع والتقوى من معنى. بعبارة أخرى: فإن كافة معارف الإمام عليه السلام حتى الأخبار الغيبية التي كان يحدث عنها إنما كانت دروساً تعلمها من النبي صلى الله عليه وآله، فهل من سبيل إلى الكذب لهذه الأخبار من قبل تلميذ النبي صلى الله عليه وآله وربيه الوفي علي عليه السلام؟ إلا أنّ المنافقين عمي الابصار والبصائر لا يرون سوى منافعهم، من هنا كانوا حريصين على تشويه سمعة الإمام عليه السلام. ثم يحتتم الإمام عليه السلام خطبته قائلاً: «كلاً والله! لكنّها لهجة^٢ غبتم عنها، ولم تكونوا من أهلها ويل أمّه^٣ كيلاً بغير ثمن! لو كان له وعاء، ولتعلمنّ نبأه بعد حين» والمراد بالعبارة «لكنّها لهجة غبتم عنها» - وبالالتفات إلى أنّ اللهجة هنا تعني الحقائق الغائبة عنهم - أنّ تكذيبكم وإنكاركم إنما يستند إلى جهلكم وضحالة أفكاركم وعدم علمكم بالأسرار التي تعلمتها من رسول الله صلى الله عليه وآله والقرآن، ولا عجب في «الناس أعداء ما جهلوا».

أمّا العبارة «ويل أمّه» - التي تفيد الترحم والتعجب كما ترد أحياناً للدعاء بالشر - فلها

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢٩/٦.

٢. «لهجة» من مادة «لهج» على وزن فلج، ويأتي معنى هذا اللفظ أحياناً بمعنى الملازمة وأحياناً بمعنى الاختلاط والمعايشة وأحياناً بمعنى العلاقة الشديدة بالشيء، وكذلك فإن اللهجة ملازمة للغة الإنسان، وتطلق على مجموعة مختلطة من الأمور، أما في الجملة أعلاه فالاصطلاح جاء بمعنى الأسرار والمفاهيم الخاصة.

٣. «ويل أمّه»: عبارة مركبة من (ويل) التي تأتي للدعاء أو التعجب وأمّه مضافة إلى ويل إن كان مبتدأ، كما يمكن أن تكون مبتدأ وخبرها محذوف وتقدير العبارة «ويل أمّه ثابت أو كائن» فإن قرأت منصوبة فهي منادى وأصلها (يا ويل أمّه) وقد وردت بكلمة واحدة في بعض النسخ ولا يفرق ذلك في المعنى.

معنيان لدى الشراح؛ المعنى الأول: تأسفه ﷺ من الجهود التي بذلها بحق أولئك المردة، والثاني: لعن المنافقين الذين دأبوا على الفساد والانحراف أبان حكومته ﷺ، ويبدو المعنى الثاني أنسب.

﴿﴾

تأملان

١ - علي ﷺ أول من أسلم

لقد صرحت هذه الخطبة وعلى غرار سائر خطب نهج البلاغة أنّ علياً ﷺ هو أول من آمن بالنبي ﷺ من الرجال (لأنّ خديجة هي الصديقة الاولى بالنبي ﷺ من النساء). وبالطبع فقد سعى بعض المتعصبين من أبناء العامة كصاحب البداية والنهاية للمساس بهذه الحقيقة المسلمة تأريخياً وروائياً من خلال بعض الذرائع الواهية، ولكن كما أشرنا آنفاً فإن هذه الحقيقة ثابتة على متوى التأريخ والروايات. فقد نقل العلامة الاميني في المجلد الثالث من غديره حدود مئة حديث بهذا الشأن عن مصادر العامة، والتي ورود بعضها عن رسول الله ﷺ والبعض الاخر عن الصحابة والتابعين، ومنها:

- ١ - عن النبي ﷺ أنه قال «أولكم وارداً على الحوض أولكم إسلاماً علي بن أبي طالب»^١.
- ٢ - وقال علي ﷺ: «أنا عبد الله وأخو رسول الله وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بغدي إلا كاذبٌ مفترٍ، ولقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل الناس بسبع سنين، وأنا أول من صلى معه»^٢.

٣ - وروى ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «إن أول من صلى معي علي»^٣.

- ٤ - كان من بين الاسئلة التي طرحها الحسن المجتبي ﷺ في مجلس معاوية: «أنشدكم بالله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً»^٤.

١. رواه الحاكم في المستدرک ١٣٦٣ والخطيب البغدادي في تاريخه ٨١٢، كما رواه آخرون.
 ٢. رواه عدد كثير من كبار علماء العامة باسناد معتبرة ومنهم: النسائي في الخصائص ص ٣ والحاكم في المستدرک ١١٢/٣ وابن ماجه في السنن ٥٧/١ والطبري في تاريخه ٢١٣/٢، وجمع آخرون المحدثين.
 ٣. ورد هذا لحدیث في الباب ٤٧ من فرائد السمطين بأربعة طرق.
 ٤. أورده ابن أبي الحديد في المجلد الثاني ص ١٠١.

٥- روت أغلب المصادر المعتبرة عن خادم النبي ﷺ أنس بن مالك قال «نبيء النّبِيّ يوم الإثنين وأسلم علىّ يوم الثلاثاء»^١.

٦- قال ابن عباس كنت عند عمر فجرى الكلام عن السبق في الإسلام، فقال عمر: ثلاث لعلي بن أبي طالب ﷺ لو كانت لي واحدة منها لكانت خيراً لي ممّا طلعت عليه الشمس: فقد ربت رسول الله ﷺ على كتف علي ﷺ وقال: «يا عليّ! أنت أول المسلمين إسلاماً وأنت أول المؤمنين إيماناً، وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى»^٢.

٧- روى أحمد بن حبل - أحد الائمة الأربعة - في مسنده أن علياً ﷺ قال: «لقد صلّيت قبل أن يصلّي أحدٌ، سبعا»^٣ فالأحاديث الواردة بهذا الشأن كثيرة لا يسع المقام ذكرها. وقد صنف المرحوم العلامة الاميني هذه الأحاديث (أحاديث رسول الله ﷺ، أحاديث علي ﷺ، أحاديث الإمام الحسين ﷺ وأحاديث الصحابة والتابعين والاشعار التي انشدت بهذا الخصوص) إلى جنب شهادة المؤرخين كالطبري في التأريخ وابن الأثير في الكامل ونصر بن مزاحم في صفين (ومن أراد المزيد فليراجع المجلد من كتاب الغدير ص ٢١٨ فصاعداً). كما نقل ابن أبي الحديد طائفة من هذه الأحاديث عن مصادر العامة في شرحه لنهج البلاغة^٤.

٢ - إجابة عن سؤال

الجدير بالذكر أنّ بعض المتعصبين الذين لم يسعهم التنكر لهذه الفضيلة من وجهة النظر التأريخية والروائية، تشبشوا ببعض الذرائع للحد من قيمتها، وأهم تلك الذرائع: يزعمون أنّ علياً ﷺ لما أسلم كان له من العمر عشر سنوات والإسلام لا يقر إسلام الصبيان؛ وقد إتسعت حدة هذه الذريعة الجوفاء في الاوساط المعادية للإمام ﷺ لتظن بتعذر الاجابة على هذا الأشكال، والحال:

أولاً: من المناسب أن نذكر الحوار الذي دار بين المأمون الخليفة العباسي مع فقيه العامة

١. رواه الترمذي في الجامع ٢/٢١٤ والحاكم في المستدرک ٣/١١٢ كما نقله آخرون.

٢. بحار الأنوار ٣٧/٢٦٨.

٣. مسند أحمد ١/٩٩ طبع دار الصادق.

٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤/١١٦٤.

اسحق. قال المأمون: يا إسحاق أي الأعمال كان أفضل يوم بعث رسول الله ﷺ؟ قلت: الاخلاص بالشهادة. قال: أليس السبق إلى الإسلام؟ قلت: نعم. قال: فهل علمت أحداً سبق علياً ﷺ إلى الإسلام؟ قلت: يا أمير المؤمنين، إن علياً أسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم. قال: فأخبرني عن إسلام علي حين أسلم؟ لا يخلو من أن يكون رسول الله ﷺ دعاه إلى الإسلام، أو يكون إلهاما من الله. فاطرق اسحاق ولم يجب.^١

وأضاف المرحوم العلامة الأميني بعد نقله هذه المحاوره: وقال أبو جعفر الاسكافي المعتزلي المتوفى ٢٤٠ في رسالته: قد روى الناس كافة إفتخار علي ﷺ بالسبق إلى الإسلام، وإن النبي ﷺ استنبي يوم الاثنين وأسلم علي ﷺ يوم الثلاثاء. وإنه كان يقول: صليت قبل الناس سبع سنين وإنه مازال يقول: أنا أول من أسلم. ويفتخر بذلك ويفتخر له به أولياؤه وما دحوه وشيعته في عصره وبعد وفاته، والأمر في ذلك أشهر من كل شهر، وقد قدمنا منه طرفاً وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا إستخف بإسلام علي ﷺ ولا تهاون به، ولا زعم أنه أسلم إسلام حدث نحرير وطفل صغير، ومن العجب أن يكون مثل العباس وحمزة ينتظران أبا طالب وفعله ليصدوا عن رأيه، ثم يخالفه علي ابنه لغير رغبة ولا رهبة يؤثر القلة على الكثرة، والذل على العزة من غير علم ولا معرفة بالعاقبة^٢. وروي في الخبر الصحيح أنه لكفه في مبدأ الدعوة قبل ظهور كلمة الإسلام وانتشارها بمكة أن يصنع له طعاماً وأن يدعو له بني عبدالمطلب، فصنع له الطعام ودعاهم ثلاثاً، ثم كلمهم ﷺ فدعاهم إلى الدين ثم ضمن لم يوازره منهم وينصره على قوله أن يجعله أخاه في الدين ووصيه بعد موته وخليفته من بعده فامسكوا كلهم وأجابوه هو وحده وقال: أنا أنصرك على ما جئت به واوازرك وأبايعك، فنصبه وصيه وخليفته، فضحك القوم وقالوا لأبي طالب: أطع ابنك فقد أمره عليك.

وزبدة القول فإن رسول الله ﷺ قبل إسلام علي ﷺ، فن قال بعدم إعتبار إسلامه بسبب عمره، في الواقع يشكل على النبي ﷺ.

ثانياً: جاء في الروايات المشهورة لقصة يوم الدار إن النبي ﷺ أعدّ طعاماً ودعا إليه قرابته

١. العقد الفريد ٤٣/٣ بتصرف.

٢. الغدير ٢٣٧/٣.

من قريش فدعاهم إلى الإسلام وأن من يجب دعوته ويقف إلى جانبه في الدفاع عن الإسلام سيكون وحيه وخليفته، فلم يجبه إلا علي بن أبي طالب عليه السلام الذي قال: أنا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أنت أخي ووصيي وخليفتي. ^١ فهل هناك من يعقل أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل علياً عليه السلام أخيه ووصيه وخليفته ودعا الآخرين إلى طاعته بحيث يسخر منه زعماء الكفر والشكر ويقولون لأبي طالب عليك أن تسمع لولدك وتطيع، ولم يكن إسلامه مقبولاً؟! لا شك أن سن البلوغ ليس شرطاً لقبول الإسلام، فكل فتى له عقل وتمييز كاف ويعتق الإسلام وعلى فرض أن أباه ليس مسلماً فإنه يصبح في زمرة المسلمين إذا انفصل عنه.

ثالثاً: يستفاد من القرآن أن البلوغ ليس شرطاً حتى في النبوة، حيث بلغ النبوة حتى من كان صبياً، فقد صرح القرآن بشأن نبي الله يحيى عليه السلام بقوله: «وَأَتَيْنَاهُ الْكُفْمَ صَبِيًّا» ^٢. كما ورد بشأن عيسى عليه السلام أنه قال «إِنِّي عَبْدَ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا» ^٣. وإلا بعد من كل هذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد قبل الإمام علي عليه السلام، كما ذكرنا ذلك وأن النبي صلى الله عليه وسلم صرح يوم الدار بأنه أخوه ووصيه وخليفته.

على كل حال فإن الروايات التي صرحت بأن علياً عليه السلام هو أول من لبى دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم، إنما تنطوي على فضيلة لاتضاهيها فضيلة لعلي عليه السلام، فلا يرقى أحد لأن يكون في مصافه عليه السلام، ومن هنا كان عليه السلام أنسب فرد من هذه الامة بخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم.



١. ذكرنا اسناد هذه الرواية بالتفصيل ذيل حديث يوم الدار في رسالة القرآن ٣٢٦/٩.

٢. سورة مريم / ١٢.

٣. سورة مريم / ٣٠.



الخطبة ١

ومن خطبة له ﷺ

علم فيها الناس الصلاة على النبي ﷺ وفيها بيان صفات الله سبحانه
وصفة النبي والدعاء له

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة في الواقع من ثلاثة أقسام:
القسم الأول: قصير جداً يتحدث عن صفات الله سبحانه كمقدمة لاستئصال الرحمة
والصلوات على النبي ﷺ.
القسم الثاني: تعليم كيفية الصلاة على النبي الأكرم ﷺ، كما تطرق إلى ذكر العديد من صفاته
وخدماته الجليلة إلى البشرية ومبادئ الحق، والتي تستلزم أشرف الصلوات.
القسم الثالث: يتضمن مجموعة من الأدعية العظيمة بشأن النبي ﷺ، كما ورد فيه سؤال
البارئ سبحانه تعزيز رابطة الأفراد بالنبي ﷺ ومرافقته في الجنة.

❦❦❦

١. سند الخطبة: رواها الكثير ممن عاش قبل السيد الرضي (ره)، فقد وردت في الصحيفة العلوية والتذكرة لابن الجوزي والامالي للبغدادي وغريب الحديث لابن قتيبة والغارات للثقفني، كما فسر عبارتها ابن أثير في النهاية والزمخشري في الفائق وابن منظور في لسان العرب (مصادر نهج البلاغة ٧٠/٢).

القسم الأول

«اللَّهُمَّ دَاحِيِ الْمَدْحُوتَاتِ، وَدَاعِمِ الْمَسْمُوكَاتِ، وَجَابِلِ الْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَتِهَا: شَقِيَّهَا وَسَعِيدِهَا».

۸۰۰۳

الشرح والتفسير ربّ السموات

يشني الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة على الله سبحانه بثلاث من صفاته: «اللَّهُمَّ دَاحِيِ الْمَدْحُوتَاتِ، وَدَاعِمِ الْمَسْمُوكَاتِ، وَجَابِلِ الْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَتِهَا: شَقِيَّهَا وَسَعِيدِهَا» فالعبارة الاولى إشارة إلى بداية خلق السموات والأرض، حيث تشير النظريات إلى أنّ الكون والكرات والأجرام السماوية كانت كتلة واحدة ثم انفصلت عن بعضها لعدّة عوامل حتى إتسعت إلى ما هي عليه اليوم. كما كانت الأرض مطمورة تحت الماء، ثم ظهرت اليابسة شيئاً فشيئاً بعد أن نفذت المياه إلى المناطق العميقة والشقوق الأرضية، ثم إتسعت بمرور الزمان، حتى تكونت المناطق اليابسة والبحار، وأخيراً أصبحت الأرض أكثر إتساعاً بفعل جاذبية الأحجار السماوية، فقد صرح القرآن بهذا الشأن قائلاً: «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ» ۵ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ۶. والعبارة «داعم المسموكات» تعني

١. «داحي» من مادة «دحو» بمعنى البسط، و«دحو الأرض» إشارة إلى الزمان الذي خرجت فيه اليابسة تدريجياً من الماء وانتشرت.

٢. «داعم» من مادة «دعم» على وزن فهم بمعنى تسوية الاعوجاج، ومنه «الدعامة» بمعنى العمود.

٣. «المسموكات» من مادة «سك» على وزن سقف بمعنى رفع، والمسموكات المرفوعات وهي السموات.

٤. «جابل» من مادة «جبل» على وزن جبر بمعنى خالق.

٥. سورة الذاريات / ٤٧-٤٨.

حافظ السموات بما فيها السيارات والثوابت والمجرات بواسطة القوى الجاذبية اللامرئية؛ وهى القوى التي تحفظها بحيث لا تتغير المسافة بين كرات المنظومة الشمسية رغم مرور ملايين السنين؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا»^١. أما العبارة «و جابل القلوب» فهى إشارة إلى العلوم الفطرية والإلهية والغرائز والرغبات النافعة التي أودعها الله باطن الإنسان؛ العلوم والغرائز والرغبات التي تمثل الوسائل التي يوظفها الإنسان في مسيرته نحو السمو والتكامل والسير إلى الله إلى جانب الرقي المادي والمعنوي. ولعل هنالك من يعتقد أن الله أودع الشقاء والسعادة ذات الإنسان، بحيث هناك السعداء ذاتاً والأشقياء ذاتاً، والحال لا تفيد العبارة الواردة في الخطبة مثل هذا المعنى، بل تصرح العبارة بأن الله أودع هذه العلوم كافة أفراد البشر من آل أمره إلى السعادة أو الشقاء، وان إعتمدها البعض ووظفها من أجل السعادة وتجاهلها البعض الآخر ليزج بنفسه في وادي البؤس والشقاء؛ ولعل الحديث المعروف «كلّ مولود يولد على الفطرة...»^٢ يشير إلى هذا المعنى. فمن الواضح أنّ السعادة والشقاء لو كانا ذاتيين وكل فرد مجبر على سلوك السبيل الذي عين له سبباً، أن يكون من العبت بعث الأنبياء وانزال الكتب السماوية والتكاليف والمسؤوليات والأحكام الشرعية والثواب والعقاب، وبكلمة واحدة كافة المسائل المرتبطة بالتربية والتعليم وآثارها ومعطياتها؛ الأمر الذي لا يقره العقل ولا الشرع. قال القرآن: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا»^٣. كما قال في موضع آخر: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا»^٤. فالواقع هو أن الحق سبحانه أرشد الإنسان إلى طرق السعادة والشقاء دون أن يجبره على شيء، فهو مختار في أي سبيل سلك، ومن هنا كان مسؤولاً أمام الله وضميره.



١. سورة فاطر / ٤١.

٢. ورد مضمون هذا الحديث في عدة روايات تناهز العشرين، رواها المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار ٢٧٦٣ - ٢٨١، كتاب التوحيد.

٣. سورة الدهر / ٣.

٤. سورة الشمس / ٧-٨.

القسم الثاني

«اجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ، وَنَوَامِي بَرَكَاتِكَ، عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ، وَالْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ، وَالْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ، وَالذَّافِعِ جَيْشَاتِ الْأَبَاطِيلِ، وَالذَّمَّاعِ صَوْلَاتِ الْأَضَالِيلِ، كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ، فَأَيْمًا بِأَمْرِكَ، مُسْتَوْفِرًا فِي مَرْضَاتِكَ، غَيْرَ نَاكِلٍ عَنْ قُدَمٍ، وَلَا وَاهٍ فِي عَزْمٍ، وَاعِيًا لِوَحْيِكَ، خَافِظًا لِعَهْدِكَ، مَاضِيًا عَلَى نَفَازِ أَمْرِكَ؛ حَتَّى أُورَى قَبَسَ الْقَابِسِ، أَضَاءَ الطَّرِيقِ لِلْخَاطِبِ، وَهُدَيْتَ بِهِ الْقُلُوبَ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ الْأَثَامِ، وَأَقَامَ بِمَوْضِعَاتِ الْأَعْلَامِ، وَنَيَّرَاتِ الْأَحْكَامِ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعِيثُكَ بِالْحَقِّ، وَرَسُولُكَ إِلَى الْخَلْقِ».



الشرح والتفسير

آلاف التحية والسلام على النبي ﷺ

يصلي الإمام ﷺ أفضل الصلوات وأزكاها على النبي ﷺ ذاكراً أكثر من عشرين صفة من صفاته البارزة ﷺ التي تستلزم أطهر الصلوات عليه «اجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك على محمد عبدك ورسولك» فالصلوات هي رحمة الله، والبركات نعمه سبحانه كما تطرق الإمام ﷺ إلى صفتين بارزتين مهمتين من صفاته ﷺ: الأولى العبودية، والثانية الرسالة. فالعبودية تشكل إحدى إفتخارات الإنسان المسلم لله سبحانه، فيرى كل شيء لله حتى أمواله

١. «شرائف» جمع «شريفة» بمعنى ذاقمة.
٢. «نوامي» جمع «نامية» من مادة «نمر» بمعنى التوسعة والزيادة والتطور.

التي يملكها بالظاهر فهي، فقد ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال «إلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً»^١ ثم أشار إلى ختمه للأنبياء في الصفة الثالثة فقال: «الخاتم لما سبق» فان كانت ما تعود إلى العاقل فالعبارة تفيد الأنبياء السابقين وخاتمهم رسول الله صلى الله عليه وآله. وان كانت لغير العاقل عنت اختتام الشرائع السابقة بشريعة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله. ثم قال صلى الله عليه وآله «والفاتح لما أنغلق، والمعلن الحق بالحق» والمراد بالعبارة «الفتاح لما انغلق» أبواب العلوم والمعارف والمسائل الإنسانية الإخلاقية والاجتماعية المعقدة التي فتحها رسول الله صلى الله عليه وآله بوجه البشرية بدينه ونوره وهدايته، والعبارة «المعلن الحق بالحق» يمكن أن تكون إشارة إلى المعجزات التي تبين أحقية النبي صلى الله عليه وآله، كما يمكن أن يراد بها منطق الذي يكشف النقاب عن الحقائق، أو المعارك والغزوات التي أقصت خصوم الدعوة لترى الأمة الحقائق، أو توضيح الحقائق بقرائن بعضها البعض الآخر من قبيل تفسير بعض الآيات القرآنية ببعضها الآخر، وأخيراً يمكن أن تكون جميع هذه المعاني مرادة بالعبارة.

ثم قال صلى الله عليه وآله «والدافع جيوشات^٢ والباطل، والدامغ^٣ صولات^٤ الاضاليل» والجدير بالذكر في العبارة التعبير عن الباطل بالجيوشات وعن عوامل الضلال بالصولات حيث تصور كل منها عمق ما تختزنه هذه المفردات فالباطل مليء بالصخب والضجيج، كما أن عناصر الضلال غالباً ما تهجم على العزل من الناس. ثم قال صلى الله عليه وآله في مقام بيان علة الدعوة لهذه الصلوات الوافرة «كما حقل فاضطلع»^٥ فكما هنا بمنزلة التعليل وتفيد معنى لآته، والواقع أن قبول هذه المسؤولية العظمى وتحمل كافة تبعاتها بعد من أهم خصائص النبي صلى الله عليه وآله التي تجعله يستحق

١. بحار الأنوار ٤٠٧/٤.

٢. «جيوشات» جمع «جيشة» من مادة «جيش» على وزن عيش من جاشت القدر إذ ارتفع غليانها، ومنه الجيش لحركته.

٣. «دامغ» من مادة «دمغ» على وزن ضرب إذا شججه حتى بلغت الشجة دماغه.

٤. «صولات» جمع «صوله» بمعنى الحملة من أجل الغلبة. ويستعمل هذا الاصطلاح أيضاً في التعبير عن عضه البعير.

٥. «اضطلع» من مادة «اضطلاع» بمعنى القوة والقدرة على القيام بالعمل. وفي الأصل من مادة «ضلع» على وزن جسم، بمعنى الضلع، وهو العظم المقارم في مقابل الحوادث، وكذلك يطلق على اصطلاح «ضلع» وهو على وزن «منع» بمعنى القوة والقدرة.

الشكر والثناء. وقال ﷺ «قائماً بأمرك، مستوفزاً^١ في مرضاتك» فالقيام بالأمر إشارة إلى جدية الأوامر الإلهية لأن الإنسان ينهض من أجل القيام بالأعمال الجادة. فالتعبيران لا يشيران إلى مدى إمتثال النبي ﷺ لأحكام السماء فحسب، بل كان يسارع إلى الاتيان بكل ما يرضى الله سبحانه وإن لم تصدر إليه الأوامر. ثم قال ﷺ: «غير ناكل^٢ عن قدم^٣، ولا واه^٤ في عزم» فكثير هم الجديون في قراراتهم والانطلاق في أعمالهم، إلا أنهم يضعفون في الاستمرار والمواصلة، والمهم أن يواصل الإنسان نشاطه وعمله. ويفيد التأريخ أن النبي ﷺ لم ينكل أو يضعف أمام الوساس والضغوط، كما لم يكن يلين تجاه أي مبادرة منحرفة، ومن ذلك قوله «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن اترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»^٥. ثم قال ﷺ: «واعياً^٦ لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك». ثم اشار الإمام ﷺ إلى النتيجة التي تمخضت عنها جهود النبي ﷺ وتضحيتة «حتى أورى^٦ قيس^٧ القابس، وأضاء الطريق للخابط^٨، وهديت به القلوب بعد خوضات^٩ الفتن والآثام».

والعبارة تلمح إلى سرعة إنتشار الإسلام واشراقه شبه الجزيرة العربية التي كانت مهد الكفر والشرك ومركز الجهل والجريمة، ولا يشك في هذه الحقيقة من كان له أدنى إلمام بالتأريخ الإسلامي؛ الأمر الذي إعترف به حتى خصوم الدعوة. ثم قال ﷺ: «وأقام بموضحات الأعلام، ونيرات الأحكام». فالواقع وبغية الحيلولة دون تلكؤ أصحاب الحق في

١. «مستوفز» من مادة «استيفاز» بمعنى المساعد المستعجل.

٢. «ناكل» من مادة «نكول» بمعنى الناكص والمتأخر.

٣. «القدم» بضمين المشيبي إلى الحرب ومضى قدما سار ولم يخرج.

٤. الكامل لابن اثير ٤٨٩/١ (كما ورد هذا الكلام في سيرة ابن هشام وتأريخ الطبري).

٥. «واعياً» أي حافظاً وفاهماً، وعيت الحديث فهمته وحفظته.

٦. «أورى» من مادة «ورى» على وزن نفي بمعنى اشعال النيران وعليه فان (اورى) فعل متعدي.

٧. «القابس» على وزن قفص بمعنى شعلة من النار.

٨. «خابط» من مادة «خبط» على وزن ضبط بمعنى الحركة في طريق غير صحيح، وكذلك تأتي بمعنى عدم

التعادل أثناء المسير أو القيام.

٩. «خوضات» جمع «خوضة» من مادة «خوض» على وزن حوض، وفي الاصل يأتي بمعنى الدخول

التدريجي في الماء، والسير والسباحة في الماء، وكذلك يأتي كناية عن معنى الدخول أو البدء بعمل أو خطاب

سيء وغير مطلوب.

مسيرتهم، لا بد من نصب العلامات الدالة على الطريق واضاءت كافة ظلماته، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ حين أضاء كل معالم الطريق ونصب الأدلاء عليه. ومن ذلك الأحكام المتعلقة بالصلوات اليومية و صلاة الجمعة - وبمراسمها الخاصة - وحج بيت الله الحرام التي من شأنها هداية أتباع الحق وصددهم عن الحيرة والضلال، إلى جانب بيانه للأحكام ذات الصلة بالقضايا الاجتماعية والتربوية والسياسية والاقتصادية. ثم يحتتم ﷺ هذا الفصل من الخطبة بخمس صفات أخرى للنبي الأكرم ﷺ فقال: «فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، بيعيتك بالحق، ورسولك إلى الخلق» فبعض هذه الصفات مقدمة وبعضها الآخر نتيجة. فكونه أمين الله وخازن علمه إنما هي مقدمة من أجل الرسالة إلى الخلق والبعث بالحق، كما أن شهادته يوم القيامة إنما تمثل نتيجة هذه الرسالة. أمّا قوله ﷺ: «أمين مأمون» هو تأكيد لمدى أمانته ﷺ وإشارة إلى العصمة المشروطة في النبوة. وأمّا قوله ﷺ: «خازن علمك المخزون»، فالمراد به علمه ﷺ بأسرار الغيب، وقد أشرنا إلى ذلك في حينه إلى تعذر قيام الأنبياء والأئمة بوظيفتهم بصورة تامة دون العلم بتلك الاسرار والخفايا، وقد أشار القرآن بهذا الشأن: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ»^١ والعبارة «شهادتك يوم الدين» مستوحاة من الآية ١٤٣ من سورة البقرة: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» والآية ٨٩ من سورة النحل: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ...» التي تشير إلى شهادة النبي ﷺ على أعمال الأمة وشهادته على شهداء سائر الأمم. ولما كانت الشهادة من فروع العلم، فإن هذه التعبيرات تشكل دليلاً آخر على علمه ﷺ بأسرار الغيب.

القسم الثالث

«اللَّهُمَّ افْسَحْ لَهُ مَفْسَحاً فِي ظِلِّكَ؛ واجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ، اللَّهُمَّ وَأَعْلِ عَلَيَّ بِنَاءَ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ، وَأَتِمِّمْ لَهُ نُورَهُ، واجْزِهِ مِنْ ابْتِعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ، مَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ، ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، حُطْبَةٍ فَضْلٍ. اللَّهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَتَهُ فِي بَرْدِ الْعَيْشِ وَقَرَارِ النُّعْمَةِ، وَمُنَى الشَّهَوَاتِ، وَأَهْوَاءِ اللَّذَاتِ، وَرَخَاءِ الدَّعَةِ، وَمُنْتَهَى الطُّمَأْنِينَةِ، وَتُحَفِ الْكَرَامَةِ».

❦❦❦

الشرح والتفسير

الحشر مع النبي ﷺ

يتضرع الإمام عليه السلام بدعاء جامع بحق النبي ﷺ، ليعلمنا في الواقع كيفية الدعاء للنبي ﷺ، فقد سأل الله للنبي ﷺ ستة أشياء: «اللَّهُمَّ افسح له مفسحاً في ظلك» فالظل هنا قد يراد به المعنى الكنائي، كما يمكن أن يراد به ظل لطف الله وكرمه وجوده، أو أن يقصد به المعنى الحقيقي ليعني ظلال الجنان في المحشر، فقد ورد في الحديث: «أن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها»^١. ثم قال ﷺ: «واجزه مضاعفات الخير من فضلك» ومن الواضح أن الثواب الإلهي هو الضعف على الدوام، ولاغرو فذلك نابع من فضله وجوده وكرمه التي لا ترى مكافئة الأعمال بمثلها دون زيادة، مع ذلك فقد سأل الله المزيدي لنبيه ﷺ. ثم قال ﷺ:

١. «افسح» من مادة «فسح» على وزن فسخ بمعنى المكان الواسع. ومن هنا فان هذه المادة تأتي بمعنى التوسعة.

٢. مجمع البيان، ١٠ - ٢١٨/٩ ذيل الآية ٣٠ من سورة الواقعة.

«اللَّهُمَّ وأعل على بناء البانين بناءه، وأكرم لديك منزلته» والمراد بالبناء هنا إمام دين النبي ﷺ الذي سأل الله إظهاره وعلوه على سائر الأديان، وإمام مقامه ﷺ وعلوه على من سواه. وتضرع ﷺ قائلاً: «و أتمم له نوره، واجزه من ابتعاثك له مقبول الشَّهادة، ومرضي المقالة، ذا منطقي عدل، وخطبة فصل» والجدير بالذكر في هذا الدعاء أنه عدّ شفاعته النبي ﷺ للأمة جزاءً لتبليغه الرسالة؛ الأمر الذي تعود بركته على الأمة وهذا ما يمثل قمة لطفه وكرمه ﷺ. كما أشارت العبارة إلى أن شهادته وشفاعته ﷺ ليست إعتباطية فنطقه العدل وحديثه الفرقان بين الحق والباطل، فاذا شفع لشخص أو جماعة فقد توسم فيهم الشفاعة، وهذا ما أوردناه في بحث الشفاعة، في أنها خاضعة لقانون وليست عبثية، بل للشفاعة مقدماتها التي تكمن في الأهلية والاستحقاق، وبعبارة أخرى لا بد أن تكون هنالك رابطة معنوية قائمة بين الشفيع والمشفع فيه، وإلا فن قطع هذه الرابطة فهو لا يستحق الشفاعة، ولعل هذه الشفاعة هي المقام الذي أشارت إليه الآية القرآنية: «وَمِنَ السَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً»^١.

ثم يختتم الإمام ﷺ خطبته بالدعاء له وصحبه: «اللَّهُمَّ اجمع بيننا وبينه في برد العيش قرار النعمة، ومنى الشهوات، وأهواء اللذات، ورخاء الدعة،^٢ ومنتهى الطمأنينة، وتحف الكرامة» ويبدو أن هذه هي خصائص الجنة من قبيل السكينة والكرامة الإلهية والنعم الطيبة والمعنوية والمادية إلى جانب البقاء والخلود.

تأمل

معطيات الصلاة على النبي ﷺ

لقد تضمنت الخطبة أسمى الصلوات والتحيات على النبي الأكرم ﷺ؛ الأمر الذي ينبهنا إلى عظم هذه المسألة التي صرحت بها التعاليم الإسلامية. فالواقع هو أن الروايات الإسلامية

١. سورة الاسراء / ٧٩.

٢. «دعة» من مادة «وداع» بمعنى الانفصال والترك وتخلية السبيل، ومن هنا يطلق هذا الاصطلاح على كل شيء يتركه الانسان، ويبقى بدون حركة وبحالة من الهدوء. وهذا الاصطلاح يأتي أحيانا بمعنى الهدوء، وقد جاء في الخطبة اعلاه بهذا المعنى.

أكدت الصلوات على النبي ﷺ ومدى الأجر والثواب الذي أشارت إليه مصادر الفريقين إزاء هذا العمل بما يفوق التصور ويدعو إلى الدهشة والذهول، ومن هنا فقد إقتطنا بعض الروايات الواردة بهذا الشأن والتي نلفت إليها إهتمام القراء الأعزاء ثم نسلط الضوء على ما ورد فيها:

- ١ - فقد جاء في الحديث أن أمير المؤمنين علي ﷺ قال: «الصلاة على النبي وآله أمحق للخطايا من الماء إلى النار والسلام على النبي أفضل من عتق رقاب»^١.
- ٢ - وفي الخبر عن الإمام الصادق ﷺ قال: «إذا ذكر النبي فأكثرُوا الصلاة عليه فإنه من صلى على النبي صلاة واحدة صلى الله عليه ألف صلاة في ألف صف من الملائكة ولم يبق شيء مما خلقه الله إلا صلى على [ذلك] العبد لصلاة الله عليه وصلاة ملائكته فمن لم يرغب في هذا فهو جاهل مغرور قد برئ الله منه ورسوله وأهل بيته»^٢.
- ٣ - عن رسول الله ﷺ قال: «كل دعاءٍ محجوبٍ حتى يصلى على النبي»^٣.
- ٤ - وعن رسول الله ﷺ أيضاً قال: «الصلاة على نورٍ على الصراط»^٤.
- ٥ - وروي عن الإمام الباقر أو الصادق ﷺ انه قال: «ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة على محمد وآل محمد وإن الرجل لتوضع أعماله في الميزان فتميل به فيخرج الصلاة عليه فيضعها في ميزانه فترجح»^٥.
- ٦ - كما روي عنه ﷺ قال: «إذا كان يوم الخميس بعث الله ملائكة معهم صحف من فضة وأقلام من ذهب يكتبون يوم الخميس وليلة الجمعة أكثر الناس علي صلاة»^٦.
- ٧ - وعنه ﷺ قال: «صلوا علي فإن الصلاة علي زكاة لكم»^٧.
- ٨ - عن الإمام الصادق ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لعلي ﷺ: «ألا أبشرك؟ قال: بلى بأبي

١. ثواب الأعمال للشيخ الصدوق / ١٨٥.

٢. بحار الأنوار ٣٠/١٧.

٣. كنز العمال ٤٩٠/١، ح ٢١٥٣.

٤. كنز العمال ٤٩٠/١، ح ٢١٤٩.

٥. وسائل الشيعة ١٢١٠/٤ الباب ٣٤ من ابواب الذكر.

٦. كنز العمال ١/ ح ٢١٧٧.

٧. كنز العمال ٤٩٤/١، ح ٢١٨٢.

أنت وأمِّي فإنك لم تنزل مبشراً بكل خير. فقال: أخبرني جبرئيل أنفاً بالعجب. فقال أمير المؤمنين: وما الذي أخبرك يا رسول الله؟ قال: أخبرني أن الرجل من أمتي إذا صلى عليّ فأتبع بالصلاة على أهل بيتي فتحت له أبواب السماء وصلت عليه الملائكة سبعين صلاة وأنه إن كان من المذنبين تحات عنه الذنوب كما تحات الورق من الشجر»^١.

٩ - وروي عنه عليه السلام قال: «أكثرُوا الصَّلاةَ عليَّ فإنَّ اللهَ وكلَّ بي ملكاً عند قبري فإذا صَلَّى عليَّ رجلٌ من أمتي قال ذلك الملك يا محمد: إن فلان بن فلانٍ صَلَّى عليك الساعة»^٢.

١٠ - وروي الإمام الباقر عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من صَلَّى عليَّ إيماناً واحتساباً إستأنف العمل»^٣.

١١ - ولم يقتصر وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله عند ذكر اسمه فحسب، بل تأكد ذلك حتى حين الكتابة، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من صَلَّى عليَّ في كتابٍ لم تنزل الملائكة تستغفر له مادام اسْمِي في ذلك الكتاب»^٤.

١٢ - روت عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من سرّه أن يلقى الله غداً راضياً فليكثر الصَّلاةَ، عليَّ»^٥.

وزيادة الكلام قد تطافرت الروايات بهذا الشأن والتي تفيد مدى أهمية الصلوات والسلام على النبي وآله، بحيث تضمنت مثل هذا الأجر والثواب لهذا العمل، وما أوردناه في السابق هو غيض من فيض تلك الروايات.



١. شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئي ٢١٤/٥ - ٢١٥.
 ٢. كنز العمال ٤٩٤/١، ح ٢١٨١.
 ٣. وسائل الشيعة ١٢١٣/٤ (الباب ٣٤ من أبواب الذكر).
 ٤. كنز العمال ٥٠٧/١، ح ٢٢٤٣.
 ٥. كنز العمال ٥٠٤/١، ح ٢٢٢٩.

الاجابة على بعض الأسئلة

١- ما سر هذه الاهمية للصلوات على النبي

قبل كل شيء يبرز هنا هذا السؤال وهو ما سر كل هذه الأهمية للصلوات؟ وما الأمر الذي تخزنه الصلوات على النبي ﷺ؟ ويمكن القول في الاجابة على هذا السؤال هو عدم نسيان مكانة النبي الأكرم ﷺ ومقامه الجليل، ويستلزم ذلك عدم هجر الإسلام وتعاليم الحق، ومن هنا كانت الصلوات على النبي رمزا لبقاء الإسلام وديمومة مسيرته. أضف إلى ذلك فإن الصلوات تدعونا للتعرف بصورة أعمق على مقامه ﷺ والافتداء باخلاقه وصفاته، ومن هنا وردت بعض التعبيرات التي تفيد أن الصلوات على النبي ﷺ تؤدي إلى طهارة الأخلاق ونقاء الاعمال وتساقط الذنوب، ومن ذلك ما جاء في الزيارة الجامعة: «وجعل صلواتنا عليكم وما خصنا به من ولايتكم طيباً لخلقنا وطهارة لأنفسنا وتزكية لنا وكفارة لذنوبنا». كما أشير في عدة روايات إلى تحات الذنوب حين الصلوات على النبي ﷺ. من جانب آخر فإن الصلوات على النبي ﷺ وآله إنما تمطر أرواحهم الطاهرة بوابل من رحمة الله، ولما كانوا في وسائط الفيض فإن تلك الرحمة وبركاتها إنما تنحدر منهم إلى الأمة. وعليه فالصلوات والرحمة عليهم في الواقع هي صلوات علينا ورحمة لنا. أضف إلى ذلك فإن الصلوات على النبي ﷺ إنما يمثل نوعا من الشكر والتقدير للجهود التي بذلها من أجل هداية الأمة، ومما لا شك فيه أن هنالك أجر وثواب لهذا الشكر ومعرفة الجميل.

٢- آثار الصلاة على النبي ﷺ

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو أن الصلاة على النبي ﷺ هل لها من دور على منزلته ومقامه ﷺ وآله؟ لعل هنالك من يقول بعدم وجود أي دور لهذه الصلاة فالنبي وآله قد بلغوا المقام الذي يريدون؟ إلا أن خواء هذا الكلام يتضح من خلال الالتفات إلى أن المسيرة التكاملية للإنسان إنما تنطلق من المتناهي إلى اللامتناهي، وعليه فهي مسيرة مفتوحة ليست

محددة باطر و حدود، ومن هنا ورد في بعض الأدعية وبضمنها التشهد القول بحق النبي ﷺ «وارفع درجاته»^١ وإلى ذلك أشار القرآن: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»^٢ والفعل المضارع (يصلون) يفيد استمرار هذه الرحمة، ومن الواضح أن كل مسلم ينطق بالتوحيد والإسلام إنما يمثل رحمة متجددة لمشيد دعائم هذا الدين، وذلك لأنه ﷺ صاحب الفضل في سن هذه السنة الحسنة.

٣ - الغاء الصلوات على النبي ﷺ

السؤال الآخر الذي يطرح نفسه بهذا الشأن يكمن في الصيغة التي ترد بها الصلاة على النبي ﷺ. فقد وردت روايات عن طريق الفريقين التي أكدت إقتران آل النبي ﷺ به حين الصلاة. ونكتفي هنا بالإشارة إلى بعض هذه الروايات:

روي في الدر المنثور عن صحيح البخاري ومسلم وأبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن مردويه عن كعب بن عجرة أن رجلاً قال للنبي ﷺ: «أما السلام عليك فقد علمناه فكيف الصلاة عليك؟» قال رسول الله ﷺ: «قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد».

وإضافة إلى الحديث المذكور فقد نقل صاحب تفسير الدر المنثور ثمانية عشر حديثاً صرحت جميعها بوجوب ذكر آل محمد حين الصلاة عليه، وقد نقلت هذه الأحاديث في المصادر المشهورة والمعروفة لدى العامة عن طريق الصحابة ومنهم: ابن عباس وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وطلحة وأبومسعود الأنصاري وبريدة وابن مسعود وكعب بن عجرة وأمير المؤمنين علي ﷺ.^٣ وقد روى صحيح البخاري^٤، عدة روايات بهذا الخصوص، كما

١. وسائل الشيعة ٩٨٩/٤ باب كيفية التشهد.

٢. سورة الأحزاب / ٥٦.

٣. تفسير الدر المنثور ٢١٦٧/٥ ذيل الآية ٥٦ من سورة الأحزاب.

٤. صحيح البخاري ١٥١/٦ في تفسير سورة الأحزاب.

جاءت روايتان في صحيح مسلم^١، والغريب هو أنّ العنوان الذي ورد في صحيح مسلم باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (دون ذكر آله) رغم إقتران الآل بالنبي ﷺ في الأحاديث المذكورة. والجدير بالذكر هنا أن بعض روايات العامة وأغلب روايات الشيعة لم تفصل بين محمد وآل محمد بحرف على، والصيغة الواردة هي «اللهم صل على محمد وآل محمد». ونختتم البحث بهذا الحديث الذي ورد في صواعق ابن حجر^٢ أن النبي ﷺ قال: «لا تصلوا على الصلاة البتراء! فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال: يقولون: اللهم صل على محمد، وتمسكون؛ بل قولوا: اللهم صل على محمد وآل محمد» أضيف إلى ذلك فقد وردت عدة أحاديث بهذا المجال في المجلد الأول من كثر العمال.

٤ - الصلاة على النبي واجبة أم مستحبة؟

هنا يبرز هذا السؤال: هل الصلاة على النبي واجبة أم مستحبة؟ ظاهر الآية السادسة والخمسون من سورة الأحزاب: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...» هو الوجوب؛ لأننا نعلم أن صيغة الأمر تفيد الوجوب، إلا أن تكون هناك قرينة على خلافه، وقد أمر الله في هذه الآية بالصلاة على النبي، فأقل ما يلزم الصلاة عليه ولو لمرة واحدة. أضيف إلى ذلك فإن مشهور فقهاء الشيعة وجمع من فقهاء العامة يعتقد بوجوب الصلاة على النبي ﷺ في التشهد. فقد صرح فقيه العامة ابن قدامة في كتاب المغني بوجوب الصلاة على النبي في التشهد الأول وقال: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم... وهي واجبة في صحيح المذهب وهو قول الشافعي وإسحاق...» ثم نقل عن ابن راهويه (أحد فقهاء العامة) «لو أن رجلاً ترك الصلاة على النبي ﷺ في التشهد بطلت صلاته».

وأضاف: (وظاهر مذهب أحمد أحد الائمة الأربعة لدى العامة) هو الوجوب أيضاً.^٣ وصرح الشيخ منصور علي ناصف صاحب كتاب الجامع للاصول ذيل الآية السادسة

١. صحيح مسلم ٣٠٥/١ باب الصلاة على النبي ﷺ.

٢. الصواعق لابن حجر ١٤٤/١.

٣. المغني ٥٧٩/١.

والخمسين من سورة الأحزاب: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...» أن ظاهر الآية هو وجوب الصلاة على النبي وعليه إتفاق العلماء.^١

٥ - المفهوم الحقيقي للصلاة على النبي ﷺ

السؤال الأخير الذي يطرح نفسه هنا: ما مفهوم هذه الصلوات؟ يتفق العلماء على أن صلاة الله على العبد تعني الرحمة، وصلاة الملائكة والناس تعني طلب العفو والرحمة، أو حسب الرواية الواردة عن الإمام الكاظم ﷺ حين سئل عن معنى صلوات الله والملائكة والمؤمنين في الآية الشريفة: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ» قال: صلاة الله رحمته وصلاة المؤمنين تقديسهم للنبي ﷺ وصلاة المؤمنين طلبهم الرحمة للنبي ﷺ.^٢ ويرى البعض أن جمعي هذه ارسال الرحمة أو التقديس وطلب المغفرة بحيث يردها كل أحد على ضوء مقتضى حاله.^٣ ولما كان الأصل اللغوي لهذه المفردة صلى على وزن سعى بمعنى القذف في النار أو الاشتغال بهما، فإن البعض يرى أن الصلوات تعني إبعاد نار العذاب الأخروي، ونتيجته الرحمة أو طلبها؛ إلا أن البعض فرق بين الصلو الناقص الواوي والصلو الناقص اليائي، على أن المعنى الأخير يتعلق بصلو بيننا ترتبط المعاني السابقة بالصلو (لابد من التأمل).

على كل حال فإن ما ورد يشير إلى أن كل صلاة وسلام على النبي ﷺ يمثل رحمة متجددة على روحه الطاهرة، ولا يستبعد أن تطول تلك الرحمة التي تستند لتلك العين الإلهية الفياضة الأمة وترفف عليها، ومن هنا كانت الصلوات والسلام على النبي ﷺ مصدر رحمة للإنسان وغفران ذنوبه. أما بشأن المراد بآل محمد ﷺ هل هم أهل البيت من ولده، فهذا ما سنعرض إليه في الخطبة ٢٣٩. وقد أشرنا في الخطبة الثانية من المجلد الأول لهذا الأمر.



١. التاج الجامع للاصول ١٤٣/٥.

٢. تفسير نورالثقلين ٣٠٢/٤، رقم ٢١١ (ذيل الآية ٥٦ من سورة الأحزاب).

٣. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة صلو (باقتباس ونقل بالمعنى).



قاله لمروان بن الحكم بالبصرة

قالوا: أَخَذَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ أَسِيرًا يَوْمَ الْجَمَلِ، فَاسْتَشْفَعَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَلَّمَاهُ فِيهِ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ فَقَالَا لَهُ: يُنَابِعُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿﴾

نظرة إلى الخطبة

يشير كلامه عليه السلام في هذه الخطبة إلى عذر مروان وبني مروان من جانب ويشبه خيانتهم بخيانة اليهود الذين وقفوا بوجه الدعوة منذ انبثاقها إلى يومنا هذا. كما يخبرنا عليه السلام عن حكومة بني مروان وهذه الشجرة الخبيثة ومدى المصائب والويلات التي طالت المسلمين من تلك الحكومة. وتكشف هذه النبوءة عن إحاطته عليه السلام بالحوادث المستقبلية.

﴿﴾

١. سند الخطبة روى طرفاً من هذا الكلام قبل الرضوي ابن سعد في الطبقات ج ١ في ترجمة مروان، والبلاذري في أنساب الأشراف بترجمة أمير المؤمنين، ورواه بعد الزمخشري في ربيع الأبرار والسيوطي في تذكرة الخواص باختلاف يسير، وجاء في النهاية في غريب الحديث لابن الأثير. وقال ابن أبي الحديد في ١٤٦٦ من شرحه لنهج البلاغة: وقد روي هذا الخبر من طرق كثيرة ورويت فيه زيادة لم يذكرها صاحب نهج البلاغة، فترى ابن أبي الحديد هنا ينص على تواتر هذا الخبر وكثرة طرقه. مصادر نهج البلاغة ٧٢/٢.

«أَوْ لَمْ يُبَايِعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُمَانَ؟ لَا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ إِنَّهَا كَفُّ يَهُودِيَّةً،
لَوْ بَايَعْنِي بِكَفِّهِ لَعَدَرَ بِسَبِّتِهِ. أَمَا إِنْ لَهُ إِمْرَةٌ كَلَعَقَةَ الْكَلْبِ أَنْفَهُ، هُوَ أَبُو
الْأَكْبُشِ الْأَزْبَعَةِ، وَسَتَلْقَى الْأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وَلَدِهِ يَوْمًا [مَوْتًا] أَحْمَرَ».

٤٠٠٨

الشرح والتفسير

الغنى عن بيعة مروان

كما أوردنا سابقاً أن الإمام عليه السلام قال هذا الكلام لما استشفع إليه الحسن والحسين عليهما السلام في العفو عن مروان بن الحكم لما أسرى يوم الجمل، ثم إقترحا على الإمام عليه السلام بيعته، فقال «أولم يبايعني بعد قتل عثمان؟ لَا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ! إِنَّهَا كَفُّ يَهُودِيَّةً، لَوْ بَايَعْنِي بِكَفِّهِ لَعَدَرَ بِسَبِّتِهِ»^١ وتشبيهه يده باليد اليهودية تعد إشارة واضحة إلى خيانة مروان وغدره الذي ورثه في الواقع من أبيه الحكم، عم عثمان بن عفان الذي كان يتجسس على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لصالح الكفار والمشركين والمنافقين إلى جانب سخريته واستهزائه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فنفاه صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف، ولم يشفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عثمان في رده إلى المدينة فلما ولي عثمان الخلافة كان أحد أسوأ أعماله التي دعت الناس للقيام عليه إعادة الحكم بن أبي العاص إلى المدينة. ومن الطبيعي ألا يكون هناك من اعتبار لبيعة هذا الرجل الذي بايع علياً عليه السلام ثم نقض بيعته ولم يقم لها وزناً، رغم أن البيعة كانت محترمة حتى في الجاهلية. فقد نقض بيعته وأجج نار الجمل، فلو بايع ثانية لنقض هذه البيعة

١. «سبة» على وزن غدة تعنى الطعنة في موضع واصلها من سب كما ترد كناية عن مخرج الإنسان، وقد وردت بهذا المعنى في العبارة المذكورة، ومعنى الكلام محمول على وجهين: أحدهما أن يكون ذكر السبة إهانة له وغلظة عليه، والعرب تسلك مثل ذلك في خطبها وكلامها، والثاني أن يريد بالكلام حقيقة لامجازاً، وذلك لأن الغادر من العرب كان إذا عزم على الغدر بعد عهد قد عاهده أو عقد قد عقده، قبل إستهزاء بما كان قد أظهره من اليمين والعهد، وسخرية وتهكماً. (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٤٧/٨).

متى تسنح له الفرصة، فقد كان تبعاً لهواه، ولم يك للعزة والشرف والالتزام الأخلاقي والشرعي من أهمية لديه. ثم أخبر الإمام عليه السلام عن ثلاثة أمور غيبية بشأن مروان، يكمن الأول فيها في إستيلانه على الخلافة لمدة قصيرة: «أما إن له إمرةً كلعقة الكلب أنفه» فالكلب حين يزرج برأسه في جيفة ليتناول مما فيها، يعلق مقداراً من بقايا تلك الجيفة على أنفه فيمد لها لسانه بغية تناوله وتنظيف ما علق بأنفه. ويمثل هذا التعبير بشأن قصر حكومة مروان منتهى البلاغة والفصاحة، وهو من قبيل: «المقال المطابق لمقتضى الحال». نعم فهو كالكلب الذي إنقض على جيفة الحكومة اللامشروعة لآل أمية، ولمدة قصيرة رآها بعض المؤرخين أربعة أشهر وعشرة أيام وقيل ستة أشهر، وأكثر مدة صرح بها المؤرخون هي تسعة أشهر، وهكذا تحققت نبوءة الإمام عليه السلام بشأنه حتى قتل على يد زوجته كما سنعرض لذلك في البحث القادم. الأمر الثاني الذي تنبأ به الإمام عليه السلام: «وهو أبو الأكبش^٢ الأربعة» والأكبش جمع كبش الحيوان الهائج المعروف حيث يشترك معه ولد مروان بهذه. وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بالأكبش الأربعة من ولد مروان هم: عبد الملك الذي ولي الخلافة بعده وعبد العزيز الذي ولي مصر وبشر في العراق وأما محمد فولى الجزيرة، وقد ورث كل منهم الشر عن أبيه. وبالطبع فإن أولاد مروان كثيرون، إلا أن هؤلاء الأربعة قد ولوا الحكومة واليهم أشار الإمام عليه السلام بكلامه. بينما ذهب البعض الآخر من الشراح إلى أن المراد بالأكبش الأربعة حفدة مروان من ولد عبد الملك وهم: الوليد وسليمان ويزيد وهشام، ولم يل الخلافة من بني أمية ولا من غيرهم أربعة إخوة إلا هؤلاء. ومن هنا فقد رجح البعض القول الثاني لانسجامه والنبوءة الثالثة التي وردت في كلام الإمام عليه السلام: «وستلقى الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر» وهذه النبوءة هي الأخرى تحققت، وقد ولي هؤلاء الأكبش الخلافة الواحد بعد الآخر فارقوا الدماء وقتلوا طائفة عظيمة من الأبرياء، لتحقق نبوءة الإمام عليه السلام بقوله: «يوماً أحمر» من خلال تلك الفضائع والجرائم التي ارتكبوها، وفضل شاهد على ذلك الجنايات التي اقترفتها والي الكوفة على عهد عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي.

١. «لعقة» من مادة «لحق» على وزن لعب بمعنى لحسه و«العقة» اسم مرة «يعني لعق أو لحس مرة واحدة».

٢. «أكبش» جمع «كبش» بمعنى مذكر الغنم أو الخروف بأي عمر كان تطلق العرب هذه المفردة على رئيس القوم وزعيمهم فيقال: كبش القوم وكبش الكتبية.

تأمل

قصة نحريبة من حياة مروان بن الحكم

كان مروان بن الحكم من أعدى أعداء أمير المؤمنين علي عليه السلام، وقصته تمثل محور الخطبة والتي من شأنها توضيح أغلب الحقائق ذات الصلة بتاريخ صدر الإسلام. أبوه الحكم الذي نفاه رسول الله ﷺ، إلى الطائف وخاطبه ﷺ قائلاً: «لعنك الله ولعن ما في صلبك» وكان ذلك قبل ولادة مروان. وقيل نفي مع أبيه إلى الطائف وكان طفلاً لا يعقل، وإنه لم ير رسول الله ﷺ، ولم يزل في الطائف ولم يجرأ الخليفة الأول ولا الثاني على الشفاعة لدى رسول الله ﷺ لردّه إلى المدينة، حتى ولي عثمان فردّه إلى المدينة، وكان ذلك من الأعمال التي نقمها عليه الناس، والأعجب من ذلك قربه إليه وأغدى عليه أموالاً طائلة من بيت المال؛ ومن هنا إمتنع بعض صحابة رسول الله ﷺ من الصلاة خلف عثمان. بايع مروان علياً عليه السلام بعد قتل عثمان، ثم نقض بيعته وقدم البصرة وأجج نار الجمل، ثم أسر بعد أن قتل طلحة والزبير وهزم عسكر الجمل، وكما ورد في الخطبة فقد إستشفع الحسن والحسين رضي الله عنهما إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام وقيل ابن عباس فخلى الله سبيله. الا أنه بايع معاوية والتحق بصفين. وجاء في الخبر أن معاوية كان يخشى علياً حكومة يزيد من أربع من بينهم مروان، فعهد إلى ابنه بأن يصلي عليه، فاذا أتم الصلاة قتله، فلما اطلع مروان الخبر لم يكذب يتم الصلاة حتى هرب.

وأما وفاة مروان، والسبب فيها أنه كان قد استقرّ الأمر بعده لخالد بن يزيد بن معاوية على ما قدّمنا ذكره، فلما استوثق له الأمر، أحبّ أن يبايع لعبد الملك عبدالعزيز ابنه، فاستشار في ذلك، فأشير عليه أن يتزوج أم خالد بن يزيد، وهي ابنة أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة ليصغر شأنه فلا يرشح للخلافة، فتزوجها. ثم قال لخالد يوماً في كلام دار بينهما والمجلس غاص بأهله: اسكت يا ابن الرطبة، فقال خالد: أنت لعمرى مؤتمن وخبير.

ثم قام باكياً من مجلسه - وكان غلاماً حينئذ - فدخل على أمه، فأخبرها، فقالت له: لا يعرفنّ ذلك فيك، واسكت فأنا أكفيك أمره. فلما دخل عليها مروان، قال لها: ما قال لك خالد؟ قالت وما عساه يقول؟ قال: ألم يشكني إليك؟ قالت: إن خالداً أشدّ إعظاماً لك من أن يشتكك، فصدّقها. ثم مكثت أياماً، فنام عندها وقد واعدت جواريتها، وقنن إليه، فجعلن الوسائد

والبراذع عليه، وجلسن عليه حتى خنقه، وذلك بدمشق في شهر رمضان. وهو ابن ثلاث وستين سنة، في قول الواقدي.

ومما قيل في مروان أن أمه كانت من أصحاب الرايات في الجاهلية قبل أن تتزوج من الحكم، حيث نصبت الراية علناً على باب بيتها وكانت تدعوا الرجال إليها. وكما أشرنا سابقاً فإن حكومة مروان لم تدم أكثر من بضعة شهور، وقدم جاء في الخبر أنه رأى في المنام قد بال أربع مرات في محراب رسول الله ﷺ فلما سأل ابن سيرين عن رؤياه، أخبره بأن أربعة من بنيه يلون الحكومة فيعملون على هدم الإسلام وهذا ما وقع (طبعاً أربعة من أحفاده من ولد عبد الملك) فقد حكم الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦) وسليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩) ويزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥) وهشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥)، وقد تخلل المدة القصيرة بين حكومة الأولين والآخرين حكومة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١) وهو من أحفاد مروان. ثم انتهت حكومة آل مروان أسوأ خلفاء بني أمية.^١



١. اقتطفنا سيرة حياة مروان من تاريخ الطبري وسفينة البحار وشرح النهج لابن أبي الحديد.



لما عزموا على بيعة عثمان

نقرة إلى الخطبة

ونحن نذكر في هذا الموضوع ما استفاض في الروايات من مناشدته أصحاب الشورى، وتعديده فضائله وخصائصه التي بأن بها منهم ومن غيرهم قد روى الناس ذلك فأكثروا؛ والذي صحَّ عندنا أنه لم يكن الأمر كما روي من تلك التعديلات الطويلة؛ ولكنه قال لهم بعد أن بايع عبد الرحمن والحاضرون عثمان، وتلكاً هو عليه السلام عن البيعة: إن لنا حقاً إن نعطه نأخذه، وإن تمنعه نركب أعجاز الإبل وإن طال الشرى؛ في كلام قد ذكره أهل السيرة؛ وقد أوردنا بعضه فيما تقدم، ثم قال لهم: أنشدكم الله! أفيكم أحدٌ آخى رسول الله ﷺ بينه وبين نفسه؛ حيث آخى بين بعض المسلمين وبعضٍ غيري؟ فقالوا: لا؛ فقال أفيكم أحدٌ؟ قال له رسول الله ﷺ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا مَوْلَاهُ» غيري؟ فقالوا: لا، فقال: أفيكم أحدٌ؟ قال له رسول الله ﷺ: «أَنْتَ مَنِي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي» غيري؟ قالوا: لا، قال: أفيكم من أوْتَمَنَ على سورة براءة، وقال له رسول الله ﷺ إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل

١. سند الخطبة: لقد استفاد بعض شراح نهج البلاغة من كلام ابن أبي الحديد أن لديه خطبة طويلة لأمير المؤمنين علي عليه السلام بعد بيعة عبد الرحمن بن عوف لعثمان وما ورد في هذه الخطبة طرفاً منها، حيث أشار الإمام عليه السلام إلى فضائله وسوابقه ثم قال: «إني أحق بها من غيري والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة» (شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئي ٢٢٣/٥).

مِني غيري؟ قالوا: لا، قال: ألا تعلمون أن أصحاب رسول الله ﷺ قرؤوا عنه في ما قُطِ الحرب في غير موطن، وما فررت قَطًّا؟ قالوا: بلى، قال: ألا تعلمون أني أول الناس إسلاماً؟ قالوا: بلى. قال: فأينما أقرب إلى رسول الله ﷺ نسباً؟ قالوا: أنت. فقطع عليه عبد الرحمن بن عوف كلامه، وقال: يا علي؛ قد أبى الناس إلا على عثمان، فلا تجعلن على نفسك سبيلاً، ثم قال: يا أبا طلحة، ما الذي أمرك به عمر؟ قال: أن أقتل من شق عصا الجماعة، فقال عبد الرحمن لعلي: بايع إذن؛ وإلا كنت متبعاً غير سبيل المؤمنين، أنفذنا فيك ما أمرنا به. فقال: «لقد علمتم أني أحقُّ بهما من غيري، والله لأسليمن...» الفصل إلى آخره، ثم مَدَّ يده فبايع.^١



١. اقتباس من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦٧/٦، وللإطلاع أكثر حول المؤامرة التي حدثت في قضية الشورى من أجل إقصاء الإمام علي عليه السلام من الخلافة وماذا عمل هؤلاء من أجل تأمين مصالحهم المادية، فما عليك إلا الرجوع إلى «شرح نهج البلاغة» تأليف «محمد عبده» أحد علماء مصر، وقد أورد ذلك في ذيل الخطبة التي يدور بحثنا حولها.

«لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي وَوَاللَّهِ لَأُسَلِّمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ
الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً التَّمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ فَضْلِهِ وَزُهْداً
فِيهَا تَنَافَسْتُمُوهُ^١ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزَبْرِجِهِ».

٤٥٥٨

الشرح والتفسير

علم الجميع باحقيتي من غيري

أورد الإمام عليه السلام هذا الكلام حين أمر عمر بتشكيل الشورى من أجل انتخاب عثمان، والشورى هم: علي عليه السلام وعثمان وعبدالرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص. وقد أمر جماعة بامهالهم ثلاثة أيام لينتخبوا من بينهم خليفة، فاختروا عثمان خليفة بعد أن رفض علي عليه السلام ما اشترط عليه لقبول الخلافة، فرأى الإمام عليه السلام نفسه أمام عمل قد وقع، فأورد هذه الكلمات «لقد علمتم أنني أحق الناس بها من غيري» في إشارة إلى أن سكوتة عليه السلام لا يعني أدنى شك وريب في جدارته بالخلافة، فتطرق عليه السلام إلى الدافع الذي يكمن وراء ذلك السكوت فقال: «و والله لأسلمنَّ ما سلمت أمور المسلمين؛ ولم يكن فيها جورٌ إلا عليَّ خاصةً». نعم مصالح المسلمين هي الدافع لذلك السكوت، حذراً من شق صفوف المسلمين؛ الأمر الذي كان ينتظره أعداء الإسلام في الداخل والخارج بفارغ الصبر بغية تنفيذ مؤامراتهم التي تهدف إطفاء نور الإسلام، أو حرصاً على دماء المسلمين والحيلولة دون إراقتها، ثم يصرح بأنه مستعد للتنازل عن حقه إذا اقتصر الظلم عليه ولم تمارسه هذه الخلافة بحق الإسلام والمسلمين. ثم أتبعه عليه السلام بالدافع الثاني «ألتماساً لأجر ذلك وفضله» وإلى جانب ذلك «وزهداً

١. «تنافستموه» من مادة «منافسة» للحصول على شيء يعد نفيماً (وإن لم يكن في الواقع كذلك) ومن هنا يصطلح «بالنفيس» على الأشياء المرغوبة التي يخاطر الإنسان بنفسه من أجلها.

فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه»^١. فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة القصيرة إلى ثلاث حقائق مهمة هي:

أولاً: أنه أحق من كافة الأفراد بخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وأن أولئك الذين صدوه عن حقه بدافع من مصالحهم الشخصية أو حسداً وبغضاً إنما ظلموه كما ظلموا الأمة لأنهم حرموها من هذا الزعيم الكفو.

ثانياً: أن سكوت الإمام عليه السلام لم يكن إعتباطياً خالياً من القيود والشروط، بل قيده عليه السلام بانتظام أعمال المسلمين دون أن يتعرضوا لأي ظلم وجور.

ثالثاً: إن الإمام عليه السلام طلب أجر الله وثوابه بهذا السكوت المرير والملي بالمعاناة، كما أراد أن يثبت عدم قيمة ما يتنافس عليه الآخرون من زبرج الدنيا وزخرفها ويحرقون من أجلها الأخضر واليابس، ولا يقيم له الإمام عليه السلام من وزن.



الإجابة عن بعض الأسئلة

هنالك عدة أسئلة تطرح نفسها، الأول: ألا يفهم من كلام الإمام عليه السلام أن سكوته في عهد الخليفة الأول والثاني دليل على عدم خروجها عن مسار الحق والعدل؟ وإلا لقام الإمام عليه السلام واعترض عليها.

والجواب على هذا السؤال هو أن الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بذلك الوضع قطعاً؛ الأمر الذي نلمسه بوضوح بما ورد في الخطبة الشقشقية وغيرها من الخطب التي صرح فيها برفضه لذلك الوضع ليعلمه الجميع، فقد قال كل ما كان يجب قوله من خلال إمتناعه عن بيعة الخليفة الأول واعتراضه على ما ورد في السقيفة (كما مر علينا في شرح الخطبة ٦٧) ولما استتبت لهم الأمور وترسخت دعائم حكومتهم ولم يعد الاعتراض مجدياً سكت الإمام عليه السلام حذراً من خلخلة الأوضاع ونشوب النزاع داخل الحكومة الإسلامية مما يؤدي إلى إضعافها وإنهيارها. ومن

١. «زخرفه» و«زبرجه» أصل الزخرف الذهب وكذلك الزبرج، ثم أطلق على كل معوه مزور، وأغلب ما يقال الزبرج على الزينة من وشي أو جوهر.

هنا تتضح الإجابة على هذا السؤال: لماذا لم يعترض الإمام علي عليه السلام على عثمان، والحال أن أخطائه في التطاول على بيت مال المسلمين واغداقه أمواله على قرابته وبطانته وتسليطه لأولئك الأفراد على رقاب المسلمين ليست بخافية على أحد، فهل يعني ذلك السكوت رضاه عليه السلام بأعمال عثمان عليه السلام؟ فما لاشك فيه أن الإمام علي عليه السلام لم يسكت على عثمان ولم يرض بأعماله، فاعتراضه على نبي أبي ذر إلى الربذة وسائر أفعال عثمان تدل على أن الإمام علي عليه السلام كان شاجباً لأعمال عثمان، ومن الشواهد على ذلك ما روي عن الإمام علي عليه السلام أواخر عمر عثمان حيث نزل القوم يريدون قتل عثمان إن لم ينزع عما يكرهون، وعلم عثمان ذلك، جاء إلى منزل علي عليه السلام فدخل وقال: يا بن عم: إن لك عند الناس قدر وهم يسمعون منك، وأحب أن تركب إليهم فتردهم عني، فإن في دخولهم علي وهنا لأمري وجرأة علي. فقال عليه السلام: علي أي شيء أردتهم؟ قال: علي أن أصير إلى ما أشرت به، ورأيت لي. فقال عليه السلام: إني قد كلمتك مرة بعد أخرى، فكل ذلك تخرج وتقول وتعد ثم ترجع، وهذا من فعل مروان ومعاوية وابن عامر وعبدالله بن سعد، فأنتك أطعتهم وعصيتني. قال عثمان: فإني أعصيه وأطيعك. فأمر علي عليه السلام الناس أن يركبوا معه، فركب ثلاثون رجلاً من المهاجرين والأنصار، فأتوا المصريين فكلموهم، فسمعوا منهم ورجعوا بأصحابهم يطلبون مصر^١.

ثم قام عثمان بعدة أعمال شائنة مرت علينا في شرحنا للخطبة الشقشقية تحت عنوان «دوافع القيام ضد عثمان» بحيث أدت تلك الأعمال إلى إحباط سعي الإمام علي عليه السلام من أجل إطفاء الفتنة. فالكلام يفيد بما لا يقبل الشك مدى إعتراض الإمام علي عليه السلام على أعمال عثمان مرات وكرات وقد أخذ عهده على إصلاح وضعه، إلا أنه عجز عن ذلك الإصلاح حتى على مستوى الظاهر بفعل ضغوط مروان ومعاوية.

كما ورد في الخطبة ١٦٤ من نهج البلاغة شرح مفصل بهذا الشأن.

❦❦❦

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢٩/٢.

ومن كلام له ﷺ

لما بلغه اتهام بني أمية له بالمشاركة في دم عثمان

نظرة إلى الخطبة

يعرض الإمام ﷺ في هذه الخطبة بالذم لخصومه البعيدين عن المنطق في توجيه بعض التهم إليه التي لا يمكنها أن تطال ساحته المقدسة بفعل سوابقه المشرقة وأهدافه العظيمة التي لا تخفى على أحد.

٤٥٥٨

١. سند الخطبة: لم يذكر الرواة سندا خاصا لهذا الكلام سوى ماورد في نهج البلاغة، إلا أن صاحب مصادر نهج البلاغة نقل بعض هذا الكلام في مادة قرف عن ابن أثير في النهاية والطريحي في مجمع البحرين. مصادر نهج البلاغة ٧٦٢.

«أَوْلَمَ يَنْهَ بَنِي أُمِيَّةَ عِلْمُهَا بِي عَنْ قَرْفِي أَوْ مَا وَزَعَ الْجُهَالُ سَابِقَتِي عَنْ تَهْمَتِي وَلَمَّا وَعَظَهُمُ اللَّهُ بِهِ أَبْلَغَ مِنْ لِسَانِي أَنَا حَجِيحُ الْمَارِقِينَ خَصِيمُ النَّكِيثِينَ الْمُرْتَابِينَ وَعَلَى كِتَابِ اللَّهِ تُعْرَضُ الْأَمْثَالُ وَبِمَا فِي الصُّدُورِ تُجَازَى الْعِبَادُ».

٤٠٠٣

الشرح والتفسير

العدو اللدود للمنحرفين

يعتبر قتل عثمان - إثر البذخ والتطاول على بيت مال المسلمين والظلم والجور الذي تعرضت له الأمة منه ومن بطائه والذي أثار نقمة أغلب أفراد الأمة للقيام عليه - بؤرة أفضت إلى حوادث مريرة في التاريخ الإسلامي، إلا أن هنالك جماعة من الناس كانت ترى عثمان مقصراً ولكن ليس إلى الحد الذي يجعله مستحقاً للموت، ومن هنالم يرق لبعضهم قتله ولم يكونوا راضين بذلك، الأمر الذي مهد السبيل أما بعض الفئات المنحرفة لتستغل قتله لتحقيق أهدافها السياسية والقضاء على خصومها، وهكذا أصبح قتل عثمان وسيلة لتصفية الحسابات السياسية. فبني أمية وفي مقدمتهم معاوية كان ساكتاً لما هجم القوم على دار عثمان، بينما كان يتمثل موقف علي عليه السلام بتوبيخ عثمان على أعماله إلى جانب الحيلولة دون قتله، فقد ذب عنه حتى بعث بالحسن وبالحسين عليهما السلام ليصدوا الناس عن الهجوم على داره. مع ذلك ما أن قتل عثمان حتى هب بني أمية للطلب بثأره ليكون هذا الأمر مقدمة للوصول إلى الخلافة، ولا سيما معاوية الذي إستغل هذا الأمر إستغلالاً بشعاً في الشام البعيدة عن المدينة لتحقيق أطماعه، حتى تمكن من خداع أهل الشام واقناعهم بأنه المدافع عن عثمان والطالب بدمه من علي عليه السلام. وقصة قيص عثمان معروفة، فقد علق معاوية قيص عثمان (أو قيصاً يشبهه) على بوابة الشام

ليعبئ الأمة ضد علي عليه السلام، كما وظف طائفة من كهول الشام التي كانت تقيم مراسم الغزاء وتبكي عثمان في المسجد بما يثير مشاعر الناس. فقد قال الإمام عليه السلام في إطار رده لمزاعم بني أمية: «أولم يئنه بني أمية علمها بي عن قرقي؟^١ أو ما وزع^٢ الجهال سابقتي عن تهمتي!^٣» فبني أمية وإن جانبوا الحق والانصاف، إلا أنهم كانوا ينبغي أن يعلموا صفات الإمام عليه السلام وأنه لا يظلم أحداً ولا يلطخ يده بدماء الآخرين عبثاً، كما يعلمون جيداً سوابقه وفضائله ومنها أن النبي صلى الله عليه وآله خاطبه بأخيه وناداه أنت متي بمنزلة هارون من موسى، وفيه وفي أهل بيته نزلت آية التطهير وقد فوض إليه النبي صلى الله عليه وآله أغلب أعماله سرية، فهذه التهم رخيصة، فالإمام عليه السلام لم يشترك في قتله ولا قتل غيره، كما بالغ في الدفاع عنه وإن كان يراه مقصراً، لكن دون حد القتل. فقد وعظه الإمام عليه السلام وحذره من مغبة أفعاله، كما دعى تلك الجماعة التي قامت ضده إلى التحلي بالصبر والحلم واعتماد الأساليب السلمية في حل النزاع، بينما بقيت بني أمية ساكنة دون أن تحرك ساكناً. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «ولما وعظهم الله به أبلغ من لساني» أولم يقرأوا قوله سبحانه في كتابه العزيز: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ»^٤ أولم يسمعوا قوله سبحانه: «وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا»^٥. ثم أشار عليه السلام إلى فضيلة أخرى من فضائله فقال: «أنا حجيج^٦ المارقين، وخصيم الناكثين المرتابين»، وقد اختلفت أقوال المفسرين في محاجته عليه السلام للمارقين في الدنيا أم الآخرة. أشار ابن أبي الحديد^٧ أنه أراد يوم القيامة حيث روي عنه عليه السلام أنه

١. «قرق» على وزن حرف تعني في الأصل فصل قشرة الشيء كقشرة الشجرة، ولما كان تحري العيوب يؤدي إلى ضياع شخصية الأفراد، فإن هذه الكلمة تستعمل بمعنى الاتهام.

٢. «وزع» من مادة «وزع» على وزن وضع بمعنى المنع، كما وردت بمعنى الجمع. لأن جمع الشيء يتطلب منع تشتت أفراده، ولعل «التوزيع» بمعنى التقسيم، لأن تقسيم الشيء يتطلب جمعه ثم تقسيمه.

٣. «تهمة» من مادة «وهم» تعني في الأصل الظن السيئ (وقد وردت هذه المفردة بفتح الهاء وضمها)، كما تعني التهمة البهتان، وهذا هو معناها في العبارة الواردة في الخطبة.

٤. سورة الحجرات / ١٢.

٥. سورة النساء / ١١٢.

٦. «حجيج» من مادة «حجج» بمعنى قصد الشيء، ومنه «المحاجة» لمن يحاور العدو بقصد التغلب عليه، وحجيج المارقين خصيمهم، والمارقون هم الخارجون من الدين.

٧. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ١٧٠/٦.

قال: «أنا أول من يجثو للحكومة بين يدي الله تعالى»، والحال لا ينسجم ظاهر الخطبة وهذا المعنى أو لا يقتصر عليه، بل الظاهر أن الإمام عليه السلام أراد أن يقول باني كنت وما أزال أقف بوجه الناكثين الذي ينتقضون العهد ولا يقيمون وزناً لتعاليم الدين، والشاهد على ذلك قتاله عليه السلام للناكثين (أصحاب الجمل) والمارقين (الحوارج) والقاسطين (أهل الشام)، وبعبارة أخرى فإن الإمام عليه السلام يقول بمخالفته لمن يخالف حقه، فإن رأوا ذلك عيباً، فليعيبوه به. ثم إختتم كلامه عليه السلام بقوله «و على كتاب الله تعرض الأمثال،^١ وبما في الصدور تجازى العباد»، فقد ذهب أغلب شراح نهج البلاغة إلى أن العبارة إشارة إلى الآية ١٩ من سورة الحج «هَذَا نِ حَصْمَانِ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ» حيث روى النبي صلى الله عليه وآله إنها في علي عليه السلام وحمزة وعبيدة، وعتبة وشيبة والوليد، وكانت حادثتهم أول حادثة وقعت فيها مبارزة أهل الإيمان لأهل الشرك وكان المقتول الأول بالمبارزة الوليد قتله علي عليه السلام، فتجذرت ضغينة بني أمية وكانت تستغل الفرص لدرك ثأرها، فنزلت الآية لتكشف عن مصير الفريقين، فليس لمشركي بني أمية سوى الجحيم والعذاب الأليم. وأما المسلمون ففي جنات النعيم. والحق أن العبارة لا يمكن أن تقتصر على الإشارة لهذه الآية، بل ترشد إلى عرض المسائل المهمة على شبيهاتها في القرآن ليميز الحق من الباطل ولا سيما هنا في قضية قتل عثمان وسعي الآخرين لتوجيه أصابع الاتهام إلى هذا وذاك بهدف تحقيق الأغراض السياسية، ولا سيما من قبل أولئك الذين سكتوا لتقع تلك الحادثة، فإذا ما عرض هذا الأمر على القرآن، رأينا آياته تخالف ما قلتم، فهي تفند البهتان والتهمة وسوء الظن وإشاعة الفاحشة.

والعبارة الأخيرة إشارة إلى هذه الحقيقة وهي أن الله عالم بنياتكم وأن هدفكم ليس الدفاع عن عثمان ولا إصلاح ذات بين المسلمين، بل تريدون إستغلال الصغيرة والكبيرة من أجل تحقيق أهدافكم وبكل وسيلة رخيصة من أجل الاستيلاء على الحكومة وممارسة الظلم والجور بحق المسلمين، فالله عالم وسيجازيكم بذلك.

١. «الامثال» جمع «مثل» يراد بها هنا متشابهات الأعمال والحوادث تعرض على القرآن فما وافقه فهو الحق وما خالفه فهو الباطل، وقد جرى عليه السلام على حكم الله في أعماله فليس للغامر أن يشير بمطعن.



في الحث على العمل الصالح

نظرة إلى الخطبة

قال الكراجكي صاحب كنز الفوائد وهو من معاصري السيد الرضي (ره) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «تلكم أمير المؤمنين صلوات الله عليه باربع وعشرين كلمة قيمة كل كلمة منها وزن السموات والأرض». ثم روى هذه الخطبة^١.

تشتمل هذه الخطبة حسب ما ورد في نهج البلاغة على عشرين صفة من صفات المؤمنين المخلصين، والجملات الأربع التي وردت في نقل المرحوم الكراجكي في هذه الخطبة هي «حذر أماً» «ورتب عملاً» «يظهر دون ما يكتفم» «ويكتفي بأقل مما يعلم»^٢ وبالطبع هناك بعض الاختلاف الطفيف في عبارات الخطبة. على كل حال فإن هذه الخطبة ورغم قصرها إلا أنها عميقة المعاني ورصينة المضمون، والإمام عليه السلام يسأل الله الرحمة للمؤمن الذي يتحلى بهذه الصفات العشرين، ليحث الناس ويرغبهم في هذه الصفات، وزبدة الكلام فإن هذه الخطبة خلاصة للفضائل الأخلاقية ومجمعة كاملة للسير والسلوك إلى الله.

١. سند الخطبة: هذه الخطبة رواها قبل الرضي الحراني في التحف والكراجكي في كنز الفوائد مع تفاوت يسير يفيد أنه لم ينقل عن نهج البلاغة. ورواها من بعد السيد الرضي الزمخشري في ربيع الأبرار والسيوطي بن الجوزي في تذكرة الخواص ومحمد بن طلحة الشافعي في مطالب السؤل (مصادر نهج البلاغة ٧٧/٢).

٢. مصادر نهج البلاغة ٧٨/٢.

٣. بحار الأنوار ٤٠٨/٦٦.

«رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا [عبدًا] سَمِعَ حُكْمًا فَوَعَى، وَدُعِيَ إِلَى رِشَابٍ فَدَنَا، وَأَخَذَ بِحُجْرَةِ هَادٍ فَنَجَا. رَاقِبَ رَبَّهُ، وَخَافَ ذَنْبَهُ، قَدَّمَ خَالِصًا، وَعَمِلَ ضَالِحًا. اِكْتَسَبَ مَذْخُورًا، وَاجْتَنَبَ مَحْذُورًا، وَرَمَى غَرَضًا، وَأَحْرَزَ عِوَضًا. كَابَرَ هَوَاهُ، وَكَذَّبَ مُنَاهُ. جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ، وَالتَّقْوَى عُدَّةَ وَفَاتِهِ. رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْغُرَاءَ، وَلَزِمَ الْمَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ. اغْتَنَمَ الْمَهْلَ، وَبَادَرَ الْأَجَلَ، تَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ».

۸۰۰۳

الشرح والتفسير

عشرون كلمة قيمة

إستهل الإمام عليه السلام الخطبة بقوله: «رحم الله أماً [عبدًا] سمع حكماً فوعى^٢ ودعي إلى رشاب فدنا، وأخذ بحجرة هاد فنجا. راقب ربه، وخاف ذنبه».

لقد بين الإمام عليه السلام في هذه العبارة بهذه الصفات الخمس مقدمة طريقة رواد القرب إلى الله وسالكي مسيرة التقوى وتهذيب النفس، فأول الطريق ضرورة توفر الأذن السامعة التي تصغي إلى الحقائق وتستوعبها ومن ثم الاتجاه نحو الداعي الإلهي لمزيد من الفهم والإدراك، آنذاك اللجوء إلى الهادي وانتخاب القائد والدليل، وأخيراً الشعور بالحضور الدائم لله سبحانه وشهوده للأعمال بغية الورع والتقوى من الذنب. فن تحلى بهذه الفضائل الخمس يكون قد أعد زاده للسفر إلى الله والحركة نحوه. طبعاً صحيح أن الله قد خلق الإنسان على الفطرة وزوده بالعقل كمصباح يضيئ له الطريق، إلا أن المفروغ منه هو أن اجتياز هذا الطريق

١. «حكيم» هنا بمعنى الحكمة.

٢. «وعى» من مادة «وعى» على وزن سمي بمعنى الحفظ وفهم المراد و«أذن واعية» كناية عن سماع الشخص للمطالب وفهمها بصورة جيدة.

٣. «الحجزة» بالضم معقد الأزار والمراد بها هنا الاقتداء والتمسك.

يتعذر بالاختصار على العقل والفطرة، ولا يتوج ذلك إلا بتوفر الداعي الإلهي والمرشد والدليل. ومن الواضح أن المراد بالدليل والمنقذ الذين أشير إليهما في العبارة هم النبي وأئمة العصمة عليهم السلام ومن يتحدث عنهم ويهدي إليهم؛ لا الأفراد المبتدعين ممن تسموا بشيوخ التصوف الذين يغطون في هالة من الظلمة الدامسة ويزعمون أنهم يهدون إلى النور ولا يخفى على أحد مدى الدور الذي يلعبه الشعور بالمراقبة الإلهية والورع عن الذنب في كبح جماح النفس وضمودها أمام الأهواء والشهوات. فإذا ما توفرت هذه المقدمة اللازمة لذلك السفر، آنذاك يأتي دور البرامج العلمية فقال عليه السلام: «قدم خالصاً، وعمل صالحاً. أكتسب مذخوراً، وأجتنب محذوراً، ورمى غرضاً^١ وأحرز عوضاً. كابر^٢ هواه، وكذب مناه». فقد أكد الإمام عليه السلام بادئ ذي بدء على العمل الخالص والصالح، كما ورد تعريفه عن الإمام الصادق عليه السلام: «ألعمل الخالص الذي لا تريد أن يمدحك عليه أحدٌ إلا الله»^٣ وإليه أشارت الآية الكريمة: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»^٤.

وهناك تفاسير أخرى للاخلاص تبدو من قبيل اللازم والملزوم، فقالوا: الاخلاص إخفاء العمل عن الخلائق وتطهيره من العلائق، وقيل: حقيقة الاخلاص ألا ينتظر الإنسان أجراً دنيوياً أو أخروياً على عمله، بل يقوم به حباً لله. وقيل: الاخلاص إخراج الخلق من معاملة الخالق. ولعلنا نلمس قبة الاخلاص في الحديث الوارد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام حين قال: «إلهي ما عبدتك طمعاً في جنتك ولا خوفاً من نارك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»^٥. ثم اتبع الاخلاص والعمل الصالح بالحديث عن المذخور والذخيرة ليوم القيامة والواقع هو أن أعظم ذخيرة إنما تتمثل بالأعمال الخالصة والصالحة. ولما كانت الأعمال الصالحة والخالصة للإنسان عرضة للاحباط بفعل الذنوب والمعاصي،

١. «غرض» على وزن مرض بمعنى الهدف الذي يسدد نحوه السهم، كما يعني المقصود والحاجة، إلا أنه ورد في رواية «عرض» بمعنى المتاع الدنيوي الزائل.

٢. «كابر» من مادة «مكابرة» بمعنى المنازعة والمبارزة، كما يطلق على المنازعات العلمية التي تهدف الغلبة على الطرف المقابل لتحقيق الحق، وقد ارد بها هنا المعنى الأول.

٣. الكافي ١٦٧٢.

٤. سورة البينة / ٥.

٥. بحار الأنوار ٢٧٨/٦٩.

فقد ورد الحض على إجتناّب هذه الذنوب والتورع عن ارتكابها ليقدم الفرد على ربّه يوم القيامة بتلك الأعمال. وطالما كان الاقبال على الدنيا يصد الإنسان عن ذخيرة الأعمال الصالحة، واتباع هوى النفس الذي يعد من أهم موانع الطريق وعقبته الكؤود طول الأمل، فقد ورد الحديث عن ترك زخارف الدنيا وعدم الاغترار بها ومقاومة هوى النفس وتكذيب طول الأمل وإجتناّبه؛ الآفات المهلكة التي ورد الحديث عنها عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «يقول الله تعالى: وعزّتي وجلالي... لا يؤثر عبدٌ هواه على هواي إلا استحفظته ملائكتي وكفّلت السموات والأرضين رزقه»^١. ثم إختتم الإمام ﷺ خطبته بسبع صفات للمؤمن الصالح فقال: «جعل الصبر مطية^٢ نجاته، والتقوى عدّة وفاته^٣ ركب الطريقة الغراء، لزّم المحجّة^٤ البيضاء. أغتتم المهل^٥، وبادر الأجل، وتزوّد من العمل». فقد أشار الإمام ﷺ بهذه الصفات السبع - والتي تبدأ بالصفة الرابعة عشرة وانتهت بالعشرين - إلى شرائط والوسائل المتعلقة بالسالكين إلى الله الذين يحنون الخطى لنيل القرب من الله. ويحتاج هؤلاء السالكون قبل كل شيء إلى مركب يوصلهم إلى شاطئ النجاة وشق عباب هذا الطريق المحفوف بالمخاطر والعقبات، وما أعظم الصبر بصفته المنقذ في كل موضع ومهما كانت الظروف. من جانب آخر فإن كل مسافر لا بدّ أن يحمل معه بعض الوسائل والأدوات التي تلبي حاجاته طيلة هذا الطريق، ويشير الإمام ﷺ إلى أنّ هذه الوسائل تتمثل بالورع والتقوى بصفقتها الزاد إلى الوفاة. ثم تأتي المرحلة الضرورية الأخرى المتمثلة بمعرفة الطريق ومواصلة السير عليه فقال ﷺ «ركب الطريقة الغراء ولزم المحجّة البيضاء» فالعبارة الاولى تشير إلى انتخاب

١. الكافي ٣٣٥/٢.

٢. «مطية» المركب السريع الذي لا يجمع بصاحبه.

٣. «غراء» مؤنث «أغر» كل شىء أبيض والطريقة الغراء النيرة الواضحة.

٤. «المحجّة» من مادة «حجج» تعني في الأصل القصد، ثم أطلقت على جادة الطريق التي توصل الإنسان إلى مقصوده.

٥. «مهل» جاء بصيغة اسم المصدر وبمعنى الرفق والمداراة، ومن هنا فإن الفرص تمثل الأرضية للرفق والمداراة، وهذا الاصطلاح أستعمل بمعنى الفرصة وفي الخطبة أعلاه، جاء بعنوان الاشارة إلى الفرص التي اعطاها الله سبحانه وتعالى لعباده من اجل اصلاح اعمالهم والاتيان بالاعمال الصالحة، والتي يجب أن يغتنمها الناس.

الطريق والثانية إلى السير عليه ومواصلته دون الانحراف عنه طيلة المسيرة. من جانب آخر ليس هنالك من منازل يمكن السالك التزود فيها لسفره الطويل، ومن هنا لفت الإمام عليه السلام إنتباه السالكين إلى إغتنام الفرص واحترام الوقت الذي قد يكون وبالاعلى صاحبه إذا لم يستفد منه: «اغتنم المهل وبادر الأجل».



واخيرا اختتم كلامه بالحديث عن التزود للاخرة ومبادرة العمل الصالح خلال مدة العمر القصيرة.

تأمل

الصبر واغتنام الفرصة

الصبر حالة نفسانية يعتمده الإنسان لمواجهة ما يعترض مسيرته من صعاب ومشاكل، وتارة يكون هذا الصبر صبر الطاعة إذا تضمن الوقوف بوجه الصعاب من أجل إمتثال الأوامر الشرعية، وتارة أخرى يكون الصبر على المعصية إذا تضمن كبح جماح النفس والحد من طغيانها وكسر شهوتها، وأخيراً هناك الصبر على النوائب إثر مجابهة المصائب والويلات والأمراض ومطبات الحياة وعقباتها الكؤود. والواقع أنّ هذه الصفة تأخذ بيد الإنسان إلى التقوى حتى ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «فان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد»^١ وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال «سيأتي على الناس زمانٌ لا ينال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر ولا الغنى إلا بالغصب والبخل، ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى؛ فمن أدرك ذلك الزمان وصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العز، آتاه الله ثواب خمسين صديقاً ممن صدق بي»^٢. وأخيراً فقد أكد الإمام عليه السلام في هذه الخطبة على إغتنام الفرصة والتأهب للأجل، وذلك لأنّ الفرص تمرّ مر السحاب، وهناك عدة أخطار تتهدد أعمال الخير، حيث

١. كلمات القصار / ٨٢.

٢. أصول الكافي / ٩١/٢.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إذا هممت بخير فبادر فإنه ما تدري ما يحدث»^١
وقال عليه السلام أيضاً: «إذا هم أحدكم بخير أو صلة فإن عن يمينه وشماله شيطانين فليبادر
لايكفاه عن ذلك»^٢.

١. أصول الكافي ١٤٢/٢.

٢. أصول الكافي ١٤٣/٢.



وذلك حين منعه سعيد بن العاص حقه

نظرة إلى الخطبة

ورد هذا الكلام عن الإمام عليه السلام حين ولي عثمان الخلافة واستولت بطانته على بيت مال المسلمين فعاشت به فسادا لتمارس أبشع أنواع الأسرار إلى جانب تسليطه لبني أمية على رقاب الناس من خلال إغداق المناصب الحكومية الحساسة. ومن ذلك أنه ولي سعيد بن العاص الكوفة فبعث مع ابن أبي عائشة مولاة إلى علي بن أبي طالب عليه السلام بصلته وأوصى مولاة (الحارث بن جيش) يبلغ عليا عليه السلام أنه لم يبعث لأحد أكثر من هذه الصلة سوى لعثمان، وكأنه أراد أن يمتن على الإمام عليه السلام، فقال عليه السلام: واللّه لا يزال غلام من غلمان بني أمية يبعث إلينا مما أفاء الله على رسوله بمثل قوت الأرملة؛ واللّه لئن بقيت لأتفضنها نفص اللحام الودام الترية.



١. سند الخطبة: روى هذا الكلام أبو الفرج الاصبهاني في كتاب الاغاني باسناد رفعه إلى الحارث بن جيش قال: بعثني سعيد بن العاص بهدايا إلى المدينة، وبعثني إلى علي عليه السلام وكتب إليه: إنني لم أبعث إلى أحد بأكثر مما بعثت به إليك. قال فأتيت عليا عليه السلام فأخبرته فقال: الخطبة (طبعها هناك تفاوت بين ما أورده أبو الفرج وما جاء في نهج البلاغة إلا أن المضمون واحد). وقد روى هذا الكلام الأزهري في تهذيب اللغة وأبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث وابن دريد في المؤتلف والمختلف وأبو موسى محمد بن أبي المديني الاصبهاني في مستدركاتي على الجمع بين الغريبين (مصادر نهج البلاغة ٧٩/٢ - ٨٠).

«إِنَّ بَنِي أُمِّيَّةَ لِيُفَوِّقُونَنِي تَرَاثَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَفْوِيْقًا، اللَّهُ
لَيُنَّ بَقِيْتُ لَهُمْ لِأَنْفُضْنَهُمْ نَفْضَ اللَّحَامِ الْوِذَامِ التُّرْبَةَ!»

٤٥٥٣

الشرح والتفسير

غيفض من فيض جنایات بني أمية

لقد تسالم سياسة العالم ومنذ القديم على ممارسة الضغوط الاقتصادية على معارضهم لينشغلوا بأوضاعهم دون الانتباه إلى ما يجري من حولهم، بل لا يتخلون عن هذا الأسلوب حتى في حالة جنوحهم إلى التعايش السلمي معهم فلا يزودونهم إلا بادی العطاء. فقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذا الأمر بقوله: «إِنَّ بَنِي أُمِّيَّةَ لِيُفَوِّقُونَنِي تَرَاثَ مُحَمَّدٍ عليه السلام تَفْوِيْقًا». تتضمن المفردة ليفوقونني - من مادة فواق الناقة يعني حلبها مرة واحدة - إشارة لطيفة رائعة إلى زهد العطاء، وكأن الخلافة بمثابة الناقة الحلوب التي تكالبت عليها بني أمية ولا تفيض منها على الإمام عليه السلام سوى بهذا الفواق الزهيد. أمّا قوله: «تراث محمد» فقد يكون المراد به فدك وما شابه ذلك، كما يمكن أن يكون المراد به الإسلام بكامله الذي يشمل التراث بمعناه الواسع؛ لأنّ ازدهار الاقتصاد الإسلامي إنّما حصل ببركة دين النبي الأكرم عليه السلام والجهود المضنية التي بذلها عليه السلام من أجل نشره، وعليه فكل ما في أيديهم من تراث محمد عليه السلام، ولعلي عليه السلام السهم الأوفى في هذا التراث، ليس لقربته من النبي عليه السلام فحسب، بل لتضحياته من أجل الإسلام. صحيح أنّ الإمام عليه السلام كان أسوة الزهد في حياته؛ إلاّ أنّه كان يحصل على عطائه من الغنائم على عهد

١. «ليفوقونني» من مادة «فواق» على وزن رواق المدة المتخلله بين رضعتين حسب قول أغلب أرباب اللغة، بينما ذهب البعض إلى أنّها تعني المدة المتخلله بين فتح الضرع وغلقه حين الحلب، ولما كان الثدي يخلد إلى الراحة بعد الحلب فقد استعملت بمعنى الهدوء والراحة ومنها إفاقة المريض وإفاقة المجنون. وجاءت في العبارة بمعنى المال الزهيد الذي كان يعطيه بني أمية الإمام عليه السلام من بيت مال المسلمين.

رسول الله ﷺ ويصل بها الفقراء والمحتاجين. ثم واصل ﷺ كلامه قائلاً «وَاللَّهِ لئن بقيت لهم لأن فضنهم^١ نفض اللّخام الوذام القربة!» تشبيهه ﷺ لبني أمية بالوذام التربة التي تعني الحزة من الكرش أو الكبد والمعدة وسائر ما في بطن الحيوان التي تقع في التراب إشارة إلى ذروة تلوث بني أمية وضعفهم فهؤلاء - وبشهادة أعماهم على عهد عثمان - بلغوا مرحلة من الدنس بما جعل عامة المسلمين تنقم عليهم وتفكر في إجتثاث جذور هذه الشجرة الخبيثة من أصولها وطرد هذه العناصر الفاسدة من المجتمع الإسلامي واثقاذ بيت المال من أيديهم الآثمة. قال المرحوم السيد الرضى (ره) آخر هذه الخطبة: ويروى التراب الودمة وهو على القلب. قال الشريف: وقوله ﷺ: «لِيَفْوَ قُونَنِي» أي يعطونني من المال قليلاً كفواق الناقة. وهو الحلبة الواحدة من لبنها. والوازم: جمع وذمة، وهي الحزة من الكرش، أو الكبد تقع في التراب فتنفض. وجاء في بعض الروايات «القراب الودمة» بدلاً من «الوذام القربة»، والمفهوم واحد وكلاهما بمعنى الأشياء الزهيدة التي قد تتلوث أحياناً ويجب تطهيرها.

تأملان

١- من هو سعيد بن العاص؟

كما أوردنا سابقاً فإن الخطبة وردت بشأن سعيد بن العاص لما بعث بسلامه وهو يومئذ أمير الكوفة من قبل عثمان وقد بعث بهدايا إلى المدينة، ثم بعدت بعدية إلى علي ﷺ وكتب إليه إني لم أبعث إلى أحد أكثر مما بعثت به إليك إلا عثمان، وكأنه قد إمتن على الإمام ﷺ بذلك المقدار فأجابه الإمام ﷺ بهذا الكلام. سعيد من طائفة بني أمية من قبيلة قريش، أدرك النبي ﷺ وكان من أمراء جيش المسلمين، وقد تربى في حضانة عمر بن الخطاب، وقد ولاه عثمان الكوفة، فلما قدم الكوفة خطب أهلها واتهمهم بالتمرد والعصيان. فشكاه أهل الكوفة إلى عثمان، فاعاده إلى المدينة فكث فيها حتى خرج الناس على عثمان فجعل يدافع عنه ويواجه الثوار حتى قتل عثمان، فاضطر للذهاب إلى مكة وبقي فيها. فلما ولي معاوية الخلافة، جعله معاوية أميراً على

١. «لأنفضنهم» من «مادة» نفض على وزن نبض تحريك الشئ لتخليصه مما علق به ومن هنا يصطلح بالفوض على المرأة الولود، كما تستعمل هذه المفردة في طرح الثمرة من الشجرة.

المدينة حتى توفي فيها. لم يلتحق بالجمل ولا صفين، ويتصف بالكبر والعنف والفضاضة، كما كان خطيباً متكلماً. بنى له قصرًا كبيراً في المدينة، وتوفي سنة ٥٣ أو ٥٩ هـ في المدينة.^١

٢ - بني أمية

بني أمية من قبيلة قريش وينسبون إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وقد بدأت حكومتهم منذ تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة عام ٤١ هـ حتى عصر مروان الحمار أو مروان الثاني الخليفة الرابع عشر الذي توفي سنة ١٣٢ هـ والحكومة الأموية وإن انقضت عام ١٣٢ هـ إلا أن أحد أفرادها حكم فيما بعد الأندلس، حيث فتحت الأندلس من قبل المسلمين عام ٩١ حتى ٩٣ هـ ومنذ ذلك الوقت وحتى عام ١٣٨ هـ كانت تحكم كسائر الممالك الإسلامية من قبل الخلفاء المسلمين. وفي عام ١٣٨ هـ حكمها عبدالرحمن الأول من أحفاد هشام بن عبدالملك الحاكم الأموي العاشر الذي نجى من العباسيين، وقد حكمها ونسله لمدة قرنين، حتى قام الناس في القرن الخامس لتسقط هذه الحكومة.^٢

الف) بني أمية في القرآن الكريم

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾.^٣ أجمع مفسرو الفريقين أن هذه الرؤيا حتى رأى النبي الأكرم ﷺ بني أمية ينزؤون على منبره إنزواء القردة فنزل عليه جبرئيل بالآية ليطلعه على حكومتهم، فلم ير رسول الله ﷺ بعد ذلك ضاحكاً. وقد نقل المفسر المعروف الفخر الرازي في تفسيره رواية بهذا المضمون عن ابن عباس. كما روي عن عائشة أنها قالت لمروان: «لعن الله أباك وأنت في صلبه فأنت بعض من لعنة الله».^٤ إضافة إلى الآية المذكورة فقد فسرت الشجرة الخبيثة في الآية ٢٦ من سورة إبراهيم على ضوء بعض الروايات ببني أمية.^٥

١. الاعلام للزركلي ٩٦٣.

٢. سيد مصطفى الحسيني الدشتي، المعارف والمعاريف، ج ٣ ذيل المفردة بني أمية.

٣. سورة الاسراء / ٦٠.

٤. تفسير الفخر الرازي ٢٣٧/٢٠.

٥. راجع تفسير الأمل للمؤلف ٣٤١/١٠ و ١٧٢/١٢.

ب) بني أمية في أحاديث العامة

جاء في كتاب كنز العمال من مصادر العامة عن سعيد بن عامر قال: أغلظ أبو بكر يوماً لأبي سفيان فقال له: يا أبابكر لأبي سفيان تقول هذه المقالة. قال يا أبت إن الله رفع بالإسلام بيوتاً ووضع فكان بيتي فيما رفع وبيت أبي سفيان فيما وضع.^١

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: إن أول من يبدل سنتي رجل من بني أمية.^٢ وقال ﷺ: إن أهل بيتي سيلقون من بعدي من أمتي قتلاً وتشريداً، وإن أشد قومنا لنا بغضاً بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم.^٣

وعن علي عليه السلام قال: لكل أمة آفة وآفة هذه الأمة بنو أمية.^٤

ج) بني أمية في نهج البلاغة

تعرض أمير المؤمنين علي عليه السلام في عدة خطب من نهج البلاغة لبني أمية والمفاسد التي كبدها الإسلام والمسلمين، ومن ذلك ما أورده في الخطبة ٧٧ و٩٣ و٩٨. فقد وصف عليه السلام حكومة بني أمية باكبر وأبشع الفتن على الأمة الإسلامية فقال عليه السلام: «ألا وإن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية فإنها فتنة عمياء مظلمة...».

د) مفاسد حكومة بني أمية

كثيرة هي المفاسد والجنايات التي إرتكبتها حكومة بني أمية في التاريخ الإسلامي، بحيث لا يسع المقام الخوض في تفاصيلها، وعليه نكتفي بالإشارة هنا إلى بعضها:

١ - انحراف الخلافة عن مسارها الصحيح واستبدالها بالسلطة

فقد صرح معاوية بأنه استولى على الخلافة بالسيف لامن خلال محبة الناس أو رضاهم

١. كنز العمال ٢٩٩/١.

٢. كنز العمال، ح ٣١٠٦٢.

٣. كنز العمال، ح ٣١٠٧٤.

٤. كنز العمال، ح ٣١٧٥٥.

عن حكومته.^١ وقال الجاحظ أن معاوية أسمى العام الذي ولى فيه الخلافة بعام الجماعة والحال كان ذلك العام، عام الفرقة والقهر والغلبة، العام الذي أصبحت الخلافة فيه وراثية على غرار حكومة كسرى وقيصر^٢. وقد دفعت حياة الترف والبذخ لمعاوية ونهجه في الخلافة لئن يخاطبه سعد بن أبي وقاص بالملك حين كان يرد عليه.^٣ وقد عد المؤرخون معاوية أول ملك.^٤

٢- مسخ وتحريف الحقائق والمعارف الإسلامية مثل:

١- سب أمير المؤمنين علي عليه السلام ووضع الأحاديث في ذمه ومدح معاوية. وروي أن قوماً من بني أمية قالوا لمعاوية: إنك قد بلغت ما أملت، فلو كفت عن لعن هذا الرجل فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذكراً فضلاً.^٥ ولما سئل مروان عن ذلك أجاب: لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك.^٦ وذكر ابن أبي الحديد أن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه؛ وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلفوا ما أرضاه، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ومن التابعين عروة بن الزبير.^٧

٢- إشاعة مذهب الجبر بين المسلمين، فقد صرح معاوية أن لافائدة من السعي والعمل فكافة الأمور بيد الله^٨، ولا يقصد معاوية من هذا الكلام المسائل العقائدية، بل يهدف إلى فرض خلافته على الناس، حيث قال: «هذه الخلافة أمرٌ من أمر الله وقضاءٌ من قضاء الله»^٩؛ الأمر الذي جعل زياد بن أبيه والي معاوية على البصرة والكوفة يخاطب الناس بأنه

١. العقد الفريد ٨١/٤-٨٢.

٢. رسالة الجاحظ في بني أمية/١٢٤ تم نقله من التاريخ السياسي للإسلام ٣٩٦/٢.

٣. مختصر تاريخ دمشق ٢١٠/٨ وتاريخ يعقوبي ٢١٧/٢.

٤. تاريخ الخلفاء ٢٢٢/٢.

٥. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥٧/٤.

٦. أنساب الأشراف ١٨٤/١ نقلاً عن التاريخ السياسي للإسلام ٤٠٩/٢.

٧. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦٣/٤.

٨. حياة الصحابة ٥٢٩/٣ نقلاً عن التاريخ السياسي للإسلام ٤١٠/٢.

٩. مختصر تاريخ دمشق ٨٥/٩.

يدافع عنهم من خلال السلطنة التي منحهم الله إياها.^١

٣- قتل كبار الشخصيات الإسلامية وأئمة الدين كالإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام وزيد بن علي بن الحسين عليه السلام وحجر بن عدي.

٤- قصف الكعبة والمسجد الحرام بالمنجنيق على عهد يزيد.

٥- سلب الأمة أمنها واستقرارها. فقد شاع على عهد زياد بن أبيه الد عبد الله في العراق

المثل المعروف: «أنج سعد فقد هلك سعيد» الذي يرمز إلى سفك دماء الأبرياء بدون حق.^٢

٦- تعذيب أبناء الأمة الإسلامية وممارسة ألوان الاهانة من قبيل كوي وجه وعنق بعض

الشيعة، وهذا ما فعله الحجاج بن يوسف بأنس بن مالك وسهل بن سعد وجابر بن عبد الله

الانصاري لحبهم لعلي عليه السلام.^٣ وخلاصة القول فإنّ جنایات ومفاسد بني أمية أكثر من أن تحصى،

وما مر معنا غيض من فيض جرائم بني أمية، ولانرانا نبالغ إذا قلنا أنّها تتطلب عدّة كتب

ومجلدات. والعجيب أن بعض المغفلين والجهال يرون هذه الحكومة من قبيل الحكومات

الإسلامية؛ الأمر الذي يكشف عن ضحالة أفكارهم وعدم إطلاعهم على السلوكية المنحرفة

لبني أمية.

١. تاريخ الطبري ٢٢٠/٥ نقلا عن التاريخ السياسي للإسلام ٤١٠/٢.

٢. نقلا عن: الحسين النفس المطمئنة، ص ١٠.

٣. المصدر السابق.



الخطبة ١



من كلمات كان ﷺ يدعو بها

نظرة إلى الخطبة

يشتمل كلامه ﷺ على أربعة أدعية عظيمة، تفيد بعض القرائن أنّ الإمام ﷺ كان يتلوا كراراً هذه الأدعية ويتضرع بها إلى الله سبحانه وتعالى. طبعاً صحيح أن الإمام ﷺ معصوم ولا يصدر عنه أي ذنب أو معصية علانية أو خفية، في الباطن أو الظاهر باللسان أو بالعين، إلا أنّ مقامه لدى الحق سبحانه يجعله يخشى الغفلة عن أدنى مصداق لترك الأولى، فيسأل الله الرحمة على الدوام، أضاف إلى ذلك فإنّ كلماته تعليمية لعموم الأمة لتتعرف على كيفية الأسلوب الذي تناجى به خالقها، كما تفيض عليها بعض المعارف والعلوم والمضامين الإسلامية.

8008

١. سند الخطبة: السند الوحيد لهذا الدعاء ما أورده قبل السيد الرضي (ره) الجاحظ في كتاب المائة المختارة، والذي يرتبط بالعبارات التي اختتم بها الدعاء: «اللهم اغفر لي رمزات الألفاظ...».

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالمَغْفِرَةِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا وَأَنْتَ مِنْ نَفْسِي وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ الْأَلْفَاظِ وَسَقَطَاتِ الْأَلْفَاظِ وَشَهَوَاتِ الْجَنَانِ وَهَفَوَاتِ اللُّسَانِ».

❦❦❦

الشرح والتفسير

من الأدعية التربوية للإمام علي عليه السلام

أوردنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام يسأل الله سبحانه العفو والمغفرة من أربعة أشياء والتي يشكل كل واحد منها في الواقع مشكلة من المشاكل الأخلاقية المهمة والعقبات المعنوية التي تعترض سبيل الإنسان ومما لاشك فيه أنّ الإنسان إذا تغلب على هذه العقبات فإنه سيبلغ شاطئ الأمان وينال الفلاح والسعادة. فقد استهل دعائه عليه السلام بالقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالمَغْفِرَةِ» فرصيد الإنسان هو النسيان فيقارف الكثير من الذنوب والمعاصي إلى درجة نسيانها وعدم الاعتذار إلى الله منها وطلب العفو والمغفرة، أو الاصرار عليها وعدم الكف عنها دون الالتفات إليها حتى تثقل كاهله. وهنا ينبغي التضرع إلى الله سبحانه: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالمَغْفِرَةِ» كما ينبغي استحضر الذنوب والمعاصي وسؤال الله العفو والصفح، ومما لاشك فيه أنّ هذا النسيان آفة سعادة الإنسان، بحيث يؤدي إلى بعض المشاكل التي يتعذر على الإنسان حلها، ومن هنا يتوجب على الإنسان الاستعاذة بالله من هذا النسيان، وسؤال الله العافية من الذنوب المنسية، وقد أبلغ القرآن في التعبير عن مثل هذه الذنوب فقال: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً

فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَلْهَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ^١. أمّا بعض شراح نهج البلاغة فقد ذهبوا إلى أن المراد بالعبارة الذنوب التي يجهل الإنسان كونها ذنوباً، أو إذا علم بها فإن علمه باهت لا يكثرث له بهذا الشأن. ويرد على أصحاب هذا التفسير أن الذنوب التي يقارفها الإنسان جهلاً مغفورة فلا حاجة لسؤال الله المغفرة عليها، إلا أنهم أجابوا عن ذلك بقولهم إن كان هذا الجهل نابعاً من القصور وكان الجاهل قاصر فالأمر كذلك، أما إذا كان ذلك الجهل يستند إلى التقصير وكان الجاهل مقصراً ولم يجد نفسه في الامام بالعلم فإن العقاب واللوم والتوبيخ يطال مثل هذا الجاهل، ومن هنا عليه أن يسأل الله الفعوى والصفح عن ذنوبه أو أن يكون المراد الذنوب التي ينسى الإنسان كونها ذنوباً أو يخطئ في تشخيصها بحيث يجب عليه طلب المغفرة إن كان ذلك النسيان هذا الخطأ وليد التقصير؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا»^٢ والواقع هو أن التفسير الذي أوردناه في البداية يعود إلى نسيان. موضوع الذنب، بينما يعود التفسير الثاني إلى حكمه. إلا أن التفسير الأول أنسب من التفسير الثاني، وإن قال جمع من الشراح بالتفسير الثاني. وأخيراً يبقى احتمال الجمع قائماً وقد سأل الإمام عليه السلام الله العفو عنها جميعاً. أمّا الدعاء الثاني فقد تضمن الإشارة إلى موضوع مهم آخر والذي يكمن في عدم وفاء الإنسان بالعهود والمواثيق التي يقطعها على نفسه أو مع ربه فقال عليه السلام: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا وَأَيْتَ مِنْ نَفْسِي، وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي»^٣ قد تتكون العبارة «ما وأيت من نفسي» إشارة إلى العهود والمواثيق التي يتمثل طرفيها بنفس الإنسان، كأن يعاهد نفسه، ومما لا شك فيه أن الالتزام بهذه العهود والعمل بمضامينها يكشف عن شخصية الإنسان عزمه على ممارسة الأنشطة والفعاليات، بينما يفيد نقضها ضعف إرادته فيتوجب عليه الاستعاذة بالله منه. أو يمكن أن يكون طرفها الأول الإنسان والطرف الآخر الله سبحانه تعالى بحيث يكون هذا المعنى مقدرًا في العبارة السابقة^٤.

١. سورة المجادلة / ٦.

٢. سورة البقرة / ٢٨٧.

٣. «وأيت» من مادة «أى» على وزن رأى بمعنى العزم على الشيء مع قصد الوفاء به، وعبارة أخرى الموعود التي يقطعها الإنسان على نفسه، وقد يعنى الوأى والوعد بشأن الذات والآخرين.

٤. وتقدير العبارة: «وأيت من نفسي مع ربي».

وعلى وهذا الضوء فهي إشارة إلى جميع العهود والمواثيق الشرعية التي يعاهد الإنسان فيها الله سبحانه ولا يلتزم بها. وذلك لأن الكثير من الأفراد يعاهدون الله في الشدائد والنوائب فإذا ما كشفت عنهم نسوا تلك العهود؛ الأمر الذي صرح به القرآن الكريم قائلاً: «وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِن آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ» * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ^١. أما في الدعاء الثالث فالإمام عليه السلام يستعيد بالله من الرياء والنفاق ويسأل الله العفو والمغفرة فيقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي، ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي» فالتظاهر بالأعمال الحسنة - من خلال اللسان أو الرياء في العبادات وسائر الطاعات - يعد من أخطر شعب الشرك، الأمر الذي أكد التحذير منه في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية، غير أن الذي يؤسف له هو أن الرياء والنفاق من الأعمال الشائعة التي تكبد الإنسان أضراراً تفوق التصور، حيث يفيد هذا الأمر أن مثل هذا الإنسان لا يؤمن في الواقع بتوحيد الله على مستوى الأفعال، ولا غرو فهو يرى العزة والذلة بيد الناس ويؤثر ولاية الناس ومحبتهم على ولاية الله ومحبته. بينما إذا علم هذا الإنسان بأن العزة والذلة بيد الله، يعز من يشاء ويذل من يشاء وأن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء، فإنه لا يسأل سوى الله ولا يعمل إلا له سبحانه. ولا يقتصر التناقض بين القول والنية بالنسبة للرياء، بل إن كل تناقض إنما يشمل الظاهر والباطن، فكل ما ينطق به الإنسان ولا يلتزم به حين العمل، أو أن يعزم على خلافه إنما يشير إلى تناقض الظاهر مع الباطن، وإن لم يكن قد قصد الرياء. فقد صرح القرآن الكريم بهذا الخصوص قائلاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ»^٢ أننا لناجي الحق سبحانه وتعالى في صلواتنا اليومية «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» والحال قد تعيش قلوبنا عبادة أخرى وإستعادة ثانية، كما نتشهد في صلواتنا بالوحدانية لله «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له» بينما نعيش الشرك في إيماننا ومن ذلك الشيطان المتمثل بهوى النفس الذي يلقي بظلاله على جميع زوايا الحياة البشرية، والدعاء الوارد في الخطبة من الدروس القيمة التي

١. سورة التوبة / ٧٥-٧٦.

٢. سورة الصف / ٢-٣.

تحذر من هذا الخطر العظيم. وأخيراً يستغفر الله سبحانه من أربعة أشياء ويستعيذ بالله منها «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي رِمَزَاتِ^١ الْأَلْحَاطِ،^٢ وَسَقَطَاتِ^٣ الْأَلْفَاظِ، وَشَهَوَاتِ الْجَنَانِ، وَهَفَوَاتِ^٤ اللِّسَانِ» فالعبارة إشارة إلى ذنوب العين والقلب واللسان التي قد تكون من أخطر الذنوب والمعاصي. فنظرات الازدراء للمؤمنين والإشارات المشوبة بالغرور والاستخفاف، وارسال الكلام على عواهنه دون إجابة الفكر والذي قد يقود إلى الاضغان والاحقاد وإثارة الخلافات والتوترات وارقة ماء وجه الآخرين إلى جانب النزوع نحو الشهوات والرغبات التي تقذف بالإنسان في أودية الخطيئة والاثم ومقارفة بعض المعاصي التي تفرزها حالة العيشة في الحديث والتي تؤدي إلى عدّة مفسد، كل هذه الأمور من أعدى أعداء سعادة الإنسان وفلاحه، والإمام عليه السلام حين يسأل الله العفو عن هذه الأمور إنما يهدف التحذير العملي من مغبة هذه الأمور الأربعة وعدم الاستخفاف بمدى خطورة ذنوبها. وأما الفارق بين رموز الالحاظ وشهوات الجنان فهو واضح، غير أنّ هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغة بشأن الفارق بين «سقطات الالفاظ» و«هنوات اللسان». فقد ذهب المرحوم مغنية إلى أنّ المراد واحد، بينما ذهب المرحوم الشارح الخوئي إلى أنّ المراد بسقطات الالفاظ هو الالفاظ التي لا ترتب عليها فائدة في الآخرة سواء كانت محرمة أم لم تكن كذلك، أمّا هفوات اللسان فهي الكلام الحرام من قبيل الغيبة والنميمة والبهتان والاستهزاء والسب والشتم والتهمة. ولكن إستناداً إلى أنّ سقطات جمع سقط بمعنى الشيء التافه الذي لا قيمة له، يبدو أن العبارة «سقطات الالفاظ» إشارة إلى الكلام العبثي واللغو والركيك أحياناً الذي يصدر من الأفراد اللاباليين الجهال؛ أمّا هفوات اللسان وبالاستناد إلى مفهوم الهفوة الذي يعني الزلّة، فإن العبارة تشير إلى ما يجري

١. «رمزات» جمع «رمزة» على وزن غمزة الإشارة بالعين والحجاب وأحياناً بالشفة، وقال البعض الرمز في الأصل بمعنى حركة الشفاه لبيان مطلب دون أن يتخلله الصوت، كما تأتي بمعنى الإشارة بالعين والحجاب.
٢. «الالحاظ» جمع «لحظ» على وزن محض بمعنى النظر بطرف العين الذي يكون أحياناً بقصد الازدراء والتحقير، كما يراد به الاستهزاء والسخرية أيضاً.
٣. «سقطات» جمع «سقط» على وزن فقط كل وضع لاقيمة له من متاع أو كلام أو فعل وقيل سقطات جمع سقطة بمعنى الزلة وسقطات الالفاظ لغوها.
٤. «هفوات» جمع «هفوة» على وزن دفعة بمعنى الزلة في الكلام أو العمل، كما وردت هذه المفردة بمعنى السرعة، ولما كانت السرعة تقود إلى الزلة فالمعنيان يعدان إلى مادة واحدة.

على لسان الإنسان من كلمات دون التأمل والتفكير، ولعلها تخزن بعض الذنوب الخطيرة كالغيبة والتهمة والاستهزاء بالمؤمن^١.

فصل في الدعاء ودوره في حياة الإنسان

يلعب الدعاء دورا هاما في تربية النفس البشرية وسوقها نحو مدارج السمو والرفعة والكمال، وهي الحقائق التي قد يغفلها أغلب الداعين. والدعاء كعطر الربيع الذي يسقي بغيته أرض القلوب فتفتح أوراق الإيمان والاخلاص والعشق والعبودية والدعاء هو النسيم القدسي الذي يطبع الروح بمعاني الطهر والعفة إلى جانب القوة والقدرة التي تهب العظام الرميم الحياة كدعاء السيد المسيح عليه السلام، ناهيك عما تشتمل عليه بعض الأدعية من فضائل أخلاقية ومعارف ربانية تسبغ بها النفس فتمنحها الهدوء والسكينة فالنفس حية بالدعاء نابضة بالورع والتقوى ومن هنا فإن الدعاء هو الأكسير العظمى وكيمياء السعادة وماء الحياة وروح العبادة، حتى ورد في الحديث أن «الدعاء مخ العبادة»^٢ والجدير بالذكر أن القرآن يرى قيمة الإنسان تكمن في دعائه وتضرعه إلى الله: «قُلْ مَا يَغْبُونَ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ»^٣. وكيف لا يكون الدعاء بهذه الأهمية وهو يدعو الإنسان إلى معرفة الله وعشق والمعبود بغيته نيل رحمته والظفر بعفوه ومغفرته من خلال التوسل باسمائه الحسنی، من جانب آخر فإنه يحث الداعي على التحلي بشرائط الاستجابة وفي مقدمتها التوبة من الذنوب والمعاصي والتعفف عن مقارفتها. أضف إلى ذلك فإن الدعاء يدفع بصاحبه إلى إزالة موانع الاستجابة ويتمثل أبسطها في المواظبة على الحلال في المأكل والملبس وإجتناّب المال الحرام والسعي لأداء حقوق الآخرين وترك الذنوب والمعاصي من قبيل الغيبة والتميمة وشرب الخمر وقطيعة الرحم التي تعدّ من موانع إستجابة الدعاء. ولذلك يمكن القول إن ما يترتب على ذات الدعاء بالنسبة للإنسان يفوق بكثير ما يعود عليه من إستجابته. وناهيك عن كل ما سبق فإن

١. العبارة سقطات الألفاظ من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف، تعني الألفاظ الساقطة، أما العبارة «هفوات اللسان» ليست كذلك.

٢. بحار الأنوار ٣٠٠/٩٠.

٣. سورة الفرقان ٧٧/.

المضامين العميقة التي تضمنتها أدعية أئمة الدين تعدّ دروساً قيمة والمتاع العظيم الذي يتزود به السالكين إلى الله سبحانه على سبيل المثال إذا ألقينا نظرة إلى دعاء يوم الأحد من أدعية أيام الاسبوع تطالعنا العبارة «و اجعل غدي وما بعده أفضل من ساعتني ويومى» التي ترشدنا إلى أهمية العمر وضرورة إغتنام كل لحظاته بحيث تكون اللحظة الحاضرة أفضل من الماضية والقادمة أعظم من الحاضرة وهكذا، وبخلافه فن العيب أن يرى الإنسان لعمره معنى دون أن يستثمر أوقاته. أو تطالعنا هذه العبارة في دعاء كميل «اللّهُمَّ اغفر لي الذّنوب التي تحبس الدّعاء» فنقف على حجاب النفس الذي يحول دون إستجابة الدعاء؛ الأمر الذي يجعلنا نفتش عن مواضع الضعف في ذاتنا. كما نرى أنفسنا مطالبين باستئناف نهارنا على أساس نور الهداية ونختتمه بالغلبة على العدو؛ الأمر الذي ورد في دعاء عرفة «واجعل غناي في نفسي» أن غنى النفس ليس بالشيء الذي يتحقق في الخارج بواسطة جمع الثروات الطائلة وسكن القصور الفخمة ونيل المناصب الرفيعة، بل لابدّ من البحث عن الغنى في الذات التي ألا تشبع وتعيش الغنى من ذاتها فأنها تبقى عطشى وان صبت عليها الدنيا بما فيها، فلا تكون سوى كالمصاب بمرض الاستسقاء فيطلب الماء دائماً بينما تستقر روح الإنسان ويكفيها أدنى ما في هذه الدنيا إذا تورت بالمعارف الإلهية. كما نقرأ في دعاء الندبة: «واجعل صلاتنا به مقبولة وذنوبنا به مغفورة ودعائنا به مستجاباً واجعل ارزقنا به مبسوطة وهو منا به مكفية وحوائجنا به مقضية» فنفهم أن كافة الابواب مغلقة بوجوهنا دون إدراك حقيقة الولاية، فقبول صلاتنا وغفران ذنوبنا واجابة دعائنا وسعة رزقنا وتفريج همنا مرهون بالولاية، يالها من حقيقة عظيمة؟!

وإذا عدنا قليلاً إلى الدعاء الذي نحن بصدده نرى أنّ علياً عليه السلام قد قدم شرحاً وافياً واضحاً للدروس الأخلاقية والفضائل الانسانية من خلال هذه العبارات الأربع العميقة المعنى إلى جانب التحذير من الرذائل الأخلاقية التي تقود الإنسان إلى السقوط. نعم فادعية المعصومين عليهم السلام على الدوام دروس في التربية والتهديب وزاد ومتاع السالكين إلى الله.



قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج وقد قال له: إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمرادك، من طريق علم النجوم. فقال عليه السلام:

نظرة إلى الخطبة

يتضح مما مر معنا أن ما ورد في هذه الخطبة ينفي على نحو الاجمال صحة تكهنات المنجمين ويراها تتناقض وتوحيد الله، أو بعبارة أخرى فإن مزاعم المنجمين في تنجيمهم هي من قبيل المسائل الخرافية المضادة للقرآن وعلى الأمة الحذر من التعامل مع هذه الأفكار وأن أساس النصر والغلبة يكمن في التوكل على الله وتشتمل الخطبة على قسمين، يخاطب الإمام في القسم الأول المنجمين وفي الثاني الناس.

١. سند الخطبة: نقل ذلك قبل الرضي جماعة منهم: إبراهيم بن الحسن بن ديزيل المحدث في كتاب صفين والشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا نقله بثلاثة أسانيد، ونقله أيضاً في الامالي في المجلس الرابع والستين، ونقله أيضاً في عيون الجواهر. وأضاف صاحب مصادر نهج البلاغة بعد أن نقل هذا الكلام قائلاً: ولست بحاجة إلى ذكر من رواه بعد السيد الرضي فإنه كلام مشتهر دونته الخاصة والعامة بطرق مختلفة وصور شتى لا تختلف عما رواه الرضي إلا في بعض الالفاظ (مصادر نهج البلاغة ٨٢/٢).

القسم الأول

«أَتَزَعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَن سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ؟ وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَن سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ؟ فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهَذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ، وَاسْتَفْنَى عَنِ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ فِي نَيْلِ الْمَحْبُوبِ وَدَفَعِ الْمَكْرُوهَ؛ وَتَبَتَّغِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُؤَلِّيكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ، لِأَنَّكَ - بِزَعْمِكَ - أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النِّفْعَ وَأَمِنَ الضُّرَّ!!»

۵۰۳

الشرح والتفسير

خطأ المنجمين

ذكرنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام ردّ بهذا الكلام على من قال له حين عزم على المسير إلى الخوارج: خشيت أن لا تظفر بمرادك من طريق على النجوم إذا خرجت في هذه الساعة. فرفض الإمام عليه السلام ذلك رفضاً قاطعاً، ثم تطرق إلى العواقب الفكرية الوخيمة التي تترتب على مثل هذا التفكير والاعتقاد بالتأثير الذي تلعبه النجوم على مصير الإنسان، فيحذر ذلك المنجم إلى جانب الناس من مغبة هذا الأمر. فقد إستهل كلامه عليه السلام بالقول: «أَتَزَعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَن سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ؟ وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَن سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ؟» من الواضح أنّ هذا الاستهزام إستنكاري؛ أي لن يحصل قط مثل هذه المعارف عن طريق علم النجوم. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نتيجتين تترتبان على هذا الاعتقاد

١. «حاق» من مادة «حبق» على وزن حيف بمعنى احاط ونزل وعمّ، ويستفاد من هذا الاصطلاح في الإشارة إلى تأثير ضربات السيف ونزول العذاب وذلك بسبب وجود نوع من الاحاطة والعمومية في نزول العذاب. و«حاق» في الاصل من مادة «حق» بمعنى التحقق وقد اشتقت من كلمة «حق» حيث بدلت القاف الاولى بواو وبعد ذلك بدلت بالفاء.

السيئ «فمن صدّقك بهذا فقد كذب القرآن، وأستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب و دفع المكروه» ولا يقتصر الأمر على ذلك بل «و تبتغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليكَ أحمد دون ربّه، لأنك - بزعمك - أنت هديته إلى السّاعة التي نال فيها النّفع، وأمن الضّر!!» هاتان النتيجةتان الخطيرتان المترتبتان على زعم المنجم أمّا فغرزها طبيعة الفارق الكامن - حسب إعتقاد المنجمين الماضين - بين أحوال النجوم وأحكامها. وتوضيح ذلك أنّ علم النجوم كان سائداً بين أفراد البشر منذ قديم الزمان، ولعل أولئك الأفراد الذين عاشوا قبل التّاريخ قد كان لهم علم ومعرفة بالنجوم، إلّا أنّ علم النجوم قد تطور تطوراً ملحوظاً كسائر العلوم الأخرى بعد إكتشاف الكتابة، فحصلت الاكتشافات وتمّ التعرف على الأنظمة الخاصة التي تحكم الكواكب السيارة والمنظومة الشمسية والمجرات والثوابت حتى ظهر التقويم الذي يستند إلى حركة النجوم والقمر والشمس. أمّا إقتران بعض حركات النجوم ببعض الحوادث جعل طائفة من المنجمين تعتقد بالتدرّج بأنّ هنالك تأثير لحركة النجوم في مصير الإنسان، ثمّ إتسع نطاق هذا الاعتقاد حتى قيل بأن لكل إنسان كوكب في السماء وأنّ مصيره يعتمد إلى حد بعيد على حركات هذا الكوكب، حتى ظهر علم جديد يصطلح عليه بأحكام النجوم إلى جانب أحوال النجوم. وأحوال النجوم قائمة على أساس المشاهدات والمحاسبات المتعلقة بحركة الكواكب وشروقها وأفولها؛ أمّا أحكام النجوم فيراد بها العقائد التي تنسب حوادث الأرض ومصير من يعيش عليها إلى النجوم. ولم تمض مدة وانطلاقاً من هذا الاعتقاد إلى عبادة النجوم والاستعانة بها من أجل حل المشاكل، وقد ظلت مثل هذه الافكار والعقائد سائدة في أذهان البعض حتى إبان ظهور الدعوة الإسلامية وشروق شمس التوحيد التي أضاءت ظلمات الشرك، فكان بعض المنجمين يخبرون عن بعض الأحداث الآتية من خلال إستعانتهم بحركات النجوم، ونموذج ذلك ما قاله هذا المنجم لأمير المؤمنين عليه السلام استناداً لحركة النجوم في أنّه لا يظفر بمراة إذا تحرك في تلك الساعة لقتال الخوارج في النهروان، ففند الإمام عليه السلام ما قاله المنجم ثم خالفه عملياً بأن سار في تلك الساعة إلى قتال الخوارج فهزمهم هزيمة منكرة وانتصر عليهم ذلك النصر الحاسم. نكتفي بهذا المقدار على أن نعرض له بتفصيل أكثر آخر الخطبة في بحث التأمّلات.

القسم الثاني

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلَّمَ النُّجُومَ، إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْكُهَانَةِ، وَالْمُنَجِّمِ كَالكَاهِنِ وَالْكَاهِنِ كَالسَّاحِرِ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ، وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ، سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ».

❦❦❦

الشرح والتفسير

اجتناب نبوءات المنجمين

يحذر الإمام عليه السلام أفراد الأمة من تعلم النجوم، والواقع هو أن الإمام عليه السلام يفرق أحوال النجوم عن أحكامها، إلى جانب بيان ما تقود إليه من مساوئ «أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلَّمَ النُّجُومَ، إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ» فعلم النجوم والتعرف عليه والاستفادة من أوضاع النجوم في السماء بغية الاهتداء في البحار والصحارى وسائر الأمور المشابهة القائمة على أساس وضع الكواكب ليست ممنوعة فحسب، بل هي جزء من العلوم الضرورية، وذلك لصلتها الوثيقة بنظام المجتمع البشري. القرآن من جانبه أشار إلى هذا الأمر بصفته نعمة إلهية وآية من آيات التوحيد فقال: «وَبِالنُّجُومِ هُمْ يَهْتَدُونَ»^١. كما قال في موضع آخر: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»^٢ فمثل هذه التعبيرات تفيد حث القرآن للإنسان على الانفتاح على هذا النوع من علم النجوم، أمّا المحذور فما عرف بأحكام النجوم؛ أي كشف بعض الأشياء من أوضاع الكواكب وكيفية ارتباطها مع بعضها (قربها وبعدها من بعضها البعض الآخر) والأخبار عن بعض الأحداث بالنسبة

١. سورة النحل / ١٦٧.

٢. سورة الانعام / ٩٧.

للأفراد والمجتمعات البشرية، وبالطبع فإن بعضها كلي يتوصل إليه دون النظر إلى أوضاع الكواكب، أو جزئي يبين من خلال الحدس والظن، وغالباً ما يثبت خلافها كما وقفنا على ذلك في هذه الخطبة. ومن هنا إختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول: «فانها تدعو إلى الكافر في النار، سيروا على اسم الله». والمراد بالكهانة الأخبار عن الأمور الخفية وكشف الحوادث المستقبلية وزعم العلم بالأسرار ويقال لمن يزعم هذه الأمور «الكاهن». وقد كان هناك الأفراد الذين يزعمون هذه الأمور في العصر الجاهلي كشق وسطيح، وكان متعارف بين الكهنة أن يؤدوا كلماتهم الباطلة بنوع من السجع والقافية والألفاظ الطنانة الرنانة لتفعل فعلها في قلوب الناس، ومن هنا نعت المشركون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالكاهن وذلك لا خبره عن الأمور بواسطة الوحي، إضافة إلى أنه كان يتلوا عليهم الآيات القرآنية التي تمثل ذروة الفصاحة والبلاغة فيتعللون بهذه الترهات إستكباراً عن قبول الحقيقة. وبناءً على ما تقدم فإن علم النجوم (يعني علم أحكام النجوم) يختزن الكهانة، وعمل الكاهن يشبه إلى حد بعيد عمل الساحر، لأنّ الاثنين يعتمدان الحيلة والخدعة لاستغفال السذج من الناس، والساحر كالكافر، لأنّه لا يعرف للتوكل على الله من معنى بينا يستند إلى أمور أخرى ولا يرى لله من تأثير عملي على مصيره، ويعلق هذا التأثير على أمور أخرى يتطلبها السحر، ومن هنا فان مصير هؤلاء المنحرفين هو النار وبئس المصير.

تأملات

١ - ما هو علم النجوم؟ وما المحذور منه؟

السؤال الأول الذي يطرح نفسه هنا: ما المراد بعلم النجوم الذي عرض أمير المؤمنين عليه السلام بذمه بشدة في هذه الخطبة حتى عدّه بمصاف الكفر؟ قطعاً ليس المراد العلم بأحوال النجوم وحركاتها وابتعادها وإقترابها من بعضها؛ لأنّه وكما أشرنا سابقاً فإن حركات النجوم وأوضاعها في السموات من الآيات الإلهية، وقد دعي الناس للاهتمام بها في ظلمات البحار والصحاري، كما أشير إلى ذلك في ذيل هذه الخطبة أيضاً. فالوقوف على أسرار عالم الخلق والتفكر في خلق السموات والأرض لا يستحق الذم فحسب، بل يعد من الأمور التي دعي

أولي الألباب إلى تأملها «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ»^١. وعليه فما شدد على ذمه شيء آخر هو العلم بأحكام النجوم، ويراد بها العقائد التي تنسب حياة الإنسان ومصيره في الكرة الأرضية إلى أوضاع النجوم وأحوالها، والإخبار عن بعض الحوادث استناداً إلى حركة الأفلاك، ولا يقتصر هذا الإخبار على المسائل العامة والاجتماعية، بل يتجاوزها إلى الأمور الشخصية والجزئية؛ ومن هنا نرى إستعانة الملوك والسلاطين بالمنجمين الذين يسعون لقراءة أوضاع الكواكب على ضوء رغبات أولئك الملوك، فإذا ما نظروا إلى الكواكب أخبروا بأنها تشير إلى سلامة صاحب السعادة والسمو وتنامي قوته وشوكته، فإذا ما فرغوا من الأخبار الكلية عمدوا إلى بعض الجزئيات التي يمكن إطلاقها حتى من قبل عوام الناس دون تأمل أوضاع الكواكب من قبيل فقدان بعض الشخصيات وبروز الاختلاف في بعض أصقاع العالم وغلاء أسعار بعض الأشياء وإصابة بعض الزرع بالآفات وبرودة الجو في الشتاء وحرارته في الصيف وما إلى ذلك. وهذه هي التكهّنات والأخبارات التي قد تصيب وقد تخطئ وقد ورد الذم عليها في الروايات الإسلامية ولا سيما في هذه الخطبة.



٢ - الكهانة والكفر

السؤال الآخر الذي يرد بهذا الشأن وهو فساد الاعتقاد بوجود الإرتباط بين حياتنا والنجوم، بل ليس هنالك من منطق يقر بذلك؛ ولكن ما سبب كل هذا التشدد في الذم وجعل هذه المسألة في مصاف الكفر؟ ولا تصاح الإجابة على هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى هذه النقطة وهي أنّ أصحاب نظرية الإرتباط (بين الحوادث وحركة الافلاك والنجوم) على عدة أقسام:

- ١- من يعتقد بأزلية وأوهية الكواكب وأنها ذات تأثير على عالم الوجود وحياة الإنسان والحوادث التي تقع في الأرض.

٢- من يعتقد بتدبير الكواكب وإدارتها لعالم الوجود، وإن سلبها الاستقلال وأسند فعلها إلى إذن الله.

٣- من يعتقد بأن لها تأثير طبيعي على الأرض، وكما أنّ حرارة الشمس تؤدي إلى نمو الأشجار وحملها للثمار والفاكهة، فإنّ لاوضاع الكواكب تأثير في شؤون حياة الإنسان وقد إنكشف لنا بعضه بينما ظل البعض الآخر خافياً علينا.

٤- من لا يعتقد بتأثيرها في شؤون حياة الإنسان، إلاّ أنّها تستطيع أن تخبر عن الحوادث الحاضرة والماضية وبعبارة أخرى: فهي إشارات وعلامات على الحوادث لأنّها علل وأسباب. فما لاشك فيه أنّ الطائفة الأولى في زمرة الكفار وإن اعتقدت بالله سبحانه، لأنّها مشرّكة قد جعلت لها إلهاً آخر تعبده.

أمّا الطائفة الثانية فهي خاطئة من جهتين وإن لم تكن كافرة: الأولى: أن زعمها لتأثير الكواكب على حياة الإنسان هو زعم فارغ يفتقر إلى المنطق والدليل والبرهان، الثانية: أنّ هذا الكلام يخالف ظاهر الآيات القرآنية والروايات الإسلامية القطعية التي تنفي عن هذه الكواكب أي شعور وحياة وتدبير للخلق، بل تنسب تدبير الخلق والحياة والموت والرزق إلى الحكيم المتعال، ولا تتطرق إلى النجوم والكواكب والأجرام السماوية والشمس والقمر إلا بصفتهما آيات من آيات الحق، ولو كان لها حقاً بعض العلم والحياة والقدرة والتدبير والتصرف في العالم لإشارت الروايات والآيات إلى هذا الأمر. نعم أنّها مسخرات بأمر الله ولكل وظيفته، فالشمس تشع بضياؤها، والقمر يضيئ في الليالي الظلماء و...

وأمّا الطائفة الثالثة التي تعتقد بالتأثير الطبيعي لهذه الكواكب على أوضاع الأرض، فهو كلام لا يخالف الواقع، إلاّ أنّ السؤال المطروح هو ما مدى هذا التأثير و أين؟ والحق أنّ ذلك ليس واضحاً لدينا. نعم نعلم أن لضوء الشمس تأثير على كل شيء، كما القمر أثره في ظاهرة المد والجزر، وأنّ للنجوم تأثير، ولكن هل لهذه الكواكب تأثير في حوادث حياتنا أم لا؟ هل للانفجارات الشمسية تأثير على الهيجان الفكري للإنسان على وجه الكرة الأرضية، وهل لها من تأثير في نشوب الحروب والنزاعات أم لا؟ وهكذا سائر المسائل من هذا القبيل التي لا نعرف كنهها وليس لدينا رؤية واضحة عنها، وكل ما نقوله فيها إنّما هو قول بغير علم، وكلام

دون دليل، وعليه فإنّ مثل هذا الكلام لا يجوز شرعاً، إلا أن تثبت هذه التأثيرات وما شابهها بالأدلة العلمية والقطعية. بعبارة أخرى: لامانع من الأخبار عن التأثيرات الطبيعية للاوضاع الفلكية الثابتة في الأرض وحياة الناس، وما لم يثبت يجوز التحدث عنه على مستوى الاحتمال، لا على سبيل الحكم القطعي، عل كل حال فإنّ الاعتقاد بمثل هذا التأثير ليس كفراً ولا مخالفاً لاحكام الشرع، والروايات التي صرحت بالنهي عن تعلم علم النجوم ليست ناظرة لهذا الأمر البتة، كما لم يكن المنجمون السابقون يعنون بهذا الأمر في أحكامهم، والذي يستفاد من كلمات المنجمين السابقين أنّهم كانوا يقولون بالطبائع التي تشتمل عليها هذه الكواكب على أن لبعضها طبع حار وأخرى بارد وما شابه ذلك. ومما لا شك فيه ان القول بهذه الطبائع للنجوم إنما نشئ من بعض الاستحسانات والعقائد، فكانوا يصدرون على ضوءها بعض الأحكام ويصرحون بأنّ الكواكب الفلاني سيقرب هذا الشهر من الكوكب الفلاني ولما كانت طبيعتها كذا وكذا فستشهد الأرض الحادثة الفلانية. وحيث يفتقر هذا الاعتقاد إلى الدليل والحكم القطعي لأنه يقوم على أساساً الحدس والاستحسان فإنّ المنجمين المسلمين إنما يذكرون هذه الأمور على سبيل الاحتمال ويصرحون قائلين: يحتمل ظهور مثل هذه الحوادث.

وأخيراً الطائفة الرابعة التي ذهبت إلى أنّ أحوال الكواكب والنجوم علامات على الحوادث التي تقع في المستقبل، أو تقول جرت السنة الإلهية على وقوع الحادثة الفلانية في الكرة الأرضية إذا حدثت بعض التغييرات في الأفلاك والكواكب، دون أن تعتقد بالالوهية والربوبية لهذه الكواكب، وعليه فعقيدته لا توجب الكفر، إلا أن فعلهم حرام، لأنّ كلامهم يفتقر إلى الدليل وهو قول بغير علم ولا يستند سوى إلى الظن والوهم والخيال، وذلك لأننا نعلم أنّ الشرع يجرم كل قول يصدر من الإنسان دون أن يستند إلى علم ويقين وحجة شرعية ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^١ كما صرح القرآن قائلًا: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^٢ وقال بشأن الكفار ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾^٣. ومن جانب آخر فإنا نعلم أنّ الغيب لله ووحدته العالم بمرحلة الإنسان وما يواجهه

١. سورة الاسراء / ٣٦.

٢. سورة يونس / ٦٨.

٣. سورة النجم / ٢٨.

من أحداث وكيف تكون عاقبته ومتى يفارق الدنيا وفي أي أرض يموت. وبالطبع فإن لأولياء الله نصيب من العلم ولا سيما بهذه الأمور من خلال تعليم الله لهم، ولكن ليس لديهم مثل هذا العلم ببعض الحوادث من قبيل قيام القيامة أو ظهور المصلح العالمي، وليس لأي أحد من غير المعصومين عليه السلام إدعاء علم الغيب سواء استند هذا الادعاء إلى علم النجوم أو الارتباط بعالم الأرواح أو إخبار الجن وما شاكل ذلك.

ويتضح مما مر معنا لم إعتبر الإمام عليه السلام في هذه الخطبة علم النجوم على أنه مصدر الكهانة، وأن المنجم بمنزلة الكاهن والكاهن كالمساحر والمساحر كالكافر، كما اتضحت كيفية كون تصديق المنجمين نعني تكذيب القرآن، وكيف أن الاعتماد على أقوال هؤلاء تجعل الإنسان غنياً عن التوكل على الله والاستعانة بذاته المقدسة. والواقع هو أن الإمام عليه السلام أورد الكلام بشأن عدة طوائف من المنجمين التي تعتقد بالتأثير المستقل للنجوم أو تربط الحوادث بأوضاع النجوم وأحوالها وما إلى ذلك من عقائد موهومة. والإسلام من جانبه لا يرى من إعتبار لمثل هذا النوع من علم النجوم الذي لا يستند سوى إلى الوهم والظن، فرفضه وصرح ببطلانه، بينما حث المسلمين ودعاهم إلى تعلم علوم النجوم الذي يهدف إلى الاطلاع والتعرف على أسرار النجوم وسبر أغوارها.



٣ - كيفية ظهور التكهنات النجومية

- ليس هناك من وضوح في الدافع الذي يقف وراء ظهور علم النجوم بمعناه الانحرافي لا العلمي؛ إلا أنه يمكن اعتبار بعض الأمور المؤثرة في هذا الأمر على نحو الاحتمال، من قبيل:
- ١ - تصادف إقتران بعض الحوادث على الأرض مع بعض الاوضاع الفلكية.
 - ٢ - الاستحسانات والخيالات التي استندت إليها التحليلات في أغلب القضايا الاجتماعية.
 - ٣ - إصرار البشر - ولا سيما السلاطين وأصحاب السطوة - على الامام بالحوادث المستقبلية وما يرتبط بها.
 - ٤ - استغلال هذا الأمر لتبرير الاعتقاد بالجبر فيصرحون مثلاً بأن ما نواجهه من حوادث

إنما هي معلولة لأوضاع الأفلاك، فهذه الحوادث واقعة شئتأ أم أبينا.

٥ - تبرير القضايا السياسية وتوظيفها في محاربة أفكار الخصوم على أن ذلك من مقتضيات أوضاع الأفلاك ولا يسع أحد الوقوف بوجهها. وهنا يبرز هذا السؤال: لقد وردت عدّة روايات صرحت بتجنب عقد الزواج والقمر في العقرب، أو ليس هذا دليلاً على الأثر الذي تلعبه أوضاع الأفلاك على حياة الإنسان؟ ولا تبدو الإجابة على هذا السؤال صعبة. فنحن لاننكر التأثير الطبيعي لأوضاع الأفلاك على حياة الناس، لأنّ كافة أجزاء العالم وحدة واحدة يؤثر كل منها على الآخر. وكل ما قلناه هو أنّ إثبات التأثير الطبيعي لأوضاع الأفلاك على حياة الناس في كل حال ودون إستثناء إنّما يتطلب الدليل والبرهان، ولا يمكن للوهم والخيال أن يثبت شيئاً، وعليه فاذا ثبت شيء عن طريق المعصوم عليه السلام فلا مناص من قبوله بتلك الحدود. ونخلص من هذا إلى أنّ روايات «القمر في العقرب» لاتتناقض وما ورد في هذا البحث.



الخطبة ١

ومن خطبة له ﷺ

بعد فراغه من حرب الجمل، في ذم النساء ببيان نقصهن

نقرة إلى الخطبة

وردت هذه الخطبة بعد الجمل وهزيمة جيش عائشة في الجمل، حيث عرض فيها بالذم للنساء؛ قطعاً النساء اللاتي أوجن نار موقعة الجمل ومن تبعهن واحتذى بأقوالهن، فالإمام ﷺ يذم هؤلاء بفعل بعض النقائص التي تدعو إلى ارتكاب بعض الأعمال الطائشة ويحذر المؤمنين من التأثر بما يصدر عنهم من سوء.

١. سند الخطبة: أن هذا الكلام من جملة كتاب له ﷺ كتبه بعد احتلال عمرو بن العاص لمصر وقتل محمد بن أبي بكر، استعرض فيه الأحداث من أيام رسول الله ﷺ إلى اليوم الذي حرر فيه ذلك الكتاب وأمر أن يقرأ على الناس، وأنه ليس من البعيد أنه ﷺ قال هذا الكلام بالخصوص أكثر من مرة، منها في ذلك الكتاب ومنها بعد حرب الجمل كما ذكر السيد الشريف في هذا الموضوع. وإنما قلت ذلك اعتماداً على نص الشريف هنا وما ذكره السبط بن الجوزي في التذكرة حيث قال: ذكر علماء السير: أن علياً ﷺ لما فرغ من حرب الجمل صعد المنبر بالبصرة فخطب الناس وقال: إن النساء... بأدنى تفاوت عما ذكر الرضي. ومن نقلها قبل السيد الرضي أبوطالب المكي في قوت القلوب والشيخ الكليني في الكافي المجلد الخامس وإبراهيم بن هلال الثقفى في الغارات وابن قتيبة في الإمامة والسياسة والطبري في المسترشد. (مصادر نهج البلاغة ٨٦٧).

«مَعَاشِرَ النَّاسِ، إِنَّ النِّسَاءَ نَوَاقِصُ الْإِيمَانِ، نَوَاقِصُ الْحُطُوظِ، نَوَاقِصُ الْعُقُولِ: فَأَمَّا نَقْصَانُ إِيْمَانِهِنَّ فَقَعُودُهُنَّ عَنِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ، وَأَمَّا نَقْصَانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَّاحِدِ، وَأَمَّا نَقْصَانُ حُطُوظِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى الْأَنْصَافِ مِنْ مَوَارِيثِ الرِّجَالِ. فَاتَّقُوا شِرَارَ النِّسَاءِ، وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ، وَلَا تُطِيعُوهُنَّ فِي الْمَعْرُوفِ حَتَّى لَا يَطْمَعَنَّ فِي الْمُنْكَرِ».

❦❦❦

الشرح والتفسير

مكانة المرأة في المجتمعات البشرية

هنالك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة ولا سيما المعاصرين منهم بشأن تفسير هذه الخطبة، ومن هنا نرى ضرورة التمهيد قبل الخوض في تفاصيل هذه الخطبة. فقد حفل التأريخ بكثرة الكلام والإفراط والتفريط بشأن موقعها وشخصيتها، فقد نزلوا مقامها أحياناً دون مقام الإنسان، بل ترددوا في إنسانيتها بينما ذهب إلى البعض الآخر إلى أنها الجنس الراقي الذي يفوق الواقع حتى إقترح سيادتها للجماعة البشرية، ويمكن اعتبار هذين الرأيين من قبيل الإفراط ورد فعله التفريط. أمّا اليوم فقد كثرت الكلام أيضاً في المجتمعات الغربية ومن يناغمها في إرساء التجربة الديمقراطية بشأن المرأة. فالساسة يرون أنفسهم بحاجة إلى رأي النساء اللاتي يشاركن في الانتخابات ويدلن بأصواتهن، كما يحتاجها الرأسماليون لاستخدامها في المعامل والمصانع ولا سيما أنهم يتوقعون مطالبتهن بأجور أقل من الرجال إلى جانب تحليهن ببعض الصفات التي لا تتوفر في الرجال، وأخيراً هناك الجهاز الإعلامي الذي يعد الشريان الرئيسي للميدان السياسي والاقتصادي هو الآخر يرى نفسه بحاجة ماسة إلى المرأة. كل هذه الأمور

أدت إلى الدفاع المستميت عن حقوق المرأة والسعي الحثيث لرفع شخصيتها إلى أقصى ما يمكن على مستوى الكلام، أما على مستوى العمل فالقضية معكوسة تماماً. فزالَت المرأة تعيش اليوم شتى أنواع الحرمان؛ الأمر الذي كان له أثره على تفسير بعض النصوص الدينية الواردة بشأن المرأة وتأويلها بالشكل الذي يتناسب وطباع أغلب النساء ويشجع رغباتهن وتطلعاتهن وإن كانت فارغة تفوق الخيال. ولم تسلم هذه الخطبة وسائر شبيهاها من الخطب في نهج البلاغة من ذلك التقصير، بل هنالك من يتردد في سند هذه الخطبة، وآخر يتحرج في تفسيرها حذراً من المساس بمقام المرأة والاساءة لها، وإلى جانب هؤلاء فهناك من سلك سبيل التفريط بحق المرأة ليصورها على أنها مجموعة من العيوب والنقص. وهنا نقول لا ينبغي التنكر لأمرين: الأول: أن هذه الخطبة وردت بعد الجمل، ونعلم أن القطب الرئيسي فيها كان زوج النبي ﷺ عائشة التي وردت الميدان إثر التحريض العجيب الذي قام به طلحة والزبير وقد سألت فيها دماء غزيرة ذهب البعض إلى أنها خلفت ما يربو على سبعة عشر ألف قتيل، طبعاً صحيح أن تلك المرأة أعربت عن ندمها بعد هزيمة عسكر الجمل، وإن أمير المؤمنين علي عليه السلام واحتراماً لرسول الله ﷺ أمر بردها معززة مكرمة إلى المدينة، إلا أن الآثار السيئة لتلك المعركة ظلت باقية في صفحات التأريخ الإسلامي والثاني إننا نرى أغلب الآيات القرآنية التي عرضت بالذم للجنس البشري فقد صرح القرآن قائلاً: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾^١ وقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^٢ وقال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾^٣ ﴿كَذَلِكَ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أُن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾^٤ وما شابه ذلك من الآيات. فما لاشك فيه أن الإنسان في طبيعته ليس «كفور مبين» ولا «ظلوم جهول» ولا «طاغي»، ويبدو أن هذه الأمور تتعلق بأولئك الأفراد الذين لم يترعرعوا في ظل التربية الدينية، فهم غارقون في أهوائهم وذواتهم وليس لهم من مرشد أو دليل. ومن هنا نرى القرآن يكيل المدح والثناء للإنسان الذي يتحلى بالطاعة والورع والتقوى، بل أشار القرآن إلى

١. سورة المعارج / ١٩ - ٢١.

٢. سورة الاحزاب / ٧٢.

٣. سورة الزخرف / ١٥٠.

٤. سورة العلق / ٦ - ٧.

بني آدم على أنهم أكرم من في عالم الوجود ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^١. وبصدق ما
أوردناه سابقاً على جنس المرأة، فهناك التميزات من بين النساء بما يقل العثور على نظيرهن
في الرجال، وبالعكس هناك النساء المنحرفات اللائي يشكلن بؤرة فساد المجتمعات البشرية.
والآن نخوض بعد هذه المقدمة في شرح الخطبة، وسنشير آخر الخطبة إلى بعض الأمور ذات
الصلة بهذا الخصوص. كما ذكر سابقاً فإن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة في الجمل كتحذير
لجميع المسلمين من مغبة التعرض لمثل هذه الحوادث في المستقبل، فقال عليه السلام: «معاشر الناس
إن النساء نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ، نواقص العقول» ثم قدم عليه السلام الدليل على ما
ذهب إليه فقال: «وأما نقصان إيمانهن فقعودهن عن الصلاة والصيام في أيام حيضهن،
وأما نقصان عقولهن فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد، وأما نقصان عقولهن
فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد، وأما نقصان حظوظهن فمواريثهن على
الأنصاف من مواريث الرجال» ومما لا شك فيه أن لكل نقص دليله فقعود النساء عن الصلاة
والصوم حين العادة الشهرية لسببين أحدهما أن المرأة قد تعيش حالة شبه مرضية زمان العادة
فهى بحاجة إلى الراحة، والآخر أن وضعها لا يتناسب وحالة العبادة والدعاء. وأما كون
شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد فذلك لغلبة الجانب العاطفي عند النساء، وهى تتأثر
وتتفعل بهذه العواطف، الأمر الذي قد يدفعها للشهادة لصالح أحد والاضرار بآخر. وأما كون
ميراثهن نصف ميراث الرجال فأولاً: إنما يختص هذا الأمر بالبنت والزيجات، بينما الميراث
واحد بالنسبة للآباء والأمهات وأولادهما، وهكذا الحال بالنسبة للاخوة والاخوات
وأولادهما. بعبارة أخرى فإن المرأة كأم أو أخت تتقاضى سهماً مساوياً لسهم الرجل في
الميراث. وثانياً: تختص النفقة بالرجال، والمرأة ليست فقط لا تتحمل نفقات الأولاد فحسب،
بل يتوجب على الرجل تغطية نفقاتها وإن حصلت على أموال طائلة عن طريق الارث أو
غيره. ونخلص من هذا إلى أن هذه الفوارق قد حسبت بمتهى الدقة في الإسلام، مع ذلك هنالك

مسألة لا ينبغي إنكارها وهي أن المرأة ليست مساوية للرجل في كل الأمور، وأمّا أولئك الذين يرفعون شعار المساواة وأحياناً أفضلية المرأة على الرجل فأنما يتبنون ذلك قولاً وينا قضونه عملاً. فهل هناك من رئيس جمهورية - رفع شعار المساواة بين الجنسين - ووزع الحقائق الوزارية بالتساوي على الرجال والنساء، أم هناك مدير وزع الوظائف الإدارية بهذا التساوي، بل يتعذر ذلك حتى في البلدان الغربية وتلك العلمانية والوطنية. أمّا الرؤية الحق التي تستند إلى الواقع وتجنب الشعار والرياء فهي تلك التي تدعو إلى العدل في التعامل مع الجنسين على أساس الاستعدادات والكفاءات التي أودعت كل منها، ليتمكن كل طرف من توظيفها بالشكل الصحيح بما يخدم شخصه ومجتمعه؛ الأمر الذي سنخوض في تفاصيله في مباحث التأمّلات لاحقاً.

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة فيقول: «فاتقوا شرار النساء، وكونوا من خيارهن على حذر، ولا تطيعوهن في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر» ومن الطبيعي أن عدم طاعتهم في المعروف لا يعني مخالفتهم إذا دعين إلى الأمور المعروفة كالصوم والصلاة والعدل والاحسان، بل المراد عدم الاستسلام لمقترحاتهم دون الإكترات لأي قيد أو شرط، وبعبارة أخرى لا بدّ من القيام بالمعروف لذاته لا من خلال الاستجابة المطلقة للازواج، حذراً من تمددهن والمطالبة بالخضوع لكل رغباتهن وطلباتهن. فالعبارة الواردة في نهج البلاغة وان لم تختص بالزيجات وأنها تقصد عامة النساء، إلا أن المفروغ منه هو أن هذه الأمور إنّما تحدث عادة بين الازواج والزيجات. وبناء على هذا فان ما جاء في هذه الخطبة لا يتنافى والآيات التي توجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يشمل الرجل والمرأة؛ لأنّ لاخطبة لا تقصد ترك المعروف، بل المراد أن العمل لا ينبغي أن يحمل صفة الطاعة العمياء بصيدا عن كل قيد وشرط. كأن يرد الزواج على الزوجة حين إقتراحها المعروف، أجل كنت قد فكرت بالقيام بهذا العمل (في حالة إذا كانت لديه حقانية القيام به)، أو أن يؤخر العمل لمدة قصيرة إن أمكن تأخيرها كي لا تشعر الزوجة بأنه منقاد لها دون حدود وشروط. نعم أن النساء المؤمنات الملتزمات الفاضلات مستثناة من هذا الحكم؛ فهناك النساء اللاتي سخطهن سخط الله ورضاهن رضا الله كالزهراء عليها السلام. وهذه النقطة واضحة أيضاً حين قال: «كونوا من خيارهن

على حذر» أن المراد الخير النسبي لا الخير المطلق، فالأخيار المطلقين ليس فقط لا يتبغى الحذر منهم، بل لا بد من إغتنام الفرصة للتحدث إليهم وسماع وصاياهم. ومن هنا صرحت بعض الآيات القرآنية بضرورة إستشارة النساء، ومن ذلك فطم الطفل عن الرضاعة: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾^١.

تأملان

١ - الفوارق والمساواة بين الجنسين

هناك عدة أبحاث في أوساط العلماء بشأن هذا الموضوع: هل يتساوى الرجل والمرأة حقاً من وجهة النظر الحقوقية والخلقية أم يتفاوتان. أما الاعتقاد السائد فهو القول بالفارق بين الرجل والمرأة على صعيد البنية البدنية والجوانب العاطفية والعقلانية، دون أن يكون هذا الفارق مدعاة للحد من شخصية المرأة أو الارتقاء بشخصية الرجل؛ إلا أن هذا الفارق يمكن أن يكون سبباً لاختلاف المسؤوليات والوظائف التي ينهض بها كل منهما في المجتمع. أما على المستوى الاجتماعي فقد ذهبت جماعة إلى ضرورة سيادة الرجل، فكان لهذا الأسلوب الافراطي في التفكير رد فعله التفريطي الذي رأى ضرورة سيادة المرأة. انتهجت جماعة ثالثة أسلوباً منطقياً يفند الاسلوبين المذكورين ويتمثل بسيادة الإنسان. والذي يفهم من المصادر الإسلامية والمنطق والعقل بهذا الخصوص هو أن شخصية الإنسان تنطوي على ثلاثة أبعاد:

١ - البعد الإنساني والمعنوي

٢ - البعد العلمي والثقافي

٣ - البعد الاقتصادي

أما البعد الأول الذي يتضمن أسمى المثل والقيم الإنسانية فليس هنالك من فارق بين المرأة والرجل، وهما متساويان فيها عند الله ولكل منهما أن يواصل مسيرة التقرب من الله، وبعبارة

أخرى فان طريق التكامل واحد أمامها. ولذلك خاطبها القرآن معا: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^١.

وصرحت الآية القرآنية قائلة: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ... أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^٢. من جانب نوع الجنس ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^٣ وهكذا سائر الآيات التي لا يسع المقام ذكرها. ولم يتقصر بيان هذه الحقيقة على الآيات القرآنية، بل تطرقت لها الروايات الإسلامية أيضاً، فقد جاء في الخبر:

إنه اجتمعت عصابة الشيعة بنيسابور و اختاروا محمد بن علي النيسابوري فدفعوا إليه ثلاثين ألف دينار وخمسين ألف درهم وشقة من الثياب، وأتت شطيطة بدرهم صحيح وشقة خام من غزل يدها تساوي أربعة دراهم فقالت: إن الله لا يستحي من الحق. فلم يقبل الإمام عليه السلام سوى الأموال المتعلقة بشطيطة ورد ما سوى ذلك.^٤

ويتضح من هذه الرواية أن ليس هنالك من تفاوت في القيمة الإنسانية بين الرجل والمرأة. ومن هنا فان المرأة قد تسبق الرجل أحيانا في هذا المضمار.

الطريف في الأمر أن صحابة النبي صلى الله عليه وآله كانوا يرون الامتياز للرجل، أما النبي صلى الله عليه وآله ليس فقط لم ير له من إمتياز فحسب، بل قدم على شخص أخته في الفضل انطلاقاً من المبادئ والقيم الإنسانية الحققة. ولما سئل عن ذلك، أجاب صلى الله عليه وآله: لأنها كانت أبر بوالديها منه.^٥

أما قصة نسيبة بنت كعب الأنصارية وشجاعتها في ميدان القتال - أحد - وجلبها الماء وتضميد جراح المقاتلين وصمودها بوجه الأعداء حتى أصيبت بثلاثة عشر جرحاً، ثم التحاقها بصفوف المقاتلين المسلمين في اليمامة في قتال مسيلمة حتى نالت الشهادة هي قصة

١. سورة النحل / ٩٧.

٢. سورة الاحزاب / ٣٥.

٣. سورة الحجرات / ١٣.

٤. بحار الأنوار ٧٣ / ٤٨.

٥. الكافي ١٦٢ / ٢.

معروفة. وقد جاء في الخبر أنّ رسول الله ﷺ قال يوم أحد: «لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان»^١.

وأما بالنسبة للبعد العلمي والثقافي فهنا أيضاً لا يوجد فارق بين المرأة والرجل، أي أنّ أبواب العلم مفتحة لهما على السواء والدليل على ذلك ما ورد في الحديث المعروف: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»^٢ حتى وإن لم ترد مفردة المسلمة في الحديث، لأنّ المراد بالمسلم هنا النوع الإنساني، كما ورد شبيه ذلك في أغلب الروايات والأحاديث. وعليه فليس هنالك من محدودية من وجهة النظر الإسلامية بالنسبة لانفتاح المرأة على العلوم، ولها أن تطوي مسيرتها نحو الكمال أسوة مع أخيها الرجل. وبغض النظر عن كل ما سبق فإنّ التاريخ الإسلامي حافل بكبار الشخصيات النسوية بصفتهن محدثات وراويات للأحاديث والأخبار.

وأخيراً ليس هنالك من فارق بين الجنسين في البعد الاقتصادي فلكل منها ملكيته المحترمة ولا سيما بالنسبة للأعمال، بل للمرأة استقلال اقتصادي خاص، على الخلاف مما تعارف بين المجتمعات الغربية التي حظرت عليها التصرف في أموالها دون إذن الزوج فجردتها من هذا الاستقلال، بينما ليس هنالك من ضرورة لاذن الزوج من أجل تصرف الزوجة بأموالها في الإسلام، ولها أن تتصرف في أموالها حسبما يحلو لها في المصارف المشروعة. ولا ننسى هنا إذا أردنا أن ننحي الشعارات جانباً أنّ القدرة الانتاجية للرجل إنّما تفوق نظيرتها لدى المرأة، ويستند ذلك إلى سببين: الأول: أنّ للرجال طاقة أعظم للأتيان بالأعمال الثقيلة؛ الأمر الذي يمنحهم بعض التفوق الاقتصادي على النساء. الثاني: ما تفقده المرأة من طاقاتها البدنية بفعل مشاكل الحمل والوضع والرضاع وتربية الأطفال التي تستغرق مدة مديدة من عمرها، ولو افترضنا أنّ للمرأة على الأقل ثلاثة أولاد وأنها ترصد مدة أربعة

١. سفينة البحار، مادة نسب.

٢. ان رواية «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» وردت في كتاب بحار الانوار للعلامة المجلسي، نقلها من كتاب «عوالي اللئالي» منقولة عن الرسول الكريم ﷺ وكذلك وردت في كتاب ميزان الحكمة منقولة من مجموعة ورام.

سنوات لكل منهم منذ زمان الحمل ومرورا بتلك المراحل حتى يستوي كصبي فاتها ستصرف إثنتي عشرة سنة من شبابها في هذا الأمر. ولعل هذا هو السبب الذي دفع بكافة المجتمعات حتى تلك التي تتبنى مساواة المرأة بالرجل والتي لاتستند حكوماتها إلى المبادئ الدينية لأنّ تسند الأعمال الشاقة ذات المسؤولية الجسيمة إلى الرجال، وأن تختار الرجل أيضاً لمزاولة المهام السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وبناءً أعلى ما تقدم فإن وجود بعض الفوارق في المسؤوليات بين الرجل والمرأة من قبيل التصدي لمنصب القضاء أو الاختلاف في عدد الشهود بينهما أو الاختلاف في الميراث الذي أوردنا دليلاً آنفاً، لايمكنه قط أن ينقض الأصول الكلية للمساواة بين الجنسين في البعد المعنوي والإنساني والبعد العلمي والثقاني وبالتالي البعد الاقتصادي. وعلى كل حال فلا بدّ من الإذعان لوجود التفاوت الطبيعي بين الجنسين وعدم خداع النفس والآخرين بالشعارات البراقة الكاذبة.



٢ - أخبار عائشة

عائشة بنت أبي بكر من قبيلة تيم طائفة قريش. أمها «أم الرومان» بنت عامر بن عويمر. ولدت في العام الرابع من البعثة النبوية، تزوج منها رسول الله ﷺ بعد خديجة. وقفت إلى جانب خلافة أبي بكر وعمر وشطرا من خلافة عثمان حتى أصبحت من الناقلين عليه - فلما قتل عثمان ظنت أن ابن عمها «طلحة» سيولي الخلافة ولما انتهى أمر الخلافة إلى علي عليه السلام سارعت للمطالبة بدم عثمان، فكان من ذلك معركة الجمل في البصرة. فلما قتل طلحة والزبير وهزم أصحاب الجمل أعادها ﷺ إلى المدينة. ذكر ابن سعد في طبقاته ان عمرا جعل عشرة الاف دينار لازواج النبي لكن عائشة كانت تأخذ اثني عشر الف ديناراً ثم قطعها عنها عثمان. وقد اشتد الخلاف بين عائشة وعثمان بشأن الوليد بن عقبة المعروف بفسقه وشربه للخمر وتعرضه لبعض صحابة النبي ﷺ مثل عبدالله بن مسعود وقد شهد عليه الناس بذلك فما كان من عثمان الا أن أقام الحد عليهم حسبما صرح البلاذري في أنساب الاشراف. فلما سمعت

عائشة بذلك أخذت بنعلي رسول الله ﷺ وهي تنادي هذا ثوب رسول الله ﷺ لم يبيل وقد أبلى عثمان سنته. فلما قتل عثمان سرت عائشة ولم يدم سرورها بعد أن آلت الخلافة لعلي ﷺ. قال الطبري في تاريخ الالم والملوك وابن سعد في الطبقات وابن اثير في الكامل لما سمعت عائشة بقتل علي سجدت وانشدت.

فالتت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالأياب المسافر
وابعد من ذلك ثناءها على ابن ملجم، فلما سمعت زينب بنت ام سلمة منها ذلك انكرته عليها فقالت بلغني الكبر فنسيت ولا أعود لذلك.

ومن عجائب سيرة عائشة موقفها تجاه عثمان حيث قال كل من صنف في السير والاختبار بما فيهم «ابن أبي الحديد» ان عائشة كانت من أشد الناس على عثمان وهي أول من سمى عثمان نعثلا وقالت «اقتلوا نعثلا قتل الله نعثلا» والنعثل الكثير شعر اللحية كما تعني العجوز الاحمق وكذلك قيل نعثل فرد يهودي كثيف اللحية ولا يعلم أي المعاني أرادت عائشة. فلما قتل عثمان وآل الأمر لعلي ﷺ قالت: «قتلوا ابن عفان مظلوما». واطاف ابن أبي الحديد قائلا: جاءت عائشة إلى أم سلمة تخادعها على الخروج للطلب بدم عثمان. فقالت لها أم سلمة: إنك كنت بالأمي تحرضين على عثمان، وما كان اسمه عندك إلا نعثلا، وانك لتعرفين منزلة علي ﷺ عند رسول الله ﷺ أفأذكرك؟ قالت: نعم. فروت لها عن رسول الله ﷺ ما يؤكد أحقيته بالخلافة فوافقتها عائشة. فسألتها: فأى خروج تخرجين بعد هذا؟ فقالت: انما أخرج للاسلاح بين الناس.^١

وروى الطبري قيل لعائشة لما نادى قتل عثمان مظلوماً إنك أول من نعمت عليه وقلت اقتلوا نعثلا فقد كفر. فقالت عائشة: نعم لكن قتلوه بعد أن تاب فقتل مظلوماً.^٢ وأورد ابن اثير هذا الكلام في الكامل.^٣

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢١٥/٤ (بتلخيص).

٢. تاريخ الطبري ٤٧٧/٣ (دار الاعلمي للنشر).

٣. الكامل لابن اثير ٢٠٦/٣ (دار صادر للنشر).

وقد ذكر البخاري في صحيحه حسد عائشة لخديجة.^١
 ومعروفة هي قصة كلاب الحوئب التي بلغت عائشة فنبحتها فقررت الرجوع بعد أن
 ذكرت الخبر، فلفقوا لها خمين اعرابيا ان هذا ليس بماء الحوئب.^٢
 توفيت عائشة في المدينة في ١٠ شوال عام ٥٧ أو ٥٩ فصلى عليها أبوهريرة ودفنت
 في البقيع.



١. صحيح البخاري ٤٧/٥، ورد هذا الحديث في باب تزويج خديجة وفضائلها.
 ٢. ذكره ابن أبي الحديد ٢٢٥/٦ والعلامة الاميني في الغدير ١٨٨/٣ عن كتب العامة.



الخطبة ٨١

ومن كلام له عليه السلام

في الزهد

نظرة إلى الخطبة

يخوض الإمام عليه السلام بادئ ذي بدء في هذه الخطبة في الزهد ليقدم بشأنه تعريفاً جامعاً رائعاً بثلاث عبارات قصيرة، ثم يوصي من يرى نفسه عاجزاً عن بلوغ هذه الحقيقة بالورع عن المحرمات وشكر النعم، فقد أتم الله حجته بالدلائل والبراهين الساطعة.

٨٠٠٨

١. سند الخطبة: روى صدر هذا الكلام - قبل الرضي - الصدوق في معاني الأخبار وفي الخصال، وروى آخر الكلام البرقي في المحاسن بتفاوت، ورواه بعد الرضي صاحب غرر الحكم بتفاوت يسير جداً، والقتال في روضة الواعظين ونقله عنه الطبرسي في مشكاة الأنوار. (مصادر نهج البلاغة ٨٨٧٢-٨٩).

«أَيُّهَا النَّاسُ الزَّهَادَةُ قِصْرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النَّعْمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ فَإِنَّ عَزَبَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فَلَا يَغْلِبُ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ وَلَا تَنْسَوُا عِنْدَ النَّعْمِ شُكْرَكُمْ فَقَدْ أَعَذَرَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ وَكُتُبٍ بَارِزَةٍ الْعُذْرِ وَاضِحَةٍ».

٤٥٥٨

الشرح والتفسير

حقيقة الزهد

أشار الإمام عليه السلام إلى حقيقة الزهد فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، الزَّهَادَةُ قِصْرُ الْأَمَلِ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النَّعْمِ، وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ».

فعباراته عليه السلام الثلاث بشأن الزهد تشكل الرد على التفاسير الخاطئة الواردة بهذا الخصوص، وما أكثر الأفراد الذين عجزوا عن الوقوف على معنى الزهد ويرون أنفسهم من الزاهدين. فهم يعتقدون بأن الزهد يقتصر على رتداء الثياب البسيطة أو عدم ممارسة الوظائف الاجتماعية واعتزال الناس التقوقع في زاوية ومجانبة الفعاليات والأنشطة الاقتصادية، والحال ليست هذه الأمور من الزهد في شيء. فحقيقة الزهد التي تقف بوجه الرغبة إنما تكمن في عدم الاكتراث إلى ماديات الدنيا وزخارفها، أو بعبارة أخرى عدم التعلق بالدنيا والاعتزاز بمظاهرها وإن زود بكافة الإمكانيات. فمن لم يفتقر بالأمور المادية فقد جنب طول الأمل (فظول الأمل من مميزات أهل الدنيا) وشكر النعمة وهجر الذنب والمعصية، لأن النعم لا تشغله بنفسه وتنسيه ربه. وهناك تفسير آخر للزهد أورده الإمام عليه السلام في قصار كلماته، قد يبدو مختلفاً مع هذا التفسير إلا أنه يتفق معه في المعنى، حيث قال عليه السلام: «الزهد كله بين

١. «زهادة» على وزن شهادة تعنى عدم الاعتناء بزخارف الدنيا؛ كما تستعمل هذه المفردة بشأن الأفراد ضيقي النظر أو سبئي الخلق، إلا أن المعنى الأول هو الأشهر ومن لوازمه قصر الأمل وترك الذنوب وما شابه ذلك.

كلمتين من القرآن: قال الله سبحانه «بِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ»^١ ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه»^٢. فالعبارة تفيد أن حقيقة الزهد تعني ترك التبعية وقطع أغلال الأسر المرتبطة بالماضي والآتي. الركن الثاني من الأركان الثلاث الزهد قوله عليه السلام: «والشكر عند النعم» على أن النعم من الله لا من العبد ليتعلق بالخالق ويهجر ذاته. أما قوله عليه السلام: «التورع عند المحارم» فيشير إلى أن حب الدنيا والتعلق بها هو أساس مقارفة الذنب؛ الأمر الذي عبر عنه الحديث الشريف: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»^٣. وبناءً على ما سبق فن قصر أمله وشكر نعم ربه وأمسك نفسه عن الذنب فهو الزاهد الحقيقي؛ سواء كان غنياً أم فقيراً، لأن الفقر ليس مقياس الزهد قط. ثم قال عليه السلام: «فإن عزب^٤ ذلك عنكم، فلا يغلب الحرام صبركم، ولا تنسوا عند النعم شكركم، فقد أعذر الله إليكم بحجج مسفرة^٥ ظاهرة، وكتب بارزة العذر واضحة». فالإمام عليه السلام وإن أكد على ركنين من أركان الزهد في إختتام الخطبة (ترك الذنب وشكر النعمة) إلا أن عباراته تفيد أن مراده هو أنكم إن لم تؤدوا حق النعمة في شكرها، فلا تنسوا على الأقل قضية الشكر، وإن تبلغوا مرتبة من الورع في هجر الذنوب بحيث تشمل الوقوف عند الشبهات، فلا تجعلوا الحرام يجاوز صبركم فعليكم كحد أدنى التحلي بالتقوى عند هذا الحد. أما ما ذكره الإمام عليه السلام من أسس ودعائم للزهد والتقوى فهي من الأمور التي يجيب توفرها في كل فرد، لأن الله أتم حجته وليس لأحد العذر في مخالفته. وزبدة الكلام فإن ترك الذنب وشكر النعم على مرحلتين: الأولى: هي وظيفة كافة المسلمين، وهي في الواقع شرط الإيمان. والثانية: أرفع من سابقتها تنطوي على الورع والتقوى من الشبهات وقصر الأمل وهذا ما يليق بالزهاد من أهل الإيمان.

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار ٤٣٩.

٢. الكافي ١٣١/٢، ح ١١.

٣. «عزب» من مادة «عزوب» على وزن غروب بمعنى بعد، ومن هنا وردت بمعنى ترك الزواج، حيث يطلق عليه صاحبه إسم الأعزاب.

٤. «مسفرة» من مادة «سفور» على وزن قبور بمعنى الكشف وخلع الحجاب، وعليه فالعبارة تعني الأدلة التي تكشف النقاب عن الحقيقة.

تأمل

الزاهد أمير لأسير

لقد شحن نهج البلاغة بخطب الإمام عليه السلام التي تتناول مفهوم الزهد. إلى جانب ذلك فإن القرآن الكريم قد تناول حقيقته ومفهومه بصورة واسعة وان لم يورد هذه المفردة بكثرة. والزهد من المفاهيم التي تعرضت لها الأديان الإلهية، على أنه يعني عدم التعلق بماديات الدنيا وحطامها، وبالطبع لا يراد بالزهد حرمان الإنسان من المال والثروة والمقام والإمكانات، وإنما يراد به عدم الانقياد والاستسلام لهذه العناصر والوقوع في أسرها، بل ينبغي له أن يكون أميراً عليها. ومن هنا نرى أن نبي الله سليمان عليه السلام الذي يضرب المثل بملكه وحكومته كان أميراً لا أسيراً حين رد تلك الهدايا النفيسة التي بعثت بها إليه ملكة سبأ. وقد ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أو ثقتك منك بما في يد الله». ^١ ومن هنا يتضح مدى الفارق الشاسع بين الزهد في الإسلام والرهبانية في المسيحية. فالزهد الإسلامي يعني البساطة في الحياة والابتعاد عن التجملات وعدم الوقوع في محالب الشهوات وأغلال الأموال والمقام، بينما تعني الرهبانية إلا نزواء والانزعال عن الحياة الاجتماعية. فقد ورد في الحديث أن عثمان بن مظعون حزن حزناً شديداً لما مات ولده وأقبل على الزهد فجعل داره مسجداً وانهمك بالعبادة، فلما بلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا عثمان إن الله تبارك وتعالى لم يكتب علينا الرهبانية، وإنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله. ^٢

في إشارة إلى أنك إذا أردت أن تقاطع الماديات فلا تسلك السبيل السلبي في ذلك وعليك تعقيب هذا الهدف من خلال مساره الإيجابي الصحيح الذي يكمن في الجهاد - ثم تطرق رسول الله صلى الله عليه وآله إلى فضيلة صلاة الجماعة ليقف على مدى أهمية الجماعة في الإسلام ورفضه لكافة أشكال الرهينة والعزلة. ويقابل الزهد الرغبة والتنافس على الدنيا؛ أي اللهث وراء الدنيا والتكالب على متاعها الذي ورد الذم عليه في الإسلام. وللزهد عدة آثار على الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان، والتي يمكن بواسطتها التعرف عليه وهي: قصر الأمل وشكر

١. كنز العمال ١٨١/٣، ح ٦٠٥٩.

٢. بحار الأنوار ١١٤/٧٠.

النعمة والورع عن المحرام وهي الأركان الثلاث التي أشارات إليها الخطبة. وهنا لا بد من القول بأن الزهد لا يساوي الفقر والحاجة أبداً؛ بل الزهد يعني الغنى الباطني واشباع النفس بالمعنويات وترك التعلق بالماديات وعلامة ذلك مقاطعة اللذات وإجتناّب التجملات. كتب أحد المفكرين المسلمين (رحمة الله عليه) بشأن دوافع الزهد: إنّ الزاهد يعيش حياته بمنتهى القناعة دون أي تكلف ليقود الآخرين إلى الهدوء والسكينة، أنه يشعر باللذة والمتعة في أن يأكل المحتاجون ويشربون قبل أن يأكل هو ويشرب. ولعلنا نلمس هذا المعنى في ما تعارف لدى أهل بيت النبي ﷺ: «الجار ثم الدار».

المواساة وتقاسم هموم المحرومين والمعوزين يعد الدافع الآخر من دوافع الزهد، فلما كان المجتمع على قسمين مرفه ومحروم فإنّ أولياء الله يسعون في الدرجة الأساس إلى معالجة أوضاع المحرومين، فإن لم تكن خهناك الإمكانيات اللازمة، جهدوا في العيش كأدنى الطبقات المرحومة في المجتمع ليخففوا من معاناة الضعفاء ولا يدعواهم يشعرون بالذلة والمسكنة بفضل ما يعانون من جشوبة العيش وخشونة الملابس، ولعل هذا هو المعنى الذي أراد أن يجسده أمير المؤمنين علي عليه السلام حين سئل عن ثوبه البالي فقال: «يخشع له القلب، وتذل به النفس، ويقتدي به المؤمنون»^١ الدافع الآخر للزهد هو الحرية والخلاص من قيد الحاجة. فالزهد والقناعة تحد من الحاجة وتؤدي بالتالي إلى النجاة من أسر الطمع والحرص على إقتناء الأشياء، من هنا يمكن القول بأنّ نفس الزهد هو الحرية. فالزاهد شجاع وعالم، ومن هنا نرى الحركة التحررية العالمية إنّما توجه غالباً من قبل الزعماء الذين تسودهم روح الزهد.^٢ ونختتم حديثنا بروايتين عن الزهد. فقد جاء في الرواية أنّ رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: «يا علي إن الله تعالى زينك بزينة لم يزين العباد بزينة هي أحب إليه منها: زهدك فيها وبغضها إليك وحبب إليك الفقراء، فرضيت بهم اتباعاً ورضوا بك إماماً»^٣.

وجاء في الحديث وسأله إعرابي شيئاً فأمرله بألف، فقال الوكيل: من ذهب أو فضة؟ فقال: كلاهما عندي حجران، فاعط الأعرابي أنفعهما له.^٤

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار ١٠٣/١.

٢. إقتباس من كتاب سير في نهج البلاغة للشهيد المطهري ٢١١/٢.

٣. بحار الأنوار ٣٣٠/٤٠، ح ١٣.

٤. بحار الأنوار ٣٢/٤١.



الخطبة ٨٢



في ذم صفة الدنيا

نقرة إلى الخطبة

قال المبرد في الكامل أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين كان يخطب فقام له رجل وقال: يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا. فقال عليه السلام: ما أصف من دار أولها عناء، وآخرها فناء. فواصل خطبته ليصف الحياة الدنيا ومشاكلها. ومن تأمل عبارات الخطبة يمكنه أن يقف على حقائق الدنيا والمعيشة فيها، بحيث يمكن القول لم يبق الإمام عليه السلام من شيء في وصفه للدنيا بهذه العبارات العشر القصيرة.



١. سند الخطبة: صرح صاحب مصادر نهج البلاغة قائلاً: قد تواترت عنه عليه السلام صفة الدنيا هذه، ومن الكتب التي رويت فيها قبل النهج، الكامل للمبرد والامالي للصدوق والمجتنى لابن دريد وتحف العقول لابن شعبة الحراني والعقد الفريد لابن عبد ربه وبعده النهج الامالي للمرتضى وتذكرة الخواص للسبط بن الجوزي ومشكاة الانوار الطبرسي وغرر الحكم للآمدني وكنز الفوائد للكرجكي بنفاوت. (مصادر نهج البلاغة ١/٢٠٩).

«مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوْلَاهَا عَنَاءٌ^١، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ. مَنْ اسْتَعْنَى فِيهَا فُتِنَ، وَمَنْ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصْرَتَهُ، مَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ».

﴿٤٠﴾

الشرح والتفسير

الدنيا وسيلة لأهداف

وصف الإمام عليه السلام الدنيا بعشر عبارات فصيحة بليغة، فقال في العبارة الاولى: «ما أصف من دار أولها عفاء» وقال في العبارة الثانية: «وآخرها فناء» فأدنى تأمل لحياة الإنسان في هذا العالم ليكشف أنها مشوبة بالصعاب والمشاق، فهي تبدأ بولادته التي تحمل الألم والمعاناة للطرفين وأقصاها للأمه، حيث يرد الوليد من وعاء مغلق إلى بيثة مفتوحة تتفاوت جذرياً عما كان عليه، إلى جانب ذلك فإن رصيده الضعف والعجز ليس عن دفع أتفه الحشرات بل يتعذر عليه حفظ لعبه في فمه، ولا يؤمن عليه الخطر فيما إذا أغفل عن مراقبته. ثم يجتاز مرحلة الرضاع ليواجه مشكلة الفطم فيعاني الأمرين، ثم يأخذ بالمشي شيئاً فشيئاً دون أن يكون له أدنى تجربة في الحياة والأخطار تتهدده من كل حذب وصوب، فاذا دب فيه العقل ووضع قدمه على الطريق واجه سيلاً جديداً من المشاكل فعليه أن يخوض معترك الحياة وينافس سائر الأفراد من أبناء الدنيا، وعليه أن يجد اعلم ويحظى بالزوجة ويتحمل كل ما يترتب على ذلك من الآلام والمعاناة. فاذا تقدمت به السن وبلغ مرحلة الكهولة شاب الرأس وضعفت العين والاذن والقلب والعروق والعظام، نعم هذه صورة مختصرة عن حياة الإنسان تشير إلى ما

١. «عناء» بمعنى المشقة ومنها «العاني» يطلق على الأسير لما يواجه من مشقة.

يكتنفها من مشاكل وصعاب. القرآن من جانبه أشار إلى هذه الحقيقة فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^١ وكان العناء والمشقة هي الكهف الذي يلجأ إليه الإنسان. وبالطبع لا يستثنى من هذا التعب والمشقة حتى أولئك الذين يعيشون الحياة المرفهة ولكل مشاققة ومعاناته. أجل طبيعة الدنيا تتمثل بالألم والعناء ويخطئ من ظن فيها غير ذلك، ولعلنا نلمس هذه الحقيقة في الشعر الذي أنشده الشاعر المعروف أبو الحسن التهامي إثر موت ولده في شبابه حيث قال:

طبعت على كدر وأنت تريدها صفا من الاقدار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

هذا بشأن عناء الدنيا، أمّا فناؤها فليس يخاف على أحد، فالفناء قد كتب فيها على جميع الأفراد المؤمن والكافر والصغير والكبير، فهذا يموت مبكراً وذاك يموت متأخراً، ولا يستثنى من قانون الموت أحد. ثم قال ﷺ: «في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب» إشارة إلى أنّ الإنسان إنّما يتحمل حتى في الآخرة تبعات هذه الدنيا، فهو إمّا عمل فيها بالحلال أو الحرام. فإنّ عمل بالحلال حوسب عليه يوم القيامة، وإن عمل بالحرام عوقب عليه يوم الجزاء. ومن هنا ورد في الحديث النبوي الشريف: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة عام»^٢ أمّا كيفية الحساب وما يحاسب عليه الإنسان ومن يرد الجنة دون حساب، فهي أمور نستعرضها إن شاء الله في بحث التأمّلات. ثم قال ﷺ: «من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن» نعم هذه هي طبيعة الدنيا وانطوائها على سبيلين كلاهما يؤدي إلى المشقة. فإن كان فقيراً عاش في الدنيا مهموماً مغموماً، وإن كان غنياً مرفهاً عاش فيها مشاكل أخرى؛ وأقل ذلك همه في حفظ هذه الثروة وسعيه لصيانتها، ناهيك عن سهام الحسد والطمع والبغض التي تصوب إليه، وفوق كل ذلك ما يتعرض له من إمتحانات إلهية. فالبخل والحرص والطمع من جانب والآفات والبلاء والأخطار من جانب آخر، بل لعل هذا الثراء والغنى يصدّه عن ذكر الله ولا يدع له من مجال للخروج من التفكير فيه، وعليه ستغيب لديه المثل والقيم ولا يرى

١. سورة البلد / ٤.

٢. بحار الأنوار ٤٨/٦٩.

لها من معنى سوى في الأموال. ونختتم الكلام في قوله ﷺ: «من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن» بالحديث الذي يؤكد هذا المعنى، فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام. قال: كان على عهد رسول الله ﷺ مؤمن فقير شديد الحاجة من أهل الصفة، وكان لازماً لرسول الله ﷺ عند مواقيت الصلاة كلها لا يفقده في شيء منها، وكان رسول الله ﷺ يرق له وينظر إلى حاجته وغرته، فيقول: يا سعد لو قد جاءني شيء لأغنيتك، قال: فابطأ ذلك على رسول الله ﷺ فاشتد غم رسول الله ﷺ بسعد، فعلم الله سبحانه ما دخل على رسول الله ﷺ من غمه بسعد، فأهبط عليه جبرئيل عليه السلام ومعه درهمان فقال له: يا محمد إن الله قد علم ما قد دخلك من الغم بسعد، أفتحب أن تغنيه؟ فقال له: نعم، فقال له: فهالك هذين الدرهمين فاعطهما إياه، ومره أن يتجر بهما، قال: فأخذهما رسول الله ﷺ ثم خرج إلى صلاة الظهر وسعد قائم على باب حجرات رسول الله ﷺ ينتظره، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: يا سعد أتحسن التجارة؟ فقال له سعد: والله ما أصبحت أملك ما أتجربه، فاعطاه النبي ﷺ الدرهمين؛ فقال له: اتجر بهما وترف لرق الله، فأخذهما سعد ومضى مع رسول الله ﷺ حتى صلى معه الظهر والعصر، فقال له رسول الله ﷺ: قم فاطلب الرزق فقد كنت بحالك مغتماً يا سعد، قال فأقبل سعد لا يشتري بالدرهم إلا باعه بدرهمين، ولا يشتري شيئاً بدرهمين إلا باعه بأربعة دراهم، وأقبلت الدنيا على سعد فكثرت متاعه وماله وعظمت تجارتها فاتخذ على باب المسجد موضعاً جلس فيه وجمع تجارته إليه، وكان رسول الله ﷺ إذا أقام بلال الصلاة يخرج وسعد مشغول بالدنيا لم يتطهر ولم يتهيأ كما كان يفعل قبل أن ينشغل بالدنيا، فكان النبي ﷺ يقول: يا سعد شغلتك الدنيا عن الصلاة، فيقول: ما أصنع، أضيع مالي هذا رجل قد بعته فأريد أن أستوفي منه، هذا رجل قد اشتريت منه فأريد أن أوفيه قال؛ فدخل رسول الله ﷺ من أمر سعد غم أشد من غمه بفقره فهبط عليه جبرئيل عليه السلام فقال: أيما أحب إليك، حاله آخرته، فقال له جبرئيل: قل لسعد يرد عليك الدرهمين اللذين دفعتها إليه، فان يا سعد أما تريد أن ترد عليّ الدرهمين اللذين أعطيتكهما؟ فقال: بلى ومأتين. فقال لها لست أريد منك يا سعد إلا درهمين، فاعطاه سعد درهمين، قال: وادبرت الدنيا على سعد حتى ذهب ما كان جمع، وعاد إلى حاله التي كان عليها.

ثم أورد عليه السلام صفتين للدنيا من شأن الالتفات إليهما إبعاد الإنسان عن الحرص والطمع والسكون إلى الدنيا «ومن ساعاها فاتته،^١ ومن قعد عنها واتته^٢».

إشارة إلى الأعم الأغلب من الأفراد الذي يجرون نحو الدنيا ولا يبلغونها، بينما كثيرهم الذين يهجرون الدنيا فتأتيهم صاغرة. ولعل المطالعات التأريخية والوقائع تؤيد هذا الأمر في أن المجري خلف الدنيا لا يفضي إلى الغنى، والانصراف عنها لا يؤدي إلى الفقر. ومن الطبيعي ألا يكون المراد بالدنيا هنا المعيشة المشرفة والخالية من الحاجة إلى الآخرين، بل يراد بها الدنيا المذمومة المشوبة بالجنون. على كل حال فالعبارة تهدف إطفاء نيران الحرص على الدنيا والذوبان فيها. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام كلامه في وصف الدنيا بصفتين أصابت أغلب مفسري نهج البلاغة ولا سيما المرحوم السيد الرضي (ره) جامع النهج بالدهشة والذهول ليعيشوا نشوة السكر بهذا الشراب الطهور، فقد قال عليه السلام: «من أبصر بها بصرتة، ومن أبصر إليها أعمته». فإذا تأمل المتأمل هذا القول وجد تحته من المعنى العجيب، والغرض البعيد، ما لا يبلغ غايته ولا يدرك غوره؛ أي أن الإنسان إذا جعل الدنيا وسيلة لنيل الكمال وأداة للوصول إلى الآخرة وجسراً للسمو والرفعة والتكامل فستطرح عنه كافة الحجب ويرى حقائق الكون كما هي، أمّا ذلك الذي يتعامل مع الدنيا كهدف لا وسيلة فإن ذلك سيكون حجاباً ضخماً مضروباً على عينيه يحول دون رؤيته لا قرب الأشياء فضلاً عن الحقائق، وأبعد من ذلك سيغرق في مادياتها ولا يرى لغيرها من وجود. والواقع هذا هو الفارق بين أهل الآخرة وأهل الدنيا، فهؤلاء يرون الدنيا مقدمة للآخرة وأولئك يرون الدنيا غايتهم وهدفهم. فالدنيا كالشمس إن نظرت بها أبصرت وإن نظرت إليها عميت. كما أورد تفسير آخر لهذه العبارة وهو أن المراد بقوله: «من أبصر بها بصرتة» أن النظر إلى الدنيا بكل ما تشتمل عليه من الآيات الربانية إنما يزيدنا

١. «ساعي» من مادة «سعى» تعني في الأصل الجري ومنه السعي بمعنى الجهد وكأن الإنسان يجري نحو الشيء وقد وردت في العبارة بشأن من يجري خلف الدنيا وكأنه يتسابق مع الآخرين، كما يمكن أن تكون إشارة إلى أولئك الذين يلهثون وراء الدنيا، والدنيا تهرب منهم. أما بعض أرباب اللغة فقد فسروا هذه المفردة بمعنى دعوة الاماء إلى الأعمال المنافية للعفة. وعليه فالعبارة الواردة في الخطبة تشبه الدنيا بالامة التي يلهث وراءها أهل الدنيا.

٢. «واتته» من مادة «مؤاتاة» بمعنى طاوعته واستجابت له.

بصيرة، في حين قصر النظر على ماديات الدنيا يحرمنا من البصيرة بالآخرة بما فيها معرفة الله ونيل القرب منه. وذهب البعض إلى أن المقصود بالعبارة «أبصر بها» هو النظر إلى عيوب الدنيا وتقلباتها والدروس العبر التي تنطوي عليها، ويقيناً أن مثل هذه النظرة مدعاة للبصيرة والفتنة، أما المراد بالعبارة «أبصر إليها» التطلع إلى زخارف الدنيا ومظاهرها الخادعة التي تعمي عين الإنسان. وبالطبع لا مانع من الجمع بين المعاني الثلاث في المفهوم الجامع لهاتين العبارتين. ويالها من عبارتين رائعتين عظيمتي المعنى، وكفى بهما عبرة في النجاة من الدنيا والسير نحو الآخرة، فالسلام والصلاة على أمير المؤمنين عليه السلام الذي رام تهذيب النفوس وسموها بهاتين العبارتين القصيرتين. وهناك كلمات المعصومين عليهم السلام التي تصور هذا المعنى أيضاً، ومن ذلك أن الله أوحى إلى داود عليه السلام: «يا داود احذر القلوب المعلقة بشهوات الدنيا فإن عقولها محجوبة عني»^١.

كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لحب الدنيا صمت الاسماع عن سماعة الحكمة وعميت القلوب عن نور البصيرة»^٢.



قال المرحوم السيد الرضي (ره) آخر الخطبة:

«وإذا تأمل التأمل قوله عليه السلام «ومن أبصر بها بصيرته» وجد تحته من المعنى العجيب والغرض البعيد، ما لا تبلغ غايته ولا يدرك غوره، لا سيما إذا قرن إليه قوله «ومن أبصر إليها أعمته» فإنه يجد الفرق بين «أبصر بها» و«أبصر إليها» واضحاً نيراً، وعجيباً باهراً، صلوات الله وسلامه عليه».



تأملان

١- كيفية الحساب في الآخرة

تعدّ مسألة الحساب في يوم القيامة الذي تعرضت له الخطبة من المسائل القطعية في

١. بحار الأنوار ٣٩/١٤.

٢. غرر الحكم، ح ٧٣٦٣.

الإسلام والتي وردت في أغلب الآيات القرآنية والأخبار المتواترة، ويشمل هذا الحساب جميع أعمال الإنسان من صغيرة وكبيرة وفعل وكلام بل وحتى الصمت والسكوت، كما تفيد الآيات القرآنية الواردة بهذا الشأن دقة حساب الأعمال. فقد صرحت الآية ١٦ من سورة لقمان على لسانه وهو يعظ ابنه: «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ». والذي نخلص إليه من الأمور المتعلقة بالحساب كما وردت في الآيات والروايات ما يلي: -

الف - عمومية الحساب: وشموليته لكافة الناس من الأولين والآخرين بما فيهم الرسل والأنبياء، وقد إصطلحت الآيات القرآنية على يوم القيامة بيوم الحساب.^١ ولا تقتصر هذه العمومية على الناس فحسب، بل تشمل جميع أعمالهم، كما نلمس ذلك في الآية ٤٧ من سورة الأنبياء: «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ». وبالطبع هنالك بعض الأفراد الذين يردون الجنة دون حساب لعظم أعمالهم الصالحة، كما هناك الأفراد الذين يكبون في النار دون حساب بشاعة أعمالهم السيئة، وبعبارة أخرى فإن حسابهم واضح، فقد جاء في الحديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «اعلموا عباد الله إن أهل الشرك لا تنصب لهم الموازين ولا تنشر لهم الدواوين وإنما يحشرون إلى جهنم زمراً».^٢

ب - سرعة الحساب: يتضح من الآيات والروايات أن الحساب الإلهي يوم القيامة يحصل بصورة سريعة جداً؛ فقد وردت ثمان آيات في القرآن تصف الله سبحانه بأنه سريع الحساب، كما جاء في الحديث الشريف: «إن الله يحاسب الخلائق كلهم في مقدار لمح البصر»^٣، ودليل السرعة في الحساب واضح، لأنها تتوقف لا ينطوي على أية صعوبة، اللهم إلا أن تقتضي حكمته تأخير البعض في الحساب مبالغة لهم في العقاب أو حكمة أخرى. فالحق أن أعمالنا لها تأثير على أرواحنا وأجسامنا، التي يتضح حسابها من خلال نظرة لها، من جانب

١. سورة ص / ١٦، ٢٦، ٥٣؛ سورة غافر / ٢٧.

٢. تفسير نور الثقلين ٥٠٧/٤.

٣. مجمع البيان ٢٩٧/١.

آخر فأنه يمكن تشبيه أعمال الإنسان بعمل السيارة، بحيث تكفي نظرة واحدة لعدادها لمعرفة كم كيلومتر قطعت، ولا سيما في عصر الحاسب الآلي - حيث يزودك بما شئت من المعلومات أحياناً المجرد ضغطك على زر من أزراره - فمسألة سرعة الحاسب لم تعد بالمعقدة الفهم والإدراك على العقل البشري.

ج - الدقة في الحساب: الميزة الأخرى في الحساب يوم القيامة استناداً إلى الآيات القرآنية تكمن في الدقة من قبيل الإشارة إلى المحاسبة على العمل وإن كان مثقال ذرة، أو حبة من خردل.

د - التشديد في الحساب: الخاصية الأخرى تكمن في سوء الحساب حسب تعبير الآيات القرآنية بالنسبة لأولئك الذين كانوا يتصفون بالتشدد والتعصب في حياتهم الدنيا تجاه الآخرين وبالطبع فإن سوء الحساب لا يعني كونه الحساب السيئ وغير الصحيح، فذلك لا يجوز مطلقاً على الله سبحانه، إنما يراد به التشدد على من كان متشدداً.

هـ - اليسر في الحساب: يستفاد من بعض الآيات القرآنية وخلافاً للتعامل مع الطائفة المذكورة، فهناك البعض الذي يخضع للحساب اليسير يوم القيامة، والمراد بهذا البعض أولئك الأفراد الذين تعاملوا بالسهولة واليسر في حياتهم الدنيا مع الآخرين، فكان جزاء أعمالهم أن يسر الله عليهم الحساب يوم القيامة. فقد قال القرآن الكريم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيُنْقَلَبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾^١. وجاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه حاسبه الله حساباً يسيراً وأدخله الجنة برحمته، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: تعطي من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك»^٢ فالحديث يشير بوضوح إلى أن الحساب اليسير في يوم القيامة إنما هو إنعكاس لحساب الإنسان اليسير لبني جنسه في الدنيا.

و- رود الجنة بغير حساب: إضافة إلى الطائفة المتشددة في الحساب والأخرى السهلة، هنالك طائفة ثالثة ترد الجنة دون أن تتعرض للحساب، وهي الطائفة التي عاشت ذروة الورع

١. سورة الانشقاق ٧/ - ٩.

٢. تفسير نورالثقلين ٥٧٣/٥.

إذا جمع الله عزّ وجلّ الأولين والآخرين قام مناد - فننادى يسمع الناس - فيقول: «أين المتحابون في الله؟» فيقوم عنق من الناس فيقال لهم: «اذهبوا إلى الجنة بغير حساب».^١ وقد ورد مثل هذا المعنى بالنسبة للصّابرين^٢، كما ورد مثله في السابقين إلى الإيمان^٣. وبالمقابل هنالك طائفة ترد جهنم بغير حساب، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ثلاثة يدخلهم الله النار بغير حساب: إمام جائر وتاجر كذوب وشيخ زان»^٤. وبالطبع هناك الطوائف الأخرى التي أشارت إليها الروايات أنها تدخل النار دون حساب. ومن الطبيعي أن تكون الطائفة التي ترد الجنة دون حساب أو تلك التي ترد النار بغير حساب أن تكون قد عملت بحيث أصبح كل وجودها نور أو ظلمة وكانت تمشي بصفتها فضيلة أو رذيلة، ومن هنالم تعد هناك من حاجة للحساب.

٢ - المذموم عبادة الدنيا لانيلها

المسألة الأخرى التي تجدر الإشارة إليها هناك هو أنّ المذموم من الدنيا يكمن في الخلود إليها والاعتزاز بها وتقديسها، أي التضحية بالغالي والنفيس من القيم والمثل من أجل المنافع المادية الدنيوية الرخيصة، وإلا ليس هنالك من ذم للدنيا المشرفة التي يعيش فيها الإنسان بعز وكرامة ويتمتع بما فيها على ضوء العقل والدين. وسنعرض بالتفصيل لهذا الأمر في المباحث القادمة ذات الصلة بهذا الموضوع إن شاء الله.



١. الكافي ١٢٦/٢.

٢. بحار الأنوار ١٣٨/٧٩.

٣. كنز العمال، ح ٣١-٣.

٤. خصال الصدوق ٨٠/الباب ٣، ح ١.



وهي الخطبة العجيبة وتسمى «الفراء»

وفيهما نعوت الله جل شأنه، ثم الوصية بتقواه ثم التنفير من الدنيا، ثم ما يلحق من دخول القيامة، ثم تنبيه الخلق إلى ما هم فيه من الأعراض، ثم فضله عليه السلام في التذكير.

نظرة إلى الخطبة

نقل ابونعيم الإصهاني جانباً من هذه الخطبة في حلية الأولياء وقال في سبب ورودها أن الإمام ﷺ شيع جنازة لما ارتفع صراخ أهله حين وضع في القبر فأقسم الإمام ﷺ أن الموت لا يذر أحداً ولو شاهدوا ما يشاهد هذا الميت لبكوا على أنفسهم دونه، ثم نهض ﷺ إثر ذلك فأورد هذه الخطبة.

الخطبة تشير إلى أن الإمام ﷺ كان بصدد إعداد قلوب الناس وإيقاظهم من غفلتهم، وهي خطبة عظيمة المضمون بعيدة المعنى لها فعل السحر في النفس بفضلها تتضمن عدداً من الدروس والعبر التي تصنع الإنسان وتهذبه ويمكن تقسيمها إلى اثني عشر قسماً^٢ كل منها يكمل الآخر:

١. سند الخطبة: هذه الخطبة من خطبه ﷺ المعروفة وفيها من اللطائف والدقائق ما عده ابن أبي الحديد من معجزاته التي فات بها البلغاء وأخرس الفصحاء، وفي قول الرضي (ره): «ومن الناس من يسمي هذه الخطبة بالفراء» دليل على أنها كانت معروفة بين الناس. رواها الجاحظ، كما رواها حسن بن شعبة في كتاب تحف العقول والأمدى وابونعيم الإصهاني وابن أثير على كل حال فإن هذه الخطبة أشهر من حاجتها إلى مناقشة الاسناد. (مصادر نهج البلاغة ١٠٧/٢).

٢. لا بد من الالتفات هنا إلى أن الخطبة تنقسم على أساس تقسيم كلي إلى اثني عشر قسماً، كما أن بعض أقسامها تنقسم فرعياً إلى عدة أقسام، ومن هنا فإننا قسمنا هذه الخطبة في شرحها، وتفسيرها إلى ثمانية عشر قسماً.

القسم الأول: يخوض فيه الإمام عليه السلام بحمد الله والثناء عليه وبيان صفات جلاله وجماله ليهيئ القلوب لسماع المواعظ والنصائح.

القسم الثاني: الوصية بالتقوى بفضلها رأس المال الأصلي للإنسان في حياته المادية والمعنوية.

القسم الثالث: ذم الدنيا بفضلها العقبة الكؤود التي تحول دون التقوى والورع.

القسم الرابع: الحديث عن المعاد والحشر وأهوال يوم القيامة لتكون القلوب منفتحة على الاتعاظ بالزواجر.

القسم الخامس: التعرض لاحوال الإنسان من خلال بيان عاقبته.

القسم السادس: التذكير ثانية بالورع والتقوى.

القسم السابع: لما كان الالتفات إلى النعم الإلهية يقود الإنسان إلى معرفة الله وشكره على نعمه وطاعته، تطرق عليه السلام في هذا القسم إلى النعم التي أفاضها الله سبحانه على الإنسان.

القسم الثامن: المواعظ والإرشادات التي تفتح العقول والقلوب.

القسم التاسع: الحديث عن التقوى ثالثة الإشارة إلى كونها أفضل الزاد والمتاع في سفر الآخرة.

القسم العاشر: الكلام عن خلق الإنسان مذ كونه جنيناً إلى موته وما بعد الموت بعبارات توقظ الضمير البشري.

القسم الحادي عشر: التحذير من عدم السبيل إلى الرجعة بعد الموت ولا تدارك ما فرط في الدنيا.

القسم الثاني عشر والأخير: إشارة إلى الدروس والعبر التي يخترنها تأريخ الماضين وبيان أحوال الاقوام بعبارات مثيرة وحساسة رائعة؛ الأمر الذي جعل السيد الرضي (ره) يقول: بعد أن خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة إقشعرت لها الجلود، وبكت العيون، ورجفت القلوب.

القسم الأول

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَا بِحَوْلِهِ وَدَنَا بِطَوْلِهِ مُانِحٌ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَفَضْلٍ، وَكَاشِفٌ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَأَزَلُّ أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ وَسَوَائِغِ نِعَمِهِ وَأَوْمِنُ بِهِ أَوْلًا بِأَيًّا وَأَسْتَهْدِيهِ قَرِيبًا هَادِيًّا وَأَسْتَعِينُهُ قَاهِرًا قَادِرًا اتَّوَكَّلْتُ عَلَيْهِ خَافِيًا نَاصِرًا وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ لِإِنْفَاقِ أَمْرِهِ وَإِنْتِهَاءِ عُدْرِهِ وَتَقْدِيمِ نَذْرِهِ».

۳۰۳

الشرح والتفسير

البعيد القريب والعالي الداني

يستهل الإمام عليه السلام خطبته المشهورة بالغراء بالحمد والثناء والصلوات على النبي ﷺ ثم يعرج على صفاته سبحانه وتعالى، فيحمده بادئ ذي بدء لأربع صفات من صفاته: «الحمد لله الذي علا بحوله^١، ودنا بطوله^٢، مانح^٣ كل غنيمة وفضل، وكاشف كل عزيمة وأزل^٤»^٥ إننا نعلم أن صفات الله على خلاف صفات عباده المحدودة؛ فهو قريب وبعيد، وظاهر وباطن، وله صفات أخرى متناقضة لا تجمع في عباده، إلا أنها تجمع في ذاته اللامتناهية. فقد أشار الإمام عليه السلام في العبارة الأولى إلى هذا المعنى فقال: «الحمد لله الذي علا بحوله» فهو قريب

١. «حول» بمعنى تغيير الشيء وفصله عن آخر، ومن هنا يطلق «الحائل» على ما يفصل بين شيئين، وإذا استعملت هذه المفردة على الله فانه تعني قدرته على دفع الخطر عن عباده ومن القول: لاحول ولا قوة إلا بالله.

٢. «طول» على وزن «قول» بمعنى النعمة ومن مادة «طول» على وزن نور ما يبين امتداد الشيء، ولما كانت النعم امتداد وجود المنعم فقد اطلقت عليها هذه المفردة.

٣. «مانح» من مادة «منح» على وزن منح تعني في الأصل إعطاء اللبن والصرف وولد الحيوان لشخص، ثم اطلقت على كل عطاء، حتى صرح أرباب اللغة بأن منح تعني أعطى.

٤. «الأزل» تعني الضيق والشدة، ثم اطلقت على كل بلاء ومصيبة، كما يصطلح بالأزل على الكذب، وقد وردت في الخطبة بمعنى المصيبة.

في علوه، وعلوه معلول لقدرته، بينما قربه معلول لنعمته ومنته. ثم أشار في العبارة الثانية إلى أنه مصدر البركات الذي يفيض الغنيمة والفضل على العباد، وفي نفس الوقت يكشف عنهم الكرب والبلاء، وكيف لا يرتجى منه ذلك وهو ما عليه من القدرة واللطف والمحبة. ولعلنا نلمس هذا المعنى في الآية القرآنية الكريمة: «وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِنَّهُ تَجَارُونَ»^١.

ومن البدهة أن غير الله - لأن قدرته محدودة - لا يسعه أي نعمة أو فضل، كما لا يستطيع أن يدفع أي بلاء أو ضرر، وليس هنالك مثل هذه الاستطاعة والقدرة سوى للذات المقدسة. ثم يخوض عليه السلام في عليّة الحمد والثناء، بعبارة أخرى كان الحديث في العبارات السابقة عن صفات النعم، أما هنا فقد جرى الحديث عن النعم: «أحمده على عواطف كرمه، وسوابغ^٢ نعمه» فالواقع هو أن للنعم الإلهية صفتان وسيعة شاملة ودائمة مستمرة. وليس هذا سوى لقدرته وكهال لطفه الذي أغرق الإنسان بوابل نعمه ولم يقطعها عنه طرفة عين، ثم قال عليه السلام: «وأومن به أولاً بادياً^٣، وأستهديه قريباً هادياً، وأستعينه قاهراً قادراً، وأتوكل عليه كافياً ناصراً» فالإمام عليه السلام يقرن كل شيء بدليله، فالإيمان به لكونه سابق كل شيء في الوجود وهو واجب الوجود وقد عمّت آثاره كافة أرجاء العالم، كما يستدل على سؤاله الهداية لأنه الهادي للعباد وهو قريب منهم قادر على هدايتهم. ولما كان الركن الثاني للإيمان - بعد الاقرار لله بتوحيد - الشهادة بالنبوة قال عليه السلام: «وأشهد أن محمداً - صلى الله عليه وآله - عبده ورسوله». ثم أشار عليه السلام إلى الوظائف الثقيلة للنبوة ليجزها بثلاث عبارات: «أرسله لانفاذ أمره، وإنهاء عذره، وتقديم نذره»^٤. فالعبارة الأولى إشارة إلى قيام النبي عليه السلام ودعوته الأمة إلى الإيمان بالله، والعبارة الثانية إلى اتمام الحجّة بواسطة إبلاغ أحكام الله واستعراض الأدلة العقلية والمعجزات، والعبارات الثالثة إشارة إلى بيان العذاب الإلهي في الدنيا والآخرة لأولئك الذين يعصون أوامر الله سبحانه.

١. سورة النحل / ٥٣.

٢. «سوابغ» جمع «سابغة» بمعنى الواسع والكامل وقد ورد تفسير هذا الاصطلاح في شرح الخطبة ٦٣.

٣. بادياً أي سابقاً كل شيء من الوجود، ظاهراً بذاته مظهراً لغيره، والبادي من بدو بمعنى الظهور والبداية، فالله بادئ الوجود، كما أن آثاره ظاهرة عمّت السموات والأرض.

٤. «نذر» جمع «نذير»، وردت هنا بمعنى الآيات والأخبار التي تحذر من معصية الله.

القسم الثاني

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب الأمثال ووقت لكم الآجال
والبسكم الرياش وأرفع لكم المعاش وأخطبكم الإحصاء وأرصد لكم
الجزاء وأترككم بالنعمة السوابغ والرغد الروافغ وأنذركم بالحجج البوالغ
فأحصاكم عدداً وظف لكم مuddاً في قرار خيرة ودار عبرة أنتم مختبرون
فيها ومخاسبون عليها».

8008

الشرح والتفسير

دور التقوى في تقرير مصير الإنسان

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من حمد الله والثناء عليه والشهادة لرسول الله بالنبوة في المقطع الاول
من الخطبة حتى تطرق عليه السلام إلى أهم مسألة تلعب دورها في تقرير مصير الإنسانية ألا وهي
التقوى، فيوصي بها الجميع ثم يذكر عشر صفات لله كلها تدعو إلى التقوى. فتارة يتحدث عن
النعمة الموفورة، وتارة أخرى عن الحساب والجزاء، وأحياناً يشير إلى النذر الإلهية وإتمام
الحجة، كما يتكلم عن محدودية عمر الإنسان وما يتعرض له من تمحيص واختبار، وكل واحد
منها من شأنه أن يسوقه إلى التقوى فقال عليه السلام: «أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب
الأمثال» فالأمثلة والتشبيهات التي وردت في القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وكلمات
المعصومين عليهم السلام لتقريب الحقائق العقلية إلى الأذهان وتجعلها في متناول الحس، لا تخرج عن
أربع صور هي: تشبيه المحسوس بالمحسوس (بالتطبع المحسوس الثاني لا بد أن يكون أوضح من
المحسوس الأول)، تشبيه المعقول بالمحسوس، وتشبيه المحسوس بالمعقول، وأخيراً تشبيه
المعقول بالمعقول، والغرض من كل هذه التشبيهات هو الاستئناس بالمسائل التربوية والأوامر

والتواهي الإلهية بحيث يكون مفهومها قريباً لدى النفس ولا تبقى ألباز المفاهيم المعقدة. ثم قال ﷺ: «ووقت لكم الآجال» فلكل عمر وأجل معين وقد خط الموت والفناء على جبين الجميع، سواء كان هذا الأجل هو النهاية القطعية للحياة؛ أي الأجل المسمى، أو النهاية المشروطة؛ أي الأجل المحتوم. فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^١ وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾^٢.

ومن البديهي أن يتجه الإنسان نحو التقوى حين يلتفت إلى تقلب الحياة الدنيا وقصر العمر. ثم قال ﷺ: «والبسكم الرياش^٣ وأرفع^٤ لكم المعاش» حيث طرح الإمام ﷺ مسألة اللباس من بين جميع النعم ثم أشار إلى كافة نعم الحياة والعيش، ولعل كون اللباس من أهم النعم، الذي لا يقتصر على حفظ الإنسان من البرودة والحرارة ويصونه من الأخطار والصدمات التي تهدده ويستر عيوبه فحسب، بل لأن القرآن شبه التقوى باللباس في آياته، ومن هنا كان هنالك تناسب مع أصل الحديث عن التقوى، وهذا ما حدا بالإمام ﷺ إلى تقديم الخاص قبل العام في إطار حديثه عن النعم. والجدير بالذكر أن وجود هذه النعم الفضيلة الواسعة التي عمت حياة الإنسان هي الدافع لمعرفة الله وبالتالي تقواه. فكيف يعرف الإنسان هذه النعم ولا يجتد في رعاية حرمة وليها. فقد ورد في القرآن الكريم قوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سِوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾^٥. يذكر أن لريش الطيور ألوان مختلفة وجمالية خاصة، ومن هنا فإنه يعني الزينة أيضاً، ولما كانت التقوى تستر عيوب الإنسان وتحفظه من وساوس الشيطان وهي زينة له، فإن مفردة اللباس في الآية

١. سورة الاعراف / ٣٤.

٢. سورة الرحمن / ٢٦.

٣. «الرياش» من مادة «ريش» ظاهر اللباس، كما اطلق على كل نعمة موفورة. وقال بعض شراح نهج البلاغة أن الريش لا يعني ظاهر اللباس فقط، فقد ورد في الآية ٢٦ من سورة الاعراف: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سِوَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ ولكن يبدو أن الآية تدل على عكس مراده لأن اللباس على نوعين: لباس يغطي بدن الإنسان مصداق (يؤاري سواتكم) ولباس الزينة. وقد أشار القرآن إلى الأمرين، ثم اتبعه بالحديث عن لباس التقوى «ولباس التقوى ذلك خير».

٤. «أرفع» من مادة «رفع» على وزن هدف بمعنى أوسع، أوسع عليكم النعم.

٥. سورة الاعراف / ٢٦.

الشريفة تشير إلى التقوى^١ ثم قال ﷺ: «وأحاط بكم الاحصاء، وأرصد لكم الجزاء» طبعاً إذا التفت الإنسان إلى هذه المسألة وهي أن الحساب الإلهي دقيق - وكأنه قلعة محكمة يصعب إختراقها حيث لا يسع أي عمل أو قول صدر من الإنسان أن يفلت من الحساب، كما أن كل قول وعمل إنما يحمل جزائه معه، فإن هذا الأمر سيدعوه إلى الورع والتقوى وإجتناّب معصية أوامر الله سبحانه، والعبارة: «أحاط بكم الاحصاء» المستقاة من الآية الكريمة: «وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا»^٢ إنما هي عبارة رائعة تشير إلى أن الإنسان قد خضع لدائرة الاحصاء الإلهي بحيث لا يصدر منه شيئاً دون حساب، والعبارة: «أرصد لكم الجزاء» تصور الثواب والعقاب كمرقب كمن للإنسان بحيث لا يغادر أي عمل صدر منه، ثم قال ﷺ: «وآثركم بالنعيم السوابغ، والرفد^٣ الروافع^٤، وأنذركم بالحجج البوالغ» الايثار تفضيل الشخص على النفس أم الآخرين، ومنه ماورد في الآية ٩١ من سورة يوسف: «قَالَ لِّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا». أمّا ما تصوره بعض شراح نهج البلاغة من أن الايثار تقديم الآخر على الذات، أو فيما يحتاجه المؤثر ليس بمستقيم، ولما لا يمكن تصور أي من هذين المعنيين على الله فليس من الصواب الاتجاه نحو المعنى المجازي.^٥ على كل حال فإن المراد بالعبارة هو أن الله سبحانه قد فضل الإنسان على سائر مخلوقاته وأفاض عليه نعمه وكراماته؛ الأمر الذي صرح به القرآن الكريم: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا»^٦. فإذا التفت الإنسان إلى هذا النعم الإلهية بما فيها تفضيله على سائر المخلوقات، سيثار لديه حس الشكر، وكما أوردنا سابقاً فإنه سيستجه

١. هنالك خلاف بين مفسري القرآن وشراح نهج البلاغة بشأن محل إعراب (ريشا) فعدها البعض عطفاً على لباساً ومن هنا فسروها بشئٍ أوسع أو مغاير للباس، بينما اعتبرها البعض الآخر (مفعول له) تبين هدف نزول اللباس على الإنسان وهو ستر العيوب ثم الزينة، ويبدو المعنى الأخير أكثر إنسجاماً مع الآية الشريفة.

٢. سورة الجن / ٢٨.

٣. «رفد» جمع «رفد» على وزن دفع بمعنى نصيب، وعطاء وجائزة.

٤. «روافع» جمع «رافعة» من مادة «رفع» وكما أشرنا سابقاً فإنها تعني السعة والرفعة.

وعلى هذا الأساس فإن «الرفد» و«الروافع» تأتي بمعنى عطايا الله سبحانه وتعالى.

٥. جاء في مقاييس اللغة أن أصل هذه المفردة يعني تقديم الشيء هذا ما صرح به الراغب في مفرداته. وقال في كتاب التحقيق في كلمات القرآن الكريم: «حقيقة الايثار إثبات الفضيلة وتقديم صاحب الفضل».

٦. سورة الاسراء / ٧٠.

والنواهي الإلهية بحيث يكون مفهومها قريباً لدى النفس ولا تبقى ألغاز المفاهيم المعقدة. ثم قال ﷺ: «ووقت لكم الآجال» فلكل عمر وأجل معين وقد خط الموت والفناء على جبين الجميع، سواء كان هذا الأجل هو النهاية القطعية للحياة؛ أي الأجل المسمى، أو النهاية المشروطة؛ أي الأجل المحتوم. فقد قال سبحانه وتعالى: «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ»^١ وقال: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ»^٢.

ومن البديهي أن يتجه الإنسان نحو التقوى حين يلتفت إلى تقلب الحياة الدنيا وقصر العمر. ثم قال ﷺ: «والبسكم الرياش^٣ وأرفع^٤ لكم المعاش» حيث طرح الإمام ﷺ مسألة اللباس من بين جميع النعم ثم أشار إلى كافة نعم الحياة والعيش، ولعل كون اللباس من أهم النعم، الذي لا يقتصر على حفظ الإنسان من البرودة والحرارة ويصونه من الأخطار والصدمات التي تتهدده ويستر عيوبه فحسب، بل لأن القرآن شبه التقوى باللباس في آياته، ومن هنا كان هنالك تناسب مع أصل الحديث عن التقوى، وهذا ما حدا بالإمام ﷺ إلى تقديم الخاص قبل العام في إطار حديثه عن النعم. والجدير بالذكر أن وجود هذه النعم الفضية الواسعة التي عمت حياة الإنسان هي الدافع لمعرفة الله وبالتالي تقواه. فكيف يعرف الإنسان هذه النعم ولا يجتد في رعاية حرمة وليها. فقد ورد في القرآن الكريم قوله سبحانه: «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ»^٥. يذكر أن لريش الطيور ألوان مختلفة وجمالية خاصة، ومن هنا فأنه يعني الزينة أيضاً، ولما كانت التقوى تستر عيوب الإنسان وتحفظه من وساوس الشيطان وهي زينة له، فإن مفردة اللباس في الآية

١. سورة الاعراف / ٣٤.

٢. سورة الرحمن / ٢٦.

٣. «الرياش» من مادة «ريش» ظاهر اللباس، كما اطلق على كل نعمة موفورة. وقال بعض شراح نهج البلاغة أن الريش لا يعني ظاهر اللباس فقط، فقد ورد في الآية ٢٦ من سورة الاعراف: «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا» ولكن يبدو أن الآية تدل على عكس مراده لأن اللباس على نوعين: لباس يغطي بدن الإنسان مصداق (بوارى سواتكم) ولباس الزينة. وقد أشار القرآن إلى الأمرين، ثم اتبعه بالحديث عن لباس التقوى «ولباس التقوى ذلك خير».

٤. «أرفع» من مادة «رفع» على وزن هدف بمعنى أوسع، أوسع عليكم النعم.

٥. سورة الاعراف / ٢٦.

الشريفة تشير إلى التقوى^١ ثم قال ﷺ: «وأحاط بكم الاحصاء، وأرصد لكم الجزاء» طبعاً إذا التفت الإنسان إلى هذه المسألة وهي أن الحساب الإلهي دقيق - وكأنه قلعة محكمة يصعب إختراقها حيث لا يسع أي عمل أو قول صدر من الإنسان أن يفلت من الحساب، كما أن كل قول وعمل إنما يحمل جزائه معه، فان هذا الأمر سيدعوه إلى الورع والتقوى وإجتناّب معصية أوامر الله سبحانه، والعبارة: «أحاط بكم الاحصاء» المستقاة من الآية الكريمة: «وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا»^٢ إنما هي عبارة رائعة تشير إلى أن الإنسان قد خضع لدائرة الاحصاء الإلهي بحيث لا يصدر منه شيئاً دون حساب، والعبارة: «أرصد لكم الجزاء» تصور الثواب والعقاب كمرقب كمن للإنسان بحيث لا يغادر أي عمل صدر منه، ثم قال ﷺ: «وآثركم بالنعمة السوابغ، والرفد^٣ الروافع^٤، وأنذركم بالحجج البوالغ» الايثار تفضيل الشخص على النفس أم الآخرين، ومنه ماورد في الآية ٩١ من سورة يوسف: «قَالَ لَهُ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا». أمّا ما تصوره بعض شراح نهج البلاغة من أن الايثار تقديم الآخر على الذات، أو فيما يحتاجه المؤثر ليس بمستقيم، ولما لا يمكن تصور أي من هذين المعنيين على الله فليس من الصواب الاتجاه نحو المعنى المجازي.^٥ على كل حال فإن المراد بالعبارة هو أن الله سبحانه قد فضل الإنسان على سائر مخلوقاته وأفاض عليه نعمه وكراماته؛ الأمر الذي صرح به القرآن الكريم: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا»^٦. فاذا التفت الإنسان إلى هذا النعم الإلهية بما فيها تفضيله على سائر المخلوقات، سيثار لديه حس الشكر، وكما أوردنا سابقاً فإنه سيستجبه

١. هنالك خلاف بين مفسري القرآن وشراح نهج البلاغة بشأن محل إعراب (ريشا) فعدّها البعض عطفاً على لباساً ومن هنا فسروها بشئ أوسع أو مغاير للباس، بينما اعتبرها البعض الآخر (مفعول له) تبين هدف نزول اللباس على الإنسان وهو ستر العيوب ثم الزينة، ويبدو المعنى الأخير أكثر إنسجاماً مع الآية الشريفة.

٢. سورة الجن / ٢٨.

٣. «رفد» جمع «رفد» على وزن دفع بمعنى نصيب، وعطاء وجائزة.

٤. «روافع» جمع «رافعة» من مادة «رفع» وكما أشرنا سابقاً فإنها تعني السعة والرفعة.

وعلی هذا الأساس فإن «الرفد» و«الروافع» تأتي بمعنى عطايا الله سبحانه وتعالى.

٥. جاء في مقاييس اللغة أن أصل هذه المفردة يعني تقديم الشيء هذا ما صرح به الراغب في مفرداته. وقال في كتاب التحقيق في كلمات القرآن الكريم: «حقيقة الايثار إثبات الفضيلة وتقديم صاحب الفضل».

٦. سورة الاسراء / ٧٠.

لمعرفة المنعم وبالتالي الامتناع عن مخالفته والتمرد على أوامره والتحلي بالورع والتقوى. أما الحجج البوالغ المتمثلة بالأنبياء والكتب السماوية والمعجزات والأدلة العقلية والنقلية فهي الأخرى من دواعي الورع والتقوى وأما ذكر النعم إلى جانب الحجج فيمكن أن يكون إشارة إلى أن الله في الوقت الذي يغدق كل هذه النعم على الإنسان، إلا أنه يحذره من استغلالها وأن عليه أن يوظفها بما يقوده إلى الفلاح والسعادة. ثم اختتم ﷺ كلامه بهذا الشأن قائلاً: «فأحصاكم عدداً، ووظف لكم مدداً،^١ في قرار خبرة^٢، ودار عبرة، أنتم مختبرون فيها، ومحاسبون عليها» لقد سبق الحديث في الصفة الثانية عن أجل الإنسان وفي الصفة الخامسة عن إحصاء الناس وعددهم، ثم كرر ﷺ هذين الوصفين لأهميتهما وتأثيرهما المباشر في تجلي حقيقة التقوى في وجود الإنسان، كما يمكن أن يفيد هذا التكرار معنى آخر، فقد كان الحديث في العبارات السابقة عن الاحاطة بأعمال الإنسان، ومن هنا أردف بالكلام عن جزاء الأعمال، أما هنا فقد ورد الكلام عن إحصاء الناس بحيث لا يشرد أحدهم عن مراقبة الله سبحانه، كما صرح بذلك القرآن: «إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا»^٣ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا»^٤. ولئن أشار إلى انتهاء الأجل فإن ذلك مقدمة للعبارات التالية (الحياة في دار الإمتحان والابتلاء) وفي الواقع هي من قبيل البيان الإجمالي والتفصيلي للعبارة السابقة. وأما قوله ﷺ: «قرار خبرة ودار عبرة» فواضح في أن حياة الناس تمثل امتحانهم واختبارهم؛ الأمر الذي أشار إليه القرآن بالقول: «أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ»^٥ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ»^٦. والتعبير بالعبرة يشير إلى الاعتبار بمصير الظلمة والأقوام الطاغية والأفراد الذين تلطخت أيديهم بالذنوب والمعاصي، وأن العقاب الإلهي لا يقتصر على الآخرة بل يطيل

١. «مدد» جمع «مدة»، أي عين لكم أزيمة تحيون فيها، فالمدة جزء من الزمان، كما تأتي بمعنى إنتهاء زمان معين.

٢. «خبرة» تفيد معنى المصدر واسم المصدر تعني العلم والاطلاع، ومن هنا يقال «أهل الخبرة» لمن كان لهم العلم الكافي بالشئ، كما تعني الإمتحان وقد وردت هنا بهذا المعنى؛ أي في دار ابتلاء واختبار وهي دار الدنيا.

٣. سورة مريم / ٩٣-٩٤.

٤. سورة العنكبوت / ٢-٣.

الأفراد حتى في الحياة الدنيا. والضمير في العبارة «ومحاسبون عليها» يعود إلى دار الدنيا؛ أي كما أن الدنيا دار بلائكم وتمحيصكم فان حسابكم يتعلق بها بما أسلفتم من أعمال وتمتعتم من نعم أفاضها الله عليكم.



التقوى في كل زمان ومكان

كما أوردنا آنفاً فإن الإمام عليه السلام أعقب الحمد والثناء بالدعوة إلى الورع والتقوى التي تحترن كافة مقومات السعادة الإنسانية وتحدد مكانة الإنسان لدى الله وتشكل أفضل الزاد إلى الآخرة. والجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام لا يكتفي بالوصية بالتقوى بل يشير إلى جميع الأمور التي من شأنها بلوغ التقوى، ومنها النعم الإلهية المختلفة وقصر عمر الإنسان والاحاطة التامة لله سبحانه بالناس وأعمالهم وأقوالهم والدروس والعبر التي تتضمنها حياة الأقسام السابقة، بل وحتى الأمم الحاضرة، إلى جانب الالتفات إلى هذا المعنى وهو أن هذه الدار الدنيا هي قاعة اختبار وامتحان وأن الله واطر أنبيائه ورسله وأنزل معهم الكتب السماوية لانذار العباد، والحق أن هذا ذروة الفصاحة والبلاغة في أن تجمع كل هذه الأمور التي تصور التقوى بمعناها الكبير بهذا العبارات القصيرة.

حقاً إن تأمل هذه الأمور الواردة في الخطبة ليقود الإنسان إلى إستشعار الورع والتقوى والاحساس بحضوره سبحانه على الدوام. فأنى للإنسان أن يتمرد على خالفة وقد شعر بفيض نعمه عليه وأيقن بالقيامة والبعث والحساب وآمن بالحجج الإلهية التي تضمنتها الكتب السماوية وصدحت بها أنبياء الله ورسله والأئمة عليهم السلام، وهو يرى قصر عمره وتقلب أحوال الدنيا والدروس والعبر التي إشتملت عليها حياة سالف الأمم.



القسم الثالث

«فَإِنَّ الدُّنْيَا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا رِدْغٌ مَشْرَعُهَا، يُوَبِقُ مَنْظَرُهَا وَيُوبِقُ مَخْبَرُهَا، غُرُورٌ حَائِلٌ، وَضَوْءٌ آفِلٌ، وَظِلٌّ زَائِلٌ، وَسِينَادٌ مَائِلٌ، حَتَّى إِذَا أَيْسَ نَافِرُهَا، وَاطْمَأَنَّ نَاجِرُهَا، قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا، وَقَنَصَتْ بِأَحْبِلِهَا، وَأَقْصَدَتْ بِأَسْهُمِهَا، وَأَعْلَقَتْ الْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمَنِيَّةِ قَائِدَةً لَهُ إِلَى ضَنْكِ الْمَضْجَعِ، وَوَحْشَةَ الْمَرْجِعِ، وَمُعَايِنَةَ الْمَحَلِّ وَثَوَابِ الْعَمَلِ، وَكَذَلِكَ الْخَلْفُ بِعَقْبِ السَّلْفِ، لَا تُقْلِعُ الْمَنِيَّةُ اجْتِرَاماً، وَلَا يَزْعَوِي الْبَاقُونَ اجْتِرَاماً، يَحْتَذُونَ مِثَالاً، وَيَمْضُونَ أَرْسَالاً، إِلَى غَايَةِ الْإِنْتِهَاءِ، وَصَيُورِ الْفَنَاءِ».

۸۰۰۸

الشرح والتفسير

حقيقة الدنيا

يعرض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة بالذم الشديد الدنيا، حيث كان حديثه عن دار الامتحان والعبرة، فيشرح هنا خصائص هذه الدار بعبارات روعة في الفصاحة والبلاغة. من جانب آخر خاض الإمام عليه السلام في التقوى، وتعلم أن العقبة الكؤود التي تعترض سبيل التقوى إنما تكمن في حب الدنيا والتعلق بمادياتها، ومن هنا ذمها الإمام عليه السلام ليحط من قدرها لدى الناس ويقوى عندهم حس التقوى. فقد أشار عليه السلام إلى ثمان من مميزات الدنيا فقال عليه السلام: «فإن الدنيا رنق^١ مشربها، رديغ^٢ مشرعها» عادة ما يكون مستوى الأنهار التي يستفيد الإنسان

١. «رنق» صفة مشبهة بمعنى الكدر. وعليه فإن العبارة (رنق مشربها) إشارة إلى كدر شرب الدنيا، أما رنق فتعني الجمال، وذلك لأن اللغة العربية تتضمن أحياناً مادة واحدة لمعنيين متضادين.
٢. «ردغ» من مادة «ردغ» على وزن فتق كثير الطين والوحل. وفي التشبيه الذي ورد أعلاه في الخطبة حيث وصفت الدنيا بمثابة نهر كبير ينتهي جريانه بماء مملوء بالطين والوحل.

من مياهها أكثر ارتفاعاً من سطح الأرض المجاورة لها بحيث يصعب التزود منه، ومن هنا يحفر جزء من ساحل النهر ليتمكن الوصول إلى ماءه بسهولة، وتصطليح العرب على هذا الجزء الذي يسهل الوصول إلى الماء بالسرعة أو المشرع حيث ينتهي إلى الماء يطلق عليه المشرب؛ فإذا تلوث المشرب بالطين والوحل أو تلوث الماء بحيث يتعذر التزود منه يعمد إلى إحداث شريعة بصورة مناسبة، أو يجعل عليه قنطرة لحل تلك المشاكل. الغرض هو أن الإمام عليه السلام شبه نعم الدنيا بالماء، إلا أن المؤسف له هو أن الوصول إلى الماء يمر عبر الوحل ونقطة بلوغ الماء كانت موضعاً يلوث الماء، ومن هنا فإن هذا الماء يدعو إليه العطاش من بعيد، إلا أنهم حين يصلوه يرون أنفسهم أمام سيل من المشاكل، فلا يتمكنوا من الحصول على الماء العذب، والحق أن هذا هو حال متع الدنيا كالمال والمقام وما إلى ذلك؛ وذلك لأن نيل الدنيا يحتم على الإنسان الاغماض عن الكثير من الفضائل الأخلاقية واعتياد الكذب والغدر والخيانة والذل، وكل من هذه الرذائل مستتقع يكمن في طريق الوصول، فإذا وصل اصطدم بأنواع الحسد والطمع؛ الأمر الذي يعكر صفو الماء. ثم قال عليه السلام: «يوقن^١ منظرها، ويوبق^٢ مخبرها» لقد ورد هذا التناقض لظاهر الدنيا وباطنها بعدة صور في عبارات أئمة العصمة، ومن ذلك ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فإنما مثل الدنيا مثل الحية: لين مسها، وقاتل سمها»^٣ ويشبهونها أحياناً بالمرأة الجميلة التي تقتل أزواجها الواحد تلو الآخر. وبالطبع فإن أوصاف الدنيا ليست بالخافية على الإنسان اللبيب، فظاهرها أنيق ساحر وباطنها خطر قاتل. ثم قال عليه السلام: «غرور حائل^٤، وضوء آفل^٥، وظل زائل، وسناد^٦ مائل» مما لاشك فيه أن الدنيا تنطوي على عناصر الجمال والخداع، إلا أنها تنتهي لمجرد أن يريد الإنسان التمتع بها، ومن هنا

١. «يوقن» من مادة «آق» على وزن شفق يعجب، وقوله عليه السلام: «يوقن منظرها» إشارة إلى المنظر العجيب للدنيا.

٢. «يوبق» من مادة «وبوق» يهلك «وموبق» بمعنى مهلك.

٣. نهج البلاغة، الرسالة ٦٨.

٤. «حائل» من مادة «حال» بمعنى التحول والانتقال وإطلاق «الحول» على السنة لتحولها. وعليه فالحائل المتغير.

٥. «آفل» من مادة «أفول» بمعنى الغياب ومنه أفول الشمس والقمر غروبهما.

٦. «سناد» بالكسر ما يستند إليه وهو الدعامة، ولما كانت الدنيا دعامة معوجة ولا يمكن الاستناد إليها عبرت عنها خطبة «سناد مائل».

عبر عنها الإمام عليه السلام بالغرور الحائل، لأنَّ الغرور بالضم من لوازم الجهال الظاهري، أمَّا الغرور بالفتح تعني الشخص الخادع ومن هنا أطلق الغرور على الشيطان. ولما كانت أمتعة الدنيا براءة فقد عبر عنها الإمام عليه السلام بالضوء، إلاَّ أنَّ هذا البريق ليس له دوام وسرعان ما يخفت، الأمر الذي جعل الإمام عليه السلام ينعت ذلك الضوء بالآفل. وتتصف بظلمتها الوداع المؤقت كظل شعاع الشمس على الأشجار الذي سرعان ما ينقشع ويزول، ومن هنا فإن الظل الزائل الذي تمثله أمتعة الدنيا يمكن أن يكون ركنا يوثق به، غير أنَّه ركن خاو، ولذلك عبر عنه عليه السلام بالسناد المائل. ثم أشار عليه السلام إلى سائر خصائص الدنيا، وبعبارة أخرى فإنه تعرض للصفات المذكورة بتشبيهات وتعبيرات جديدة فقال عليه السلام: «حتى إذا أنس نفاها، واطمان ناكرها، قمصت^١ بأرجلها، وقنصت^٢ بأحبلها^٣، وأقصدت^٤ بأسهمها^٥» فقد صور الإمام عليه السلام الدنيا ووضعها بثلاثة تشبيهات: الأول شبه الدنيا بمركب طيب الظاهر، إلاَّ أنه سرعان ما يجمع وي طرح راكبه أرضاً. ثم شبهها بالصيد الذي يرمي بشباكه وينثر فيها حبوب فخه فإذا إقترب صيده لم يجد له من سبيل إلى الهرب، وأخيراً شبهها بالصيد الذي يمكن في الطريق فإذا شاهد صيده صوب إليه سهامه.

والجدير بالذكر في العبارة «حتى إذا أنس نافرها...» أنها تشير إلى حقيقة وهي أنَّ خداع الدنيا ليس بالشئ إلهين الذي يمكن تجاوزه بسهولة، بل تجر إليها أحياناً حتى الزهاد والعباد لتلقي بهم في حبالها وشباكها، ومن هنا ينبغي أن يلتفت الجميع إلى مدى خطورة هذه الدنيا الغرارة والمداومة على هذا الذكر: «اللهم لا تكني إلى نفسي طرفة عين أبداً». ثم أشار عليه السلام إلى عاقبة أمر الإنسان فقال: «وأعلقت المرء أوهاق^٥ المنية قائدة له إلى ضنك المضجع^٦،

١. «قمصت» من مادة «قمص» على وزن شمس بمعنى رفع اليدين وطرحهما معاً ومنه قمص الفرس، كما تستعمل هذه المفردة كناية عن الذل بعد العز.

٢. «قنصت» من مادة «قنص» بمعنى الصيد والقانص الصياد.

٣. «أحبل» جمع حبل.

٤. «أسهم» جمع سهم وجمعه الآخر سهام.

٥. «أوهاق» جمع «وهق» على وزن شفق بمعنى الحبل الذي يربط به عنق الإنسان أو الحيوان.

٦. «ضنك المضجع»، ضنك يعني ضيق ومضجع الموضع الذي يضع الإنسان عليه ضلعه، والمراد به في العبارة القبر.

ووحشة المرجع، ومعاينة المحل، وثواب العمل» لاشك أن طلاب الدنيا أهلها ليسوا مستعدين للتخلي عنها، إلا أنها تلقي بحبل الموت بكل قسوة على أعناقهم، فتخرجهم بالقوة من قصورهم الفارقة ودورهم العامرة لتوردهم تلك الحفر المظلمة الموحشة التي تملأه خوفاً واضطراباً، والأنكى من ذلك زوال الحجب عن عينيه ورؤيته لموضعه الذي سيحله، فان كان مستحقاً للعذاب، رأى بأمر عينيه نار جهنم فيزداد خشية لمفارقتها لدنيا بما فيها من مال ومقام وزوجة وولد. ثم يختتم كلامه ﷺ بالإشارة إلى هذه الحقيقة وهي أن ما أورده الإمام بشأن الدنيا وأبناءها لا يختص بالماضيين أو بطائفة معينة من الناس، بل يشمل الجميع الذين لا بد لهم أن يشهدوا هذا الامتحان ويدوقوا الموت فما من خلود وبقاء سوى لله سبحانه، حيث قال ﷺ «وكذلك الخلف بعقب السلف، لا تقلع المنية اختراماً^١ ولا يرعوي^٢ الباؤون اجتراماً^٣». نعم فهم يعملون على غرار من سبقهم ويحذون حذوهم «يحتذون^٤ مثلاً، ويمضون أرسالاً^٥، إلى غاية الانتهاء، وصيور^٦ الفناء». فقد تضمنت العبارة الإشارة إلى أمرين: الأول الحذار من أن يتصور البعض أنه مستثنى من هذا القانون العام فيظنون أنهم مخلدون في الدنيا باقون فيها. والثاني الاعتبار بالماضيين من خلال النظر إلى آثارهم ليروا أين حلوا، وكيف كانوا:

يطأه اليوم بصفحة الخد

من كان لا يطأ التراب برجله

فهو اليوم في غاية البعد

ومن كان بينك وبينه شبران

١. «إخترام» من مادة «خرم» بمعنى الشق وهي تشير هنا إلى الحوادث التي تستأصل عمر الإنسان.
٢. «يرعوي» من مادة «رعوة» على وزن سهو بمعنى الرجوع والعودة من الجهل إلى العلم واصلاح النفس والجمله أعلاه «لا يرعوي الباؤون احتراماً» اشارة إلى أن البعض لا يعتبرون من دروس العبرة التي تمر بهم ولا يتراجعون ولا يتوبون من الذنوب التي اقترفوها وبالاخير فانهم لا يقدمون على اصلاح انفسهم.
٣. «إجترام» من مادة «جرم» الذنب واقتراف السيئات.
٤. «يحتذون» من مادة «حذو» على وزن حذف بمعنى القيام بالأعمال المشابهة، ومن هنا وردت بمعنى الاقتداء في الأعمال، ويريد بها في العبارة بشاكلون بأعمالهم صور أعمال من سبقهم ويقتدون بهم.
٥. «ارسال» جمع «رسل» على وزن غسل القطيع من الابل والغنم والخييل، أريد بها في العبارة من يتبع الآخرين دون أدنى فكر ومطالعة.
٦. «صيور» على وزن قيوم من مادة «صير» على وزن سبيل بمعنى الانتقال من حالة إلى أخرى، وهي هنا صيغة مبالغة أريد بها مصيره وما يؤول إليه أمره.

أمّا التعبير بالاخترام وبالالتفات إلى معنى هذه المفردة الذي يفيد القطع والقص (ولذلك فسّر بعض شراح نهج البلاغة الموت المحزوم بالموت الذي يطيل الإنسان قبل مدته الطبيعيه)^١ كأنه يشير إلى حقيقة وهي أنّ إحدى مشاكل الحياة الدنيا في أنّه قلّمًا يفارق أحد الدنيا بموت طبيعي؛ أي أنّه يوظف كافة طاقاته من أجل البقاء بينما يأتيه الموت، بل غالباً ما يخرق عمره بفعل مختلف العوامل سواءً الداخلية أو الخارجية، الجسمية أو النفسية وأخيراً الحوادث الفردية أو الاجتماعية، ومن هنا لايسع أي فرد أن يؤمل العيش ولو ليوم أو ساعة. والسؤال المطروح لم رغم كل هذه الأمور والحال «لايرعوي الباؤون اجتراما»؟ ليس هنالك من جواب سوى الغفلة والجهل ووساوس النفس الامارة والشياطين الذين يحكمون سيطرتهم على الإنسان ويحبون أبصارهم وبصائرهم عن رؤية الحقائق. فهو بالضبط كالطير الذي يرى الحبوب دون أن يرى المصيدة التي نصبها له الصياد.

تقلب الدنيا

لقد إستفاضت الآيات القرآنية والروايات الإسلامية التي كشفت النقاب عن غدر الدنيا وتقلب أحوالها. وما أروع الصورة التي رسمها القرآن لهذه الدنيا حين شبهها بماء المطر: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾^٢. الخطبة التي نحن بصدددها هي الأخرى رسمت صورة ناصعة لتفاهة الدنيا بحيث تهز عباراتها ضمير أهل الغفلة لتلفت إنتباههم إلى الآخرة، وكثيرة هي خطب نهج البلاغة التي وردت بشأن الدنيا، ولعل السبب الذي يكمن وراء كل هذه التأكيدات هو أنّ العصر الذي عاشه الإمام عليه السلام قد أعقب تلك الفتوحات الإسلامية والتي جرت ثروات طائلة على البلاد الإسلامية، حتى كانت آثار السلاطين والملوك النفسية من بين الغنائم التي كان تحصل عليها الجيوش الإسلامية؛ الأمر الذي شد أنظار أغلب الأفراد إلى الدنيا، وهذا ما أدى بالتالي إلى فساد المجتمع الإسلامي. فما

١. شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني ٢٣٦٧٢.

٢. سورة الكهف / ٤٥.

كان من الإمام عليه السلام وبغية إعادة الأمة إلى مسارها الإسلامي الصحيح الذي رسمه رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أن يعتمد تلك الحياة الزاهدة المتواضعة من جهة، ويلقي بكلماته الروحية ليقظ تلك القلوب العافلة من جهة أخرى. الأدباء والشعراء على مر العصور أنشدوا الشعر في تصوير غدر الدنيا وعدم وفائها.

والعجيب في الأمر أن كل هذه الآيات والروايات إلى جانب النظم الأدبي البديع لم تتمكن من إيقاظ أهل الدنيا وسلخهم عنها، فواصلوا بكل قوة مسارهم المنحرف دون الإكتراث لهذا الواعظ أو ذاك. نعم فالمؤمنون إنما يتعظون بهذه العبر ويستفعون بها ليجدوا ويجتهدوا في إصلاح أنفسهم ومعادهم.

القسم الرابع

«حَتَّى إِذَا تَصَرَّمَتِ الْأُمُورُ، وَتَقَضَّتِ الدُّهُورُ، وَأَزَفَ النُّشُورُ، أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَايِحِ الْقُبُورِ، وَأَوْكَارِ الطُّيُورِ، وَأَوْجِرَةِ السَّبَاعِ، وَمَطَارِحِ الْمَهَالِكِ، سِرَاعاً إِلَى أَمْرِهِ، مُهْطِعِينَ إِلَى مَعَادِهِ، رَعِيلاً صُمُوتاً، قِيَاماً صُفُوفاً، يَنْفِذُهُمُ الْبَصَرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، عَلَيْهِمْ لَبُوسُ الْإِسْتِكَانَةِ، وَضَرَعُ الْإِسْتِسْلَامِ وَالذَّلَّةِ، قَدْ ضَلَّتِ الْحَيْلُ، وَانْقَطَعَ الْأَمَلُ، وَهَوَتْ الْأَفْيِدَةُ كَاطِمَةً، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ مُهَيِّمَةً، وَالْجَمُّ الْعَرَقُ، وَعَظَمَ الشَّفَقُ، وَأُزْعِدَتِ الْأَسْمَاعُ لِرِزْبَةِ الدَّاعِي إِلَى فَضْلِ الْخِطَابِ، وَمُقَايِضَةِ الْجَزَاءِ وَنَكَالِ الْعِقَابِ، وَتَوَالِ الثَّوَابِ».

❦❦❦

الشرح والتفسير

أحوال المحشر

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام في هذه الخطبة الغراء حقاً من حمد الله والثناء عليه والوصية بالتقوى وشرح أوضاع الدنيا وغدورها، تطرق عليه السلام إلى المعاد ليصور المحشر وأحوال الخلائق فيه بحيث لا يبقى مجالاً للغفلة فقال عليه السلام: «حتى إذا تصرمت الأمور، وتقضت الدهور، وأزف النشور» فالعبارات الثلاث إشارة واضحة لنهاية العالم. حيث تعرضت العبارة الأولى إلى فناء وزوال كل شيء: العمر، القدرة والقوة، الأموال والثروة و...، والعبارة الثانية لانتهاء الشهور والسنوات والقرون، والعبارة الثالثة وهي النتيجة لما تقدم إقتراب الساعة والبعث والقيامة. أما بشأن نهاية العالم والأحداث المهيبة التي ستودي إلى ذلك - كما صرح القرآن الكريم - وكيفية عالم

١. «أزف» من مادة «أزف» على وزن شرف بمعنى الاقتراب.

البرزخ فإن الإمام عليه السلام لم يتطرق إلى ذلك، بل خاض مباشرة في بعث الأموات وخروجهم من القبور والتي تمثل لب المطلوب فقال عليه السلام: «أخرجهم من ضرائح^١ القبور، وأوكار^٢ الطيور، وأوجرة^٣ السباع، ومطرح^٤ المهالك». قد يفارق الإنسان الدنيا إثر الموت بصورة طبيعية، وقد يموت في الصحراء لوحده ليكون جسده طعمة للحيوانات المفترسة، وقد يفترسه أحياناً وحشاً ضارياً، ويمكن أن يموت غرقاً في البحر، كما قد تقتله الزلزلة فيبقى جسده تحت الانقاض، فالإمام عليه السلام يخبر أن الله سبحانه عليم بمواقع جميع هؤلاء وسينشرهم جميعاً للحشر فيحاسبهم على أفعالهم. كما يشير عليه السلام ضمناً إلى هذه المسألة وهي أن أحداً لا يعرف كيف سيفارق الدنيا، وأي موضع سيحوي جسده، الأمر الذي يدعو إلى الاعتبار فقد قال سبحانه بهذا الخصوص: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾^٥. والآية كسائر الآيات الشريفة تعرض بصراحة للمعاد الجسماني؛ لأن ما في القبور أو أعشاش الطيور وكهوف الوحوش هو تراب البدن وعظامه، وإلا فالقبر لا يضم الروح بعد مفارقتها للبدن، وهذا ما سنتعرض له في المبحث القادم. ثم قال عليه السلام: «سراعاً إلى أمره، مهطعين^٦ إلى معاده، رعيلاً^٧ صموتاً، قياماً صفوفاً، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي» فالعبارة صورة حية عن وضع العباد في عرصة المحشر؛ ويألها من صورة مرعبة مخيفة. وهي العبارة التي ورد شبيهاً في القرآن بخصوص حركة الإنسان في المحشر من قبيل المفردة «سراعاً»^٨ و«يَنسِلُونَ»^٩ ويعبر أحياناً أخرى عن مدى سرعته بالقول ويعبر أحياناً أخرى عن مدى سرعته بالقول: «كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ»^{١٠}.

١. «ضرائح» جمع «ضريح» بمعنى القبر، أو الشق وسط القبر.

٢. «أوكار» جمع «وكر» على وزن مكر بمعنى عش الطيور.

٣. «أوجرة» جمع «وجار» الحفر التي تظهر إثر السيول في الأودية، كما تطلق على كهف الوحوش.

٤. «مطرح» جمع «طرح» الموضع الذي تطرح فيه الأشياء.

٥. سورة لقمان / ٣٤.

٦. «مهطعين» مادة «هطع» على وزن منع بمعنى الرعة المصحوبة بالخوف.

٧. «رعيلاً» القطيع من الخيل أو الطيور.

٨. سورة المعارج / ٤٣.

٩. سورة يس / ٥١.

١٠. سورة المعارج / ٤٣.

فحركة الناس جماعية ووقوفهم في المحشر على شكل صفوف مختلفة، أو أن الناس تفصل عن بعضها البعض البعض الآخر تبعاً لأعمالها بحيث يلتحق كل بنظيره فيكون مصيرهم واحداً، أو أنهم كانوا جماعة في قبورهم فينطلقون معاً للحساب، القرآن من جانبه قال بهذا الشأن: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا»^١ ولا شك أن سرعة حركتهم تكشف عن مدى خوفهم واضطرابهم من مصيرهم وتوقعهم لما يفجعهم من حوادث. والعبارة: «ينفذهم البصر» أي هم مع كثرتهم لا يخفى منهم أحد عن إدراك الله سبحانه وتعالى، وهم مع هذه الكثرة أيضاً لا يبقى منهم أحد إلا إذا دعا داعي الموت سمع دعاءه. ثم إنتقل ﷺ إلى صورة أخرى من صور الخلائق في يوم المحشر فقال ﷺ: «عليهم لبوس الاستكانة، وضرع^٢ الاستسلام والذلة، قد ظلت الحيل، وانقطع الأمل، وهوت الأفئدة كاظمة، وخشعت الاصوات مهيمنة،^٣ وألجم العرق، وعظم الشفق»^٤.

لا تبدو ظهور مثل هذه الحالات حين يغلق باب الرجعة ويحكم الله بين الخلائق وتخضع كافة الأعمال بصغيرها وكبيرها إلى الحساب العسير ويعرف الجزاء ويتجسم العقاب الذي ينتظر أهل الذنوب والمعاصي. وقد تضمن القرآن الكريم هذه الأوصاف، بل ما ورد في الخطبة إنما اقتبسها الإمام ﷺ من القرآن. فقد قال القرآن في موضع: «مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْبِدَتْهُمْ هَوَاءٌ»^٥ وقال في موضع آخر: «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا»^٦. العبارة «ألجم العرق» تعبير رائع عن ذروة بلاء أهل المحشر، فالخوف والاضطراب من جانب، وحرارة المحشر من جانب آخر، وتدافع الناس وشدة الزحام والارهاق بحيث يغطي العرق أبدانهم حتى إن فهم ليمتلاء عرقاً إذا ما فتحوا شفاهم. ثم قال ﷺ: «وارعدت السماع لزبرة^٧ الداعي إلى فصل الخطاب،

١. سورة النبا / ١٨.

٢. «ضرع» على وزن طمع الضعف والخضوع والذل.

٣. «مهيمنة» من مادة «هيمنة» متخافية، الصوت الخفي.

٤. «شفق» تعني في الأصل إختلاط ضياء النهار بظلمة الليل، كما نطلق على خصوص الخوف وبهذا المعنى

وردت في العبارة.

٥. سورة ابراهيم / ٤٣.

٦. سورة طه / ١٠٨.

٧. «زبرة» الكلام الشديد ولا يقال زبرة إلا إذا كان فيها زجر.

ومقايضة^١ الجزاء، ونكال^٢ العقاب، ونوال^٣ الثواب». والواقع أنّ الخوف إنّما ينبع من عدم معرفة الإنسان لمصيره وما سيؤول إليه أمره وهو يرى نفسه بين الثواب والعقاب والجنة والنار. كما أنّ سبب الخوف والذعر هو أنّ الإنسان لا يعلم بمدى إخلاصه في طاعته وعبادته، إلى جانب تذكره لبعض زلاته وأخطائه. فالحساب دقيق ولا محاسب هو الشاهد العليم بكل شيء، ولا من سبيل إلى العودة، كما ليس هنالك من سبيل لأنّ يدافع شخص عن آخر.

تأملات

١- أضواء على المعاد الجسماني

رغم اختلاف الفلاسفة بشأن المعاد وكونه جسمانياً أو روحياً، غير أنّ الآيات القرآنية والروايات الإسلامية صريحة بهذا الخصوص ولا تحمل أي إبهام في عودة الروح والبدن في عالم الآخرة، وإنّ المعاد سيكون بالروح والجسم معاً والشاهد على ذلك طائفة من الآيات والروايات، ومنها الآيات التي صرحت بقيام الناس من قبورهم إلى الحساب.^٤ وبالطبع فإنّ القبر إنّما يضم عظام الإنسان وما يتبقى من تراب من جسده. والإمام عليه السلام أشار صراحة إلى هذا الأمر في الخطبة إذ قال: «أخرجهم من ضرائح القبور، وأوكلار الطيور، وأوجرة السباع، ومطارح الهالك و...» والواقع أنّ المعاد ينبغي أن يكون كذلك إذا أريد له أن يكون كاملاً عادلاً، وذلك لوجود التأثير المتبادل بين الروح والجسد، وانّهما يتكاملان معاً، فمفارقة أيّ منهما للآخر يجعل صاحبه ناقصاً، ومن الخطئ ما يردد أنّ الإنسان بروحه، على أنّ ذلك يستند إلى الظن السائد باستقلال الروح الكامل. ويبدو أنّ هذا البحث واسع شامل نكتفي هنا بهذا المقدار ونترك التفاصيل لموضعها.^٥



١. «مقايضة» من مادة «قيض» على وزن فيض بمعين المعارضة.

٢. «نكال» بمعنى العذاب.

٣. ونوال بمعنى النعمة.

٤. أشرنا في البحث السابق إلى الآيات ذات الصلة بهذا الموضوع.

٥. راجع نفحات القرآن ٣٠٧/٥ - ٣٥٣.

٢ - شبهة الأكل والمأكول المعروفة

من بين الشبهات التي أثيرت بشأن المعاد الجسماني والتي جعلت البعض ممن لم يتلق الإجابة الصائبة عليها إلى نفي مثل هذا المعاد هي شبهة المعروفة بالأكل والمأكول المعقدة. والشبهة هي: إذا افترض أن قحطا أصاب جماعة وتغذى بعض الناس من لحم البعض الآخر، فما تكليف بدن هؤلاء الأفراد الذين أصبح لحمهم جزءاً من بدن أفراد آخرين يوم القيامة والمعاد؟ فإن عاد هذا اللحم إلى الأول أصبح الثاني ناقصاً، وإن حشر مع الثاني كان الأول ناقصاً.

كما يمكن طرح هذه الشبهة بصورة أوسع. فبدن الإنسان عادة ما يستحيل إلى تراب، والنباتات والحيوانات إنما تتغذى على هذا التراب، وبالتالي فإن الإنسان إنما يتغذى على النباتات والحيوانات فتصبح جزءاً من بدنه، وهنا يتكرر السؤال السابق في أن هذه ستلحق أي بدن؟ ولعل ما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبة: «... من ضرائح القبور وأوكار الطيور وأوجرة السباع ومطراح الهالك» يثير مثل هذه الاسئلة أيضاً.

والإجابة على هذا السؤال تبدو طويلة نكتفي بخلاصتها. فالآيات والروايات تفيد عودة آخر بدن للإنسان الذي تحول إلى تراب يوم القيامة، وبناءً على هذا فإن هذا البدن الذي أصبح جزءاً من آخر سينفصل عنه ويعود إلى البدن الأول، ومشكلة نقصان البدن الثاني يمكن حلها بكل سهولة، وذلك لأن سائر أجزاء البدن تعيش حالة النمو وتتلأ المواضع الخالية؛ الأمر الذي نلمسه باستمرار في هذا العالم حين يتعرض الجسد لبعض الضربات والصدمات، حيث تأخذ الخلايا بالنمو وتعوض الأجزاء التالفة من البدن، وبالطبع فإن هذه الحالة إنما تحصل بصورة أسرع في ذلك العالم. وأخيراً يشهد عالمنا المعاصر قضية الاستنساخ البشري، حيث تؤخذ خلية من بدن كائن حي لتنتج شبيهاً لذلك الكائن، ويبدو حل هذه المسألة سهلاً جداً، وعليه فليس لشبهة الأكل والمأكول أن تعيق المعاد الجسماني.^١

١. للوقوف على التفاصيل راجع، نفحات القرآن ٣٤١/٥ - ٣٤٧.

٣ - بعث من في القبور

هنالك سؤال يطرح نفسه وهو: إذا تغيرت الأرض والسماء عما هي عليه على أعتاب القيامة بحيث يتغير كل شيء، فكيف ستبقى القبور على حالها ويبعث من فيها للحساب؟ ويقال في الإجابة على هذا السؤال: أن الأرض وعلى ضوء الآيات القرآنية أنها ستشهد زلزلة عظيمة: «إِنَّ زَلْزَلَةً السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ»^١، وعليه فليس هنالك ما يمنع أن تبقى هذه القبور تحت انقراض تلك الزلزلة العظيمة.

كما أن السباع والوحوش التي ابتلعت أبدان بعض الناس وقد استحالت تراباً بعد موتها، هي الأخرى تبقى تحت الانقراض بعد الزلزلة العظيمة فيخرج الناس منها إلى الحشر يوم القيامة. وخلاصة القول هي أن العالم يتهدم لا ينعدم ويزول، وبالطبع فإن تراب الناس وعظامهم يبقى محفوظاً.



القسم الخامس

«عِبَادٌ مَخْلُوقُونَ اقْتِدَاراً، وَمَرْبُوبُونَ اقْتِسَاراً، وَمَقْبُوضُونَ اخْتِضَاراً، وَمُضْمِنُونَ أَجْدَاثاً، وَكَائِنُونَ رُفَاتاً، وَمَبْعُوثُونَ أَفْرَاداً، وَمَدِينُونَ جَزَاءً، وَمُمَيِّزُونَ حِسَاباً، قَدْ أَمَّهُلُوا فِي طَلَبِ الْمَخْرَجِ، وَهُدُوا سَبِيلَ الْمَنْهَجِ، وَعَمَّرُوا مَهَلَ الْمُسْتَعْتَبِ، وَكُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدْفُ الرَّيْبِ، وَخُلُوا لِمِضْمَارِ الْجِيَادِ وَرَوِيَّةِ الْإِرْتِيَادِ، وَأَنَاءِ الْمُقْتَبِسِ الْمُرْتَادِ فِي مَدَّةِ الْأَجْلِ، وَمُضْطَرَبِ الْمَهَلِ».



الشرح والتفسير

الإنسان، من أين وإلى أين؟

يعود الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة من الآخرة إلى الدنيا ليشرح أوضاع وأحوال الناس فيها، ليعلموا لم خلقوا واين يتجهوا، وما هي الوسائل والإمكانات التي زودوا بها لينجوا يوم المعاد وكيف ينبغي لهم أن يستفيدوا من هذه الإمكانيات. ويشتمل كلامه عليه السلام على ثلاث عشرة عبارة، خمس منها في خلق الإنسان وموته وتبدل جسده إلى تراب، وثلاث في كيفية بعث الخلائق، وخمس آخر في إتمام الحجة الإلهية والقرص التي زود بها الإنسان في هذا العالم. فقال عليه السلام: «عِبَادٌ مَخْلُوقُونَ اقْتِدَاراً، وَمَرْبُوبُونَ اقْتِسَاراً،^١ وَمَقْبُوضُونَ اخْتِضَاراً، وَمُضْمِنُونَ أَجْدَاثاً،^٢ وَكَائِنُونَ رُفَاتاً»^٣. لاشك أن الإنسان مختار حر في أفعاله، ولكن ليس له

١. «اقتسار» من مادة «قسر» على وزن نصر الغلبة والقهر.

٢. «أجدات» جمع «جدث» على وزن عبث القبر.

٣. «رفات» جمع رفث الحطام.

مثل هذا الاختيار في الخلق والموت. فلا أحد يعين تأريخ ولادته، ولا أحد يختار زمان موته الطبيعي برغبته، فالحياة والموت خارجة عن دائرة إرادتنا إلى جانب تعفن البدن وصورته تراباً، وهذا ما حدا بالبعض لتفسير عبارة الأمر بين الأمرين بهذا المعنى. على كل حال فإن مسيرة الحياة والموت جارية علينا على حنوء الإرادة الإلهية والقوانين المرسومة شئنا أم أبينا؛ الواقع الذي تقود الغفلة عنه إلى جهل الإنسان بنفسه وبخالقه، بينما يمده الالتفات إليه بعناصر العلم والمعرفة والتأهب. ثم تطرق الإمام عليه السلام في العبارات الثلاث اللاحقة إلى عملية بعث الناس للخلافة هي الأخرى عن الإرادة البشرية فقال «ومبعوثون أفراداً، ومدينون جزاءً، ومميزون حساباً» لاشك أن كل فرد سيخرج من قبره وحيداً، ولا يتنافى هذا والتقسيم اللاحق للناس إلى طوائف تبعاً لعقائدهم وأعمالهم، كما عبرت عن ذلك الخطبة في البحث الماضي بالرعييل، ونعتها القرآن بالافواج^١. ولعل العبارة «مميزون حساباً» إشارة لما ورد في الآية الكريمة: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»^٢. نعم ليس هنالك من يحمل وزر غيره ويعاقب عليه، ولكل حسابه على ضوء أفعاله، وإن كان الرضى بأعمال الآخرين والتقصير في وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى نوع من الحساب المشترك. أمّا العبارات الخمس الأخيرة فقد أشار فيها الإمام عليه السلام - كما ذكرنا ذلك آنفاً - إلى الفرص واتمام الحجة التي تتضمن أبعاداً مختلفة، فقال عليه السلام: «قد أمهلوا في طلب المخرج، وهُدوا سبيل المنهج، وعمروا مهل المستعقب»^٣ وكشفت عنهم سداف^٤ الريب، وخطوا لمضمار الجياد^٥، وروية الارتياذ^٦، وأناة^٧ المقتبس المرتاد، في مدة الأجل، ومضطرب المهل» تضمنت هذه العبارات الأبعاد المختلفة لاتمام الحجة الإلهية وأنّ الناس يمتلكون المهلة الكافية للفوز بالرضوان الإلهي أولاً.

١. سورة النبأ / ١٨.

٢. سورة فاطر / ١٨.

٣. «مستعقب» من مادة «عتب» على وزن تبت بمعنى الرضى. وذهب بعض أرباب اللغة إلى أنّ أصل هذه المفردة (عتاب) وإعتاب نفي ذلك والاستعتاب طلب نفي العتاب التي وردت بمعنى طلب الرضى.

٤. «سداف» جمع «سدفة» على وزن غرفة بمعنى الظلمة.

٥. «جياد» جمع «جواد»، والجياد من الخيل كرامها.

٦. «ارتياذ» من مادة «رود» على وزن صوت، طلب ما يراد.

٧. «أناة» الهدوء والطمأنينة والوقار والحلم، كما وردت بمعنى الانتظار.

وثانياً: تمهدت أمامهم السبل المؤدية للنجاة بواسطة الكتب السماوية وإرشادات الأنبياء والأولياء وهداية العقل، ثالثاً: وجود القدرة والمهلة للتوبة من الذنوب وتدارك ما مضى ونيل رضى الله، رابعاً: ان حجب الظلام التي تغطي قلب الإنسان بفعل الوسواس الشيطانية والشكوك والشبهات، إنما تنجلي بنور الله وهدايته سبحانه، خامساً: أن أبواب التوفيق الإلهي لرياضة النفس والاستعانة بالفكر والاستضاءة بنور المعرفة الربانية إنما فتحت بوجه الناس لما يكفيهم من المدة. ونخلص من كل هذا إلى أن الإنسان الذي يضل الهدف ويوغل في الذنب ويقع في محالب الشيطان ووساوسه لا ينبغي أن يلوم إلا نفسه التي حالت دونه ودون هذه السعادة والفلاح. وعليه فلم يعد هنالك ما يدعو إلى التعجب والدهشة حين ينادون يوم القيامة: «أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ»^١.



تأمل

الدنيا دار إمتحان

كثيرا ما كانت تنظم قديماً - وهكذا في الوقت الحاضر - مسابقات للخيل، وكانت تخضع الخيل لتدريبات شاقة بغية التأهب لخوض المباراة، وعادة ما تصطحب العرب بالمضامر على ميدان التدريب الذي ينحف فيه الفرس ويجهز للسباق، أمّا الجياد فيراد بها العزيز من الخيل. وقد وردت بعض المتون الإسلامية التي شبهت الدنيا بذلك الميدان الذي يعد من يردده لخوض السباق، حيث السباق الأكبر يوم القيامة، ذلك هو الميدان الحق. وقد أشارت الخطبة بصورة مقتضبة إلى هذه المسألة، وقد مر علىّ علينا شرحها في الخطبة الثامنة والعشرين، فهو تشبيه رائع يمكنه أن يكشف عن قيمة الدنيا بالنسبة للآخرة.



القسم السادس

«فِيهَا لَهَا أَمْثَالاً ضَائِبَةً، وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً، لَوْ صَادَفَتْ قُلُوباً زَاكِيَةً،
وَأَسْمَاعاً وَاعِيَةً، وَآرَاءَ عَازِمَةً، وَالْبَابَا حَازِمَةً، فَاتَّقُوا اللَّهَ تَقِيَّةً مَنْ سَمِعَ
فَخَشَعَ، وَاقْتَرَفَ فَاغْتَرَفَ، وَوَجَلَ فَعَمِلَ، وَخَاذَرَ فَبَادَرَ، وَأَيَّقَنَ فَاخْسَنَ، وَعُبِّرَ
فَاعْتَبَرَ، وَحُدِّرَ فَحَدَّرَ، وَزُجِرَ فَازْدَجَرَ، وَأَجَابَ فَأَنَابَ، رَاجَعَ فَتَابَ، وَاقْتَدَى
فَاخْتَدَى، وَأَرَى فَرَأَى، فَاسْرَعَ طَالِباً، وَنَجَا هَارِباً، فَأَفَادَ نَخِيرَةً، وَأَطَابَ
سَرِيرَةً، وَعَمَّرَ مَعَاداً، وَاسْتَظْهَرَ زَاداً، لِيَوْمِ رَحِيلِهِ، وَوَجَّهَ سَبِيلَهُ، وَحَالَ
حَاجَتِهِ، وَمَوْطِنِ فَاقْتَبَهُ، وَقَدَّمَ أَمَامَهُ لِذَارِ مُقَامِهِ. فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ جِهَةً مَا
خَلَقَكُمْ لَهُ، وَاحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، اسْتَحِقُّوا مِنْهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ
بِالتَّنَجُّزِ لِصِدْقِ مِيغَادِهِ، وَالْحَذَرِ مِنْ هَوْلِ مَعَادِهِ».

۸۰۰۳

الشرح والتفسير

مواعظ شافية

أشار الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبة الذي يمثل امتداداً للبحث السابق - إلى المواعظ
القيمة المؤثرة والأمثال الواضحة والنصائح والإرشادات التي تنتهي بالناس إلى شاطئ
الأمان، فقال عليه السلام: «فِيهَا أَمْثَالاً صَائِبَةً، وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً، لَوْ صَادَفَتْ قُلُوباً زَاكِيَةً، وَأَسْمَاعاً
وَاعِيَةً، وَآرَاءَ عَازِمَةً، وَالْبَابَا حَازِمَةً»^١ قد تكون هذه العبارة إشارة إلى المواعظ
والإرشادات التي وردت في المقاطع السابقة من الخطبة، أو المواعظ التي بلغتنا عن طريق

١. «حازم» من مادة «حزم» على وزن جزم بمعنى التفكير العميق والصائب، ويطلق الحازم على الشخص
الواسع الأفق، ومنه الحزام الذي يفيد الاستحكام.

الوحي وأولياء الله، وقرينة ذلك عبارات القسم السابق بشأن الهداية الإلهية بطرق النجاة وإزالة حجب الشبهات والشكوك والمهلة الكافية للاستعداد والتزود واتمام الحجة على المقصرين. على كل حال فإن الهدف هو بيان هذه المسألة وهي كفاية المواعظ والنصائح والمعالم على الطريق لو كانت هنالك آذانا صاغية وعقولاً متفتحة وقلوباً واعية، وبعبارة أخرى ليس هنالك من نقص في فاعلية الفاعل، وإن كان هنالك من نقص في قابلية القابل. والتعبير عن الأمثال بالصائبة يفيد مطابقتها للواقع. وأمّا التعبير بالأسماع الواعية فيشير إلى أنه بعد سماع كلام لا بدّ من حفظه والتأمل فيه؛ لاسماعه من أذن وإخراجه من أخرى، كأنه لم يسمع شيئاً. وأمّا الفارق بين «الآراء العازمة» و«الألباب الحازمة» فهو أن العبارة الأولى إلى القرارات القاطعة، وذلك لأن الإنسان لا يتعظ بنصائح أولياء الله ويتتفع بالإرشادات ما لم يمتلك العزم القاطع؛ رغم أنه قد يقبلها ولصدق بها إلا أنه لا يمتلك القدرة على إتخاذ القرار لضعف إرادته، والألباب الحازمة إشارة إلى الأفكار العميقة التي تشخص عواقب الأعمال، وتنامل جوانب كل مسألة ببعدها نظر وسعة أفق. نعم إنّما ينتفع غاية الانتفاع من هذه المواعظ والأمثال من كان له فكر عميق وإرادة قوية واذن سامعة وقلب واع. ثم أوصى ﷺ بالتقوى وبين مظاهرها بعبارات قصيرة بعيدة المعنى بما يقارب عشرين جملة. والحق أن ضالة أرباب السير والسلوك إلى الله إنّما اختصرت في هذه العبارات، حيث قال ﷺ: «فاتقوا الله تقيه من سمع فخشع» فإذا أذنب إترف بذنبه وتاب إلى ربه (واقترف^١ فاعترف، ووجل فعمل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن، وعبر فاعتبر، وحذر فحذر، وزجر فازدجر، وأجاب فأجاب، وراجع فتاب، واقتدى فاحتذى^٢، وأرى فرأى) فقد بينت مظاهر التقوى في هذه العبارات بأكمل وجه. وبالطبع فإن التقوى ليس إدعاءً، ولا تقتصر على إجتناّب الخطايا والارجاس، فالتقوى تبدأ من سماع كلمات دعاء لاحق وخضوع القلب لها، إلى جانب التوبة والإنابة إلى الله والاعتراف بالذنوب وخشية الله والقيام بالأعمال التي تقرب إليه، وحث الخطى نحو

١. «إتترف» من مادة «ترف» على وزن حرف بمعنى إكتسب وتستعمل إتراف في إكتساب الأثم.

٢. «إحتدى» من مادة «حذر» على وزن حذف بمعنى فصال الحذاء حسب النموذج والقياس المعين، ثم اطلق الحذر والاحتذاء على مطابقة الشيء لآخر، وقد وردت في الخطبة بمعنى المتابعة والتبعية للاسوة في كل شيء.

درجة اليقين والاعتبار بمحوادث الماضي والحذر من المعاصي، واستماع أحسن القول والانتهاز، عن المنكر وإجابة دعوة الحق، والاقتران بأولياء الله والانفتاح على الحقائق ثم قال ﷺ: «فاسرع طالباً ونجاً هارباً» وبالنتيجة «فأفاد ذخيرة، وأطاب سريرة، وعمر معاداً، واستظهر^١ زاداً، ليوم رحيله، ووجه سبيله، وحال حاجته، وموطن فاقتة، وقدر أمامه لدار مقامه» والواقع أن هذه مظاهر أخرى للتقوى والتي من شأنها جعل الإنسان يسارع إلى الحق وتقتل في نفسه الجنوح إلى الذنب والاثم وتمده بمقدمات الاستعداد للمعاد. ثم واصل الإمام ﷺ خطبته بالدعوة ثانية إلى التقوى وخلص إلى نتيجة هي: «فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له»^٢.

حقاً أن لخلق الإنسان هدف «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى»^٣ ولا يمكن بلوغ هذا الهدف دون التقوى، والهدف هو العبودية لله سبحانه ونيل القرب الإلهي وبلوغ السمو والكمال، ولا يتيسر هذا إلا من خلال المعرفة والتقوى. ثم قال ﷺ: «واحدروا منه كنه^٤ ما حذركم من نفسه» هنالك روعة في قوله ﷺ كنه التي تفيد عدم الاقتناع بالظواهر فقط حيال الانذارات الإلهية ولا بد من تأمل هذه الانذارات والعمل على الفوز بالرضوان الإلهي. ثم أشار ﷺ إلى معطيات التقوى فقال: «واستحقوا منه ما أعد لكم بالتنجز^٥ لصدق ميعاده، والحذر من حول معاده» فعبارات الإمام ﷺ أشارت إلى بعض الآيات، كآية التاسعة من سورة المائدة: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» وما ورد في الآية الخامسة عشرة من سورة آل عمران: «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» والآية ٦٨ من سورة التوبة: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا».



١. «استظهر» من مادة «ظهر» على وزن دهر، بمعنى حمل الزاد والمتاع على الظهر أو على ظهر مركب.
 ٢. قيل جملة (جهة ما خلقكم له) ظرف وقيل مفعول به لفعل مقدر وقيل مفعول لأجله ولعل الاحتمال الأول أنسب الجميع.
 ٣. سورة القيامة / ٣٦.
 ٤. «كنه»، الحقيقة وباطن الشيء، كما تأتي بمعنى العاقبة وأجل الشيء وأريد بها المعنى الأول في العبارة.
 ٥. «تنجز» من مادة «نجز» على وزن عجز، تستعمل في الوفاء بالعهد، وتنجز الوعد طلب وفائه على عجل.

شعب التقوى

التقوى شرف العبد ووسيلته العظمى للقرب من الله وهي معيار كرامته، كما أنها زاد السالكين إلى الله ومتاعهم إلى الحبيب، وتشتمل التقوى على أغصان وثمار أشارت لها الخطبة التي تعرضنا لشرحها. وبالطبع فإن مادة التقوى تكمن في الاذان الصاغية والقلوب الواعية والإرادات القوية والأفكار النيرة التي تعد الإنسان لسلوك سبيل الورع والتقوى؛ الأمر الذي أشير له في بداية الخطبة. أما غصون وثمار شجرة التقوى المباركة فتتمثل بالخشوع لله سبحانه والاعتراف بالذنب والتوبة منه والاعتبار والاحسان والاعتداء بأولياء الله. فاذا نثرت بذور التقوى في القلب الواع وسقيت بماء المراقبة والمحاسبة، حملت هذه البذور ثمار الخوف والخشية والخشوع والتوبة والانابة إلى الحق سبحانه.



القسم السابع

«جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعًا لِيَتَعَيَّ مَا عَنَّا، وَأَبْصَارًا لِتَجْلُؤَ عَنْ عَشَاهَا، أَشْلَاءَ جَامِعَةً لِأَعْضَائِهَا، مُلَائِمَةً لِأَحْنَائِهَا، فِي تَرْكِيْبِ صُورِهَا، وَمُدَدِ عُمْرِهَا، بِأَبْدَانٍ قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا، وَقُلُوبٍ رَائِدَةٍ لِأَرْزَاقِهَا، فِي مُجَلَّاتِ نِعْمِهِ، مُوجِبَاتٍ مِنْهُ، وَحَوَاجِرٍ عَافِيَّتِهِ. وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَارًا سَتَرَهَا عَنْكُمْ، وَخَلَفَ لَكُمْ عِبْرًا مِنْ آثَارِ الْمَاضِيْنَ قَبْلَكُمْ، مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلْقِهِمْ، وَمُسْتَفْسَحِ خَنَاقِهِمْ، أَرْهَقْتَهُمُ الْمَنَآيَا دُونَ الْأَمَالِ، وَشَدَّبَهُمْ عَنْهَا تَحْرُمُ الْأَجَالِ. لَمْ يَمَهْدُوا فِي سَلَامَةِ الْأَبْدَانِ، وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أَنْفِ الْأَوَانِ».



الشرح والتفسير

الجميع يدين له بالفضل

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضع من الخطبة إلى جانب من النعم الإلهية التي تثير لدى الإنسان الشعور بالامتنان والشكر، كما تشكل دافعا لمعرفة الله والانفتاح على الورع والتقوى، فقد قال عليه السلام: «جعل لكم أسماعها لتعني ما عاناها،^١ وأبصارا لتجلوا^٢ عن عشاها،^٣ وأشلاء^٤ جامعة لأعضائها، ملائمة لأحنائها،^٥ في تركيب صورها، ومدد

١. «عنا» من مادة «عناية» بمعنى الاهتمام بالشيء، والضمير في عاناها يمكن أن يرجع إلى الله فيشير إلى الأهداف الإلهية التي تبلغ الإنسان عن طريق أذنه، أو يرجع إلى الإنسان ليعني الأهداف التي ينالها الإنسان عن طريق الاذان، أو يعود إلى الحرف ما ليعني المطالب المهمة السماع للاذن.

٢. «تجلوا» من مادة «جلاء» بمعنى تكشف.

٣. «عشا» من مادة «عشو» أو «عشي» ضعف البصر وعجزه عن الرؤية وقيل عدم الابصار ليلاً.

٤. «أشلاء» جمع «شل» على وزن شكل العضو والجسد، وهنا تعني الجسد، حيث أُرِدَ بها بالعبرة (جامعة لأعضائها) وقيل قطعة اللحم وهي العضلات ويصدق هذا المعنى على الخطبة المذكورة.

عمرها». فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أشار في هذا المقطع من الخطبة إلى النعم لأعضاء البدن الواحد تلو الآخر، مركزاً على السمع والبصر بفضلها أهم وسيلة لإرتباط الإنسان بالعالم الخارجي إلى جانب حصول الانسان على الجانِب الأعظم من العلوم والمعارف عن طريقها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أشار عليه السلام إلى الانسجام القائم بين أعضاء البدن بعضها ببعض الآخر، ومن ذلك تطرق إلى عضلات البدن التي تعمل متناغمة مع كافة الأعضاء وقد تكيفت مع هيئات العظام. فمسألة تناسق وانسجام أعضاء البدن تعد من أروع ظواهر الخلقه ومن أهم النعم الإلهية، وفي نفس الوقت فإن الاستقلال يسود هذه الاعضاء والجوارح، إلا أنها تتحد وتتعاقد بما يدعو للدهشة والذهول إذا ما طرأ على الإنسان طارئ. على سبيل المثال لو حدث ما يضطر الإنسان للابتعاد والفرار عن مركز الحادثة بسرعة، فإن كافة أعضاء البدن تعبئ نفسها في لحظة واحدة، فدقات القلب تأخذ بالارتفاع، والنفس يصعد وينزل بسرعة ليضخ الدم والأوكسجين الكافي لعضلات الجسم، كما تتصاعد حدة اليقظة والوعي، ويحتد السمع والبصر، حتى تذوب موانع الجوع والعطش وتنسى بالمرّة ليتمكن الإنسان من الهروب سريعاً من مركز الحادث، وبالطبع فإنّ هذا التنسيق لم يحصل استجابة لرغبة الإنسان واختياره، بل بواسطة الأوامر والاياعازات التي يصدرها الدماغ تلقائياً إلى جميع أعضاء البدن. فهذا التنسيق العظيم كاشف عن قدرة الله سبحانه وعظمته، كما يفيد سعة نعمه على العباد؛ الأمر الذي أشار له الإمام عليه السلام في هذه الخطبة. ولا يقتصر هذا التنسيق على ظاهر الاعضاء فحسب، بل يخترق باطنها وكنهها، حتى يؤثر في أعمارها، وهذا ما أشار إليه الإمام بالخصوص.

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً: «بأبدان قائمة بأرفاقها^١ وقلوب رائدة^٢ لأرزاقها، في

٥. «أحناء» جمع «حنو» على وزن حلم ما اعوج من البدن، كأغلب العظام.

١. «أرفاق» جمع «رفق» على وزن فكر المنفعة أو ما يستعان به عليها، وهذا هو المعنى المراد في عبارة الخطبة.

٢. «رائدة» من مادة «رود» على وزن شوق طلب الماء والمرتع، ثم اطلقت على كل بحث وطلب، كما وردت بمعنى الهادي وذلك لأنّ القوافل كانت تبعث بشخص ليبحث عن مكان مناسب لتوقف القافلة حيث يسمى هذا الشخص الرائد.

مجلات^١ نعمه، وموجبات مننه، وحواجز^٢ عافيته». العبارات استمرار لما ورد قبلها من تنسيق بين أعضاء البدن. فراد الإمام عليه السلام أن هذا التنسيق والانسجام لا يقتصر على الأعضاء، بل الروح والفكر أيضاً ينسقان مع هذه الأعضاء بهدف نيل بعض المنافع ودفع بعض الاضرار. ويعتبر هذا التعاضد الروحي والجسمي الذي يحكم جميع كيان الإنسان من بدائع العجائب الذي تتكشف بعض تفاصيل دقته وروعته على مرور الزمان وفقاً لتطور العلم وإزدهاره، حيث تشكل هذه البدائع أعظم نعم الله وأهم آيات عظمته سبحانه.

العبارة «مجلات نعمه» تجلّل الناس وتعمهم وهي من باب إضافة الصفة إلى الموصوف بمعنى «نعمه المجللة» التي تشمل الناس بأجمعهم مؤمنهم وكافرهم.

«وحواجز عافيته» بمعنى موانع السلامة والجملة تشتمل على تقدير حيث يكون المراد أن الله علم الإنسان طرق دفع الاضرار ومنافع العافية «ما يمنع حواجز عافيته». ثم أشار عليه السلام إلى نوعين من النعم الإلهية الكبرى على الإنسان إلى جانب النعم المذكورة فقال: «وقدر لكم أعماراً سترها عنكم وخلف لكم عبراً من آثار الماضين قبلكم من مستمتع خلاقهم^٣ ومستفسح خناقهم^٤ أرهقتهم^٥ المنايا دون الآمال شذبهم^٦ عنها تخرم^٧ الآجال لم يمهدوا في سلامة الأبدان ولم يعتبروا في أنف^٨ الأوان» أما النعمة الأولى فهي نعمة العمر التي تعتبر

١. «مجلات» من مادة «جلال». ومجلات نعمه غامرات نعمه، النعم التي تغطي جميع كيان الانسان، فهي تفيد السعة والشمولية.

٢. «حواجز» جمع «حاجز» المانع والراذع وحواجز العافية موانع السلامة.

٣. «خلاق» من مادة «خلق» بمعنى تعيين المقدار ومن هنا أطلق الخلاق على السهم والنصيب، والمراد بمستمتع خلاقهم التي وردت في الخطبة النصيب الرافر من الخير واللذات التي تمتعوا بها في الدنيا.

٤. «خناق» من مادة «خنق» حبل يخنق به، وخناق بالكسر على وزن كتاب بمعنى الحبل ومستفسح خناقهم النعم التي يتمتع بها الإنسان قبل الموت.

٥. «أرهق» من مادة «إرهاق» أخذ الشيء باستعجال، واصلها رهق على وزن شفق بمعنى الظلم.

٦. هناك خلاف بين شراح نهج البلاغة في أن «شذبهم» كلمة واحدة أم كلمتان. فمن عدها كلمة واحدة «شذب» من مادة تشذيب بمعنى التقشير ومنه تشذيب الشجرة، ويناسب هذا المعنى ما ورد في الخطبة، ومن ذهب إلى أنها كلمتان «شذ + بهم»، شذ من مادة شذوذ بمعنى الانفصال والانفراد وهو المعنى الذي يتناسب وما ورد في الخطبة أيضاً.

٧. «تخرم» من مادة «خرم» بمعنى الاستئصال والاقتطاع.

٨. «أنف» بضمين مفرد بمعنى بداية كل شيء، ومن هنا يطلق على المرعى الذي لم يسرع فيه الحيوان حتى ذلك الوقت وكذلك الظرف الذي لم يشرب به الماء.

مصدر سعادة الإنسان وتوفيقه وفلاحه، حيث أن ليلة من ليال العبر التي بات فيها أمير المؤمنين عليه السلام - والتي تعرف بليلة المبيت - على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليفديه بنفسه وينجو من مؤامرة الكفار فأصابه عليه السلام ما أصابه من الفضل ببركة تلك الليلة. وأما ضربته لعمر بن عبدود العامري في الخندق والتي كانت أفضل من عبادة الثقلين، فلم تكن سوى سويعة من عمر الإمام عليه السلام. وأما شهداء الغاضرية الذين صنعوا أكبر ملحمة عرفها التاريخ البشري ليصبحوا كعبة للثوار وطلاب الحق فلم تكن سوى نهاراً من عمرهم المبارك. نعم فنعمة العمر من أعظم نعم الله على الإنسان. وقد إقتضى لطف الله وحكمته أن يخفى مدة هذا العمر عن الإنسان، لما ينطوي العلم به من مفساد فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «فإنسان لو عرف مقدار عمره وكان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش مع ترقب الموت وتوقعه لوقت قد عرفه، بل كان يكون بمنزلة من قد فنى ماله أو قارب الفناء، فقد استشعر الفقر والوجل من فناء ماله وخوف الفقر، على أن الذي يدخل على الإنسان من فناء العمر أعظم مما يدخل عليه من فناء المال لأن من يقل ماله يأمل أن يستخلف منه فيسكن إلى ذلك، ومن أيقن بفناء العمر استحكم عليه اليأس، وإن كان طويل العمر ثم عرف ذلك وثق بالبقاء وانهمك في اللذات والمعاصي وعمل على أنه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب في آخر عمره، وهذا مذهب لا يرضاه الله من عباده ولا يقبله ومن هنا حجب الإنسان عن معرفة العمر ليعيش دائماً بين الخوف والرجاء.^١

ونخلص من هذا إلى أن ساعات العمر وأيامه نعمة، وهكذا حجب مقداره عن الإنسان نعمة أخرى.

وأما النعمة الثانية: وتتمثل بالاعتبار بالأمم الماضية وما عليه الكبار، وما بقي من القصور والقبور والآثار، فهي نعمة إلهية كبرى؛ وذلك لأن النظر بعين العبرة لهذه الآثار يزود الإنسان بالتجربة وكأنه عمر عمراً مديداً ليكون مع تلك الأمم والأقوام وقد تجرع حلاوة الحياة ومرارتها. فتأريخ الأمم الماضية مادة للدروس والعبر، وللإنسان أن يحدد مصيره على ضوء

هذا التاريخ من خلال الانفتاح على مقومات النجاح وأسباب الفشل وكيفية التعامل معها، والحق أن هذه نعمة عظيمة من الله بها على الإنسان. القرآن الكريم صرح بهذا الخصوص قائلاً ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^١ وللأسف فما أكثر الذين خططوا لحياتهم وسبحوا في بحر لحي من الامال والاماني حتى أتاهم الموت بغتة ففقدوا على تلك الامال والحال أنهم وقفوا على أخبار الماضين وأثارهم، إلا أن أهوائهم وطغيانهم كان حجاباً على أبصارهم وبصائرهم فحال دون رؤيتهم للحقائق، فقدموا على ربهم وقد اعتبر بهم ممن يعدهم دون أن يعتبروا بمن كان قبلهم.



القسم الثامن

«فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضَةِ الشَّبَابِ إِلَّا حَوَانِي الْهَرَمِ؟ وَأَهْلُ غَضَارَةِ الصِّحَّةِ إِلَّا نَوَازِلَ السَّقَمِ؟ وَأَهْلُ مُدَّةِ الْبَقَاءِ إِلَّا آوِنَةَ الْفَنَاءِ؟ مَعَ قُرْبِ الزِّيَالِ، وَأَزُوفِ الْإِنْتِقَالِ وَعَلَزِ الْقَلْقِ، وَالْمِ الْمَضْضِ، وَغُصَصِ الْجَرَضِ، تَلَفَّتِ الْإِسْتِغَاثَةُ بِنُصْرَةِ الْحَفْدَةِ وَالْأَقْرِبَاءِ، وَالْأَعِزَّةِ وَالْقُرْنَاءِ».

۵۰۰۳

الشرح والتفسير

الحذر، فالنعم إلى زوال

أشار الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبة - إلى نقطة مهمة أخرى ذات صلة بالحياة الدنيا وما فيها من نعم، وأن هذه النعم آيلة إلى الزوال، ومن هنا فلا ينبغي الوثوق بها، كما لا يجوز الخلود إليها والتعلق بها، فقال عليه السلام: «فهل ينتظر أهل بضاضة^١ الشباب إلا حواني^٢ الهرم^٣؟ وأهل غضارة^٤ الصحة إلا نوازل السقم؟ وأهل مدة البقاء إلا آونة^٥ الفناء» ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «مع قرب الزيال^٦ وأزوف^٧ الانتقال، وعلز^٨ القلق، وألم المضض^٩،

١. «البضاعة» مصدر الرقة والحيوية والنشاط.

٢. «حواني» تعني في الأصل أحوال أضلاع الإنسان وهي إثنان في كل جانب ومفردها حانية، وهي هنا كناية عن الهرم الذي يحدودب فيه الإنسان.

٣. «هرم» بمعنى ذروة الضعف والعجز.

٤. «غضارة» النعمة والسعة والخصب.

٥. «آونة» جمع «أوان» بمعنى الزمان.

٦. «الزيال» مصدر زايله مزائلة وزيال بمعنى المفارقة.

٧. «أزوف» على وزن خضوع بمعنى الدنو والقرب وتطلق الأزفة على القيامة لأنها ليست بعيدة عن العباد.

٨. «العلز» على وزن المرض قلق وخفة رهلع يصيب المريض المحتضر.

٩. «مضض» من مادة «مض» على وزن سد بلوغ الحزن من القلب.

وغصص الجرض،^١ وتلفت^٢ الاستغاثة بنصرة الحفدة^٣ والاقرباء، والأعزة والقرناء»
 فن خصائص هذا العالم تقلب نعمه ولذاته؛ الأمر الذي يدعو الإنسان إلى عدم الاغترار
 والخلود إلى الدنيا ويضحى بآخرته من أجلها. فالشباب يسرعون نحو الهرم وعضاضة
 الشباب آيلة إلى ذبول الكهولة وربيع العمر سينتهي إلى خريف التساقط، وسلامة البدن
 عرضة للزوال وهجوم الأمراض حتى تلوح علامات الوصول والاقتراب من الآخرة وتبدو
 واضحة للعيان. ورغم كل هذه الخصائص والعلامات، إلا أن الذين تعلقوا بالدنيا واغتروا بها
 ليسوا بالقليل فلم ينشغلوا فيها سوى ببعض النعم والمتع؛ الأمر الذي يجدر بالتأمل والتوقف
 عنده! حيث يرى الإنسان كل ملاح فناء الدنيا بأم عينيه ويصر على البقاء. ورد في تاريخ
 بغداد أن السفاح نظر إلى المرأة فقال: اللهم لا أقول ما قال سليمان بن عبد الملك أني خليفة
 شاب، لكني أقول: ارزقني عمراً طويلاً بعافية في طاعتك ولم يكديتم حديثه حتى سمع أحد
 غلمانه يقول لآخر في عقد بينهما أن مدته إلى شهرين وخمسة أيام فتطير السفاح من كلامه
 وكأنه أخبر عما تبقى من عمره، وكان الأمر كذلك^٤. القرآن من جانبه أكد هذا الأمر وكشف
 النقاب عنه (وان لم يكن هناك من نقاب في الواقع) فقد أشار كراراً بأمثاله الحية إلى تقلب
 أحوال الدنيا، ومن ذلك قوله: «إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ
 نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ
 أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ
 كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»^٥.

١. «جرض» على وزن «خرج» ابتلاع الريق بمشقة إثر الهم والحزن.

٢. «تلفت» من مادة «لفت» الانصراف عن الشيء.

٣. «حفدة» من مادة «حفد» على وزن صقد السرعة في العمل، كما تطلق على بنات الولد لسرعتهم في أعمال
 بيت والدهم ووالدتهم.

٤. تاريخ بغداد ٤٩/١٠.

٥. سورة يونس / ٢٤.

القسم التاسع

«فَهَلْ دَفَعَتِ الْأَقَارِبُ، أَوْ نَفَعَتِ النَّوَاحِبُ، وَقَدْ غَوِدِرَ فِي مَحَلَّةِ الْأَمْوَاتِ رَهِينًا، وَفِي ضَيْقِ الْمَضْجَعِ وَحِيدًا، قَدْ هَتَكَتِ الْهَوَامُّ جِلْدَتَهُ، وَأَبَلَّتِ النَّوَاهِكُ جِدَّتَهُ، وَعَفَّتِ الْعَوَاصِفُ آثَارَهُ، وَمَا الْحَدَثَانُ مَعَالِمَهُ، وَصَارَتِ الْأَجْسَادُ شَحِيبَةً بَعْدَ بَضَّتِهَا وَالْعِظَامُ نَخِرَةً بَعْدَ قُوَّتِهَا، وَالْأَزْوَاحُ مُرْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبَائِهَا، مُوقِنَةٌ بِغَيْبِ أَنْبَائِهَا، لَا تُسْتَرَادُّ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا، وَلَا تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّئِ زَلَلِهَا، أَوْلَسْتُمْ أَنْبَاءَ الْقَوْمِ وَالْأَبَاءِ، وَإِخْوَانَهُمُ الْأَقْرِبَاءِ؟ تَحْتَذُونَ أَمْثَلَتَهُمْ، وَتَرْكَبُونَ قِدَّتَهُمْ، وَتَطْئُونَ جَادَتَهُمْ؟ فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَظِّهَا، لَاهِيَةٌ عَنْ رُشْدِهَا، سَالِكَةٌ فِي غَيْرِ مِضْمَارِهَا! كَأَنَّ الْمَعْنِي سِوَاهَا، كَأَنَّ الرُّشْدَ فِي إِحْرَازِ دُنْيَاهَا».



الشرح والتفسير

عاقبة الغضاظة الذبول

أشار الإمام عليه السلام هذا الرباني الرائد للأخلاق في عالم البشرية وملهمها في هذا المقطع من الخطبة إلى ذلك اليوم الذي يغمض فيه الإنسان عينيه ويودع هذه الدنيا، فليس هنالك من يدفع عنه هذا الموت، ولا تحل مشكلته ببكاء أقربائه وعويلهم، فيستفهم الإمام عليه السلام على سبيل الانتكار قائلاً: «فهل دفعت الأرقاب، أو نفعت النواحب،^١ وقد غودر^٢ في محلة الأموات

١. «نواحب» جمع «ناحبة» من مادة «نحب» على وزن نذر والنحيب في الأصل الجدي في العمل ثم اطلق على رفع الصوت بالبكاء، وعليه فالنواحب الأفراد الذين يرتفع صوتهم بالبكاء والعويل.
٢. «غودر» من مادة «غدر» على وزن مكر نقض العهد، كما وردت بمعنى الترك، وهذا هو المراد بها في العبارة.

رهيناً، وفي ضيق المضجع وحيداً، وكأنّ جداراً سمكه آلاف الامتار قد ضرب بينه وبين قرابته ولا يمكن تخطي ذلك الجدار، ولا يسع البكاء والعيول أن يقدم من شيء سوى التخفيف من ألم الفراق ولوعة الاشتياق، بينما لا يعود بأي نفع على الميت. ثم يبين مصير جسم الإنسان وروحه بعد الموت بعشر عبارات قصيرة فقال ﷺ: «وقد هتكت الهوام^١ جلده، وابلت النواهك^٢ جدته^٣، وعفت^٤ العواصف^٥ آثاره، ومحا الحدثان^٥ معالمه، وصارت الاجساد شحبة^٦ بعد بضتها، والعظام نخرة^٧ بعد قوتها، والارواح مرتهنة بثقل اعبائها^٨، موقنة بغيب أنبائها، لاتستزاد من صالح عملها، ولا تستعقب من سيئ زلمها» حقاً ليس هنالك تعبير أجمع وأكمل وأبلغ من هذا التعبير الذي صور وضع جسم الإنسان وروحه بعد الموت، فسرعان ما يتفسخ هذا الجسم ويكون لقمة سائغة للحشرات، وتذهب زلاقة لسانه وحدة ذكائه أدراج الرياح ولن يتبقى منه سوى حفنة من العظام النخرة، والقبور المهدامة. والأنكى من كل ذلك غلق صحيفة الأعمال، فلا من زيادة للحسنات ولا نقصان للسيئات، آنذاك لم يعد هنالك من مجال لتلك القطرة من الدمع التي يمكنها إطفاء بحار من نيران الذنوب، إن أفرزتها حالة الندم والتوبة والانابة إلى الله. كما ذهبت فرصة القول «لا اله الا الله» التي ثوابها شجرة في الجنة، فلا سبيل إلى العودة، ولا طريق إلى العمل وقد ختمت صحيفة الأعمال. ثم قال ﷺ: «أو لستم أبناء القوم والآباء وإخوانهم والأقرباء؟» فالآباء عادة ما يموتون قبل أولادهم، كما يمكن أن يتوفى الأبناء قبل آباءهم، وربما يموت بعض الاخوة قبل غيرهم، وعليه فليس

١. «هوام» جمع «هامة» الحشرات المؤذية وتطلق أحياناً على خاصة الحشرات السامة.

٢. «نواهك» جمع «ناهكة» ما ينهك البدن، وتطلق على من يلبس الثوب حتى يبلى فيقال نهك الثوب.

٣. «جده» من مادة «جديد»، الحديث .

٤. «عفت» من مادة «عفو» درست وأزالت ومحت، ومنه العفو الذي يزيل الذنب، وقد وردت في الخطبة بمعنى محو آثار الإنسان بعد الموت بواسطة الرياح والحدثان تشبيه بكسر النون وتجمع بضمها بمعنى الحوادث الاليمة.

٥. «الحدثان» من مادة «حدوث»، تعاقب الليل والنهار.

٦. «شحبة» من مادة «شحب» تغير الجسم وضعفه، تقابل بضة بمعنى النشاط والغضاضة.

٧. «نخرة» صفة مشبهة من مادة «نخر» على وزن ضرر بمعنى البالية، وقد وردت في الخطبة كإشارة إلى العظام بصفتها ممزقة خاوية.

٨. «أعباء» جمع «عب» بمعنى الثقل، والأعباء في الخطبة تعني المسؤوليات الثقيلة.

هنالك من زمان معين لدى الإنسان لحلول أجله وإختتام عمره، والكل سواسية أمام الموت وليس هنالك من يرجح عيشه لساعة على آخر أو يضمن أنه سيعيش لساعة. ثم قال ﷺ موضحاً المعنى المذكور: «تحتذون أمثلتهم، وتركبون قديتهم،^١ وتطؤون جادتهم» لعل الإمام ﷺ أراد توبيخهم بهذه العبارة في أنكم رأيتم مصير من سبقكم فلم تعتبروا بهم، فاقتنيتهم آثارهم وأتيتم بأعمالهم وقارفتهم ما قارفوه من الذنوب والمعاصي، والحال كان ينبغي أن تتعظوا بهم وتعتبروا بمصيرهم وعاقبتهم. ثم يخلص الإمام ﷺ إلى نتيجة يبين من خلالها علة مشاهدة الناس لكل هذه الدروس والعبر دون الاعتبار فقال: «فالقلوب قاسية عن حظها، لاهية عن رشدها، سالكة في غيرم ضمارها! كأن المعنى سواها، وكأن الرشد في إحراز دنياها». جاء في نهج البلاغة أن الإمام ﷺ تبع جنازة فسمع رجلاً يضحك فقال: «كأن الموت فيها على غيرها كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب، وكأن الذي نرى من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون»^٢ نعم إذا قسى قلب الإنسان وسيطرت الظلمة والغفلة على روحه أعمته عن كل هذه الحقائق التي من شأنها إيقاظ كافة البشرية؛ فما ظنك بهذه الحقائق التي تطالعا كل يوم! القرآن أشار إلى هؤلاء الأفراد بقوله: «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْهَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»^٣.

نعم فالركون إلى الدنيا يقسى القلب، فاذا قسى قلب الإنسان ضل طريق السعادة وسار على غير هدى، بينما يمر على الآيات مر الكرام ليرى المعنى بالوعيد غيره، وهو المعنى بالصالحين الفائزين برضوان الله.



١. «قدة» من مادة «قد» على وزن سد بمعنى الشق الطولي، وتطلق على الجادة التي تشق المرتفعات والمنخفضات وتسير قدما، وتطلق على الطائفة التي تنفصل عن جماعة، لأن طريقها تختلف عن تلك الجماعة.

٢. نهج البلاغة، الكلمات قصار ١٢٢.

٣. سورة البقرة / ٧٤.

القسم العاشر

«وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ وَمَزَالِقِ دَحْضِهِ، وَأَهَاوِيلِ زَلَّيِهِ، تَارَاتِ أَهْوَالِهِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ، أَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ، وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ، وَأَظْلَمَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ، وَظَلَّفَ الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ، وَأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ، وَقَدَّمَ الْخَوْفُ لِأَمَانِهِ، وَتَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَن وَضَحِ السَّبِيلِ، وَسَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ؛ وَلَمْ تَفْتَلِهِ فَاتِلَاتُ الْغُرُورِ، وَلَمْ تَعَمَّ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأُمُورِ، ظَافِرًا بِفَرَحَةِ الْبُشْرَى، وَرَاحَةِ النُّعْمَى، فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ، وَآمَنَ يَوْمِهِ، وَقَدَّ عَبَرَ مَعْبَرَ الْعَاجِلَةِ حَمِيدًا، وَقَدَّمَ زَادَ الْأَجَلَةِ سَعِيدًا، وَبَادَرَ مِنْ وَجَلٍ، أَكْمَشَ فِي مَهَلٍ، وَرَغِبَ فِي طَلَبٍ، وَذَهَبَ عَن هَرَبٍ، وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ، وَنَظَرَ قُدَّمًا أَمَامَهُ. فَكَفَى بِالْجَنَّةِ ثَوَابًا وَنَوَالًا، وَكَفَى بِالنَّارِ عِقَابًا وَبَالًا، وَكَفَى بِاللَّهِ مُنْتَقِمًا وَنَصِيرًا، وَكَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيحًا وَخَصِيمًا!».

۵۰۰۸

الشرح والتفسير

مواجهة الأهويل

يتطرق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من خطبته الغراء إلى بعض مواقف الآخرة وأهوالها، وقد شحذ الأمة لتتأهب لذلك اليوم وتعد نفسها للعبور من مزالقتها الخطيرة. فقال عليه السلام: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ^١ عَلَى الصِّرَاطِ، وَمَزَالِقِ^٢ دَحْضِهِ، أَهَاوِيلُ^٣ زَلَّيِهِ، وَتَارَاتِ^٤ أَهْوَالِهِ». يعتبر

١. «مجاز» من مادة «جواز» مصدر مبني من جاز يجوز، أي قطع المكان وإيجازه.

٢. «مزالِق» جمع «مزاق» موضع الزلل والانزلاق، من مادة «زلق» على وزن دلو.

الصراط أحد مزالق القيامة الذي ورد التأكيد عليه والاشارة إليه في القرآن وآياته، كما صرحت به الروايات الإسلامية على وجه التفصيل والذي يستفاد من الروايات هو أن الصراط قنطرة على النار وهي آخر ما يقطعها الإنسان وصولاً إلى الجنة وأن الناس جميعاً كافرهم ومؤمنهم إنما يردون ذلك الصراط، أما المؤمنون الصالحون فيمرون عليه كالبرق ويدخلون الجنة، بينما يتعذر على الكافر عبوره فيسقطون في نار جهنم. فاجتياز هذا الصراط إنما يتوقف على إيمان الإنسان وعمله، حتى أن سرعة جوازه تتناسب وتقوى الإنسان وعمله. وبالطبع فإن الصراط يتجسم بأشكال أخرى في الدنيا، بعبارة أخرى الصراط في القيامة هو تجسم صراط الدنيا؛ وذلك لأنه وصف بأنه: «أدق من الشعر، وأحد من السيف»^٦ مما لا شك فيه أن الحد الفاصل بين الحق والباطل والإيمان والكفر والاخلاص والرياء هو قصد القربة واتباع الهوى وهو على درجة من الدقة والخطورة بحيث يتعذر جوازه الأعلى المخلصين الصالحين، وهذا ما سنعرض له في البحث القادم. على كل حال فإن هذا الصراط الحاد ينطوي على عدة عقبات لا يمكن اجتيازها دون التأهب والتزود، ومن هنا واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «فاتَّقوا الله عباد الله تقيّة ذي لبٍ شغل التّفكّر قلبه، وأنصب^٧ الخوف بدنه، وأسهر^٨ التّهجد غرار^٩ نومه، وأظلم^{١٠} الرجاء هواجر^{١١} يومه، وظلف^{١١} الزّهد شهواته».

٣. «دحض» ورد هنا كمصدر أو إسم مصدر هو الانزلاق والسقوط، كما تستعمل أحياناً بشأن زوال الشمس من دائرة نصف النهار نحو المغرب.

٤. «أهاويل» جمع «أهوال»، وأهوال جمع هول، وعليه فالأهاويل جمع الجمع و«هول» بمعنى الخوف والخشية.

٥. «تارات» جمع «تاره» بمعنى الدفعة من مادة «تأر» على وزن طرد بمعنى النظر لشخص بحدة، كما تعني الضرب بالعصا.

٦. بحار الأنوار ٦٥/٨.

٧. «أنصب» من مادة «نصب» على وزن سبب التعب، وعليه فانصب من باب الأفعال بمعنى أتعب.

٨. «أسهر» من مادة «سهر» على وزن سفر اليقظة في الليل، ولما كانت الحوادث الأليمة تسلب العين نومها وهول المحشر فقد اطلق على الاثنين الساهرة.

٩. «غرار» مصدر واسم مصدر القليل من النوم وغيره، والمراد بالعبارة الواردة في الخطبة أزال قيام الليل نومه القليل.

١٠. «هواجر» جمع «هاجرة» نصف النهار عند اشتداد الحرارة، وأصلها من مادة هجر وهجران بمعنى الترك والمفارقة.

١١. «ظلف» من مادة «ظلف» بفتح وسكون المنع، «وظلف» على وزن «علف» المكان المرتفع، وكأنه يمنع الإنسان من الوصول إليه.

نعم فالتفكر من أول لوازم التقوى التي تسهل جواز الإنسان على الصراط، حيث يحيى هذا التفكير قلب الإنسان ويجعله يستعشر خشية الله وبالتالي يقوده إلى التهجد وإحياء الليل وصوم أيام الصيف الحارة والتحلي بالزهد والتواضع. التقوى التي تأخذ بيد الإنسان إلى شاطئ الأمان وتجعله يمر كالبرق على ذلك الصراط.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بشأن التقوى ومعطياتها فقال: «وأوجف^١ الذكر بلسانه، وقدم الخوف لأمانه، وتنكب^٢ المخالجات^٣ عن وضج^٤ السبيل، وسلك أقصد المسالك إلى النهج المطلوب؛ ولم تفتله^٥ فاقاتل الغرور، ولم تعم عليه مشتبهات الأمور» فقد أشار عليه السلام إلى عشرة من أوصاف المتقين - إلى جانب التفكير الدائم - التي تستبطن كل واحدة منها عالم من المعاني والتي تجعل الإنسان إذا تحلى بها قدوة يحتذى بها وتمنحه العزة والرفعة في الدنيا والآخرة وتحقيق النجاحات الباهرة في سيره إلى الله سبحانه وتعالى. وقد إتصفت هذه العبارات بتشبيهات لطيفة وكنايات بليغة بعيدة المعنى بحيث تنفذ إلى أعماق النفس. نعم فالمتقون لا يخدعون بالوساس الشيطانية ولا يسيرون حيارى على الطريق، بل ويسلكون أقرب السبل إلى الله سبحانه، كما أن خوف الله ولهج ألسنتهم بذكر الله يحول دون انحرافهم عن السبيل القويم. ثم خاض الإمام عليه السلام في جانب من نتائج هذه الصفات في الدنيا والآخرة فقال: «ظافراً بفرحة البشرى، وراحة النعمى^٦، في أنعم نومه، وآمن يومه، قد عبر معبر العاجلة حميداً، وقدم زاد الأجلة سعيداً» فالواقع هو أن السبب الذي يقف وراء راحتهم وسكينتهم واستقرار أفكارهم إنما يكمن في اجتيازهم لعقبة الدنيا وتزودهم للدار الآخرة. والشئ المهم هو أن يتمالك الإنسان نفسه حيال هذه المظاهر الكاذبة والحادعة والفساد

١. «أوجف» من مادة «ابجاف» السرعة في العمل، وأوجف الذكر بلسانه أسرع، كأن الذكر لشدة تحريكه اللسان موجف به كما توجف الناقة براكبها.

٢. «تنكب» من مادة «نكب» و«نكوب» بمعنى الميل عن الشئ والعدول عنه، ومن هنا يقال للدنيا نكبت أن أدبرت عن الشخص.

٣. «مخالجات» جمع «مخلج» من مادة «خلج» على وزن حرج الأمور المختلفة الجاذبة.

٤. «وضج» من مادة «وضرح» بمعنى الظهور ووضج السبيل وسط الجادة.

٥. «تفتله» من مادة «فتل» على وزن قتل الانصراف عن الشئ، كما وردت بمعنى الشروق ومنه الفتيلة.

٦. «نعمى» بالضم سعة العيش ونعيمه، وللنعمى مفهوم كالنعمة، حيث هو من المفاهيم الواسعة.

والانحراف ويبقى على نهجه في سلوك الصراط المستقيم. ثم أشار ﷺ إلى ست صفات أخرى من صفات المتقين فقال: «و بادر من وجل، وأكمش^١ في مهل، ورغب في طلب، وذهب عن هرب، وراقب في يومه غده، ونظر قدماً أمامه» فهو يستثمر كافة فرص العمر من أجل الفوز بسعادة الدار الآخرة، فهو يقبل على ما ينبغي الاقبال عليه، ويبتعد عن كل ما من شأنه إبعاده عن سبيل السعادة والفلاح. أجل هذه هي الصفات التي تنطوي عليها التقوى والتي ينبغي للعباد أن يجعلوها نصب أعينهم ويسعون جاهدين لاكتسابها. ثم يختتم الإمام ﷺ هذه المقطع من الخطبة بالإشارة إلى النتيجة التي تترتب على التقوى أو عدمها: «فكفى بالجنة ثواباً ونوالاً، وكفى بالنار عقاباً ووبالاً، وكفى بالله منتقماً ونصيراً! كفى بالكتاب حججاً وخصيماً» حقاً أن الإمام ﷺ لمعجز في عباراته القصيرة التي تناولت التقوى بالشكل الذي لم يسمع نظيره من أحد، وهي العبارات التي تسوق أضعف الأفراد إلى العمل والسعي والحركة، فما أحرأها أن سميت بالخطبة الغراء.

تأملان

١ - كيف نجتاز الصراط بسهولة؟!

أشارت الخطبة إلى الصراط؛ الجسر الذي يرده كافة الأفراد يوم القيامة، وقد أسهبت الروايات الإسلامية في الحديث عنه، وإن لم ترد كلمة الصراط بهذا المعنى في القرآن، إلا في موردين ولعل المراد بهما طريق الحق والباطل في الدنيا، بينما وردت تعبيرات أخرى في القرآن الكريم من قبيل المرصاد الذي ذهب جماعة من المفسرين إلى أن المراد به الصراط. على كل حال كما أسلفنا فإن الذي يستفاد من الروايات هو أن الصراط جسر على جهنم حاد مخيف فن عبه دخل الجنة، ومن تعثر هوى في نار جهنم، بل صرحت بعض الروايات أن الصراط وسط النار، إلا أن المؤمنين يجتازونه كالبرق على غرار مرورهم من وسط نار الدنيا. وقد ورد في أوصاف الصراط وأنه جسر على جهنم ويؤدي إلى الجنة ولا يمكن دخول الجنة إلا بعد

١. «أكمش» من مادة «كمش» على وزن عطف أسرع، والمراد بها في العبارة جد السير في مهلة الحياة.

عبوره، فهناك طائفة من المؤمنين تمر عليه مسرعة كالبرق وأخرى كالفارس وأخرى كالراجل وأخرى تحبو عليه حبوا وأخيراً هناك من يعجز عن العبور فيهبى في جهنم^١. ويمكن فهم مضمون هذا الحديث من خلال الحديث المعروف الذي روي عن رسول الله ﷺ والإمام الصادق عليه السلام هو: «إن على جهنم جسراً أدق من الشعر، أحد من السيف»^٢ وقال الإمام الصادق عليه السلام في تفسيره للآية الشريفة: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَابِ»^٣، «قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة»^٤. إلى جانب ذلك هناك بعض الأعمال التي صرحت الروايات الإسلامية بأنها تسرع عملية عبور الصراط، من ذلك ما ورد في الحديث عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «أسبغ الوضوء تمرُّ على الصراط مرَّ السحاب»^٥. كما ورد في حديث آخر أن موسى عليه السلام سأل الباري سبحانه في مناجاته إياه: «إلهي ما جزاء من تلا حكمتك سرّاً وجهراً؟ قال: يا موسى يمر على الصراط كالبرق»^٦. والجدير بالذكر هنا ما ورد في عدة روايات من أن أهم شرائط عبور الصراط ولاية علي بن أبي طالب. وقد نقل كبار محدثي العامة هذه الرواية عن رسول الله ﷺ في مصادرهم، ومنهم المحافظ بن سمان الذي نقل في كتابه الموافقة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجوز أحد على الصراط إلا من كتب له علي عليه السلام الجواز»^٧، وجاء في رواية «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ونصب الصراط على جسر جهنم ما جازها أحد حتى كانت معه براءة بولاية علي بن أبي طالب»^٨ وقد ورد هذا المضمون مع اختلاف طفيف في مناقب الخوارزمي ومناقب ابن المغازلي وفرائد السمطين

١. هذا الكلام مضمون حديث عن الإمام الصادق عليه السلام في كتاب آمالي الصدوق المجلس ٣٣.
٢. ورد الصراط بدل الجسر في حديث الإمام الصادق عليه السلام، بحار الأنوار ٦٤/٨ كما روي هذا الحديث عن رسول الله ﷺ في كنز العمال ٣٨٦/١٤ ح ٣٩٣٦.
٣. سورة الفجر ١٤/١٤.
٤. بحار الأنوار ٦٦٨ ح ٦.
٥. كنز العمال، السابق.
٦. بحار الأنوار ١٩٧/٨٩ ح ٣.
٧. الغدير ٣٢٣/٢.
٨. الغدير ٣٢٣/٢ (نقل هذه الروايات العلامة الأميني من مصادر العامة مع ذكر صفحاتها، وورد في شرح الشعر المعروف للعبدى:

وكتاب الرياض النظرة.^١ وكما ذكرنا سابقاً في شرحنا للخطبة فإن الصراط في القيامة هو في الواقع تجسم صراط الدنيا وعقبة عبورها وما تنطوي عليه من حدة وخطر.

٢ - صلاة الليل شرف المؤمن

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى مسألة إحياء الليل بالتهجد والعبادة على أنها من مميزات المتقين السائرين إلى الحق. والتهجد من مادة هجود، قال الراغب في المفردات تعني في الأصل النوم، إلا أنه تنتقل من معنى النوم إلى اليقظة حين تستعمل في باب التفعيل، ولما كان إحياء الليل في عرف المتقين يتمثل بالدعاء والمناجاة والعبادة، فقد استعملت كلمة التهجد بمعنى الصلاة في جوف الليل، وبالذات نافلة الليل. على كل حال فإن لصلاة الليل آدابها الخاصة، وهي الاكسير الأعظم والكيمياء الكبرى التي تحيل تراب الإنسان ذهباً. وقد خاطب الحق سبحانه رسول الكريم عليه السلام في قرآنه الكريم قائلاً: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً».^٢ الذي يفيد أن المقام المحمود الذي بلغه رسول الله عليه السلام إنما بلغه بعبادة الليل والتهجد فيه. ويكفي في فضلها وتظافر الروايات فيها، ما ورد عن رسول الله عليه السلام أنه قال لعلي عليه السلام: «عليك بصلاة الليل يكررها أربعة»^٣، كما ورد في الحديث أنه أوصى علياً عليه السلام قائلاً: «يا علي ثلاث فرحات للمؤمن: لقي الأخوان، والافطار من الصيام، والتهجد من آخر الليل»^٤. فالحديث يفيد أن صلاة الليل لمن دواعي سرور المؤمن وسعادته. وجاء في الحديث أيضاً أن رسول الله عليه السلام قال: «ما اتخذ الله إبراهيم خليلاً إلا لأطعمه الطعام وصلاته بالليل والناس نيام»^٥. وأوصى الصادق عليه السلام أحد أصحابه قائلاً: «لا تدع قيام الليل فإن المغبون من غبن قيام الليل»^٦. الجدير بالذكر أن الآية السادسة من سورة المزمل عبرت عن صلاة الليل بناشئة الليل وهي عظيمة الاهمية والمؤدية إلى

٢. سورة الاسراء / ٧٩.

٣. بحار الأنوار ٣٩٢/٦٦ ح ٦٨.

٤. بحار الأنوار ٣٥٢/٧١ ح ٢٢.

٥. بحار الأنوار ١٤٤/٨٤ ح ١٨.

٦. بحار الأنوار ١٢٧/٨٠.

الاستقامة «إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً أقوم قبلاً» وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بناشئة الليل نشئة الجذبة الروحية والملكوية التي تحصل للإنسان ببركة هذه العبادة. وسبب هذه الأهمية واضح لأن روح العبادة التي تبلغ بالإنسان المقامات العالية إنما تكمن في أمرين: الاخلاص وحضور القلب. وكلاهما حاصل في الليل ولا سيما في آخره بعد تلك الاستراحة والخلود حين يكون الناس نيام وقد إنقطعت الحركة والسعي والعمل المادي فليس هنالك من تفكير في نيل بعض المتع المادية ولا الشواغل الفكرية المادية اليومية التي تشتمل عليها الحياة الإنسانية، ومن هنا كانت صلاة الليل عبادة خالصة متوجة بحضور القلب والمعنوية التامة. ويمكن لكافة الاخوة المؤمنين لمس معطيات هذه العبادة من خلال التجربة وتذوق حلاوتها بشغاف القلب فيحرصون على أدائها، فهي الموصوفة لمن أراد الدنيا، وهي كذلك لمن أراد الآخرة، وهي باعثة الرزق ومطيبة الريح ومبيضة الوجه. نسأل الله أن يوفقنا وإياكم للمواظبة عليها.

القسم المادي عشر

«أوصيكم بتقوى الله الذي أعذر بما أنذر، واحتج بما نهج، وحذركم عدواً نفذ في الصدور خفياً، ونفت في الأذان نجياً، فأضل وأزدي، ووعد فمني، وزين سيئات الجرائم، وهون موبقات العظام، حتى إذا استدراج قرينته، واستغلق رهينته، أنكر ما زين، واستعظم ما هون، وحذر ما آمن».

۞۞۞

الشرح والتفسير

المانع الآخر وساوس الشيطان

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى أحد الأخطار المهمة للغاية التي تهدد سعادة الإنسان، ويتمثل ذلك الخطر بوساوس الشيطان ومكائده التي تعد من أعظم وسائله في خداع الناس. فقد أوصى الإمام عليه السلام ثلاثة بالتقوى مشيراً إلى إتمام الحجة الإلهية: «أوصيكم بتقوى الله الذي أعذر بما أنذر، واحتج بما نهج» فن الواضح أن العدل الإلهي لا يمكن بسطه دون إتمام الحجة الكافية، ومن هنا بين الباري سبحانه وتعالى الحق والباطل من خلال الرسول الظاهر المتمثل بالأنبياء والأوصياء والأولياء، والرسول الباطن وهو عقل الإنسان وفطرته حتى لا يعذر أحد بجهله في محاولة لتبرير تمرده وخلافه. فالواقع هو أن العبارة: «احتج بما نهج» إشارة إلى بيان طريق السعادة، والعبارة: «أعذر بما أنذر».

تحذير من الاخطار الكامنة في مسير الإنسان. الجدير بالذكر أن الله سبحانه لا يكتفي بإتمام الحجة على عباده فحسب، بل يتمها بمنتهى اللطف والرحمة، ولذلك تأكدت آلية العقل الكافية في أغلب المراحل لإتمام الحجة بالوحي بواسطة الأنبياء العظام، إلى جانب التحذير من مغبة مقارفة الاثم والذنب: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو

عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ»^١ ثم أشار ﷺ إلى أخطار الشيطان قائلاً: «وَحِذْرِكُمْ عَدُوًّا نَفِذًا فِي الصُّدُورِ خَفِيًّا، وَنَفِثًا فِي الْأَذَانِ نَجِيًّا، فَأَضَلَّ وَأَرْدَى» لاشك أن الصفات الواردة في العبارة تشير بوضوح إلى أن المراد هو الشيطان، وإن لم يرد اسمه صريحاً في هذه العبارة والعبارات اللاحقة. فقد خاطب الحق سبحانه آدم ﷺ في كتابه العزيز قائلاً: «إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى»^٢. وصرح في موضع آخر على نحو العموم قائلاً: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ»^٣ طبعاً يمكن أن يكون الشيطان وسيلة للسمو والتكامل بالنسبة للمؤمنين والسالكين، وذلك لأنهم يزدادون معنوية وقرباً من الحق كلما حاربوه وصمدوا بوجه مكائده وحيله. ثم واصل ﷺ كلامه بكشف اللثام عن مختلف طرق وساوس الشيطان، فإشار إلى ثلاث منها: «وَعَدْفَمْنِي، وَزَيْنَ سَيِّئَاتِ الْجَرَائِمِ، وَهَوْنَ مَوْبِقَاتِ الْعِظَائِمِ». فالحق أن هذه هي المصائد الثالث والطرق الخطيرة التي ينفذ من خلالها إلى نفس الإنسان، الأولى: أنه يمّنى الإنسان، ويجعله يعيش طول الأمل والخيالات والأوهام بشأن المستقبل، المستقبل الذي قد لا يدركه الإنسان قط فيلبيه به ويستهلك جميع طاقاته من أجله وهكذا يغلق بوجهه سبيل التزكية ويصرفه عن الطاعة. والثانية: يزين له الذنوب والمعاصي التي يأبأها الطبع الإنساني بوحى من ضميره ووجدانه ويجعله يرى التحلل حرية والتفسخ مدنية ومجالسة أهل الفسوق والخطيئة نوعاً من أنواع التعايش السلمي، والخلاصة فقد أعد عدته لتزيين كل قبيح. والثالثة: يسعى لأن يصغر للإنسان كباثر الذنوب فيبيد لها سهولة ليست بذات أهمية ويمنيه ببعض التبريرات والمسوغات من قبيل عظمة عفو الله ورحمته وأن ليس هناك من إنسان معصوم وهو عرضة للخطأ والزلل وإن باب التوبة مفتوح وقد إدخرت شفاعاة الشافعين ولاسما النبي وأهل بيته الكرام لمثل هذه الأمور. والحال لا بد أن نرى النتيجة التي تنتهي إليها هذه الوساس والحيل والمكائد الشيطانية، هذا ما أشار إليه الإمام ﷺ قائلاً: «حَتَّىٰ إِذَا

١. سورة القصص / ٥٩.

٢. سورة طه / ١١٧.

٣. سورة يس / ٦٠.

استدرج قرينته، واستغلق رهينته، أنكر ما زين، واستعظم ما هون، وحذر ما آمن»
 فالعبارة «إستدرج» تفيد أن وسوس الشيطان عادة ما تتم خطوة بخطوة لتكون أكثر تأثيراً
 في الأفراد، فلو كانت هذه الوسوس دفعية فإن الأفراد وأن تمتعوا بقليل من التقوى لحاربوها
 ووقفوا بوجهها، ولعل هذا هو المعنى الذي أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة: «وَلَا تَتَّبِعُوا
 خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ»^١ وسائر الآيات القرآنية الواردة بهذا الشأن. أمّا العبارة «قرينته»
 فكأنتها أقتبست من الآية الشريفة: «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ
 لَهُ قَرِينٌ»^٢ فالواقع هو أن الشيطان على درجة من القرب من أتباعه بحيث لا تنفك مفردات
 حياتهم عنه وهو مقرون بهم أينما حلوا. وأخيراً تشير العبارة «إستغلق رهينته» إلى أن
 الشيطان يرتهن أتباعه ويغلق عليهم باب الرجعة - بالضبط كشياطين الانس الذين يزينون
 الفساد والانحراف للأفراد فإن سقطوا في هذا الفخ وتلوثوا أغلقوا عليهم كافة طرق الخروج
 ولم يجدوا أمامهم سوى الازعان والانتقباد. أمّا يوم القيامة حيث تطرح حجب الخداع والمكر
 والغرور ويظهر ما كان يبطنه كل شخص، فلا يسع الشيطان هناك إلا الانكار، وأن يكبر ما
 كان إستضغره، غير أن هذا الانكار لا يفيد، كما لا يفيد أتباعه وذلك لأن عهد الرجعة والتوبة
 من الذنوب وتدارك الماضي قد ولى إلى غير رجعة.



مكائد الشيطان

إنّ الإنسان يخوض على الدوام مواجهة تجاه عدوين كبيرين: عدو داخلي يدعى بالنفس
 الامارة، وعدو خارجي هو الشيطان، ولكل منهما ذات الأعمال المكملة لبعضها البعض الآخر.
 وعلى الرغم مما ذكرناه من أنّ هذا العدو الداخلي والخارجي بالنسبة لأهل الإيمان مصدراً
 للسمو والتكامل ومحاربة عناصر الذنب والمعصية، وبالتالي يوجب تكامل أرواحهم ويزيد
 من قربهم إلى الله سبحانه، مع ذلك فإنّ وجود مثل هذا العدو الخطير يتطلب مزيداً من الحيلة

١. سورة البقرة / ١٦٨ و ٢٠٨؛ سورة الانعام / ١٤٢؛ سورة النور / ٢١.
 ٢. سورة الزخرف / ٣٦، كما ورد مثل هذا التعبير في سورة فصلت / ٢٤.

والحذر، ويضاعف من خطورته أنه لا يدعو الإنسان صراحة إلى الذنب، بل يزين الذنوب وينمق المعاصي ويصغر كبائر الذنوب، ويكبر ما صغر من الطاعات، ويريه المصائد جميلة، مستغلا كافة نقاط ضعف الإنسان لينفذ إلى أعماقه فيلقيه في مخالب الشهوات والأموال والمقام والآمال الطويلة، ومن هنا فإن الغفلة لحظة قد تقود إلى عمر من الشقاء والبؤس والندم. ولذلك وردت التحذيرات التي أكدتها الروايات والأخبار الإسلامية، ومن ذلك أنه أوحى إلى موسى عليه السلام: «ما لم تسمع بموت ابليس فلا تأمن مكره»^١ وقد خضنا في شرح وساوس الشياطين في المجلد الأول من هذا الكتاب في الخطبة السابعة.^٢



١. بهج الصباغة ٣٥٠/١٤، كما ورد شبه هذا المضمون في بحار الأنوار باختلاف طفيف كأحد الوصايا الأربعة لموسى عليه السلام (بحار الأنوار ٢٤٤/١٣) (مادمت لا ترى الشيطان ميتا فلا تأمن مكره).
٢. نفحات الولاية ٤٦٠/١ - ٤٦٧.

القسم الثاني عشر

«أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَشَغَفِ الْأَسْتَارِ، نُطْقَةً دِهَاقًا، وَعَلَقَةً مِحَاقًا، وَجَنِينًا وَرَاضِعًا، وَوَلِيدًا وَيَافِعًا، ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْبًا خَافِظًا، لِسَانًا لِأَفْظًا، وَبَصْرًا لِأَحْظًا، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِرًا، وَيُقْصَرَ مُزْدَجِرًا، حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتِدَالُهُ، وَاسْتَوَى مِثَالُهُ، نَفَرَ مُسْتَكْبِرًا، وَخَبِطَ سَائِرًا، مَا تَحَا فِي غَرْبِ هَوَاهُ، كَادِحًا سَعْيًا لِذُنْيَاهُ، فِي لَذَاتِ طَرَبِهِ، وَبَدَوَاتِ أَرْبِهِ، ثُمَّ لَا يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً، وَلَا يَخْشَعُ تَقِيَّةً؛ فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيرًا، وَعَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيرًا [أَسِيرًا] لَمْ يُفِدْ عَوْضًا [عَرَضًا] وَ لَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضًا».

❦❦❦

الشرح والتفسير

بداية حياة الإنسان ونهايتها

خاض الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبة وقد أشرفنا على نهايتها - في أمر مهم آخر وهو خلق الإنسان ومتابعته منذ كونه جنيناً حتى إختتام عمره ومفارقتة للدنيا وبعثه في يوم القيامة، اتماماً للأبحاث السابقة حول مكائد الشيطان وضرورة إعداد العدة والتحلي بالورع والتقوى، وبعبارة أخرى ليكون الإنسان على حيلة وحذر فيأرس وظائفه الرئيسية ويجتنب وساوس الشيطان. فقد قال عليه السلام: «أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَشَغَفِ

١. هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغة بشأن (أم) هل هي إستفهامية ومتصلة أو منقطعة؟ ويبدو من الصعب الحكم في ذلك، لأن ظاهر عبارة المرحوم السيد الرضي (ره) قد اختار كلاماً من هذه الخطبة الطويلة ويمكن أن تكون العلاقة بين العبارات خافية هذه القطوف، وقد فسرنا ما منقطعه وتقديره العبارة «بل أذكركم بحال الإنسان...».

٢. «شغف» من مادة «شغاف» على وزن جواب يعني في الأصل غلاف القلب، والمفردة هنا بمعنى الاغلفة المتعددة.

الأستار، نطفة دهاقاً،^١ وعلقة محاقاً،^٢ جنيناً وراضعاً، ووليداً ويافعاً^٣. فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أشار إلى ستة مراحل من حياة الإنسان، ترتبط ثلاث منها بالفترة التي يكون فيها جنين وقبل الولادة، وثلاث أخرى تتعلق بما بعد الولادة. وهى المراحل التي تطوى سريعاً وتحتفظ كل واحدة منها بميزاتها، فبعضها عجيب للغاية والبعض الآخر ينطوي على الدروس والعبر، فالله سبحانه وبقدرته يعد من ماء الرجل الذي يفتقر إلى الصورة والشكل بعد أن يتكامل في ظلمات المشيمة والرحم وبطن الأم إلى علقه فضغة وعظاماً ولحماً جنيناً ذا حياة، ليخرج إلى الدنيا، ثم يطوي مراحل الهداية والتكامل ليرتد إلى الحق. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى ما زود به هذا المخلوق من وسائل وأدوات: «ثم منحه قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً، ليفهم معتبراً، يقصر مزجراً» فقد منحه الله العقل ليميز به الحسن من القبيح، واللسان ليستغله في فتح صناديق كنوز العلم بالسؤال والبحث، والعين ليدرك بها الحقائق الحسية، ويصل إلى أهدافه النهائية من خلال هذه النعم الثلاثة، ثم يستفيد منها في إدراك الأحكام الإلهية ويعتبر بما حوله ويتعد عما لا يليق بشأنه. فالواقع هو أن مصادر المعرفة الثلاث: العقل واللسان والعين والتي تمثل إدراك وإستيعاب المواضيع الفكرية والنقلية والعينية والحسية قد جمعت في هذه العبارة القصيرة، وبالتالي فقد أمر الإنسان باعتماده للفوز بالسعادة والرضوان.

ثم قال عليه السلام: «حتى إذا قام اعتداله، واستوى مثاله، نفر مستكبراً، وخبط سادراً»^٤ طبعاً ليس جميع الناس كذلك، إلا أن كلام الإمام عليه السلام إنما يتناول الأغلبية العظمى التي تشاهد في المجتمعات البشرية والتي تولي ظهرها لكل شيء إذا ما شعرت بالقوة والاقتماد ونالت بعض المناصب، كما تشكل تحذيراً لأهل الإيمان من ضرورة مراقبة النفس والسعي لأداء الشكر

١. «دهاق» من مادة «دهق» على وزن دهر بمعنى متتابعاً وشدة الضغط، ثم استعملت بمعنى الصب بالقوة والضغط، وأشارت هنا إلى صب النطفة في الرحم.

٢. «محاق» من مادة «محق» على وزن محو النقص التدريجي والمحو، ومن هنا يطلق المحاق على القمر في آخره، ووصف العلقه بالمحاق بمعنى خفيت فيها ومحقت حتى زالت صورتها وتبدلت إلى جنين، أو لأن لها شكل محو وغير معين ولم تتخذ لها صورة.

٣. «يافع» من مادة «يفع» على وزن نفع الغلام راقع العشرين.

٤. «سادر» من مادة «سدر» المتحير والمتخبط.

والتحلي بالتقوى، ثم قال ﷺ «ماتحاً^١ في غرب^٢ هواه» فهم يشقون على أنفسهم من أجل الحصول على الدنيا ويسعون جاهدين للتمتع بلذاتها، ولا يقتدح في ذهنهم شيئاً من أهوائهم النفسية إلا أتوه: «كادحاً^٣ سعياً لدنياه، في لذات طربه، وبدوات^٤ أربه^٥» فهذه العبارات إشارة إلى أولئك الجهال الذين يوظفون كافة إمكاناتهم ويستفرغون ما بوسعهم من أجل الحصول على مال الدنيا وحطامها والتنعم بلذاتها الفانية وأشباع أهوائهم ورغباتهم الجامحة، وكأن هذا هو الهدف الذي خلقوا من أجله، والحال أنهم يرون بأم أعينهم مصائب الدنيا ومحنها وأمراضها بالتالي الموت الذي يزيلها، فكيف تكون هدفاً وهذا حالها. إلا أنهم وكما يصفهم الإمام ﷺ: «ثم لا يحتسب رزية^٦، ولا يخشع تقيّة^٧، فمات في فتنته غريراً^٨ وعاش في هفوته^٩ يسيراً لم يفد عوضاً ولم يقض مفترضاً» وبأها من حالة خطيرة لمن أصيب بمثل هذا الغرور والغفلة؛ فقد ضحى بعمره من أجل التلذذ بضعة أيام، أي لذة، تلك المشوبة بالألم والهم والغم، حتى ودع الدنيا خالي اليدين وقدم على ربّه بذلك السجل الذي يفضحه في محكمة العدل الإلهي.



النعم والجحود

أشار الإمام ﷺ في هذا المقطع من الخطبة إلى النعم الإلهية التي أفاضها الرحمن على الإنسان

- ١ و ٢ - ماتح تعنى من ينزل البشر إذا قل ماؤها فيملاً الدلو، و«الغرب» بمعنى الدلو العظيمة، فتفسير العبارة التي وردت في الخطبة هو أن بعض الأفراد الذين يسعون لاشباع أهوائهم ورغباتهم وما يحلمون به من أماني.
٣. «كادح» من مادة «كدح» على وزن مدح شدة السعي، كما تعني الحرص أيضاً.
- ٤ و ٥ - «بدوات» جمع بداية على وزن «غفلة» من مادة «بدر» على وزن دلو بمعنى الظهور، وأدب بمعنى الحاجة والسرور، فالعبارة «بدوات أربه» تعني الحاجات واللذات التي تخاطر على ذهن الإنسان.
٦. «رزية» من مادة «رزأ» على وزن عضو بمعنى النقص في الأصل، كما وردت بمعنى المصيبة.
٧. «تقية» وردت هنا بمعنى التقوى ومفهوم الجملة أن خشوعه إلى الله لا يستند إلى التقوى، وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن تقية هنا مفعول مطلق للنوع، وقيل مفعول له، وليس هنالك من فارق في المفهوم.
- ٨ «غريراً» بمعنى المغرور.
٩. «هفوة» من مادة «هفو» رفع القدم بسرعة، ولما كانت السرعة في المشي تدعو إلى الزلل في أغلب الأحيان ولعلها تؤدي إلى الوقوع فإن الهفوة تعني الخطأ والزلل والوقوع على الأرض.

منذ خلقه في رحم أمه حتى ولادته وانتهاءً باجتيازه لمراحل النمو التكامل، كما تطرق إلى قدرته سبحانه في كيفية متابعة خلقه في الظلمات الثلاث في بطن أمه وصور تكامله، وكيف جهزه بعد خروجه إلى الدنيا بالآت المعرفة من قبيل منحه القلب المحافظ والعين الباصرة واللسان الناطق، غير أن هذا الإنسان الجاهد المنكر للجميل ما أن يشعر بالقوة والقدرة حتى ينسى الهدف الذي خلق من أجله، وكأنه يخلص في النوم والأكل والشرب والشهوة واللذة، على غرار الحيوان، وقد تجاهل كل ما يرى من مصائب ومحن والامم وبالتالي الموت هادم اللذات، بل لا يرى هذا الموت مكتوباً عليه وكأنه مخلد في الدنيا وليس هنالك من خطر من شأنه القضاء على لذاته ومتعته، فأوامر الله وأحكامه لا تعنيه، وأنبيائه ورسوله لم يبعثوا إليه مع ذلك سرعان ما يجمل أجله ويفنى عمره إذ يفاجئه الموت، فيقدم على ربه ولاعمل له فكيف به وقد أغلقت كل الأبواب بوجهه وليس هنالك من سبيل إلى العودة والتوبة.

القسم الثالث عشر

«دَهْمَتُهُ فَجَعَاتُ الْمَنِيَّةِ فِي عُبْرٍ [عُجْرٍ] جِمَاحِهِ، وَسَنَنٍ مِرَاحِهِ، فَظَلَّ سَادِرًا، وَبَاتَ سَاهِرًا، فِي عَمْرَاتِ الْأَلَامِ، وَطَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ، بَيْنَ أَخِ شَقِيقِي، وَوَالِدِ شَفِيقِي، وَدَاعِيَةِ بِالْوَيْلِ جَزَعًا، وَوَالِدَةِ لِلصَّدْرِ قَلَقًا؛ الْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلَهَثَةٍ، وَغَمْرَةٍ كَارِثَةٍ، وَأَنَّهُ مُوجِعَةٌ، وَجَذْبَةٌ مُكْرِبَةٌ، وَسَوْقَةٌ مُتَعَبَةٌ.»

٤٥٦٣

الشرح والتفسير

الموت المفاجئ

يتطرق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى نهاية عمر هذا الإنسان الغافل المغرور وكيف يقضي لحظاته الأخيرة ساعة الاحتضار بين قرابته وبطائنه، وقد رسم عليه السلام صورة تهز النفس البشرية وترعبها من جراء ذلك المشهد، فقال: «دهمته^١ فجعات المنية في عُبر^٢ جِمَاحه^٣ وسنن^٤ مِرَاحه^٥، فظلَّ سادراً^٦ وبات ساهراً، في عمرات الآلام، وطوارق الأوجاع والأسقام» وقد تم هذا الأمر الذي يشهده هذا المحتضر وهو: «بين أخ شقيق، ووالد شقيق، وداعية بالويل جزعاً، ولادمة^٧ للصدر قلقاً». نعم فقد يأس أهله وأقرباؤه من حياته

١. «دهمته» من مادة «دهم» على وزن فهم بمعنى الغشاوة وتغطية الشيء.

٢. «عُبر» جمع «عابر» يعني الباقي.

٣. «جِمَاح» من مادة «جمح» على وزن جمع التعتت عن الحق، ومن هنا يطلق الجمرح على الحيوان الطائش.

٤. «سنن» مفرد بمعنى الطريقة وسنن بالضم جمع سنة.

٥. «مِرَاح» من مادة «مرح» على وزن فرح شدة السرور المقرونة بالطغوى واستثمار نعم الله في الباطل.

٦. «سادرًا» تعني الحيرة كما تعني الصلافة، والمعنى الأول أنسب للعبارة، بينما المعنى الثاني أنسب للعبارة

الاولى التي مرت في المقطع السابق.

٧. «لادمة» من مادة «لدم» على وزن هدم تعني في الأصل الضاربة، ومن هنا تطلق اللادمة على المرأة التي

تلطمه وجهها ورأسها حين المصاب.

وأخذوا بالبكاء والعيول عليه؛ وأنّ هذا الصراخ والعيول يقض مضجعه كلما خفت عليه غصص الموت وأفاق إلى نفسه، فيتطلع إلى الموت الذي يراه بعينه وهي تدور بيناً وشمالاً من الخوف والرعب: «و المرء في سكرة ملهثة،^١ وغمرة كارثة،^٢ وأنة موجعة، وجذبة مكربة،^٣ وسوقة^٤ متعبة». حقاً أنّ الاحتضار وسكرات الموت حالة عجيبة! فهذا الإنسان الذي كان متربعا بالأمس على عرش السلطة وقد زود بكافة الإمكانيات وثل من كأس الغرور وتفاخر على سائر الكائنات، هو اليوم أسير الأمراض وقد صعبت حالته حتى يئس منه من حوله فتعالت أصواتهم بالبكاء والصراخ، ولكن ما عسى ذلك أن يجيده نفعاً. وقد شحن التأريخ بالدروس والعبر بما تضمنه من قصص أصحاب القدرة حين طرحوا على فراش الموت واستسلموا له.

فقد روي أنّ المأمون لما أثقل قال: أخرجوني أشرف على عسكري، وانظر إلى رجالي، وأتبين ملكي، وذلك في الليل، فاخرج فاشرف على الخيم والجيش وانتشاره وكثرته وما قد أوقد من النيران، فقال: يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه، ثم رد إلى مرقدته وأجلس المعتصم رجلاً يشهده لما ثقل، فرفع الرجل صوته ليقولها، فقال له ابن ماسويه: لا تصح فوالله ما يفرق بين ربّه وبين ماني في هذا الوقت، ففتح المأمون عينيه من ساعته، وبها من العظم والكبر الأحمر ما لم ير مثله قط، وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه، ورام مخاطبته، فعجز عن ذلك، فرمى بطرفه نحو السماء، وقد امتلأت عيناه دموعاً، فانطلق لسانه من ساعته، وقال: يا من لا يموت ارحم من يموت، وقضى من ساعته، وحمل إلى طوس فدفن فيها.^٥ وفيه قال الشاعر:

مون شيناً وملكه المأنوس

هل رأيت النجوم أغنت عن المأ

مثل ما خلفوا أباه بطوس

خلفوه بعرضتي طرسوس

١. «ملهثة» من مادة «لهث» على وزن فحوص إخراج الكلب لسانه حين العطش والانزعاج، ثم اطلقت على من يلهث بشدة وراء الأشياء.

٢. «كارثة» من مادة «كرث» على وزن بحث بمعنى شدة الهم والغم، أو الأسباب التي تدعو إليها.

٣. «مكربة» من مادة «كرب» على وزن غرب بمعنى الوقوع في أسر الهموم.

٤. «سوقة» من ساق المريض نفسه عند الموت سوفا وأسرع في نزاع الروح.

٥. مروج الذهب للمسعودي ٤٥٦٣.

القسم الرابع عشر

«ثُمَّ أُدْرَجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِسًا، وَجُذِبَ مُنْقَادًا سَلِسًا، ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى الْأَعْوَادِ رَجِيعٌ وَصَبٌّ، وَنَضُو سَقَمٌ، تَحْمِلُهُ حَفْدَةُ الْوِلْدَانِ، وَحَشْدَةُ الْإِخْوَانِ، إِلَى دَارِ غَرْبَتِهِ، وَمُنْقَطِعِ زَوْرَتِهِ، وَمُفْرِدِ وَحْشَتِهِ، حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ، وَرَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ [مضجع] أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيًّا لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ، وَعَثْرَةِ الْإِمْتِحَانِ».

٨٥٥٨

الشرح والتفسير

حوادث ما بعد الموت

أشار الإمام عليه السلام إلى مصير الإنسان بعد الموت الذي ينطوي على الدروس والعبر، حيث يواصل فيه كلامه بشأن الاحتضار وسكرات الموت. فقد رسم الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصيرة صورة جلية مؤثرة عن حال الإنسان بعد أن بلغ المرض منه مبلغه وقد توقفت عن العمل كافة أعضائه وجوارحه ولم يبق منه إلا ذلك الجسد الخاوي فأخذ يستعد أهله لغسله وتكفينه ودفنه، الصورة التي يمكن مقارنتها وما كان عليه بالأمس وهو يتمتع بتلك القوة والقدرة: «ثُمَّ أُدْرَجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِسًا^١ وَجُذِبَ مُنْقَادًا سَلِسًا^٢، ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى الْأَعْوَادِ رَجِيعٌ^٣ وَصَبٌّ^٤ وَنَضُو^٥ سَقَمٌ، تَحْمِلُهُ حَفْدَةُ الْوِلْدَانِ، وَحَشْدَةُ^٦ الْإِخْوَانِ، إِلَى دَارِ غَرْبَتِهِ، وَمُنْقَطِعِ

١. «مبلس» من مادة «ابلاس» تعني في الأصل الغم إثر شدة اليأس، ومن هنا فسرت بمعنى اليأس، وهي هنا بمعنى يأس الأحياء من عودة الأموات.

٢. «سلس» من مادة «سلس» على وزن قصص بمعنى السهل.

٣. «رجيع»، الرجيع من الدواب ما رجع به من سفر إلى سفر فكل ثم استعملت للإنسان التعب.

٤. «وصب» الألم الدائم والمرض والتعب.

٥. «نضو» الناقة أو الحيوان المهزول، ثم اطلقت على الضعيف من الناس.

٦. «حشده» جمع حاشد المسارعون في التعاون.

زورته،^١ مفرد وحشته». نعم فاول ما يواجهه هو ذلك اللباس المتواضع الخالي من أناقة ملابس الدنيا التي يجهد الخياطون أنفسهم أياماً وأحياناً أسابيع لخياطتها، فليس هنالك من فصال ولا قياس ولا حاجة لخياط، اللباس الذي لا يعرف من معنى للغنى أو الفقر أو الشريف والوضيع. وأخيراً هو اللباس الذي فضح الدنيا وكشف النقاب لمن كان له بصيرة عن تقلب أحوالها وعدم دوامها. أمّا الصورة العنيفة الأخرى التي لها وقعها في النفس فهي حمله على التابوت والانطلاق به إلى مشواه الأخير، دون أن يكون له أية إرادة واختيار، فهو مستسلم لأنّ يطرح في حفرتة ويوارى فيها التراب. وبالطبع فإنّ هذا الإنسان المناقد اليوم، هو الذي كان بالأمس يأمر وينهى، وربما كانت إشارته كافية لأنّ يندفع له الاف الأفراد، وكان إذا رضى عنى عمّن حوله، وإذا غضب أمر بضرب الاعناق وإن كانت بريئة، نعم هذه هي عاقبته ومصيره. وكالمعتاد فقد أسرع الأبناء والأحفاد والأقرباء والأصدقاء والاخوة لحمل التابوت على أكتافهم، إلى أين؟ إلى ذلك المكان الذي طالما كان يخشاه، بل لا يجراً على الإتيان باسمه على لسانه، وإذا مر به أشاح بوجهه عنه، المكان الذي لم يبق له من رابطة باهل هذا العالم، أنه بيته الموحش المنسي. ثم قال ﷺ: «حتّى إذا انصرف المشيخ، ورجع المتفجّع أقعد في حفرتة نجياً لبهتة^٢ السّؤال، وعثرة الامتحان» أجل قصيرة هي تلك المدة التي يرافقه فيها الأهل والمعزّون، فاخر عهدهم به حين ينزلونه القبر، فاذا واروه التراب ودعوه وتركوه لوحده في حفرتة، وسرعان ما يكفكفون دموعهم ويخمد صراخهم حتى ينسوه بالتدرّج؛ في حين يعيش هو أصعب اللحظات وعليه أن يعد إجابات لما ستطرحه عليه الملائكة من أسئلة، وهي الاسئلة التي تبدو إجاباتها واضحة، لكنها تتطلب إستعداداً روحياً وعقائدياً؛ الأمر الذي قد لا يكون الإنسان قد تزود له، ومن هنا كان الامتحان عسيراً.

العبارة: «أقعد في حفرتة» إشارة واضحة إلى سؤال القبر الذي سيمر علينا في البحث القادم. أمّا قوله ﷺ: «نجياً» فتعني الصوت الخفي، ولعلها إشارة لمناجاته لرّبّه آنذاك واستغاثته بلطف الله ورحمته، أو الكلام الخفي لعسرة الامتحان والخوف من عدم الإجابة على السؤال.

١. «زوره» مصدر بمعين الزيارة واللقاء.

٢. «بهتة» من مادة بهت الحيرة والاضطراب.

تأملان

١ - وداع الأحياء للأموات

إذا مات الإنسان تغيرت كافة أوضاعه بالمرّة، فقد كان جزءاً من هذه العالم والجماعة حتى آخر لحظة من حياته، أمّا الآن فلم يعد الأمر كذلك وعليه فالجميع يسعى لتنجيته من هذا العالم ويسرع في التخلص منه فيودعون ذلك المكان الذي يحول بينه وبين الدنيا ويقطع علاقته مع أهلها. يالها من لحظات معبرة! ليس له من إرادة، لا يستطيع أن يأخذ معه شيئاً، لا يسع أحد مساعدته وإن كان من أقرب المقربين. فسرعان ما تحمل جنازته إلى تلك الحفرة الموحشة المظلمة فيوسد فيها تحت التراب، وليس معه سوى ذلك الكفن المتواضع، فلم يعد هنالك من مجال لحمل الاسرة والتيجان ولا التزين والتفاخر. هنا يوصي أمير المؤمنين علي عليه السلام باستحضار هذه اللحظات الحساسة بغية الوقوف بوجه طغيان هذه النفس، كيف تغفلون عما ليس بغافل عنكم. كفى بالموت واعظاً، الذي ينقلكم من دار الأهل والأنس إلى دار الوحشة والخوف، كفى واعظاً بموتى عاينتموهم، حملوا إلى قبورهم غير راكبين، وانزلوا فيها غير نازلين، فكأنهم لم يكونوا للدنيا عمارة، وكأن الآخرة لم تزل لهم داراً. أوحشوا ما كانوا يوطنون، وأوطنوا ما كانوا يوحشون، لا عن قبيح يستطيعون إنتقالاً، ولا في حسن يستطيعون ازدياداً. حقاً أنّ لحظة ولادة الإنسان ودخوله الدنيا كخروجها منها عبرة لمن إعتبر، فكلاهما يقع بمعزل عن إرادة الإنسان، وليس للإنسان من قدرة على شيء في هاتين الحالتين، ولو تأمل الإنسان هذا الأمر قليلاً، لما أصابه مثل ذلك الغرور الطغوى والنسيان. ورد في الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

وفي قبض كف الطفل ولادة دليل على الحرص المركب في الحي
وفي بسطها عند الممات مواعظ ألا فانظروني قد خرجت بلا شيء

٢ - سؤال القبر

تطرقت الخطبة إلى سؤال القبر الذي ورد صريحاً في الروايات الإسلامية، كما ورد في

كلمات علماء العقائد. فقد ذكر المحقق الخوئي شارح نهج البلاغة في شرحه المعروف بمنهاج البراعة أنّ المسلمين إتفقوا على أنّ سؤال القبر حق، بل هو من ضروريات الدين، ولم يخالفه إلا جماعة قليلة من الملحدين، حيث روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ليس من شيعتنا من أنكر ثلاثة: المعراج وسؤال القبر والشفاعة»^١ كما وردت الروايات في المصادر الإسلامية بهذا الشأن، وإنّ الإنسان إذا وضع في قبره، أتاه الملك فساله عن عقائده؛ التوحيد والنبوة وولاية الأئمة عليهم السلام، بل جاء في أغلب الروايات أنّه يسئل عن أربع: عن عمره فيم قضاه، وعن شبابه فيم أفناه، عن ماله مم اكتسبه وفيم أنفقه، فان كان مؤمناً أجاب ليشمل برحمة الله وعنايته، وان كان كافراً عجز عن الجواب فيصب عليه العذاب. الجدير بالذكر أنّ بعض القرائن في الروايات المذكورة تفيد أنّ مسائلة القبر ليست باليسيرة بحيث يجب عنها الإنسان كيفما شاء، بل إنّ جوابه مما تفرزه عقائد الإنسان وأعماله في الحياة الدنيا، وكأنّ سؤال القبر أول محكمة عدل إلهية يشهدها الإنسان تؤهله لورود عالم البرزخ. بعبارة أخرى فإنّ الموت من الحوادث العظيمة التي تهز أعماق الإنسان وتذهله عما في نفسه، فلا يبقى لديه إلا ما كان حصله على سبيل الملكة وتأصل في روحه وفكره. فقد ذكر العلامة المجلسي أنّ المشهور بين متكلمي الإمامية هو أنّ سؤال القبر ليس عاماً، بل يرتبط بمن محض الإيمان أو الكفر، ولا يشمل الضعفاء والمجانين والصبيان. كما ذكر المرحوم العلامة الخوئي بعد نقله لهذا الكلام أنّ الأخبار الواردة في كتاب الكافي وسائر المصادر إنّما تؤيد هذا المعنى.^٢ والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل سيطرح سؤال القبر على هذا البدن الجسماني وهو الذي سيجيب عنه، أم أنّ السؤال والجواب مرتبط بروح الإنسان إلى جانب هذا البدن في عالم البرزخ؟ بعبارة أخرى: هل السؤال للروح في قالب المثال، أم لهذا الجسم المادي؟ هناك اختلاف بهذا الخصوص، فالبعض يعتقد بأنّ الروح ستعود بصورة مؤقتة إلى هذا الجسم (بالطبع ليست بصورة كاملة بل بالمقدار الذي يسع السؤال والجواب) فتسئل من قبل الملكين وتجب. أمّا العلامة المجلسي وبعد تحقيقه في الأحاديث الواردة بهذا المجال فقد قال: «المراد بالقبر في أكثر الأخبار ما

١. منهاج البراعة ٤٠٦-٤١.

٢. منهاج البراعة ٤٢٦.

يكون الروح فيه في عالم البرزخ»^١. ومن هنا تتضح الإجابة على الشبهة التي يثيرها بعض المغفلين من أننا لو وضعنا علامة على قم الميت وجئنا بعد يوم أو يومين ونبشنا قبره لتبين عدم تكلمه خلال تلك الفترة؛ وذلك لأنَّ السؤال والجواب ليسا متعلقين بهذا القم والبدن المادي، لكي نفتش فيها. أمَّا القرائن التي تؤيد ما ذهب إليه العلامة المجلسي، الآية القرآنية الشريفة القائلة: «رَبَّنَا أَمَتَّنَا أَحْيَيْنَا وَأَحْيَيْنَا أَتْنَتَيْنِ»^٢ هذا ما سيورده الأئمة يوم القيامة، والذي يشير إلى أنَّ الأحياء لم يحصل أكثر من مرتين؛ أحدهما في الدنيا، والآخرى في القيامة. فلو كان البدن المادي يتولى الإجابة في القبر لوجب أن يعيش الحياة في القبر بصورة مؤقتة أيضاً، ليقود ذلك إلى وجود ثلاث ميتات وثلاث حياتات (الحياة في الدنيا والحياة في القبر والحياة في القيامة، والموت قبل الحياة في الدنيا، والموت في آخر العمر، والموت بعد الحياة في القبر). ومن هنا لا ينبغي التردد بأنَّ السؤال والجواب مختصان بالروح في قلبها البرزخي، وهو المعنى الذي وردت الإشارة إليه في الخطبة بالعبارة «أقعد في قبره»، وإلا فإنَّ أغلب القبور ولاسيما تلك التي لا الحد فيها لاتسع قعود الإنسان.

❦❦❦

١. بحار الأنوار ٢٧١/٦.

٢. سورة غافر / ١١.

القسم الخامس عشر

«وَأَعْظَمُ مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةٌ نَزُولُ الْحَمِيمِ، وَتَضَلِيَّةُ الْجَجِيمِ، وَفَوْرَاتُ السَّعِيرِ، وَسَوْرَاتُ الزَّفِيرِ، لَأَفْتَرَةُ مُرِيحَةٍ، وَلَادَعَةُ مُزِيحَةٍ، وَلَا قُوَّةَ حَاجِزَةٍ، وَلَا مَوْتَةَ نَاجِزَةٍ، وَلَا سِنَّةَ مُسَلِّيَةٍ، بَيْنَ أَطْوَارِ الْمَوْتَاتِ، وَعَذَابِ السَّاعَاتِ! إِنَّا بِاللَّهِ غَائِثُونَ».

❦❦❦

الشرح والتفسير

القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من النار

أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارات إلى الحوادث التي يشهدها العاصون في عالم البرزخ، وذلك لأن الثواب والعقاب لا يقتصران على عالم القيامة، بل يشملان طائفة عظيمة من الناس في عالم البرزخ الذي يمثل الوسطة بين عالم الدنيا وعالم القيامة؛ والحديث الشريف: «القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران»^١ إنما أشار إلى هذا المعنى، وبعبارة أخرى فإن هنالك صورة محدودة في البرزخ لتلك الشاملة في عالم القيامة. فقد قال عليه السلام: «وأعظم ما هنالك بليّة نزول الحميم^٢ اتصالية^٣ الججيم، وفورات^٤ السّعير، وسورات^٥

١. رواه الترمذي في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وآله (ج ٤، كتاب صفة القيامة، ح ٢٤٦٠) والعلامة المجلسي في بحار الأنوار (٢١٤/٦ - ٢١٨).

٢. «حميم» من مادة «حم» على وزن غم في الأصل الماء الحار وهو المعنى المراد في العبارة. فقد جاء في القرآن «فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ» سورة الواقعة / ٥٤.

٣. «تصلية» من مادة «صلى» على وزن سعي ويعني الاحراق، كما تعني دخول جهنم، أما التصلية فية متعددة وهي تعني الاحراق فقط.

٤. «فورات» من مادة «فورة» الغليان.

٥. «سورات» جمع سوره الغضب.

الزفير^١ فالمراد بالجحيم هنا جحيم البرزخ التي تمثل جانباً من جهنم القيامة، والتي سيردها أصحاب الكبائر. فقد قال سبحانه تعالى في محكم كتابه العزيز بشأن آل فرعون: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»^٢ كما يستفاد من العبارة شدة عذاب البرزخ ورهيبته. فناره تضج، والسنتها تتصاعد، وماؤها يشوي البطون حقاً أن آلام الإنسان ومعاناته ومصائبه لتزول بالمرّة حين يفارق هذه الدنيا ويودع روضة من رياض الجنة، غير أن البلاء يشتد إذا أودع بعد كل هذا البؤس والشقاء حفرة من حفر النار إثر سوء أعماله. طبعاً كلام الإمام عليه السلام مطلق، ولكن من الواضح أن المراد به عبّاد الدنيا والظلمة والطواغيت وعامة أهل الذنوب والمعاصي؛ وهو الأمر الذي أشير إليه بصراحة في العبارات السابقة، كالعبارة: «نفر مستكبراً، وخبط سادراً، ما تحأ في غرب هواه، كادحاً سعيًا لدنياه». ثم قال عليه السلام: «لا فقرة مريحة، ولا دعة مزيحة،^٣ ولا قوّة حاجزة، ولا موتة ناجزة،^٤ ولا سنة مسلية،^٥ بين أطوار الموتات، وعذاب الساعات! إنّا بالله عائدون». تبين هذه العبارات القصيرة العظيمة المنال المقتبسة من آيات القرآن الكريم أن العذاب الإلهي شديد الألم على هؤلاء الأفراد من جهة، ومن جهة أخرى ليس هنالك من سبيل قط للفرار منه، وذلك لأنّ صحيفة الأعمال تغلق بموته ولا تشهد أي تغيير تبديل، اللهم إلّا أن يتطلف الله عليهم برحمته وفضله، مع ذلك فذلك اللطف يستند إلى حكمته سبحانه. فما ورد في هذه الخطبة يتناغم وآيات القرآن الكريم التي تحدثت عن عقاب البرزخ. فقد صرحت الآية السادسة والسابعة من سورة الملك بشأن نار البرزخ: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ»^٦ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور» كما ورد في الآية السادسة عشرة من سورة الفرقان: «إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا

١. «زفير» صوت النار عند توقدها.

٢. سورة غافر / ٤٦.

٣. «دعة» من مادة «ودع» على وزن منع الراحة.

٤. «مزيحة» من مادة «أزاحه» تزيح ما أصابه من التعب.

٥. «ناجزة» من مادة «نجز» منتهية.

٦. «سنة» بالكسر والتخفيف أوائل النوم.

٧. «مسلية» من مادة «تسلي» النسيان، تشغله عما هو فيه.

وَزَفِيرًا». أما حال أهل البرزخ فقد صورته الآية ٧٥ من سورة الزخرف: «لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ»، بينما تحدثت الآية العاشرة من سورة الطارق عن عدم وجود من يعينهم ويخفف عنهم: «فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ»، وأخيراً تطرقت الآية ٧٧ من سورة الزخرف عن تمنيم الموت الذي يريجهم مما هم فيه من العذاب: «وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا جِئْتُونَ». وهكذا سائر الآيات القرآنية التي تكشف عن حركة الإمام عليه السلام في حديثه وفعله من خلال الوحي السماوي والجو القرآني.

القسم السادس عشر

«عِبَادَ اللَّهِ، أَيُّنَ الَّذِينَ عَمَّرُوا فَنَعَمُوا، وَعَلَّمُوا فَفَهَّمُوا، وَأَنْظَرُوا فَلَهَّوْا، وَسَلَّمُوا فَنَسُوا! أَمَهَلُوا طَوِيلًا، وَمُنِحُوا جَمِيلًا، وَحَذَّرُوا أَلِيمًا، وَوَعَدُوا جَسِيمًا، [جميلًا]! احذروا الذُّنُوبَ الْمُورِثَةَ، وَالْعُيُوبَ الْمُسْخِطَةَ.»



الشرح والتفسير

مصير الجاحدين من أصحاب السطوة

خاطب الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبة والذي يقترب من نهايتها - كافة العباد داعيهم إلى تأمل حياة الأمم السالفة وما حل بها وقد غير مجرى كلامه، فقال عليه السلام: «عباد الله، أين الذين عمَّروا فنعموا، وعلموا ففهموا، وأنظروا فلهوا، وسلَّموا فنسوا». لو تصفحنا التاريخ، أو فكرنا في حياتنا الماضية في ظل هذا العمر القصير وتأملنا الأفراد من ذوي القدرة والسطوة الذين حفوا بمختلف النعم، إلا أنهم لم يستثمروا هذه النعم الإلهية ولم يستندوا إلى علم أو معرفة كما لم يفكروا أيتام سلامتهم وصحتهم بالمرض، ولا في إقتدارهم بالضعف والعجز، حتى غادروا هذه الدنيا صفر اليدين اتجهوا صوب مصيرهم الاسود. حقًا لو فكرنا في هذه الأمور لعشنا حالة اليقظة ولرأينا مستقبلنا من خلال الاعتبار بحياة هؤلاء. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى طول المهلة التي منحها هؤلاء والنعم التي حفوا بها وحذروا من عاقبة المعية ووعدوا بشدة العذاب «أمهلوا طويلاً، ومنحوا جميلاً، وحذروا أليماً، ووعدوا جسيماً». نعم لم يستفيدوا من تلك المهلة الطويلة، كما لم توظف تلك النعم المختلفة ضائرتهم الميتة فتشعرها بشكر النعم، وبالتالي لم يردعهم الوعد بالعذاب الإلهي عن مقارفة الذنوب والمعاصي، ولم يثيرهم الوعد بالثواب الأخروي للحركة من أجل الطاعة. ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«احذروا الذنوب المورّطة، والعيوب المسخطة». القرآن من جانبه صرح بهذا الشأن قائلاً: «كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ»^١.

فقد دأب أئمة الدين وعلماؤه الأخلاق على لفت إنتباه العتاة إلى التفكير في سيرة من سبقهم من الأقوام ويتأملوا المصير الذي طال الملوك السلاطين والطواغيت والجبابرة والظلمة، وكيف كانت عاقبتهم، وماذا حملوا معهم من هذه الدنيا، وما بقي منهم. فهل هناك سوى القبور الموحشة والعظام النخرة والقصور المعطلة والأموال والثروات التي آلت لغيرهم، ثم اعتراهم النسيان وكأنتهم لم يكونوا من أبناء هذه الدنيا.

أين الاسرة والتيجان والحلل
من دونها تضرب الأستار والكلل
وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

ناداهم صارخ من بعد ما قبروا
أين الوجوه التي كانت منعمة
أضحت منازلهم قفراً معطلة



القسم السابع عشر

«أُولِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ، وَالْعَافِيَةِ وَالْمَتَاعِ، هَلْ مِنْ مَنَاصٍ أَوْ خَلَاصٍ. أَوْ مَعَاذٍ أَوْ مَلَاذٍ، أَوْ فِرَارٍ أَوْ مَحَارٍ! أَمْ لَا؟» «فَأَنْتَى تُؤَفِّكُونَ» أَمْ أَيْنَ تَصْرَفُونَ! أَمْ بِمَاذَا تَعْتَرُونَ! وَإِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، ذَاتِ الطُّولِ الْعَرْضِ، قَيْدُ قَدِّهِ، مُتَعَفِّراً عَلَى خَدِّهِ!»،



الشرح والتفسير

الحذر الحذر

خاطب الإمام عليه السلام الناس مرة أخرى بطريقة تختلف عن سابقتها قائلاً: «أُولِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ، وَالْعَافِيَةِ وَالْمَتَاعِ، هَلْ مِنْ مَنَاصٍ أَوْ خَلَاصٍ. أَوْ مَعَاذٍ أَوْ مَلَاذٍ، أَوْ فِرَارٍ أَوْ مَحَارٍ! أَمْ لَا؟» فالمخاطب هنا من كان له عين باصرة وآذان سامعة يعيش نعم الدنيا بعافية وسلامة. فقد بين الإمام عليه السلام أن ليس هنالك من عاقبة سوى الموت ووداع هذه الدنيا الفانية، فلا من سبيل للفرار ولا من طريق للخلاص، لا من ملجأ فيلاذ به، ولا من قلعة تنجي من الموت، وأخيراً ليس هنالك من سبيل للرجعة إلى هذه الدنيا، فالواقع هو أن الإمام عليه السلام قد بين ستة طرق للفرار من مخالب الموت، مؤكداً على أنها جميعاً مؤصدة مغلقة. فهناك مسيرة ينبغي أن يسلكها الجميع، ومصير لا يستثنى منه أحد. أما كون المخاطب من أولئك الذين يتمتعون بالسمع والبصر، فذلك لأن من سلبهما لا يستوعب مثل هذه الأمور. والحق أن أدنى تأمل

١. «مناص» من مادة «نوص» على وزن قوس الابتعاد والانصال عن الشيء، وقال البعض تعني الملجأ والمفر.
٢. «ملاذ» من مادة «لوذ» على وزن موز بمعنى الاختفاء واللجوء إلى القلعة، ومن هنا يطلق على الملجأ اسم الملاذ، وتختلف قليلاً عن المعاذ من مادة العوذ على وزن الحوض التي تعني الالتجاء دون مفهوم الاستتار.
٣. «محار» اسم مكان من مادة «حور» على وزن جور النقص ثم وردت بمعنى المرجع إلى الدنيا بعد فراقها.

للموت الذي يعم الجميع لكاف في إيقاظنا من سباتنا وهدايتنا للصراط المستقيم، ومن هنا قال الإمام عليه السلام: «فأنتى تؤفكون! أم أين تصرفون! أم بما ذا تغفرون! وإنما حظ أحدكم من الأرض، ذات الطول والعرض، قيد قدّه،^١ متعقراً على خده». قد يكون هناك بعض الأفراد الذين يملكون مئات البساتين والمزارع والأراضي الزراعية وعشرات القصور، إلا أنه لا يأخذ منها حين يفارق الدنيا سوى ما يأخذه ذلك المسكين الذي قضى عمره في الأكواخ؛ أي بقعة من الأرض بقدر قامته، مع كفن يعدّ الحد الأدنى مما يستر بدنه العاري. أمّا العبارة: «متعقراً على خده» يمكن أن يراد بها أن أطف أجزاء البدن توارى هناك التراب، أو ليس للإنسان نصيب من هذا التراب حتى بمقدار بدنه؛ لأنه يطرح على جانبه الأيمن في القبر، وعادة ما لا يسعه اللحد لأن يضطجع على قفاه.



١. «تؤفكون» من مادة «افك» على وزن فكر بمعنى الانحراف والانقلاب، ثم أريد بها الرجوع.
 ٢. «قيد» بكسر وفتح القاف تأتي بمعنى المقدار، ومن هنا يقال للحبل الذي يربط برجل الانسان أو الحيوان والذي يحد من حركته في حد معين، يقال له «قيد» و«قد» بمعنى الطول.

القسم الثامن عشر

«الآن عباد الله والخناق مهمل، والروح مُرسَل، في فينة الإرشاد، راحة الأُجساد، وباحة الإحتشاد، ومهل البقية، وأنف المشية، انظار التوبة، وانفساح الحوبة، قبل الضنك والمضيق، والروع والزُهوق، وقبل قدوم الغائب المنتظر، وإخذه العزيز المُقَدِّر».

٥٥٥٨

الشرح والتفسير

حسن الختام

خاطب الإمام عليه السلام ثانية كافة عباد الله، محذرا إياهم من عدم فقدان الفرص قبل حلول الأجل وانتهاء العمر، فقال: «الآن عباد الله والخناق^١ مهمل، والروح مرسَل، في فينة^٢ الإرشاد، وراحة الأُجساد، وباحة^٣ الإحتشاد،^٤ ومهل البقية، وأنف المشية، وإن ظار التوبة، وانفساح الحوبة،^٥ قبل الضنك^٦ والمضيق، والروع الزُهوق،^٧ وقبل قدوم الغائب المنتظر، وإخذه العزيز المقدر» فقد أشار الإمام عليه السلام إلى مختلف جوانب

١. «خناق» من مادة «خنق» الحبل الذي به وضيق الخناق كناية عن شدة المصاب وعظم الضيق.

٢. «فينة» بالفتح الزمان والوقت .

٣. «باحة» من مادة «بوح» على وزن قول الظهور والشهرة وباحة بمعنى صحن الدار وساحتها وهذا هو المعنى المراد في العبارة.

٤. «إحتشاد» الاجتماع من أجل القيام بعمل مشترك.

٥. «حوبة» على وزن توبة تعني في الأصل الحاجة التي تقود الإنسان إلى الذنب ومن هنا وردت في القرآن وسائر الاستعمالات بمعنى الذنب والمعصية.

٦. «ضنك»، الشدة ومعيشة ضنك العيش الصعب.

٧. «زهوق» على وزن حقوق، بمعنى الإبادة والمحو.

الفرص السانحة للإنسان من قبيل: باقي العمر وسكينة الروح وراحة الجسم وإمكانية نبيل الكمال وسهولة الاستشارة وبقاء الفرصة اللازمة للعزم والإرادة والقدرة على التوبة والاقلاع عن الذنب. فكل أمر من هذه الأمور يشكل جزءاً من الفرص العظيمة الثمينة التي منحها الإنسان والتي يمكن من خلالها فعل كل شيء ونيل الخير والسعادة؛ والحال يمكن أن يفقد الإنسان جميع هذه الفرص فيقضي على سعادته بنفسه، ويألم من بؤساء أولئك الذين لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقة، فيمارسون حياتهم كقطع الغنم الذي ينهمك بأكله وشربه في مرعاه دون أن تلتفت إلى الذنب الذي ينهشها الواحد تلو الآخرة.

قال المرحوم السيد الرضي (ره) في آخر هذه الخطبة: «وفي الخير: أنه لما خطب بهذه الخطبة اقشعرت لها الجلود، وبكت العيون، ورجفت القلوب. ومن الناس من يسمي هذه الخطبة الغراء»

وقد قال ابن أبي الحديد: واعلم أننا لا يخال لنا الشك في أنه عليه السلام أفصح من كل ناطق بلغة العرب من الأولين والآخرين، إلا من كلام الله سبحانه، وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله؛ وذلك لأن فضيلة الخطيب والكاتب في خطابته وتكاتبه تعتمد على أمرين؛ هما: مفردات الألفاظ ومركباتها.

أما المفردات فإن تكون سهلة سلسة غير وحشية ولا معقدة، وألفاظه عليه السلام كلها كذلك؛ فأما المركبات فحسب المعنى وسرعة وصوله إلى الأفهام، واشتماله على الصفات التي باعتبارها فضل بعض الكلام على بعض، وتلك الصفات هي الصناعة التي سماها المتأخرون البديع، من المقابلة، والمطابقة، وحسن التقسيم، ورد آخر الكلام على صدره، والترصيع، والتسليم، والتوشيح، والمائلة، والاستعارة، ولطافة استعمال المجاز، والموازنة، والتكافؤ، والتشبيط، والمشاكلة.

ولا شبهة أن هذه الصفات كلها موجودة في خطبه وكتبه، ماثلة متفرقة في فرش كلامه عليه السلام، وليس يوجد هذان الأمران في كلام أحد غيره فإن كان قد تعملها وأفكر فيها، وأعمل رويته في رصفها ونثرها، فلقد أتى بالعجب العجيب، ووجب أن يكون إمام الناس كلهم في ذلك؛ لأنه ابتكره ولم يعرف من قبله وإن كان اقتضبها ابتداءً، وفاضت على لسانه

مرتجلة، وجاش بها طبعه بديهةً، ومن غير رويّة ولا اعتال، فأعجب وأعجب!
وعلى كلا الأمرين فلقد جاء مجلياً والفصحاء تنقطع أنفاسهم على أثره. وبحقّ ما قال
معاوية لمحقن الضبّي، لما قال له: جئتك من عند أعيان الناس: يابن اللخناء، أليّ تقول هذا؟
وهل سنّ الفصاحة لقريش غيره!
واعلم أن تكلف الاستدلال على أنّ الشمس مضيئة يتعب، وصاحبه منسوب إلى الشّفه،
وليس جاحد الأمور المعلومة علماً ضروريّاً بأشدّ سفهاً ممّن رام الاستدلال بالأدلة النظرية
عليها.^١



١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٧٨/٦.

ومن خطبة له ﷺ

في ذكر عمرو بن العاص

نظرة إلى الخطبة

كما يفهم من عنوان الخطبة أنها وردت بشأن عمرو بن العاص الذي كان من مقربي معاوية، بل يمكن القول أن استمرار خلافة معاوية وتحقيقه لبضع الانتصارات الظاهرية إنما تم في ظل مكائد بن العاص ومكره، فالشخص الثاني بل الأول في تلك الخلافة المنحرفة كان عمرو بن العاص ورغم قصر عبارات الإمام ﷺ إلا أنها رسمت صورة واضحة عن مدى ضلال هذا الفرد المنحرف وإضلاله للأمة، بحيث يمكن الوقوف على تمام تفاصيل سيرته من خلال هذه الكلمات، إلى جانب ذلك فهي توضيح سر العلاقة بينه وبين معاوية. والجدير بالذكر هو أن الإمام ﷺ خطب هذه الخطبة حين وصفه عمرو بن العاص بأنه ذو دعاية.

﴿﴾

١. سند الخطبة: رواها جمع من مشاهير علماء الإسلام قبل السيد الرضوي (ره) ومنهم ابن قتيبة في عيون الأخبار وأبو حيان التوحيدي في الامتاع والمؤانسة والبيهقي في المحاسن والمساوي والبلاذري في أنساب الأشراف. ورواها بعد السيد الرضوي (ره) الشيخ الطوسي في الامالي عن محمد بن عمران المرزباني الذي عاش قبل صدور النهج بسنة عشر عاماً وابن عقدة والزبير بن بكار وابن أنير في النهاية (مصادر نهج البلاغة ١١٩/٢).

«عَجَباً لِابْنِ النَّابِغَةِ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً، وَأَنِّي امْرُؤٌ تَلْعَابَةٌ: أَعَافِسُ وَأُمَارِسُ! لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً، وَنَطَقَ آثِمًا. أَمَا - وَشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ - إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ، وَيَعِدُ فَيُخْلِفُ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخُلُ، وَيَسْأَلُ فَيُلْجِفُ، وَيَخُونُ الْعَهْدَ، وَيَقْطَعُ الْإِلَّ؛ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَأَمْرٍ هُوَ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَا خِذَهَا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَرْمَ [القوم] سَبْتَهُ. أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ نَسْيَانُ الْآخِرَةِ، إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ أُتِيَّةً، وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً».

❦❦❦

الشرح والتفسير

ابن النابغة الكاذب

استهل الإمام عليه السلام كلامه بالحديث عن كذب عمرو بن العاص وتهمته التي وجهها إليه إلى جانب تعريفه بهذا الفرد المنحرف. أما الفرية التي نسبها إلى الإمام عليه السلام فتكمن باتهامه إتياء بأن فيه دعابة وإنه من أهل المزاح والفكاهة - والعياذ بالله - ليذرع بها من أجل إثبات عدم صلاحية الإمام عليه السلام لأمر الخلافة. فقد قال عليه السلام: «عجباً لابن النابغة! يزعم لأهل الشام أن في دعابة،^٢ وأني امرؤ تلعباة:^٣ أعافس^٤ وأمارس^٥» التعبير عن عمرو بن العاص بابن النابغة

١. «نابغة» من مادة «نبوغ» الظهور والشهورة وتصطلح العرب بالنابغة على المرأة المشهورة بالفساد، كما تطلق على الافذاذ من الأفراد.

٢. «دعابة» بالضم المزاح واللعب.

٣. «تلعباة» بكسر التاء كثير اللعب الذي يشغل الناس بكلامه وأفعاله.

٤. «أعافس» من مادة «معافسة» شدة المزاح.

٥. «أمارس» من مادة «ممارسة» الانهماك بالمزاح.

إشارة إلى فساد أسرته، لأنّ العرب كانت تنسب الولد لأُمّه إن كانت مشهورة بالشرف والمجد أو بالوضاعة والفساد، كما تعني مفردة النابغة الظهور والبروز، إلاّ أنها تشير إلى الاشتهار بالفساد إذا أطلقت على المرأة، فقد كانت النابغة أم عمرو بن العاص أمة لرجل من عترة اسمها الأصلي سلمى أو ليلي، وقد واقعها أبوسفيان فولدت عمرو، فاختلف فيه حيث واقعها أمية بن خلف وهشام بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي، حيث ادعاه كلهم، فحكمت أُمّه فيه فقالت: هو من العاص بن وائل، وذلك لأنّ العاص بن ائل كان ينفق عليها كثيراً، وكان أشبه بأبي سفيان الذي قال عنه: أما إني لا أشك أنّي وضعت في رحم أُمّه، فأبّت إلاّ العاص.^١

الواقع أنّ الإمام عليه السلام قدم بهذه العبارة لما بعدها، بمعنى لا ينبغي التعجب من مثل هذا الإنسان الذي يكيل التهم للصلحين ويفتري عليهم الكذب. والمفردة دعابة تفيد كثرة المزاح، وتلعابة من يمازح الناس ويهزل معهم، وأعاقس وأمارس بمعنى واحد تقريباً وهو معالجة النساء بالمغازلة، ثم اتخذت معنى أوسع لتطلق على كل هزل ومزاح. فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد اختصر بهذه العبارات كافة التهم التي نسبها عمرو بن العاص للإمام عليه السلام زوراً وبهتاناً، لتكون مقدمة للرد عليه. والجدير بالذكر أنّ أعداء الإمام عليه السلام لم يتورعوا عن التشبث بمثل ما ورد في الكلام المذكور لما عجزوا عن الطعن في شخصية الإمام عليه السلام ولم يروا فيه أدنى ضعف، فهو المعروف بعلمه وتقواه وزهده وورعه وشجاعته وصبره وحلمه، فرموه بتهمة المزاح بهدف إثبات عدم جدارته بالخلافة؛ الأمر الذي يثبت صلاحيته وجدارته بها، فهم في ذلك كالمثل المعروف: «الغريق يتشبث بكل حشيش»، فعمدوا إلى هذه الذريعة الجوفاء. وبالطبع فانتنا سنتحدث في البحث القادم إن شاء الله عن المزاح متى يكون مباحاً أو مذموماً. ثم ردّ الإمام عليه السلام على كذب بن العاص في ذلك الاتهام قائلاً: «لقد قال باطلاً، ونطق آثماً. أما - وشرّ القول الكذب»، من يسعه التفكير إلى المزاح اللطيف الذي لا يشوبه الباطل والبعيد عن كل إفراط وتفريط؟ ومن يستطيع تجاهل جدية الإمام عليه السلام في خطبه ورسائله وقصار كلماته؟! فقد كان أعظم جدية ممن سواه، كما كان ذا إرادة جبارة في زعامته، وإن كان يعمد إلى المزاح مع

١. ربيع الأبرار للزمخشري، نقلا عن ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة ٦/٢٨٣.

بعض أصحابه بغية مواساتهم وتخفيف الهم والغم عن قلوبهم؛ الأمر الذي يشاهد بوضوح في حياة إمامه الرسول الأكرم ﷺ. أما العدو فهذا ديدنه، فهو لا يكف عن الكذب والدجل والتشبهت بأتفه الذرائع من أجل النيل من الطرف المقابل. ثم واصل الإمام ﷺ كلامه ليذكر ست صفات رذيلة إتصفت بها سيرة عمرو بن العاص: «إنه ليقول فيكذب، ويعد فيخلف، ويسأل فيبخل، ويسأل فيلحف،^١ ويخون العهد، ويقطع الإل^٢» لاشك أن كل من يطالع سيرة عمرو بن العاص وسجله الأسود يقف بوضوح على هذه الرذائل في شخصيته.

والخلاصة فقد كان وضعاً، لا يتورع عن ارتكاب أفظح الرذائل من أجل الدنيا والظفر بحطامها، فهو يعد إذا كانت الأمور لصالحه، بينما يخلف إذا كانت بضرره. فقد كان يضحى بالغالي والنفيس من أجل الحصول على الدنيا، ولا سيما أمام معاوية الذي كان شديد الحاجة إليه، وهذا ما كان يدفعه إلى إعطائه ما يصبو إليه. أمّا نقضه للعهود والمواثيق فحدث ولا حرج، بل كان لا يرحم حتى قرابته ومن له صلته به. وأخيراً دوره في التحكيم ليس بخاف على أحد. قال بعض المؤرخين أنه عاش تسعين سنة، وذكر اليعقوبي^٣ أنه عاش تسعين سنة ولما حضرته الوفاة قال لابنه: لود أبوك أنه مات في غزات ذات السلاسل، إني قد دخلت في أمور لأدري ما حجتي عند الله فيها. ثم نظر إلى ماله فرأى كثرته فقال: ياليتني كان بعراً، ياليتني مت قبل هذا اليوم بثلاثين سنة، أصلحت لمعاوية دنياه وأفسدت ديني، آثرت دنياي وتركت آخرتي، عمي عليّ رشدي حتى حضرني أجلي، كأني بمعاوية قد حوى مالي وأساء فيكم خلافتي.

على كل حال ليس هنالك من لا يعلم بهذه الرذائل التي إنطوت عليها شخصية عمرو بن العاص. ثم أشار الإمام ﷺ إلى أرذل الأعمال التي ارتكبتها عمرو بن العاص في حياته، العمل الذي إنعدم مثيله في التاريخ، وذلك يوم صفين حين رأى نفسه مقتولاً بيد علي ﷺ فعمد إلى كشف عورته، لأنه كان يعلم بأن حياة الإمام ﷺ لا يدعه ينظر إليه في تلك الحالة، فاغتنم تلك

١. «يلحف» من مادة «الحاف» بمعنى الاصرار والالاحاح واصلها من اللحاف وهو الغطاء المعروف، ولما كان الشخص المصر يلف من حوله فقد أطلقت عليه هذا المفردة.

٢. «الإل»، العهد، والميثاق، كما تعني القرابة، والمراد من قطع الإل أن يقطع الرحم.

٣. تاريخ اليعقوبي (طبق نقل الغدير ١٧٥/٢).

الفرصة ليهرب من بين يديه. فشاع هذا الأمر بين العرب آنذاك حتى أخذت الناس تضرب به المثل في أن عورة عمرو وأنجته من الموت. فقد قال الإمام عليه السلام: «فإنذا كان عند الحرب فأبى زاجرٍ وأمرٍ هو! ما لم تأخذ السيوف مأخذها، فإنذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القرم^١ سبته^٢» فقد قال ابن أبي الحديد: وأما خبر عمرو في صفين واتفائه حملة علي عليه السلام، بطرح نفسه على الأرض وإبداء سواته،^٣ فقد ذكره كل من صنف في السير كتاباً، وخصوصاً الكتب الموضوععة لصفين والقصة كالآتي: قال نصر بن مزاحم في كتاب صفين قال:

حدثنا محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي عمرو، وعن عبد الرحمن بن حاطب، قال كان عمرو بن العاص عدواً للحارث بن نضر الخثعمي، وكان من أصحاب علي عليه السلام، وكان علي عليه السلام قد تهيبته فرسان الشام، وملاً قلوبهم بشجاعته، وامتنع كل منهم من الإقدام عليه. وكان عمرو قلباً جلس مجلساً إلا ذكر فيه الحارث بن نضر الخثعمي وعابه.

فشاعت هذه الأبيات حتى بلغت عمراً، فأقسم بالله ليلقين علياً ولو مات ألف مائة. فلما اختلطت الصفوف لقيه فحمل عليه برمحه، فتقدم علي عليه السلام وهو مختلط سيفاً معتقلاً رمحاً، فلما رهقه همز فرسه ليعلو عليه، فألقى عمرو نفسه عن فرسه إلى الأرض شاغراً برجليه؛ كاشفاً عورته، فانصرف عنه لافتاً وجهه مستديراً له، فعدّ الناس ذلك من مكارمه وسؤدده وضرب بها المثل.^٤

وأوردت التواريخ قال معاوية يوماً بعد استقرار الخلافة له لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله، لا أراك إلا ويغلبني الضحك؛ قال: بما ذا؟ قال: أذكر يوم حمل عليك أبو تراب في صفين، فأزريت نفسك فرقاً من شياً سنانه، وكشفت سواتك له؛ فقال عمرو: أنا منك أشدّ ضحكاً؛ إني لأذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ سحرُك، ورباً لسألك في فك وغصصت بريقك، وارتعدت فرائصك، وبدا منك ما أكره ذكره لك؛ فقال معاوية: لم يكن هذا كله وكيف يكون ودوني عكّ

١. «قرم» الذكر من الجنس، كما وردت بمعنى الشخص العظيم والسيد، وهذا هو المعنى المراد في العبارة، لأن عمرو بن العاص كان يعلم أن أمير المؤمنين علي عليه السلام يصرف وجهه عنه إذا ما كشف عورته.

٢. «سبة» من مادة «سب» على وزن شق الشتم وكل شيء يكره ذكره، وهي هنا إشارة إلى العورة.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣١٢/٦.

٤. كتاب «صفين» لنصر بن مزاحم ٢٢٤/ «بحسب ما نقله الغدير، في ١٥٨/٢.

الأشعريون! قال: إنك لتعلم أن الذي وصفتُ دون ما أصابك، وقد نزل ذلك بك ودونك عكَّ الأشعريون، فكيف كانت حالك لو جمعكما ماقطُ الحرب! فقال: يا أبا عبد الله، خُض بنا الهزل إلى الجِدِّ، إن الجبن والفرار من عليٍّ لا عارَ على أحدٍ فيها.^١

ثم قال عليه السلام: «أما والله إنني ليم نعني من اللَّعب ذكر الموت» فالإمام عليه السلام لا يغفل عن الموت طرفة عين، وذلك لأنَّ الموت قانون يشمل جميع الخلائق لا يعرف الاستثناء ولم يعنى له وقت، ويعلم الإمام عليه السلام على وجه اليقين أن الموت هادم اللذات وأنَّ الإنسان يتحول إلى وحش ضاري إذا نسى الموت ومحكمة العدل الإلهي. فهل للإمام عليه السلام من فرصة للمزاح وإطلاق العنان للهوى وهو ما عليه من الذكر؟ قطعاً لا يجوز ذلك على الإمام عليه السلام، بينما لم يدفع ابن البانعة للتفوه بذلك الكلام سوى نسيان الآخرة والغفلة عن الموت: «وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة» نعم إذا كذب أو إفتري ولم يتورع عن القيام بأي عمل من أجل تحقيق مطامعه الدنيوية فذلك معلول لنسيانه الموت والآخرة. وما أسلفنا فان من نسي الآخرة وتجاهل العدل الإلهي أصبح كائناً خطيراً يخشى منه، لأنه لا يتوانى عن ارتكاب أبشع الأعمال دون أن يكثر حتى لشرفه وحيثيته. ثم يستدل عليه السلام ذلك بقوله: «إنه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتیه أتيّة^٢، ويرضخ له على ترك الدين رضىخة^٣». فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة إلى تلك الواقعة المعروفة بين الناس والتي أشرنا إليها في الخطبة السادسة والعشرين، والقصة هي: لما نزل على عليه السلام الكوفة بعد فراغه من أمر البصرة، كتب إلى معاوية كتاباً يدعوهُ إلى البيعة أرسل فيه جرير بن عبد الله البجلي، فقرأه واغتم بما فيه، وذهبت به أفكاره كل مذهب، وأحب الزيادة في الاستظهار، فاستشار عمرو بن العاص، فكتب له معاوية كتاباً، فسار حتى قدم على معاوية. فقال له معاوية: إنِّي أدعوك إلى جهاد علي بن أبي طالب. قال عمرو: والله يا معاوية ما أنت وعلي حملي بعير، ليس له هجرته

١. روى ابن أبي الحديد ذلك عن المؤرخ المشهور الراقي (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣١٧/٦).

٢. «الآتيّة» بمعنى العطيّة من الآتياء بمعنى الاعطاء.

٣. «رضيخة» من مادة رضخ، «رضخ» له رضىخة أعطاه قليلاً، والمراد بالعبارة أن عمرو بن العاص باع آخرته ودينه بذلك المتاع الزهيد من الدنيا، ولا سيما أنه لم يتمتع بذلك المقام سوى بضع سنوات.

ولا سابقته ولا صحبتته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه. ثم قال فما تجعل لي إن شايعتك على حربته وأنت تعلم ما فيه من الفرر والخطر؟ قال: حكك، فقال: مصر طعمة. فتلكا عليه معاوية، وقال: إني أكره لك أن تتحدث العرب عنك أنك إذا دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا، فقال عمرو: دعني عنك. حتى استجاب له معاوية آخر الأمر.^١ والعجيب أن الدنيا لم تف له حيث لم يحكم مصر سوى بضع سنوات ثم ندم ندماً شديداً أو آخر عمره من فعاله، فكان يلعن نفسه، ولم يكن أمامه من مخرج.^٢

تأملان

١ - نسب عمرو بن العاص وطرف من أخباره

كلنا نعرف هذا الشخص وقد سمعنا عن مكره ودوره الهدام في التاريخ الاسلامي، ولعل الجميع يعلم بخدعته في رفع المصاحف على أسنة الرماح في معركة صفين حين أو شك جيش الشام على الهزيمة؛ الامر الذي أثر بشدة على بعض السذج من جيش علي عليه السلام فاجيروا الإمام عليه السلام على الكف عن القتال والرضوخ للتحكيم. ولد لاربع وثلاثين سنة قبل البعثة. أبوه العاص بن وائل المعروف بعدائه للاسلام والذي لقبه القرآن الكريم بالابتر «إن شانئك هو الابتر»^٣ لأنه قال لقريش: سيموت هذا الابتر - رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - غدا فينقطع ذكره. وأما أمه فقد ذكر المؤرخون فقد وقع عليها خمس فولدت عمروا فادعاه كلهم، فحكمت أمه فيه فقالت: هو من العاص بن وائل لأنه كان ينفق عليها كثيرا، ولحسان بن ثابت أشعار فيه.

وقد توجه إلى الحبشة حين هاجر اليها المسلمون ليكيد جعفر أو يقتله، وقد اعلن اسلامه هناك ليسدد ضربته للاسلام والمسلمين. ويرى البعض أنه قصد الحبشة يوم الخندق وقال لصحبه: ارى أن نذهب إلى الحبشة فان ظهر قومنا عدنا اليهم وان ظهر محمد بقينا في الحبشة. فدخل الحبشة قبل جعفر وقد حمل الهدايا إلى النجاشي وطلبوا منه أن يأذن لهم بقتل جعفر.

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦١/٢ (بتخليص).

٢. هناك كلام بين المؤرخين بشأن موت عمرو، غير أن العلامة الأميني ذكر في غديره وابن أبي الحديد في شرحه ٣٢١/٦: والصحيح أنه مات في سنة ثلاث واربعين، فلم تدم حكومته لمصر أكثر من خمس سنوات.

٣. سورة الكوثر ٣/١.

فلم يجيبهم النجاشي الذي أسلم باطنا. فقال عمرو: لم أكن أعلم بمنزلة محمد وأنا على دينه الان. فلما عاد إلى المدينة استقبله النبي ﷺ وأمره وبعثه إلى ذات السلاسل. ثم ولاه النبي عمان (في الشام) فبقى هناك حتى وفاة النبي ﷺ، ثم ولاه عمرو فلسطين والاردن، وحين ولى عمر معاوية على الشام وجه عمرو بن العاص لمصر ففتحها، فولاه اربع سنوات على عهد عثمان ثم عزله، فنقم عليه وهاجر إلى فلسطين. ولما نهض معاوية في الشام استنجد بعمرو فاشترط عليه ولاية مصر فأجابته. فبقى فيها حتى توفي عام ٤٣ وله تسعون سنة.

قيل عرف بالشجاعة في الجاهلية وان لم ينقذه من القتل في صفين الا عورته لأنه يعلم بأن علياً لا يقتله.^١

يرى العلامة الاميني أنه لم يسلم وقد تظاهر بالاسلام وهو مصداق لمن قال فيهم الإمام علي ﷺ: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما أسلموا ولكن استسلموا واسروا الكفر، فلما وجدوا أعوانا، رجعوا إلى عداوتهم منا»^٢.

لم يكن يتورع عن معاداة علي ﷺ حتى قال لعائشة: ليتك قتلت يوم الجمل. فقالت: ولم لا أبا لك؟ قال: لدخلت الجنة وشنعنا بك على علي بن أبي طالب.^٣

واخيرا قال ابن ابي الحديد: وكان عمرو أحد من يؤذي رسول الله ﷺ بمكة ويشتمه ويضع في طريقه الحجارة؛ لأنه كان ﷺ يخرج من منزله ليلا فيطوف بالشعبة، وكان عمرو يجعل له الحجارة في مسلكه ليعثر بها. وهو أحد القوم الذين خرجوا إلى زينب ابنة رسول الله ﷺ لما خرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة، فروعها حتى أجهضت جنينا ميتا فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ نال منه وشق عليه مشقة شديدة ولعنه.^٤

٢ - المزاح في الإسلام

مما لا شك فيه أن روح الإنسان ترهق من جراء المشاكل؛ فلا بد من ترويحها بالاستجمام

١. الغدير ١٢٦/٢؛ شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ٢٨٢/٦.

٢. الغدير ١٢٦/٢.

٣. شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ٣٢٢/٦.

٤. شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ٢٨٢/٦.

وطرائف الحكم، وإلا كسلت وشلت عن النشاط، ومن هنا فان العقل والمنطق والفطرة تقتضي أن يلجأ هذا الإنسان إلى المزاح بغية التخفيف من حدة المعاناة والتعب والارهاق، فان تم هذا الأمر في ظل الموازنة والاعتدال فهو ليس مذموماً فحسب، بل من الأمور المطلوبة، وأبعد من ذلك تكتسب درجة الضرورة والوجوب، لتعد جزءاً من مكارم الأخلاق والبشاشة وطلاقة الوجه. والذي تفيده سيرة النبي الأكرم ﷺ وأئمة الدين ﷺ وأولياء الله - بل وكافة العقلاء - أنهم كانوا يلجأون إلى المزاح في أعمارهم طيلة مدة حياتهم. إلا أن ما يجدر ذكره هو أن هذا المزاح إنما يتحول إلى سخرية واستهزاء لو خرج من حد الاعتدال أو شابه الاثم والغيبة والنميمة، كما يكون وسيلة للثأر وإراقة ماء وجه الآخرين، حيث يتعذر على الإنسان أحياناً إظهار مكنون قلبه من الحقد والضغينة فيلجأ إلى هذا الأسلوب، وهنا يتحول المزاح إلى رذيلة بشعة من الرذائل الكاشفة عن سوء الخلق. وهذان هما المعنيان الذان كشفت عنها بعض الروايات الإسلامية التي مدحت المزاح من جانب وعدته فضيلة، وتلك التي ذمته وعدته رذيلة. ولا بأس هنا بذكر بعض الروايات الإسلامية الواردة بهذا الشأن:

١- ورد في الحديث أن أحد أصحاب الإمام الكاظم ﷺ سأل عن المزاح فقال ﷺ: «لا بأس ما لم يكن» (أي ما لم يخالطه الاثم) ثم قال: «إن رسول الله كان يأتيه الاعرابي، فيهدي له الهدية ثم يقول مكانه: أعطنا ثمن هديتنا! فيضحك رسول الله؛ وكان إذا اغتم، يقول: ما فعل الاعرابي؟ ليقته أتاناً»^١.

٢- وورد عن الإمام الكاظم ﷺ: «المؤمن دعب لعب، والمنافق قطب غضب»^٢.

٣- عن الإمام الصادق ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وفيه دعاية؛ قلت: وما الدعاية؟ قال: المزاح»^٣.

٤- بل ورد في الروايات أن رسول الله ﷺ كان يمزح، حيث جاء في الخبر أن رسول الله ﷺ قال لأمرأة من الأنصار: «الحقي زوجك فإن في عينه بياضاً» فسعت نحوه مرعوبة، فقال لها:

١. اصول الكافي ٦٦٣/٢.

٢. تحف العقول ٤١/ باب مواعظ النبي.

٣. اصول الكافي ٦٦٣/٢.

ما دهاك؟ فأخبرته، فقال: نعم إن في عيني بياضاً لاسوء، فحفضي عليك. فهذا من مزاح رسول الله ﷺ. وأتت عجوز من الأنصار إليه ﷺ، فسألته أن يدعو الله تعالى لها بالجنة، فقال: «إن الجنة لا تدخلها العجز»^١ فصاحت، فتبسم ﷺ وقال: «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً»^٢ وهكذا سائر الروايات...

وفي نفس الوقت وردت الروايات التي ذمت المزاح، ومن ذلك ما روي عن علي عليه السلام أنه قال: «المزاح يورث الضغائن»^٣ وقال: «لكل شيء بذر وبذر العداوة المزاح»^٤ وجاء في الخبر أن المزاح يحد من العقل ويذهب بالهوية وهو العدو الاصغر^٥. وقال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد صريح الإيمان حتى يدع المزاح والكذب»^٦.

ومن الواضح أن ليس هنالك من تضاد بين هاتين الطائفتين من الروايات، لأن الطائفة الاولى تحدثت عن أصل المزاح، بينما تحدثت الطائفة الثانية عن الإفراط وتجاوز الحد في المزاح. أو بعبارة أخرى: الطائفة الاولى ناظرة إلى المزاح الموزون الذي لا يستند إلى أي غرض ومرض وحق وضعيفة، أما الطائفة الثانية فهي ناظرة إلى المزاح الباطل، والشاهد على ذلك ما جاء في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني أمزح ولا أقول إلا حقا»^٧. والشاهد الآخر أغلب الروايات التي صرحت بدم كثرة المزاح. فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «كثرة المزاح تذهب البهاء وتوجب الشحفاء»^٨. كما عبرت بعض الروايات عن ذلك بالإفراط في المزاح. ويتضح مما أوردنا من الروايات - ولا سيما تلك التي وردت عن علي عليه السلام - أن الإمام عليه السلام كان يمزح أحياناً بالحق؛ الأمر الذي يجعله فضيلة من فضائله وأنه كان كريم الخلق بشر الوجه، إلا أن العدو كان يندفع بكل همجية وضعيفة ليشوه حتى هذه الصفات الحميدة فيه، بهدف

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٣٠/٦.

٢. سورة الواقعة / ٣٥-٣٦.

٣. تحف العقول ٨٦.

٤. ميزان الحكمة ٤/٤، ح ١٨٨٦٩.

٥. ميزان الحكمة ٤/٤ باب ذم المزاح.

٦. ميزان الحكمة ٤/٤ ح ١٨٨٧٧.

٧. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٢٠/٦.

٨. غرر الحكم.

إقصائه من مكانته، ونموذج ذلك ما ورد في هذه الخطبة. فقد نفي ﷺ في هذه الخطبة عن نفسه كثرة المزاح، المزاح الممدوح الذي يهدف إلى جلاء الروح ونشاطها وإدخال السرور على قلوب المؤمنين.

ونختتم الكلام بهذا الحديث:

فقد جاء في الخبر أن يحيى بن عيسى رضي الله عنه لقي عيسى رضي الله عنه، وعيسى مبتسم، فقال يحيى رضي الله عنه: مالي أراك لا هيا كأنك آمن! فقال رضي الله عنه: مالي أراك عابساً كأنك آيس؟
فقالا: لانبرح حتى ينزل علينا الوحي. فأوحى الله إليهما: أحببكما إليّ اطلق البسام،
أحسنكما ظنا بي.^١

ومن خطبة له ﷺ

وفيه صفات ثمان من صفات الجلال

نقرة إلى الخطبة

أشار الإمام ﷺ في هذه الخطبة إلى ثلاثة أمور مهمة: الأول ذكره لبعض صفات الجلال والكمال بعبارات قصيرة عظيمة المعاني. الثاني دعوة الناس للاعتبار بما تفرزه حوادث الحياة ولا سيما الموت الذي يقف لهذه الحياة بالمرصاد. الثالث التعرض لدرجات أولياء الله والنعم المطلقة الخالدة التي يتنعمون بها في الجنة. أما تعبير السيد الرضي (ره) في بداية الخطبة بالقول «ومنها» يفيد أنه وكديده قد إقتطف هذه العبارات من خطبة طويلة.



١. سند الخطبة: رواها أبو نعيم الإصفهاني في كتاب حلية الأولياء والسبط بن الجوزي الذي عاش بعد السيد الرضي (ره) في كتاب تذكرة الخواص ومحمد بن طلحة الشافعي في مطالب السؤل (مصادر نهج البلاغة ١٢٢/٢).

القسم الأول

«وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: الْأَوَّلُ لِأَشْيَاءَ قَبْلَهُ، الْآخِرُ لِأَغَايَةِ لَهُ، لَا تَقَعُ الْأَوْهَامُ لَهُ عَلَى صِفَةٍ، وَلَا تُعْقَدُ الْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ، وَلَا تَنَالُهُ التَّجْزِئَةُ وَالتَّبَعِيضُ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَبْصَارُ وَالْقُلُوبُ».

❦❦❦

الشرح والتفسير

معرفة الله

يقسم علماء العقائد صفات الله إلى قسمين: صفات الجمال وصفات الجلال. وتطلق صفات الجمال على الصفات الثبوتية من قبيل: العلم والقدرة. وتطلق صفات الجلال على الصفات السلبية من قبيل: عدم وجود الشريك والشبيه. ولما كانت الصفات الثمان الواردة في القسم الأول من الخطبة ثبوتية وسلبية فإن الذي ذكر عنوانها ليس على ضوء علماء العقائد، بل يراد بالجلال هناك المعنى اللغوي والاشارة إلى عظمة هذه الصفات. على كل حال فإن معرفة الله والتعرف على صفات جماله وجلاله، تعد معين كل خير وحسن وأساس جميع الفضائل الأخلاقية والأعمال الصالحة، ومن هنا فقد إستهل الإمام عليه السلام أغلب خطبه بالإشارة إلى جانب من هذه الصفات، ليحمل القلوب نحو عظمته سبحانه وصفات جلاله وجماله. فقد قال عليه السلام: «وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ» فالأوصاف وإن كانت ثلاث وهي نفي الشريك والمعبود وصفة التوحيد، غير أنها تعد جميعاً إلى حقيقة واحدة وهي توحيدية في الذات والصفات والعبودية. ولما كان التوحيد أساس صفات الله سبحانه، فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى هذه الصفة قبل كل شيء، وسرئ لاحقاً أن سائر الصفات السبع إنما تتبع من صفة التوحيد. ثم قال عليه السلام في الصفة الثانية «الأول لا شيء قبله» هذه واحدة من الصفات التي

تزهه عن الشبه؛ لأنه وجود لامتناهي، ومثل هذا الوجود أزلي، والوجود الأزلي قبل كل شيء وبعد كل شيء، فلو كان قبله شيء لانتفت أزليته. ثم قال ﷺ في الصفة الثالثة: «و الآخر لا غاية له» كما أشرنا آنفاً فإن هذه نتيجة لعدم تناهيه، وبعبارة أخرى إنتفاء نظيره. ومن الواضح أن الصفة الثانية والثالثة ثبوتية: فأوليته في الأزل، وآخريته في الأبد. وقال ﷺ في الصفة الرابعة: «لا تقع الأوهام له على صفة» فنحن نعلم أن عقلنا محدود لا يسعه إدراك سوى المحدودات، وعليه فليس للوهم أن يحيط بذاته المقدسة وصفاته المطلقة التي هي عين ذاته، وبعبارة أخرى فإن علمنا بصفاته إنما هو من قبيل العلم الإجمالي، وإلا فالعلم التفصيلي بذاته وصفاته متعذر على مخلوقاته. ويتضح مما ذكر أن الأوهام هنا بمعنى الأفكار، غير أن الفكر حين يعجز يعبر عنه بالوهم. ثم أشار الإمام ﷺ في الصفة الخامسة والسادسة إلى نفي الكيفية والكمية عن الذات الإلهية المقدسة قائلاً: «ولا تعقد القلوب منه على كيفية، ولا تناله التجزئة التبعية» والكيفية عبارة عن الشكل والهيئة التي تتخذها الأشياء، سواء كانت هذه الهيئة قابلة للرؤية أو السماع أو اللمس. وبالطبع فإن الكيفية إنما ترتبط بالأمور التي تكون أوصافها زائدة على ذاتها، أما من كانت صفاته عين ذاته، وكانت ذاته خالية من التعدد فليس للكيفية من سبيل إلى ذاته، بعبارة أخرى فإن الكيفيات ناشئة من المحدوديات والذات الإلهية اللامحدودة لا كيفية لها. كما أن الاشتغال على الجزء والبعض من خواص الأجسام، ومن هنا فالكمية من عوارض الجسم، ولما كان الله سبحانه منزّه عن الجسمية، لم تجز عليه التجزئة والتبعية، وليس للكمية من سبيل إلى ذاته المقدسة. بعبارة أخرى: إنما تطلق الكمية حيث الزيادة والنقصان، وعليه فليس لله من كمية حيث ليس هنالك من زيادة أو نقصان في وجوده المطلق اللامتناهي. على ضوء ما مر معنا فإن التجزئة والتبعية لفظان مترادفان يفيدان معنى واحد، ألا أن بعض شراح نهج البلاغة احتملوا أن التجزئة إشارة إلى الأجزاء العقلية (كالجنس والفصل المنطقيين) والتبعية إشارة إلى الأجزاء الخارجية. على كل حال ففهوم

١. «أوهام» جمع «وهم» على وزن فهم تعني لغويًا ما يخطر على القلب، وقد وردت في الخطبة بمعنى إجمالة الفكر التي لا تبلغ كنه الذات الإلهية المقدسة وصفاته سبحانه، وبعبارة أخرى لا تبلغ كنه ذاته حتى ذروة حركة العقل التي عبر عنها هنا بالوهم.

العبرة هو أن الذات الإلهية ليست مركبة من أجزاء لافي الخارج ولا في الذهن، لأنه لو كان مركباً من أجزاء لاحتاج إليها، والحال أنه غني بالذات، والاحتاج بممكن الوجود، لا واجب الوجود. ثم قال عليه السلام في الصفة السابعة والثامنة: «ولا تحيط به الأبصار والقلوب» أما قوله عليه السلام لا تحيطه الابصار، فواضح، لأن الإنسان يرى بعينه الألوان والضوء ومن ثم الأجسام، ولما كان اللون من خواص الجسم، وللجسم زمان ومكان وأجزاء، فالنتيجة أنه محتاج وممكن الوجود، والله أعظم وأجل شأنًا من ذلك وان ذهب بعض علماء العامة استناداً إلى بعض الروايات - المخدوشة السند أو الدلالة - إلى رؤية الله سبحانه يوم القيامة، الأمر الذي يعتبر من الشرك؛ لأن ذلك يستلزم كون الله جسماً له زمان ومكان وجهة ولون، أما نحن وعلى ضوء تعاليم أئمتنا عليهم السلام نعتقد بأن الرؤية محالة على الله سبحانه، لافي هذا العالم ولا في عالم الآخرة! والأدلة العقلية التي أشارت إلى جانب من ذلك في الخطبة إنما تثبت هذه الحقيقة، وليس للاستثناء من سبيل إلى الأدلة العقلية. ^١ أما عدم إحاطة العقول بذاته المطهرة فلكونها غير محدودة، وليس للعقل المحدود قدرة إدراك غير المحدود، ولذلك قلنا سابقاً إن علمنا بذاته وصفاته سبحانه إجمالي لا تفصيلي. والذي يجدر ذكره هو أن الإمام عليه السلام عبر بعدم الإحاطة بشأن نبي الرؤية بواسطة العين وكذلك الرؤية العقلية، والذي يمثل في الواقع الدليل على المطلوب، لأن الإحاطة بالشيء من لوازم الرؤية أو المشاهدة العقلية، وكيف يحاط وجود مطلق لامتناهي.

وهنا يقتدح هذا السؤال وهو أن الإمام عليه السلام قال: «لاتدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان» ^٢ أفلا يناقض هذا الكلام ما ورد في الخطبة؟ والجواب على هذا السؤال أن المراد من عدم إحاطة العقل بذاته هو نفي إدراك كنه الذات، وبعبارة أخرى: العلم التفصيلي؛ أما ما ورد في الخطبة ١٧٩ من رؤية الله من قبل القلوب يشير إلى العلم الإجمالي. فقد ورد عن الإمام الجواد عليه السلام أنه قال: «أوهام القلوب أدق من أبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التي لم تدخلها ولاتدركها ببصرك، فأوهام القلوب لاتدركه، فكيف أبصار العيون» ^٣. على كل حال فإن ما أورده الإمام عليه السلام من

١. راجع بهذا الشأن (نفي رؤية الله) المجلد الأول من هذا الكتاب، وكتاب رسالة القرآن ٢٣٢/٤ - ٢٥١.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩.

٣. ميزان الحكمة ١٨٩٣/٣، ح ١٢٣١٦.

صفات في هذه العبارات بشأن الذات المقدسة، إنما يشير إلى ذروة قدرة الإنسان على معرفة الله. فليس هنالك من يورد مثل هذه الصفات سوى المعصوم ولاسيما أمير المؤمنين علي عليه السلام. ونختتم البحث بما ذكره ابن أبي الحديد بهذا الشأن فقد قال: وإعلم أن التوحيد والعدل والمباحث الشريفة الإلهية، ما عرفت إلا من كلام هذا الرجل، وأن كلام غيره من أكابر الصحابة لم يتضمن شيئاً من ذلك أصلاً؛ ولا كانوا يتصورونه، ولو تصوروه لذكروه. وهذه الفضيلة عندي أعظم فضائله عليه السلام.^١

تأمل

كيفية معرفة الإنسان بالذات المقدسة

تعد هذه المسئلة من أدق وأعقد المسائل العقائدية والتي تزل فيها الأقدام والأقلام حتى سلكت طائفة الإفراط، بينما سلكت أخرى التفريط بهذا الشأن. فقد إبتعدت طائفة عن معرفة الله حتى اصطلح عليها بالمعطلة، حيث زعمت أننا لانعلم أي شيء إيجابي عن ذاته وصفاته سبحانه، وليس لنا سوى إستناد إلى سلسلة من الأمور السلبية، فكل ما نقوله أن الله ليس بعموم، ليس عاجز، وليس جاهل، ولو أردنا أن نسلك سبيل الصفات الثبوتية فإن كل الأبواب مغلقة بوجهنا. هذه هي الطائفة التي تدعى بالمعطلة. أمّا الطائفة الثانية فقد ذهبت إلى العكس مما ذهبت إليه الطائفة الأولى حتى جعلت من الله جسماً وصنعت له أعضاء وبدن، وهي الطائفة التي يصطلح عليها بالمشبهة، حيث شبهت الله بعباده. أمّا الطائفة الثالثة الوسط التي تخالف إفراط الأولى وتفريط الثانية - حيث تتصف كلا الطائفتين بالضلال والتغرب عن القرآن والتعاليم الإسلامية - وهي التي تقول بالمعرفة الإجمالية لذاته وصفاته سبحانه، دون أن يقف أحد على كنه تلك الذات المقدسة وصفاتها. وبعبارة أوضح: إذا نظرنا إلى عالم الوجود وتأملنا آثار العلم والحكمة وعظم القدرة الحاكمة في كل مكان فاننا سنقف على أن هذه الأنظمة والقوانين المعقدة التي تحكم كافة دقائق هذا الوجود إنما تنطلق من مصدر يتصف

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٤٦/٦.

بالعلم والقدرة المطلقة، الأمر الذي يجعلنا نمتلك معرفة إجمالية بهذه الذات المقدسة. من جانب آخر فانتا إذا فكرنا في ذاته سبحانه وتساءلنا ما حقيقتها؟ هل هي نور؟ أعظم من النور؟ وجود بسيط وخالص؟ لانفهم على وجه الدقة حقيقة ذاته. وكل ما نعرفه أنّ ذاته تفوق الجسم والجسمانيات، وتترفع عن الخيال القياس والظن والوهم، وأنّه أعظم من كل ما رأينا وسمعنا وتصورنا. له علم وقدرة مطلقة، ولكن ما كيفية هذا العلم وهذه القدرة، يتعذر علينا الجواب على ذلك. وكلما أردنا أن نحصره في فكرنا لنقف على حقيقة ذاته، رأينا فكرنا قاصراً عاجزاً، بل إذا إقتربنا شبراً من حقيقة ذاته - كما يقول الشاعر - ابتعدنا عنها ميلاً. وكيف لا يكون الأمر كذلك ووجودنا محدود متناهي ووجوده مطلق لامتناهي. فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «فهذه الشمس خلق من خلق الله فان قدرت أن تملأ عينيك منها فهو كما تقول»^١. فقد أراد الإمام عليه السلام أن يعرفنا بمحدودية قدرة باصرتنا وفكرنا إزاء ذاته المنزهة عن الحدود. ومن هنا يتوجب علينا أن نخشع لله سبحانه ونمد أيدينا له بالدعاء لتردد ما قاله الإمام الهادي عليه السلام في مناجاته للحق سبحانه: «إلهي تاهت أوهام الموهمين، وقصر طرف الطارفين وتلاشت أوصاف الواصفين، واضلحت أقاويل المبطلين عن الدرك العجيب شأنك، أو الوقوع بالبلوغ إلى علوك، فأنت في المكان الذي لا يتناهى ولم تقع عليك عيون بإشارة ولا عبارة، هيهات ثم هيهات»^٢.

إلا أنّ هذا لا يعني أنّ المعرفة الإجمالية متعذرة علينا؛ فقد ملأت آثار ذاته وصفاته الوجود بأسره، فضلا عن وجودنا.



١. اصول الكافي ٩٣/١.

٢. توحيد الصدوق ٦٧.

القسم الثاني

ومنها: «فَاتَّعِظُوا عِبَادَ اللَّهِ بِالْعِبَرِ النَّوَافِعِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْآيِ السُّوَاطِعِ، وَازْدَجِرُوا بِالنُّذْرِ الْبَوَالِغِ، وَانْتَفِعُوا بِالذُّخْرِ وَالْمَوَاعِظِ، فَكَأَنَّ قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ الْمَنِيَّةِ وَانْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عَلَائِقُ الْأُمْنِيَّةِ، وَدَهَمَتْكُمْ مَفْطِغَاتُ الْأُمُورِ، وَالسِّيَاقَةُ إِلَى الْوِزْدِ الْمَوْزُودِ، ف«كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ»: سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا؛ وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا».

٤٥٥٨

الشرح والتفسير

الاعتاظ والاعتبار

لقد واصل الإمام عليه السلام كلامه بحمل مخاطبيه إلى التأمل في سالف التاريخ وحوادثه التي تنطوي على الدروس والعبر بغية توظيفها لما يخدم مصيرهم وعاقبتهم، فقال: «فَاتَّعِظُوا عِبَادَ اللَّهِ بِالْعِبَرِ النَّوَافِعِ». نعم تذكروا عطاء التاريخ وكبكية الملوك السلاطين والثراء العظيم الذي كان عليه الماضون والحياة المرفهة الوادعة، ثم انظروا كيف أتى الدهر عليها فأحالها ركاما بعد أن أبادهم عن آخرهم، فلم تبق من قصورهم الشاهقة سوى الاطلال، بل لم يبق من أجسادهم سوى العظام النخرة، فقد ذهبوا وأكلهم النسيان. ثم قال عليه السلام: «وَاعْتَبِرُوا بِالْآيِ السُّوَاطِعِ، اَزْدَجِرُوا بِالنُّذْرِ الْبَوَالِغِ» فهي من قبيل التحذيرات التي أثارها القرآن الكريم، فهو يشرح أحيانا العذاب الأليم الذي نزل بالأقوام الطاغية الظالمة الماضية، وأخرى يتحدث عن شدة العذاب الأخروي، وأخيراً يضطر الإنسان للتفكير بجد في عاقبته، ويحذره من

١. «سواطع» جمع «ساطعة» النور الواسع الظاهر الدلالة، كما تستعمل هذه المفردة في الأمور المعنوية كآيات القرآن المجيد الظاهرة أو الشخصيات الإسلامية البارزة.

مقارفة الذنوب والمعاصي. ثم قال ﷺ: «و انتفعوا بالذكر والمواعظ» والفارق بين هذه التحذيرات الأربع: ففي التحذير الأول يلفت الإمام ﷺ انتباه الجميع إلى الحوادث التاريخية الماضية والحاضرة التي تنطوي على الدروس والعبر ليتعظ بها، وفي التحذير الثاني أشار إلى دلالاته سبحانه في عالم الوجود أو الآيات القرآنية التي توقظ الضمير. وفي التحذير الثالث تطرق إلى نذر أولياء الله. وأخيراً تعرض في التحذير الرابع إلى نصائح أولياء الله ومواعظهم، وهي التحذيرات الكافية لآثارة حيلة وحذر من كان له أدنى استعداد للتقبل. ثم واصل ﷺ كلامه بالحديث عن مرارة لحظات الموت ومعالجة سكراته فقال: «فكأن قد علقتم^١ مخالب^٢ المنية، وانقطعت منكم علائق الأمنية، ودهمتكم^٣ مفضعات^٤ الأمور، والسياقة إلى الورود المورود، ف«كل نفس معها سائق وشهيد» سائق يسوقها إلى محشرها؛ وشاهد يشهد عليها بعملها». لما كان الموت قد كتب على الجميع ولم يعنى زمانه، بحيث يفاجئ الإنسان، فإن الإمام ﷺ يتحدث عنه كأمر قد وقع، فيصرح كأيّ قد رأيتم في مخالب الموت وقد أحاطت بكم سكراته وقد قطعت كل أمانيكم وذهبت أدراج الرياح كأنها ضرب من ضروب الخيال والاحلام، وكأنكم انتقلتم من هذه الدنيا إلى الآخرة، يقود كما المكان إلى المحشر. وقد ورد عن الإمام شبيه هذا المعنى في الخطبة ٢٠٤ «تجهزوا رحمكم الله! فقد نوذي فيكم بالرحيل، وأقلوا العرجة على الدنيا، وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد، فان أمامكم عقبة كؤودا، ومنازل مخوفة مهولة، لا بد من الورود عليها، والوقوف عندها». والعبارة «والسياقة إلى الورود المورود» إشارة إلى الآية ٩٨ من سورة هود: «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ

١. «علقتمكم» من مادة «علق» على وزن فلق تعني في الأصل الرابطة الشديدة والتعلق بالشئ، كما تستعمل هذه المفردة في الحيوان المفترس الذي يمسك فريسته بأسنانه ويمتص دماها، أو أن يفترسها بمخالبه. وقد شبهت العبارة الموت بهذا الحيوان.

٢. «مخالب» جمع «مخلب» على وزن محور ومادته «خلب».

٣. «دهمتكم» من مادة «دهم» على وزن فهم بمعنى الغشارة، وتستعمل هذه المفردة حين غلبة شئ على آخر وإحاطته به، هذا هو المراد بها في العبارة، كما تستعمل في الظلمة التي تحيط بالأشياء، كما تطلق على الأخضر الفاتح، من قبيل مدهامتان التي وردت في سورة الرحمن.

٤. «مفضعات» من مادة «فضع» على وزن جزع بمعنى الاخافة ومفضعات الأمر شدته، وتطلق على الحوادث العظيمة التي تخيف الإنسان.

الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ». «ورد» تعني ما يشقه من طريق بمحاذاة النهر الكبير الذي يبتعد ساحله عن الماء، ليتمكن الشخص من الوصول إلى الماء بسهولة، والمورد هو الموضع الذي يرده العطاش، وهي إشارة إلى أن المذنبين محرومون من ماء أنهار الجنة العذبة الزلال فيردون ماء جهنم، الذي يشوي الوجوه والبطون. وقوله ﷺ: «كَلَّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ». أما المراد بالسائق والشهيد فقد اختلفت فيه أقوال مفسري القرآن وشرّاح نهج البلاغة. فذهب البعض إلى أن المراد بالسائق الملك الذي يكتب الحسنات، والشهيد من يكتب السيئات، وقيل السائق ملك والشهيد أعضاء بدن الإنسان، أو صحيفة أعماله التي تعلق في عنقه. وهناك قول آخر أن يكون المراد بالسائق الملك الذي يجمع بين الأمرين، كأنه قال: وجاءت كل نفس معها ملك يسوقها إلى المحشر ويشهد عليها. وأخيراً قيل السائق هو الأمر الإلهي الذي يسوق الإنسان إلى المحشر من أجل الوقوف للحساب والجزاء، والشاهد الأنبياء والعلماء، أو عقل الإنسان وأعضاؤه. إلا أن الأظهر في الأخبار والآثار أنهما ملكان، أحدهما يسوق الإنسان إلى المحشر، والآخر يشهد على أعماله.

القسم الثالث

ومنها في صفة الجنة

«دَرَجَاتٌ مُتَفَاوِضَاتٌ، وَمَنَازِلٌ مُتَفَاوِثَاتٌ، لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا، وَلَا يَظَعُنُ مُقِيمُهَا، وَلَا يَهْرَمُ خَالِدُهَا، وَلَا يَبْأَسُ سَاكِنُهَا».

۴۰۶

الشرح والتفسير

درجات الجنة

اختتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن نعم الجنة وأطاف الباري سبحانه بأهلها ليخلط الانذار بالبشارة جريا على طريقة القرآن في خلق الشعور بالخوف والرجاء لدى العباد لتدفعهم بالتالي نحو السمو والتكامل والسير إلى الله، فقال: «درجات متفاضلات، ومنازل متفاوتات» فالعبارة تفيد أن الإنسان لا ينبغي أن يقتنع بما عليه من الكمال مهما كانت المرحلة التي بلغها، وعليه أن يواصل مسيرته ويجد في العلم والعمل ويسعى لتهديب نفسه. ومن الواضح أن نصيب الإنسان من النعم المادية والمعنوية الأخروية إنما يتوقف على مدى إيمانه وعمله ومعرفته وما تحلى به من أخلاق. وقد أشار القرآن كرارا إلى درجات الجنة كقوله: «وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا»^١ وقال: «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ»^٢، ثم تعرض لشرح هذه الدرجات: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ»^٣ «أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ»^٤ «فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ»^٥ وقال:

١. سورة الانعام / ١٣٢.

٢. سورة الانعام / ٨٣.

٣. سورة الواقعة / ١٠-١٢.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾^١ ثم اختتمت سورة الواقعة بالحديث عن هاتين الطائفتين التي تفوق إحداهما الاخرى فقال: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَسَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾^٢. كما صرح القرآن بأن مثوى المؤمنين الصالحين «جَنَّاتِ عَدْنٍ» وطائفة «جَنَّاتِ الْمَأْوَى» وأخرى «جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ» وأخرى «جَنَّاتِ النَّعِيمِ» في إشارة إلى مقامات الجنة ودرجاتها.^٣ وجاء في الخبر أن رسول الله ﷺ قال: «الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض؛ الفردوس أعلاها درجة، منها تفجر أنهار الجنة الأربعة، فإذا سألتموا الله، فاسألوه الفردوس»^٤ وورد أيضاً «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيُرُونَ أَهْلَ عِلِّيِّينَ كَمَا يَرَى النُّجُومُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ»^٥ ومن الطبيعي أن تتفاوت مقامات المؤمنين في الجنة على ضوء إيمانهم عملهم، ولعل العدد مئة الوارد في الحديث إشارة إلى الكثرة وأن تفاوت المقامات أكثر بكثير من هذا العدد، كما يمكن أن تكون الدرجات الأصلية للجنة مئة درجة، وتقسم كل واحدة منها إلى عدة درجات، ومن هنا ورد في القرآن: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾^٦. وورد في حديث الإمام زين العابدين عليه السلام أن درجات الجنة بعدد آيات القرآن، فيقال لقارئ القرآن يوم القيامة اقرأ وارقا.^٧ ثم ذكر عليه السلام أربع صفات للجنة تفوق كل واحدة منها الأخرى، فقال عليه السلام: «لا ينقطع نعيمها» أي نعمها ليست من قبيل نعم الدنيا التي تزداد وتنقص وتندم، ما ورد ذلك في الآية ٣٥ من سورة الرعد: ﴿أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾، ثم قال في الصفة الثانية «و لا يظعن^٨ مقيمها» والصفة الثالثة «و لا يهرم خالدها» وأخيرا الصفة الرابعة «و لا يبأس^٩ ساكنها».

١. سورة الواقعة / ٢٧.

٢. سورة الواقعة / ٨٨ - ٩١.

٣. انظر نفحات القرآن ٣٤٥/٦ «مقامات الجنة».

٤. بحار الأنوار ٨٩/٨.

٥. منهاج البراعة ١١٩/٦.

٦. سورة طه / ٧٥.

٧. بحار الأنوار ١٣٣/٨.

٨. «يظعن» من مادة «ظعن» على وزن ظعن بمعنى السفر.

٩. «يبأس» من مادة «بأس» بمعنى الفقر وشدة الحاجة.



وفيها بيان صفات الحق جل جلاله، ثم عظة الناس بالتقوى والمشورة^٢

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة في الواقع من خمسة أقسام: القسم الأول كما ورد في أغلب خطب نهج البلاغة في بيان أوصاف الله سبحانه؛ الصفات ذات الأثر البالغ في تربية الإنسان وتصده عن الذنوب والمعاصي وتسوقه إلى الخير والاحسان. القسم الثاني في وعظ الناس والتزود من هذه الدنيا والتأهب للآخرة وعدم نسيان الهدف من خلقهم. القسم الثالث في أهمية القرآن وإتمام الحجّة. القسم الرابع تحذير الناس من نوم الغفلة وتدارك ما مضى من العمر في أواخره والحيلة من مكائد الشيطان. وأخيرا القسم الخامس في الإشارة إلى بعض الصفات الذميمة والتعريف بأفضل الأفراد.

فالخطبة بهذه الأقسام علاج لمرضى القلوب من أهل الغفلة.



١. سند الخطبة: رويت هذه الخطبة متفرقة في الكتب الآتية وكلها سابق نهج البلاغة لأن كل واحد من مؤلفيها أخذ غرضه منها: الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري وتحف العقول لابن شعبة الحراني والمحاسن للبرقي، ما رويت فقرات منها في المجالس للمفيد والمشكاة للطبرسي والغرر للآمدي (مصادر نهج البلاغة ١٢٧/٢).
٢. ورد في نسخ نهج البلاغة لصبحي الصالح التي اقتبست منها متون هذا الكتاب وهي النسخة الصحيحة نسيباً، ان عنوان الخطبة هو عظة الناس بالتقوى والمشورة، ويبدو أنه هو الذي ذكر لها هذا العنوان، في حين لم يرد في الخطبة شيئاً بشأن المشورة، فلا يستبعد أن يكون الأمر قد اشتبه عليه حيث خلطها باحدى سائر خطب نهج البلاغة.

القسم الأول

«قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ، وَخَبَرَ الضَّمَائِرَ، لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالغَلْبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ».



الشرح والتفسير

العالم بالخفايا والاسرار

أشار الإمام عليه السلام إلى خمس من صفات الله سبحانه، يفيد التفاعل معها وتصديقها إلى الاتقياء إلى الحق وتهذيب النفس وتركيتها.

الصفة الأولى: «قد علم السرائر».

الصفة الثانية: «و خبر الضمائر».

الصفة الثالثة: «له الإحاطة بكل شيء».

الصفة الرابعة: «و الغلبة لكل شيء».

الصفة الخامسة: «و القوة على كل شيء».

وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى وحدة معنى العبارة الأولى والثانية وعدوها من قبيل المرادفات في أنّ الله عليم بأسرار وخفايا كل فرد. بينما قال البعض: خبر بفتح الباء بمعنى الاختبار وخبر بكسرها بمعنى العلم، فقد وردت الأولى بمعنى الاختبار في موضع آخر من نهج البلاغة «إنما مثل من خبر الدنيا»^١ ولما كان الأصل في الجملة هو بيانها لمعنى جديد، يبدو أنّ تفسير الخبر بالامتحان أنسب، وإن كان الامتحان سبب العلم، بل قد يكون امتحان الشيء

كناية عن العلم به. على كل حال الهدف هو أن نلتفت إلى أن البارئ سبحانه عليم بكافة أسرارنا وما يدور في خلدنا، حتى أنه أعلم بنا من أنفسنا، فهو يعلم بسوء نياتنا وريائنا وشركنا، وعلمه بظاهرها وباطننا على حد سواء. والعبارة «له الإحاطة بكل شيء» من قبيل ذكر العام بعد الخاص، لأن العبارات السابقة تحدثت عن إحاطته العلمية سبحانه بباطن الناس، بينما أشارت هذه العبارة إلى علمه بكافة الأشياء، ومن ذلك أيضاً العبارة الرابعة والخامسة التي تحدثت عن قدرته المطلقة سبحانه، مع هذا الفارق وهو أن العبارة الرابعة ناظرة لغلبته وسيطرته على كل شيء، في حين تبين الخامسة قدرته على الإتيان بكل شيء. وقيل أن الفارق بينهما هو أن القوة على كل شيء تعني القدرة على إيجاده، والغلبة تعني السيطرة بعد الإيجاد؛ أي أن الأشياء لا تستطيع الخروج من قدرته سبحانه بعد إيجادها. على كل حال فإن هذه الصفات الخمس شرح لعلم الله وقدرته المطلقة، ومن شأن استحضارهما مجانبية الخطايا والاندفاع نحو الطاعة والانقياد للحق.

القسم الثاني

«فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهْلِهِ، قَبْلَ إِرْهَاقِ أَجَلِهِ، وَفِي فَرَاغِهِ قَبْلَ
أَوْانِ شُغْلِهِ، وَفِي مُتَنَفِّسِهِ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكَظْمِهِ، وَلِيْمَهْدَ لِنَفْسِهِ
وَقَدَمِهِ، لِيَتَزَوَّدَ مِنْ دَارِ ظَعْنِهِ لِدَارِ إِقَامَتِهِ. فَاللَّهُ اللَّهُ أَيُّهَا النَّاسُ، فِيمَا
اسْتَحْفَظْتُمْ [احفظكم] مِنْ كِتَابِهِ، وَاسْتَوَدَعْتُمْ مِنْ حُقُوقِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ
لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى وَلَمْ يَدْعُكُمْ فِي جَهَالَةٍ وَلَا عَمَى، قَدْ سَمَى
آثَارَكُمْ، وَعَلِمَ أَعْمَالَكُمْ، وَكَتَبَ آجَالَكُمْ».

۵۰۰۸

الشرح والتفسير

الزاد إلى المعاد

لفت الإمام عليه السلام الانتباه سابقاً إلى قدرة الله وعلمه بخفايا الكائنات وأسرار الضمائر، وما ذلك إلا مقدمة لما أورده هنا: «فليعمل العامل منكم في أيام مهله^١ قبل إرهاق^٢ أجله، وفي فراغه قبل أوان شغله، وفي متنفسه^٣ قبل أن يؤخذ بكظمه^٤» ثم بين عليه السلام الهدف من هذا الجهد والعمل فقال: «و ليْمَهْدَ لِنَفْسِهِ وَقَدَمِهِ، وَلِيَتَزَوَّدَ مِنْ دَارِ ظَعْنِهِ لِدَارِ إِقَامَتِهِ» فالواقع هو أن العبارات السابقة تحدثت عن أصل السعي والعمل، بينما عينت الأخيرة مساره وجهته. جدير بالذكر أن العبارة «أيام مهله» فسّرت بالعبارات الثلاث اللاحقة، فالعبارة الأولى «قبل إرهاق أجله» إشارة إلى أصل نعمة الحياة والعمر، والعبارة الثانية «وفي فراغه» إشارة إلى

١. «مهل» على وزن اجل بمعنى المداراة والمهلة.

٢. «إرهاق» من مادة «رَهَقَ» على وزن شفق بمعنى الغشية والتغطية والسيطرة، ومن هنا فإن الأجل إذا جاء للإنسان فإنه يسيطر على كافة وجوده، وقد استفيد من هذا التعبير في الخطبة أعلاه بمعنى الأجل.

٣. «متنفس» من مادة «تنفس» زمان الاتساع والراحة.

٤. «كظم» على وزن قلم بمعنى المضيق ومجرى التنفس.

و«كظم» على وزن هضم، وله معنى مصدري بمعنى حبس النفس، ويستعمل كناية عن ضبط النفس عند الغضب، وما شابه ذلك.

نعمة الفراغ في مقابل الانشغال والعمل والهم بالزوجة والولد، والعبارة الثالثة «وفي مقنفسه»
 نعمة العافية والسلامة وعدم وجود الشدائد والمصائب. أما العبارة «وليمهد...» فهي تشير إلى
 التأهب للآخرة، في حين تشير «وليتزود» إلى التجهز وكسب الزاد؛ على غرار ما يفعل
 الإنسان في هذه الدنيا، حيث يعد المنزل وأدواته ثم يتجه صوب الزاد والمتاع. ثم يواصل
 الإمام عليه السلام تحذيراته فيقول: «فَاللَّهِ اللَّهُ أَيُّهَا النَّاسُ، فِيمَا اسْتَحْفَظْتُمْ مِنْ كِتَابِهِ، وَاسْتَوَدَعْتُمْ
 مِنْ حَقْوَقِهِ». طبعاً المراد من الكتاب القرآن الكريم حيث كلف الناس بصيانتته والالتزام
 بأحكامه، أمّا المقصود بالحقوق التي استودعها العباد فهي أحكام الحلال والحرام التي ينبغي
 الالتزام بها وعدم مخالفتها.^١ ثم بين الدليل من هذا الانذار بقوله: «فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَمْ
 يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا وَلَمْ يَتْرَكْكُمْ سُدًى^٢ وَلَمْ يَدْعُكُمْ فِي جِهَالَةٍ وَلَا عَمَى، قَدْ سَمَى آثَارَكُمْ، وَعِلْمَ
 أَعْمَالِكُمْ، وَكُتِبَ آجَالِكُمْ» فهي عبارات قصيرة ذات معانٍ بعيدة تختزن المفاهيم العظيمة
 المؤيدة بالآيات القرآنية. فقد أشار في المرحلة الأولى إلى الهدف من وراء خلق الإنسان، ومن
 ثم الحديث عن الأمور التي تنطوي عليها الحياة الإنسانية، والمرحلة الثالثة الحديث عن
 وجود الزعماء والعلم بالأعمال، وتطرق بعد ذلك إلى بيان الوظائف والمسؤوليات وعلم الحق
 سبحانه بأعمال البشر، وأخيراً الحديث عن قصر عمر الإنسان وحلول أجله. ومن الواضح
 أنّ الإنسان إذا التفت إلى هذه الأمور وصدقها بكل كيانه ووجوده سيجد من أجل حفظ
 كتاب الله والالتزام بحقوقه. فالمهم أن يستحضر الإنسان هدف الخلق ويستفيد مما زوده به
 الله سبحانه من إمكانيات، فيؤمن بأنّ الله عالماً بأفعاله وإلا ينسى بأنّ عمره قصير آيل إلى
 زوال؛ الأمور التي تلعب دوراً بناءً في خلق شخصية الإنسان وتهذيب نفسه. فقد قال القرآن
 بهذا الشأن: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ»^٣ وقال: «قَدْ جَاءَكُمْ
 بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا»^٤ وقال في الآية ٣٠ من سورة محمد:
 «وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ» وقال «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ»^٥.

١. يعود الضمير في كتابه وحقوقه إلى الله، ولا يتناسب ارجاع الضمير في حقوقه إلى كتابه وسياق الكلام.
 ٢. «سُدًى» على وزن شما بمعنى المهمل والذي لا هدف ولا معنى له، وقد استفيد من هذا الاصطلاح هنا
 للتعبير عن البعير الذي لا راعي له، وقد هام في الصحراء على وجهه، فيرعى من كل مكان يصل إليه.
 ٣. سورة المؤمنون / ١١٥.
 ٤. سورة الانعام / ١٠٤.
 ٥. سورة الاعراف / ٣٤.

القسم الثالث

«وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمْ «الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ» وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَوْمَانًا، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ - فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ - دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ؛ وَأَنْهَى إِلَيْكُمْ - عَلَى لِسَانِهِ - مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَمَكَارِهَهُ، وَنَوَاهِيَهُ وَأَوْامِرَهُ، أَلْقَى إِلَيْكُمْ الْمَعْذِرَةَ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ، وَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

۸۰۰۳

الشرح والتفسير

الكتاب الجامع

جرى الحديث سابقا عن إتمام الحجة على العباد، وهنا يتوسع الإمام عليه السلام في هذا الموضوع فيقول: «وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمْ «الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ» وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَوْمَانًا، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ - فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ - دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ». نعم فقد أنزل سبحانه ذلك الكتاب الجامع الذي ينطوي على كافة المعارف الإلهية والتعاليم المادية والمعنوية على جميع مستويات الحياة البشرية كما ورد ذلك في الآية ۸۹ من سورة النحل: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ». كما منح نبيه عليه السلام الفرصة الكافية لاِبْلَاغِ الدِّينِ وإتمامه؛ الأمر الذي صرحت به الآية الثالثة من سورة المائدة: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا». ثم خاض في التفاصيل بغية توضيح

المطلب فقال ﷺ: «وأنهى^١ إليكم - على لسانه - محابته^٢ من الأعمال ومكارهه، ونواهيه وأمره، وألقى إليكم المعذرة، واتخذ عليكم الحجة، وقدم إليكم بالوعيد، أنذركم بين يدي عذاب شديد» فقد أشار الإمام ﷺ إلى إنعدام العذر بفضل القرآن وسنة النبي الأكرم ﷺ وما تضمناه من تعاليم ومفاهيم، فليس لأي فرد أن يتفوه ببعض الكلمات من قبيل «لم أكن أعلم» أو «لم أقف على هذه الأمور» أو ما بلغتني الحجة، والحق أن هذه العبارة مصداق واضح لقوله سبحانه في كتابه العزيز: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^٣.



جامعية القرآن والسنة

تنطوي العبارة «و أنزل عليكم «الكتاب تبليانا لكل شيء»» المقتبسة من الآية ٨٩ من سورة النحل على حقيقة مهمة ينبغي أن يتوقف عندها الجميع. طبعاً ليس المقصود بهذه العبارة أن القرآن كتاب موسوعي يضم كافة الفروع والتخصصات العلمية كالرياضيات والجغرافيا والكيمياء والفيزياء إلى جانب العلوم الانسانية وما انطوت عليه المدارس الفكرية والنزعات الفلسفية، بل المراد أن القرآن يشتمل على كل ما نزل من أجله وهدف إليه هذا الكتاب السماوي والذي يخلص في بلورة شخصية الإنسان وسعادته في جميع الأصعدة والميادين. فقد بين المعارف الدينية والحقائق المرتبطة بالمبدأ والمعاد ووظائف الإنسان ومسؤولياته تجاه خالقه وتجاه بني جنسه، إضافة إلى تبين المسائل الأخلاقية والقضايا الاجتماعية والمتطلبات الاقتصادية، وقد عمد أحياناً إلى بيان كافة الجزئيات والتفاصيل (كبيانه للأحكام المتعلقة بالعقود المالية ومعاملات الديون التي استعرضتها الآية ٢٨٢ من سورة البقرة، بينما أشار أحياناً أخرى إلى الأصول الكلية والقواعد العامة من قبيل «باب يفتح منه ألف باب»). فالآية القرآنية التي وردت ضمن الخطبة إلى جانب روايات أئمة العصمة ﷺ تذكر المسلمين بأن الهداية والسعادة إنما تكمن في القرآن.

١. «أنهى» من مادة «إنهاء» الاعلام والابلاغ وهذا هو المراد بها في العبارة؛ أي أن الله ابلفكم ما يلزم على لسان نبيه.

٢. «محاب» جمع «محب» اسم مكان مصدر ميمي مواضع حبه وتقبال المكاره.

٣. سورة الانعام / ١٤٩.

إجابة عن سؤال

يبرز هنا هذا السؤال: ما الحاجة إلى سنة النبي وأقوال المعصومين في ظل وجود القرآن الكريم؟

والجواب على هذا السؤال واضح وهو أن أغلب الآيات تحتاج إلى شرح وتفسير وبيان الشرائط وذكر موارد الاستثناء، أو الآيات المتشابهة التي لا تفسر إلا من المعصومين عليهم السلام بردها إلى المحكمات. على سبيل المثال ترد آية في الزكاة وتتطرق إلى مستحقيها من الاصناف الثمانية دون الإشارة إلى ما يجب فيه الزكاة وحد النصاب والشرائط المرتبطة بمرور الحول والشروط التي ينبغي توفرها في المستحقين، وكيفية جمع الزكاة وإنفاقها التي تتطلب تفسيراً من المعصومين عليهم السلام. وناهيك عما سبق فإن هنالك بعض المستحدثات التي تستجد بفعل تقادم الزمان والتي ينبغي البحث عن جذورها وأصولها في كتاب الله من أجل استنباط الأحكام، هنا لا بد من إرشادات المعصومين عليهم السلام لتفادي الزلل. والجدير بالذكر أن القرآن قد دعى الناس إلى الانفتاح على جميع العلوم والمعارف، وأمر بالرجوع إلى أهل الخبرة في كل مسألة من المسائل.

القسم الرابع

«فاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ، وَاصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْغَفْلَةُ، وَالتَّشَاغُلُ عَنِ الْمَوْعِظَةِ؛ وَلَا تُرَخِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ، فَتَذْهَبَ بِكُمْ الرُّخْصُ مَذَاهِبِ الظُّلْمَةِ، وَلَا تُدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمْ الْإِذْهَانُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ».

٤٠٠٨

الشرح والتفسير

إغتنام الفرصة

ما إن فرغ الإمام عليه السلام من الانذار والتحذير وإتمام الحجة على الناس حتى خُص إلى هذه النتيجة المهمة «فاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ، وَاصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ» ثم استدل عليه السلام على ذلك بالقول «فإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْغَفْلَةُ، التَّشَاغُلُ عَنِ الْمَوْعِظَةِ» وحقاً أن الأمر كذلك فلو انتبه الإنسان إلى ساعات عمره وأيامه ولياليه لرأها قصيرة، وعليه فلا بد من اليقظة في ما بقي من عمره والاستناد إلى سلاح الصبر والاستقامة، وذلك لأنَّ الحيطة والحذر من الغفلة تستلزم الصبر، إلى جانب كون الطاعة واجتناب المعصية هي الأخرى بحاجة إلى الصبر، فقد صرحت بعض الروايات الإسلامية بأنَّ نسبة الصبر إلى الإيمان كنسبة الرأس إلى الجسد.^١

والعبارة «تكون منكم فيها الغفلة» بالفعل المضارع إشارة إلى أنَّ هذه الغفلة لم تصدر منكم في الماضي، فهي كذلك في الحاضر، فجدوا واجتهدوا في المستقبل لتدراك ما فرط منكم في السابق، ثم تطرق عليه السلام إلى نقطتين مهمتين تمثلان في الواقع سبيلين خطيرين من سبل نفوذ الشيطان؛ الأول: «و لا تُرَخِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ، فَتَذْهَبَ بِكُمْ الرُّخْصُ مَذَاهِبِ الظُّلْمَةِ» فالتجارب

١. قال علي عليه السلام: «و عليكم بالصبر فان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد». نهج البلاغة، الكلمات القصار ٨٢.

تفيد أنّ أولئك الذين جاوزوا الحد في المباحات والرخص قد هوى آخر الأمر في مستنقع المحرمات. فقد شبهت بعض الروايات والأخبار المحارم بالغرق والمنطقة المحظورة ذات الحدود المعينة ثم شبهت النفس البشرية بالشاة التي ترعى عند تلك الحدود، حتى يلوح لها العلف فتندفع نحوه. فالإنسان قد يندفع بأقصى ما لديه لممارسة المباحات حتى تخدعه نفسه فاذا هو يقارف الخطيئة والمعصية. فقد قال الإمام علي عليه السلام: «والمعاصي حمى الله، فمن يرتع حولها يوشك أن يدخلها»^١. وقد وردت التعبيرات القرآنية الرائعة التي تحذر من الاقتراب من تلك الحمى كقوله: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ»^٢ و«وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا»^٣ و«وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ»^٤.

فأفضل سبيل لمجانبة الذنب تكمن في عدم الاقتراب منه، فلا يوغل في المباح خشية من السقوط بما بعده. والسبيل الثاني: «و لا تداهنوا»^٥ فيهجم بكم الإدهان على المعصية». المراد بالمداهنة هنا مماشاة الإنسان ومرونته لأجل الذنوب والمعاصي واطهار حالة من النفاق، فإن من شأن هذا النفاق أن يقود الإنسان إلى مقارفة الذنب. وأحد المصاديق التي يمكن الإشارة إليها هنا ما تعارف بالحيل الشرعية واللجوء إلى بعض الأساليب التي تعدّ من الحلول الكاذبة لبعض المشاكل، حيث تنتهي بالإنسان في خاتمة المطاف إلى الوقوع في المعصية علانية، وهذا بدوره يعد من سبل الشيطان لجر الإنسان إلى الذنب والخطيئة. وأحياناً يخدع الإنسان نفسه ليقارب الذنب، كما يخدع أحياناً من قبل الآخرين للإتيان بالمعصية، وكلا الأمرين من مصاديق المداهنة. ومن هنا حذر الإمام عليه السلام من هذين السبيلين بغية غلق الابواب بوجه الشيطان وعدم الوقوع في حبائله.



١. وسائل الشيعة ١١٨/١٨ ح ٢٢ الباب ١٢ من أبواب صفات القاضي.

٢. سورة الأنعام / ١٥٢.

٣. سورة الاسراء / ٣٢.

٤. سورة الأنعام / ١٥١.

٥. «تداهنوا» من مادة «مداهنة» وقد اشتقت من مادة «دهن» التي تعنى المرونة المذمومة والنفاق والمماشاة، كما تعني إظهار خلاف ما في الطوية.

طرق نفوذ الشيطان

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى طرق نفوذ الشيطان في قلوب الناس، ليؤكد على موضوعين مهمين بهذا الشأن. الأول المبالغة في الاستفادة من الحرية وممارسة المباحات؛ وذلك لأن بعض المباحات تمثل الحد الأخير لحيز الذنب، بحيث يرد الإنسان هذا الحيز إذا ما اندفع أكثر من اللازم. فالإمام عليه السلام يحذر هنا من الاندفاع وراء هذه المباحات، حيث يخشى على مثل هذا الفرد أن يسلك سبيل الظلمة. ومن هنا نرى الدول والبلدان تعتمد اليوم إلى تعيين حدودها لتشكّل حزامها الأمني، ولا يحق للأفراد أن يقتربوا لبضع كيلومترات من هذه الحدود، لأن الوصول إلى النقطة الحدودية قد يسول للإنسان إذا وصل حد الذنب، قد يبدو له سهلاً فتوسوس له نفسه لمقارفته. والطريق الثاني الذي ينفذ من خلاله الشيطان إلى الإنسان إنما يكمن في مداهنة أهل الذنوب والمعاصي ومجاملتهم على أفعالهم، إلى جانب حل بعض المضلات من خلال الحيل الشرعية وما شابه ذلك. فعادة أهل المعاصي هي الاستخفاف بالذنوب والمعصية وتصغيرها في نظر الآخرين، كما أنّ الحيل الشرعية تقضي على فضاة الذنب وشدته وتتهك الحجب المضروبة بينه وبين الإنسان، فقد جاء في الخبر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: «من داهن نفسه هجمت به على المعاصي المحرمة»^١.



القسم الخامس

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ؛ وَإِنَّ أَعْشَهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ؛ وَالْمَغْبُوتُونَ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ، وَالْمَغْبُوتُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بِغَيْرِهِ». وَالشَّقِيُّ مَنْ انْخَدَعَ لِهَوَاهُ وَغُرُورِهِ».

❦❦❦

الشرح والتفسير

من هو السعيد؟

واصل الإمام عليه السلام حديثه بالنذر والتطرق لسبل نفوذ الشيطان، ليورد هنا بست عبارات قصيرة عظيمة كيفية العمل والخلاص، فقال بادئ ذي بدء: «عباد الله، إن أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربه» ومعنى هذه العبارة أن لا يخدع الإنسان نفسه ولا يكذب عليها ولا يجعل من نقاط ضعفه عناصر قوة في شخصيته ولا يسدل استار عيبه ونقصه أمام نفسه، بل يتهم نفسه بكل إخلاص، فمثل هذا الإنسان يتجه لا محالة نحو الطاعة. ¹ ثم أشار في العبارة الثانية إلى عكس ذلك فقال: «وإن أعشهم² لنفسه أعصاهم لربه». ومن الطبيعي أن الإنسان إذا خدع نفسه وأخفى عنها عيبه، تراءى له الذنب مباحاً، بل قد يبدو له أحياناً أمراً واجباً، وهكذا تتوفر لديه الأرضية الخصبة لمقارفة الآثم والمعصية. وقال في العبارة الثالثة: «والمغبون من غبن نفسه» في إشارة إلى أن بعض الأفراد قد يخدعون هذا الإنسان ويغبنه فيسلبوه ما لديه، كما قد يرتكب الإنسان مثل العمل بحق نفسه فيخدعها فيفقد عناصر القوة

١. لا بد من الالتفات هنا إلى «أنصح» من مادة «نصح» تعني في الأصل الإخلاص، وهذا هو مفهوم النصيحة.
٢. «أعش» من مادة «عش» تعني في الأصل الضعف والعجز، ومن هنا بصطلح بالمغوش على الشيء غير الخالص.

التي كان من المفترض أن تقوده نحو الفوز بالآخرة ونيل سعادتها وفلاحها. وقال في العبارة الرابعة:

«والمغبوط من سلم له دينه». فالغبطة أن يتمنى الإنسان ما لغيره من النعم، وعليه فالمغبوط هو المستحق لتطلع النفوس إليه والرغبة في نيل مثل نعمته، فإن جد واجتهد الإنسان وتمكن من الحفاظ على دينه وإيمانه في ظل هذه الدنيا وتقلباتها فقد أحرز أعظم النعم الإلهية التي يجدر بالآخرين أن يغبطوه عليها. وعلى ضوء القاعدة الأدبية فإن تقديم الخبر على المبتدأ يفيد المحصر، فالعبارة تفيد أن الغبطة لا تكون سوى تجاه من حفظ دينه وإيمانه أزاء حوادث الدهر ومكاره الدنيا، لاتجاه من ينال بعض المقامات ويحبي الأموال والثروات وسائر الإمكانيات المادية الآيلة إلى الفناء والزوال. وقال في العبارة الخامسة: «والسعيد من وعظ بغيره». فما لاشك فيه أن الحوادث المريرة والتجارب القاسية تعد وسيلة لليقظة ومصدرا لنصيحة الإنسان ووعظه، ولكن ما أروع أن يستفيد من تجارب الآخرين ويتعظ بمصيرهم دون أن يرتكب بعض الأخطاء التي قد تلهمه بعض التجربة، فكأنني بهذا الفرد كذلك المنزل الذي جاور حديقة غناء وكان يعمل فيها الآخرين بينما يصله نسيمها ورائحتها الزاكية. ولما كان مصير الأفراد في حياتهم متشابه في الغالب، وبعبارة أخرى «التأريخ يعيد نفسه» فلكل فرد أن يرى جانبا من مصيره في حياة الآخرين. وبناءً على هذا فليس هنالك من يستثنى من هذه العبارة ولا يعتبر بحياة الآخرين. هذا وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن العبارة «والسعيد من وعظ بغيره» تعد مثلاً من الأمثال المعروفة في الأدب العربي^١. بينما عدها ابن أبي الحديد من الأمثال النبوية^٢. ثم اختتم الخطبة بما يقابل العبارة السابقة قائلاً: «والشقي من انخدع لهواه وغروره». واضح أن الإنسان يلام إذا خدع من قبل الآخرين، إلا أنه يكون أكثر ملامة إذا انخدع بهوى نفسه، وذلك لأنه أحرق سعادته بنفسه.



١. شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٢/٢٨٥.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/٣٦٥، المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار ٢١/٢١١ حيث أوردها في تاريخ النبي ﷺ في باب حوادث غزوة تبوك ضمن خطبة ﷺ.

مواطن السعادة لدى الإنسان

من ضمن الأهداف التي تضمنتها الخطبة أن الإمام عليه السلام أشار إلى أن مقومات سعادة الإنسان وفلاحه كامنة في باطنه، لا أن ترد عليه من الخارج. فهو الذي يخدع نفسه، وهو الذي يغيبها وهو الذي يسعه خلق سعادته، وأخيراً هو الذي يفوز بالآخرة بعد أن ينتصر على نفسه ويتغلب على أهوائها وشهواتها. والكلام يصدق على الفرد، كما يصدق على المجتمع؛ فأغلب الأفراد لاسيما في عصرنا الراهن ينسبون عوامل البؤس والشقاء إلى الخارج، فيخدعون أنفسهم ويغلقون عليها سبل النجاة، والحال لا بدّ من إقتفاء آثار هذه الأزمات في الذات والروابط الاجتماعية والأهواء النفسية والفرقة والشقاق والنفاق والحسد وسائر الأمراض المقيتة. وكفى بهذه الخطبة سبيلاً لسعادة الإنسان حتى لو لم تتضمن سوى هذا الهدف العظيم.

القسم السادس

«وَاعْلَمُوا أَنَّ «يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ» وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ الْهَوَى مَنَسَاةٌ لِلْإِيمَانِ، وَمَخْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ. جَانِبُوا الْكُذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ. الصَّادِقُ عَلَى شَفَا مَنجَاةٍ وَكَرَامَةٍ، وَالْكَاذِبُ عَلَى شَرْفِ مَهْوَاةٍ وَمَهَانَةٍ. لِاتَّحَاسَدُوا، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْإِيمَانَ «كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»؛ «وَلَا تَبَاغَضُوا فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ»؛ وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَلَ يُسْهِي الْعَقْلَ، وَيُنْسِي الذِّكْرَ، فَأَكْذِبُوا الْأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ».



الشرح والتفسير

الصفات والذميمة

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالتحذير من ست رذائل (الرياء، مجالسة أهل الهوى، الكذب، الحسد، التباغض وطول الأمل)، إلى جانب الإشارة لما تختزنه كل رذيلة من أضرار، فقال عليه السلام: «وَاعْلَمُوا أَنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ» لأنَّ المرابي يقوم بالعمل رضا للعباد وتظاهراً بالاحسان من أجل لفت إنتباه الآخرين، ليطلب العزة من أقرانه الضعفاء العجزة بدلاً من طلبها من منبعها: «وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ»^١ وهذا شرك يتناقض وتوحيد الأفعال. وقد تظافرت الروايات والأخبار التي صرحت بأنَّ المرابي ينادى يوم القيامة: «يا كافر! يا فاجر! يا غادر! يا خاسر! حبط عملك وبطل أجرك، فلا خالص لك اليوم، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له»^٢ أضف إلى ذلك فإنَّ المرابي ولتناقض ظاهره وباطنه فهو في زمرة المنافقين، ولهذا فإنَّ النفاق

١. سورة آل عمران ٢٦/.

٢. وسائل الشيعة، ج ١، الباب ١١ من ابواب مقدمات العبادة، ح ١٦.

يحيل أعماله إلى قشور لالب فيها. فقد ورد في الحديث عن النبي الأكرم ﷺ إنه قال: «سيأتي على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم، وتحسن فيه علانيتهم، طمعاً في الدنيا، لا يريدون بها ما عند ربهم، يكون دينهم رياءً؛ «يخالطهم خوف، يعمهم الله بعقاب، فيدعونه دعا الغريق، فلا يستجيب لهم»^١ وبالطبع فإن أفصح الناس إذا وضعت موازين القيامة هم أهل الرياء. ثم أورد الرذيلة الثانية: «ومجالسة أهل الهوى منسأة^٢ للإيمان، ومحاضرة^٣ للشيطان» لأن الهوى لا يعرف الحدود والقيود فيملاً كيان الإنسان ويستهلك فكره فلا يدع من مجال للإيمان، ومن الطبيعي أن يكون مثل هذا المجلس محضراً للشياطين، ومخالطة الآخرين على درجة من الأهمية بحيث ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء على دين خليله وقريته»^٤. وجاء في المثل المعروف: «قل لي من تعاشر، أقل لك من أنت»^٥. ثم حذر^٦ من رذيلة الكذب: «جانبوا الكذب فإنه مجانيب للإيمان» فالمفردة جانبوا تفيد أن الكذب على درجة من الخطورة بحيث يجب على الإنسان أن يتعد عنه ولا يقترب، حذراً من أن تتفاذه الوسواس فتلقيه في الهاوية. والعبارة: «مجانب للإيمان» لاتفيد أن الكذب لا ينسجم والإيمان فحسب، بل هو شديد البعد عنه، لأن الكاذب إنما يكذب عادة لجلب منفعة أو دفع ضرر أو بدافع من هوى النفس، والحال يعلم المؤمن أن كل هذه الأمور بيد الله، كما يؤمن بان الهوى نوع من الوثنية. وشاهد ذلك الجملة اللاحقة التي بينها الإمام ﷺ تأكيداً للعبارة السابقة فقال: «الصادق على شفا^٧ منجاة وكرامة، والكاذب على شرف مهواة^٧ ومهانة». ثم قال محذراً من الرذيلة الرابعة: «ولاتحاسدوا، فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»؛ لأن

١. وسائل الشيعة، ١١/١، ح ٤.

٢. «منسأة» من مادة «نساء» على وزن نصب بمعنى الترك والتأخير.

٣. «محاضرة» اسم مكان من مادة «حضور» الموضع الذي يحضره الإنسان أو الشيء.

٤. شرح نهج البلاغة للخولني ١٣٦٦.

٥. في ظلال نهج البلاغة ٤٢٧/١.

٦. «شفا» بمعنى حافة الشيء، وتطلق في الأصل على حافة البئر أو الخندق، ولعل ذلك هو السبب في تسمية الشفة.

٧. «مهواة» من مادة «هوى» لميل إلى الشيء، ومهواة اسم مكان المسافة بين جبلين التي شوق الإنسان أحياناً إلى السقوط.

الحسود في الواقع يعترض على نظام الخليقة واغداق الله لنعمه على العباد؛ الأمر الذي لا ينجس والإيمان، أضف إلى ذلك فليس للحسود أن يرى سعادته في سلب نعم الآخرين، ولو كان مؤمناً بالله لسأل الله مثل هذه النعم. ثم حذر ﷺ من البعض والعداء «ولا تباغضوا فإِنَّهَا الحالقة». الحالقة من مادة حلق (وبالنظر إلى حذف متعلقها) تفيد أن الخصومة والتباغض إنما تجتث أصول الخير والسعادة من جذورها؛ ولا غرو لأن جذور الخير تتمثل بالتعاون والتعاقد بين أفراد المجتمع مع بعضهم البعض الآخر. وأخيراً من الرذيلة السادسة المتمثلة بطول الأمل فقال ﷺ: «واعلموا أن الأمل يسهي العقل، ينسي الذكّر، فأكذبوا الأمل فإنه غرورٌ، وصاحبه مغرورٌ» فالواقع هو أن طول الأمل يغرق الإنسان في عالم من الوهم والخيال ويجعله يدور حول محور الأمور المادية، وهذا من أعظم العقبات التي تعترض سبيل السعادة، وقد دلت التجارب على أن أغلب الأفراد الذين يرتكبون أبشع الجرائم إنما هم ممن ابتلوا بهذه الرذيلة - طول الأمل - التي عدها رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين ﷺ في مصاف عبادة الهوى ومن أخطر عقبات السعادة.



المواعظ البالغة

لقد تضمنت هذه الخطبة وعلى الرغم من قلة عبارتها العديد من الأمور المعنوية من قبيل مفهوم التوحيد وعبودية الله والاهتمام بالكتاب - القرآن الكريم - وما ورد فيه من تعاليم قيمة، إلى جانب التحذيرات التي تهدف إلى تنبيه الإنسان إلى مصيره وعاقبته. كما تطرقت إلى المسائل الأخلاقية المهمة التي تعد الركن الركين لسعادة الإنسان المادية والمعنوية، كاجتناب الشرك والكذب والحسد والعداوة والبغضاء وطول الأمل، ثم أوورد الدليل والبرهان المنطقي الذي يكشف اللثام عن أضرار كل رذيلة من هذه الرذائل. الحق لو تأمل الإنسان هذه الخطبة كل يوم وفكر قليلاً في عبارتها وعقد العزم على الالتزام بها لبلغ بنفسه شاطئ السلامة والأمان.





وهي في بيان صفات المتقين وصفات الفساق والتنبيه إلى مكان العترة الطيبة والظن الخاطيء لبعض الناس

نظرة إلى الخطبة

تتألف الخطبة في الواقع من خمسة أقسام، أربعة منها متصلة، بينما ينفصل عنها الجزء الخامس بما له من مفهوم خاص، وهذا ما يفيد أن السيد الرضي (ره) قد حذف بعض الأقسام من الخطبة. والأقسام الخمسة هي:

القسم الأول: بيان صفات العلماء العاملين ممن شملتهم العناية الإلهية فاستشعروا التقوى والورع وابتعدوا عن أنفسهم الأهواء والشهوات واهتدوا إلى ربهم.
القسم الثاني: بيان صفات علماء السوء الذين اقتبسوا جهلاً من جهالٍ وضلالاً من ضلالٍ فضلوا وأضلوا.

القسم الثالث: تحذير الناس من الضلال والاتجاه نحو الجهال، والحال فيهم عترة النبي ﷺ منابح العلم ومعادن الحكمة.

١. سند الخطبة: من الأدلة التي تفيد أن الخطبة نقلت من مصادر أخرى غير نهج البلاغة ما قاله ابن أبي الحديد بعد أن أكمل شرح هذه الخطبة: وهذه خطبة طويلة وقد حذف الرضي (ره) منها كثيراً (ثم نقل أبي الحديد بعض أقسامها)، ورواها الزمخشري في باب العز والشرف من ربيع الأبرار بتفاوت يسير نعرف منه أنه لم ينقلها عن النهج (مصادر نهج البلاغة ١٣٣/٢).

القسم الرابع: الإشارة إلى بعض كلمات النبي ﷺ بشأن أهل البيت عليهم السلام، كما يستدل على كلامه بحديث الثقلين المتواتر المعروف لدى جميع المسلمين.

القسم الخامس: إشارة إلى الظن الباطل بأنّ الدنيا دائماً لبني أمية، والأخبار عن سقوط دولتهم وزوال ملكهم، وكما أشرنا سابقاً فإنّ هذا القسم لاعلاقة له بما سبقه من أقسام، ومن الواضح أنّه هناك بعض الأقسام التي حذفها السيد الرضي (ره) من الخطبة.

القسم الأول

«عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيْهِ عَبْدًا أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَاسْتَشَعَرَ الْحُزْنَ، وَتَجَلَّبَبَ الْخَوْفَ؛ فَرَزَرَ مِصْبَاحَ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ، وَأَعَدَّ الْقَرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَعِيدَ، وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ. نَظَرَ فَأَبْصَرَ [فأقصر]، وَذَكَرَ فَاسْتَذَكَرَ، وَارْتَوَى مِنْ عَذَابِ فُرَاتٍ سَهَّلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ، فَشَرِبَ نَهْلًا، وَسَلَكَ سَبِيلًا جَدًّا، قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ، وَتَخَلَّى مِنَ الْهُمُومِ، إِلَّا هَمًّا وَاحِدًا انْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمَى، وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَى، وَضَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَى، وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَى، قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ، وَقَطَعَ غِمَارَهُ، وَاسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثِقِهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ بِأَمْتِنِهَا، فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ».



الشرح والتفسير

أحب العباد إلى الله

إستهل الإمام عليه السلام خطبته - كما أشرنا إلى ذلك سابقا - بذكر صفات أولياء الله والساكنين إليه، بالشكل الذي جعل ابن أبي الحديد يصرح في شرحه قائلاً: «واعلم أن هذا الكلام منه أخذ أصحاب علم الطريقة والحقيقة علمهم، وهو تصريح بحال العارف ومكانته من الله تعالى»^١. ويرى البعض أن الإمام عليه السلام قد عرف نفسه بهذه العبارات؛ لأن العرفان درجة حال رفيعة شريفة جداً، لا تناسب إلا أمثاله عليه السلام، والأنسب أن يقال بأن بيان الإمام عليه السلام استهدف

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٦٥/٦.

شرح الصفات الكلية للكاملين من العرفاء وأصحاب السلوك إلى الله، حيث يتمثل مصداقهم به وزوجه والمعصومين من ولده عليه السلام. والجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام لم يترك جانباً من الجوانب المهمة لحال الإنسان الكامل حتى ذكر له أربعين صفة. فقد استهل كلامه قائلاً: «عباد الله! إن من أحبّ عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه»، فالعبارة تشير إلى نقطة مهمة وهي أن اجتياز هذا الطريق ليس ميسراً لأحد - دون عناية الله - وذلك لعظم المخاطر والمطبات التي يتعذر على الإنسان عبورها بقوته المتواضعة، فليس أمامه سوى التوكل على الله وتسليم أموره إليه ليستلهم العون من مصدر فيضه ولطفة الذي لا ينضب، وهذا ما أشار إليه القرآن بالقول: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا^١. ومن الواضح أن أطفاف الله سبحانه وتفضلاته ليست قائمة على العيب، بل لا بدّ من نيلها بواسطة التسليم المطلق وحمل القلوب إليه وعدم إسكانها غيره. ثم خاض الإمام عليه السلام في بيان نتيجة هذا اللطف قائلاً: «فاستشعر الحزن، وتجلبب الخوف» استشعر من مادة شعار ما يلي البدن من اللباس، وجعل الحزن بمنزلة الشعار يعني أن مثل هؤلاء الأفراد المؤمنين إنما يعيشون الحزن في باطنهم على ما مضى من أيام عمرهم ولم يجدوا فيها كما ينبغي لطاعة معبودهم، وبالطبع فأنه حزن بناء يسوقهم نحو العمل والحركة لتدارك ما فاتهم. تجلبب من مادة جلباب ما يكون فوق جميع الثياب وتجلبب الخوف إشارة إلى أن هؤلاء الأفراد المخلصين يراقبون أنفسهم على الدوام، حذرين من صدور الزلل وما من شأنه أن يخرجهم من زمرة المخلصين والسعداء. كما يحتمل أن يكون حزنهم بسبب فراق المحبوب وخوفهم من عدم الوصال. ثم خاض الإمام عليه السلام في نتيجة هذا الحزن والخوف البناء: «فزهر مصباح الهدى في قلبه، وأعدّ القرى^٢ ليومه النازل به» وزهور مصباح الهداية إشارة إلى تلاً أنوار المعارف الإلهية في قلوبهم يتذوقون بها حلاوة الإيمان: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ^٣» والتعبير بالقرى الذي يعني الوسيلة المعدة للضيوف يشير إلى أن يوم الأجل أو القيامة الذي يمثل ذروة الخشية والخوف لا يعني لهم سوى

١. سورة النور / ٢١.

٢. «قرى» مصدر واسم مصدر ما يهيا للضيف، والمراد به هنا العمل الصالح بهينه للقاء الموت وحلّول الأجل، ومنه «المقرأة» التي تطلق على الظرف الكبير الذي يوضع فيه الطعام.

٣. سورة البقرة / ٢٨٢.

ورود الضيف على المضيف الكريم، وكأنهم كالشهداء ضيوف الرحمن الذين يرتزقون من فضل إحسانه: «بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»^١. ثم قال ﷺ: «فَقَرَّبَ عَلِيٌّ نَفْسَهُ الْبَعِيدَ، وَهُوَ الشَّدِيدُ» أي يرى قرب الأجل والقيامة التي يحسبها الأعم الأغلب بعيدة، ولذلك سهل عليه تحمل الشدائد وصعوبات الطاعة وترك الذنوب والمعاصي. ثم تطرق ﷺ إلى خمسة أمور يختزن كل واحد منها صفة من صفات هؤلاء العباد من أهل الاخلاص والعرفان فقال ﷺ: «نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَذَكَرَ فَاسْتَذَكَرَ، وَارْتَوَى^٢ مِنْ عَذَابِ فِرَاتٍ^٣ سَهَّلَتْ لَهُ مَوَارِدَهُ، فَشَرِبَ نَهْلًا^٤ وَسَلَكَ سَبِيلًا جَدِيدًا^٥» فقد تضمنت هذه العبارات القصيرة البعيدة المعاني الإشارة من جانب إلى أهمية التفكير والنظر إلى عالم الوجود ومسائل الحياة التي تشكل أساس البصيرة الكاملة ومعرفة الله، كما أشارت من جانب آخر إلى المداومة على ذكر الله التي تؤدي إلى إحياء القلوب وإطمئنانها: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»^٦ ثم أشار إلى الارتواء من منبع الوحي وكلمات المعصومين ﷺ ليتزودوا منهم فيسيروا على الطريق ويحثوا الخاطئ نحو قرب الحبيب والفوز بوصاله. ثم تطرق ﷺ إلى ستة أوصاف لتهديب نفس أولئك العباد المخلصين موضعاً معطياتها وآثارها فقال ﷺ: «قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ، وَتَخَلَّى مِنَ الْهَمُومِ، إِلَّا هَمًّا وَاحِدًا أَنْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمَى، وَمَشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَى، وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهَدَى، وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَى» نعم فان هجر الشهوات وتصويب العين صوب مبدأ عالم الوجود وتنقية القلب إنما يفتح بصيرة الإنسان، فلا يصبح ذلك الإنسان سالكاً لسبيل الحق فحسب، بل يكون دليلاً ورائداً للطريق، ثم يودعه الله مفاتيح الهداية أقفال الضلالة

١. سورة آل عمران / ١٦٩.

٢. «ارتوى» من مادة «ري» على وزن طي شرب الماء.

٣. «فِرَاتٍ»، الماء العذب.

٤. «نَهْلٌ» بمعنى السقي أو الشراب الأول، ومن عادة العرب، أخذ الابل إلى مكان شرب الماء، وعندما تشرب وترتوي ترجع إلى مكانها، فيقال لها نهلت الابل أو إبّل نواهل. وفي المرة الثانية تُعرض على الماء فعندما تشرب، فتسمى «الطَّل»، وبعد ذلك تذهب الابل للرعي في المرعى، فاصطلاح «النهل» يستعمل عندما تشرب الابل الشربة الاولى، وهذا الاصطلاح يستعمل دائماً في الشرب الاول.

٥. «الجدد» من جد، الأرض الغليظة الصلبة المستوية .

٦. سورة الرعد / ٢٨.

وأبواب النيران، فيفتح طريق الحق لسالكيه ويغلق باب جهنم بوجه العباد. ثم أشار ﷺ إلى ست صفات أخرى فقال: «قد أبصر طريقه، وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع غماره،^١ استمسك من العرى^٢ بأوثقها، ومن الحبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس» فالواقع أن الصفات الست السابقة أكدت على الجوانب العملية، بينما أضيفت لها هنا الجوانب العقائدية، فالخروج من صفة العمى وطرح حجب الهوى والظفر بسبيل الحق وطرق المعرفة وتجاوز بحار الشهوات والتمسك بعري الهداية المتمثلة بالقرآن الكريم وكلمات المعصومين والراسخين في العلم، إنما تجعل هذا العبد المخلص يبلغ مقام حق اليقين، فيرى الحقائق بأم عينه، بل تمثل له كالشمس في رابعة النهار، وهذه أعظم نعمة يصيها العبد وأكرم ثواب يمنحه السالكين إلى الله. وقد جرى الكلام سابقا عن سلوك السبل القويمية المحكمة: «سلك سبيلاً جديداً» كما كان هناك الانفتاح على الحقائق: «نظر فأبصر» ثم تكرر هذا الأمران بعبارة أخرى، فقال ﷺ: «قد أبصر طريقه وسلك سبيله»، ولكن وكما ذكرنا آنفا فقد ورد الحديث في السابق عن الجوانب العملية، بينما جاء الكلام هنا عن الأبعاد العلمية؛ أي أن معرفة الطريق وسلوك السبيل المطمئن ضروري في المرحلتين.



أفضل النعم

أشار الإمام ﷺ في هذا القسم من خطبته إلى أساس مطلق السعادات ودافع الإنسان إلى كافة الصالحات، وما يسهل عليه تحمل الشدائد والصعاب، ويحيله بالتالي إلى كائن يأبى القهر والانهمام، وقد عبر عنه في موضع: «فضله مصباح الهدى في قلبه»، وفي موضع آخر: «فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس» ألا وهو مقام اليقين؛ وهو على مراتب، صنفتها القرآن الكريم إلى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، وبالطبع فإن حق اليقين تمثل المرحلة الأخيرة،

١. «غمار» من مادة «غمر» على وزن أمر بمعنى التغطية، ولما كانت المياه الكثيرة تغطي الأرض، اطلق عليه الغمار.

٢. «عري» جمع عروه المقبض.

وهي مرحلة شهود الإنسان الكاملى لعالم الغيب على غرار مشاهدته لضوء الشمس، وهي المرحلة التي بلغها أمير المؤمنين علي عليه السلام حين قال: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»^١ وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «الإنّ الناس لم يعطوا في الدنيا شيئاً خيراً من اليقين والعافية، فاسئلوهما الله»^٢.

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ما أعظم سعادة من يوشر قلبه ببرد اليقين»^٣. ومن الطبيعي أنّ الوصول إلى هذا المقام يتطلب من الإنسان اجتياز طريق صعب شائك بحيث لا يغفل طرفة عين فيه عن اصلاح نفسه وتهذيبها، ويشفع أولياء الله في نفسه ويلهج قلبه قبل لسانه ببعض ما ورد في الأدعية الشعبانية: «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وذر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا ملعقة بعز قدسك». كثير وطويل هو الكلام في اليقين. ونكتفي بحديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في كيفية الوصول إلى اليقين، فقد قال عليه السلام: «أين الموقنون؟ الذين خلعوا سراويل الهوى، وقطعوا عنهم علائق الدنيا»^٤.



١. بحار الأنوار ١٥٢/٤٠.
 ٢. كنز العمال ٤٨٣/٣، ح ٧٣٣٤.
 ٣. بحار الأنوار ١٥٣/٤٠.
 ٤. غرر الحكم، ح ٣٩١.

القسم الثاني

«قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلَّهِ - سُبْحَانَهُ - فِي أَرْفَعِ الْأُمُورِ، مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ، وَتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ، مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ، كَشَّافُ عَشَوَاتٍ [خشوات] مَقْفُتَاتٍ مُبْهَمَاتٍ، دَفَّاعُ مُعْضِلَاتٍ، دَلِيلُ فُلُواتٍ، يَقُولُ فَيُفْهِمُ، يَسْكُتُ فَيَسْلَمُ، قَدْ أَخْلَصَ لِلَّهِ فَاسْتَخْلَصَهُ، فَهُوَ مِنْ مَعَادِينِ، دِينِهِ أَوْ تَادِ أَرْضِهِ، قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْعَدْلَ، فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ، يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ، لَا يَدْعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلَّا أُمَّهَا، وَلَا مَظِنَّةً إِلَّا قَصْدَهَا، قَدْ أَمَكَّنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ، فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقْلُهُ، وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ».

❦❦❦

الشرح والتفسير

خصائص المخلصين

تطرق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى نقطة مهمة مكتملة للقسم السابق، وهي أن العبد المخلص لله - الذي دار الحديث عنه سابقاً - بعد أن يتم مرحلة تهذيب النفس والوصول إلى المقامات العالية في العلم والعمل والتقوى يهب لهداية الخلق ويصبح رائداً على الطريق لينجي الناس من ظلمات الجهل والوهم والضلال. فالواقع أن مثل هذا العبد ما إن يجتاز مرحلة السير إلى الحق وفي الحق حتى يستأنف مرحلة السير إلى الخلق فينهض بعبيّ تبليغ الرسالة التي حمل مشعلها الأنبياء. فقد قال عليه السلام: «قد نصب نفسه لله - سبحانه - في أرفع الأمور»، آنذاك خاض الإمام عليه السلام في شرح هذه الوظائف بعبارات قصيرة بعيدة المعاني فقال: «من إصداًر كلِّ وارِدٍ عليه، وتصيير كلِّ فرعٍ إلى أصله»، فالعبارة تشير إلى نقطة مهمة وهي أن هذا العبد العالم المخلص قد إنطوى على إحاطة بعلوم الدين وأحكامه إلى درجة

جعلته قادراً على الرد على كل ما يطرح من سؤال وإستفسار. كما تتضمن العبارة تلميحاً إلى عدم وجود سؤال في الدين لا يحمل جواباً، كما ليس هنالك من مشكلة في المعارف الإلهية والأحكام الفرعية دون حلول؛ الأمر الذي أكدّه رسول الله ﷺ في خطبته المعروفة في حجة الوداع، إذا قال: «يا أيها الناس! واللّه ما من شيء يقربكم من الجنة، ويباعدكم من النار، إلا وقد أمرتكم به، وما من شيء يقربكم من النار، ويباعدكم من الجنة، إلا وقد نهيتكم عنه»^١، وهو ما تعارف في فقه الإمامية بعنوان: «ليس هنالك من واقعة إلا ولله فيها حكم». والعبارة «تصيير كل فرع إلى أصله» تشير في الواقع إلى التعريف الذي ذكره علماء الدين للاجتهد والاستنباط، حيث صرحوا بأن حقيقة الاجتهاد هي: «رد الفروع إلى الأصول»؛ أي الاجابة على كل فرع بالاستفادة من القواعد والأصول الكلية المستقاة من الكتاب والسنة ودليل العقل، والمجتهد من يعلم بأنّ الفرع لأي أصل يعود. كما تشير العبارة ضمناً إلى فتح باب الاجتهاد في كل مكان وزمان، وقد بينت شرائط المجتهد من حيث العلم والعمل في الابحاث السابقة. ثم قال ﷺ: «مصباح ظلمات، كشاف عشوات^٢ مقفات مبهمات، دفاع معضلات، دليل فلوات^٣». فقد كشف الإمام ﷺ بهذه الصفات الخمس كيف يخترق هذا العبد المخلص الورع والمتقي حجب الجهل الظلمانية، فيكشف ما خفي من المعارف، ويفتح أقفال الغوامض والمبهمات ويحل مشاكل الناس، كما يهدي الناس إلى الحق والنجاة في صحراء الحياة المليئة بالحيرة والضلالة وخشية الوقوع في مخالب اللصوص وقطاع الطرق. ثم واصل الإمام ﷺ كلامه بالحديث عن خمس صفات أخرى لهذا العالم الرباني فقال: «يقول فيفهم، ويسكت فيسلم». نعم كلامه هادف، وسكوته هو الآخر هادف أيضاً، فهو يتكلم حيث لا بدّ من الكلام، بينما يسكت حين يخشى الذنب والمعصية من جراء الكلام، فكلامه وسكوته لله ولا يهدف فيها سوى رضاه. فالحق إننا نعرف بعض الأفراد الذين يسعون جاهدين لاحاطة

١. اصول للكافي ٧٤/٢ ح ٢.

٢. «عشوات» جمع «عشوة» ما يقدم عليه الإنسان من عمل جهلاً، ومن الواضح أن نتيجة مثل هذا العمل هي الندامة، وكشاف عشوات من يطرح حجب الجهل وينجي أهل الضلالة.

٣. «فلوات» جمع «فلاة» وهي الصحراء الواسعة، مجاز عن مجالات العقول في الوصول إلى الحقائق، ودليل الفلوات العالم بها.

ما يقولون ويكتبون بهالة من التعقيد والابهام ليفهموا الآخريين بمستواهم العلمي، والحال لا يجني القارئ أو المستمع سوى المفاهيم المغلقة التي لا جدوى من ورائها؛ أمّا العلماء المخلصون فلا يصابون بهذه الأمراض، فهم لا يرومون من كلامهم سوى هداية الطرف المقابل، أمّا سكوتهم فلا يستند إلى الهروب من المسؤولية والخلود إلى الراحة والدعة، بل لا يرومون من سكوتهم سوى السلامة من الخطيئة والآثم ومجانبة الهوى ومعصية الله. ثم أشار عليه السلام إلى مقام هذا العارف الإلهي فقال: «قد أخلص لله فاستخلصه»، يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى نقطة لطيفة وهي أن الشوائب الأخلاقية للإنسان على قسمين: قسم قابل للرؤية ويمكن التغلب عليه من خلال الجهاد الأكبر وإصلاح النفس، بينما يتعذر رؤية القسم الآخر. والله سبحانه في عون من ينتصر في المرحلة الأولى. وقد صورت الروايات الإسلامية الشرك بأعظم صورة حيث قالت: «إنّ الشرك أخفى من دبيب النمل، على صفاة سوداء، في ليلة ظلماء»^١. ومن الطبيعي أن تطهير القلب من هذا الشرك لا يبدو سهلاً إلا في ظل العناية الإلهية. ثم أردف الإمام عليه السلام تلك الصفات الثلاث بصفتين فقال: «فهو من معادن، دينه وأوتاد أرضه»، نعم من خلص كيانه من كل الجوانب وكان عمله هو التربية والتعليم فهو بمنزلة المعدن الذي لا يفنى والذي تستخرج منه الجواهرات والفلزات الثمينة، وهو كالجبل الراسخ الذي لا ترعزعه عواصف الشرك ورياح الذنوب والمعاصي والوساوس والمكائد الشيطانية التي تتقاذف الإنسان وتلقى به في مهالك الردى، وقد عبر عنه القرآن الكريم بوتد الأرض الذي يحفظها من الزلازل: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا»^٢ وتشبيه هذا العالم الرباني والعبد المخلص بالجبل الي يمثل وتد الأرض تفيد عظم بركنه على المجتمع الإسلامي. فثل هذا الفرد هو الذي يحفظ المجتمع الإسلامي من عواصف الانحراف والفساد. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى أربع صفات أخرى من صفات هذا العالم الرباني فقال: «قد ألزم نفسه العدل، فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه» فنحن نعلم بأن حقيقة العدل الخلق أن تكون كافة صفات ومميزات الفرد منسجمة وحاد الاعتدال والاتزان، بحيث لا تنطوي

١. بحار الأنوار ٩٣/٦٩.

٢. سورة النبأ ٦٧-٧.

شخصيته على الرغبات المفرطة التي تسوقه إلى الهوى، إلى جانب عدم الانزواء والتقوقع عن الدنيا، فلا بد له أن يستسيغ الحلال ويميج الحرام ويسلك خط الاعتدال. فالعبارة «أول عدله...» تفيد انطلاقه في العدل من ذاته، والحق أنه ما لم يكن كذلك فليس لكلامه من أثر في الآخرين في الدعوة إلى العدالة. ثم قال في الصفة الثانية «يصف الحق ويعمل به» فإن كان نصيراً للحق لم يقتصر ذلك على لقلقة اللسان، بل كانت دعوته ونصرتة للحق على مستوى السلوك والأفعال قبل اللسان والأقوال، وذلك لأن كلامه النابع من إيمانه واعتقاده إنما ينعكس مباشرة على سلوكه وتصرفه، ولولا ذلك الانعكاس لأفاد الأمر عدم إيمان ذلك الفرد بما يقول. ثم قال ﷺ في الصفة الثالثة: «لا يدع للخير غاية إلا أقمها، ولا مظنة إلا قصدها» انه طالب كل خير وإحسان وسعادة، بل يقتني آثار حتى تلك الحالات التي يرتجى من وراءها خيراً، فهو عاشق للخير وكأنه ذلك الفرد الذي يبحث عن ضالته النفيسه، فهو لا ينفك عن مطاردتها هنا وهناك. وقال في الصفة الرابعة «قد أمكن الكتاب من زمامه، فهو قائده وإمامه، يحلّ حيث حلّ ثقله،^١ وينزل حيث كان منزله» وهكذا يرى هذا العبد المخلص نفسه مكلفاً بهداية الناس منطلقاً قبل ذلك من إصلاح نفسه واجتثاث جذور الهوى من أعماقها؛ فلسانه يصدع بالحق دائماً، كما يعمل بهذا الحق إلى جانب سعيه الدؤوب خلف الصالحات وأعمال الخير، والأهم من كل ذلك أنه جعل القرآن إمامه الذي يقوده حيث شاء فقد فوض إليه كافة أموره، فكانت سكناته وحركاته مستندة إلى القرآن.



تأملان

١ - فتح باب الاجتهاد

يرى أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام أن باب الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية من

١. «ثقل» على وزن أجل، وله معان مختلفة، ففي بعض الأحيان يأتي بمعنى أمتعة المسافر وأحياناً بمعنى الأشياء الثمينة.

و«حل» بمعنى نزل في منزل جديد وحل الرحال فيه، والجملة الواردة اعلاه، كناية عن أن المؤمن المخلص والسائر على هدى القرآن الكريم، فإن حاله كحال المسافر الذي سار وراء قافلة كلما نزلت القافلة في مكان وحلت رحالها، فانه يتبع هذه القافلة فينزل معها ويحل رحاله معها.

أدلتها المعروفة (الكتاب والسنة والإجماع والعقل) مفتوح على الدوام؛ الأمر الذي رقى بالفقه الإسلامي وأخذ بيده نحو الكمال. بينما نعلم أن فريقاً من المسلمين قد ذهب إلى غلق باب الاجتهاد، ليحصره ويجعله حكراً على الأئمة الأربع! رغم عدم قلّة الأفراد الذين كانوا يفوقونهم علماً في الأمة الإسلامية، فالواقع ليس هنالك من دليل يدعو إلى حصر الاجتهاد في ذلك العدد المذكور. في حين تحدث الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن خصائص المسلم المخلص العالم وفي مقدمتها إجهاده في أحكام الدين فقال: «قد نصب نفسه لله - سبحانه - في أرفع الأمور، من إصدار كلّ وارٍ عليه، وتصيير كلّ فرعٍ إلى أصله، مصباح ظلمات، كشّاف عشواتٍ مقفّاتٍ مبهماتٍ، دقّاق معضلاتٍ» كما أشار ضمناً في عدة مواضع من هذه الخطبة إلى الشرائط التي ينبغي توفرها في الفقيه المجتهد، والتي تدل على أن الفقيه لا يتصدى لهذه المسؤولية الخطيرة ما لم تكن له رابطة خالصة بالحق سبحانه وتعالى. وهذا وقد تناولنا في شرحنا للخطبة الثامنة عشرة في المجلد الأول أهمية الاجتهاد وفتح بابيه أمام العلماء، إلى جانب الحديث عن الأضرار الفادحة التي أفرزتها فكرة الاعتقاد بغلق باب الاجتهاد من قبل فقهاء العامة.

٢ - شمولية القرآن

لقد أشار الإمام عليه السلام كراراً ومراراً في أغلب خطب نهج البلاغة إلى أهمية القرآن الكريم، فكان يتناول أحد الأبعاد في كل خطبة. وقد تحدث في هذه الخطبة عن خصائص العبد المخلص، فكان من بينها تسليمه المطلق لكلام الله، بحيث جعل القرآن قائده وإمامه ليتبعه في حركاته وسكناته، وبعبارة أخرى فهو ينظر إلى القرآن كمحور لكافة جوانب حياته، لا وسيلة لتوجيه عقائده وأفكاره، فهو على العكس من أولئك الذين يتشدقون بتبعتهم للقرآن، بينما يسعون لتكييف القرآن ومتطلباته وآرائهم، ليكونوا مصداقاً لقوله: «وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ»^١ فما لا يتجسم ورغباتهم نسوه وهجروه، ولو كان ظاهره لا يخدمهم عمدوا

إلى باطنه على ضوء نزعاتهم، والعكس صحيح فقد يتخلون عن باطن القرآن ويتمسكون بظاهره على ينسجم وأهوائهم. فهم منحرفون لم يؤمنوا بالقرآن قط على أنه دليلهم وإمامهم، بل هم في الواقع ليسوا عبيد الله، بل عبدة الأهواء، والتفسير بالرأي الذي نهت عنه أغلب الروايات إنما هو شعبة من شعب عبادة الهوى والشرك الخفي؛ فإين هؤلاء من العلماء المخلصين؟

القسم الثالث

«وَأَخْرُ قَدْ تَسْمَى عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَالٍ، أَضَالِيلَ مِنْ ضَلَالٍ، وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً مِنْ حَبَائِلِ [حبال] غُرُورٍ، وَقَوْلِ زُورٍ؛ قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ [رأيه]؛ وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ، يُؤْمِنُ النَّاسُ مِنَ الْعِظَائِمِ، وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ، يَقُولُ: أَقِفْ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ، وَفِيهَا وَقَعَ، وَيَقُولُ: اُعْتَزِلْ الْبِدْعَ، وَبَيْنَهَا اضْطَجَعَ، فَالْصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ، وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ. لَا يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعُهُ، وَلَا بَابَ الْعَمَى فَيَصُدُّ عَنْهُ، ذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ».

۸۰۰۳

الشرح والتفسير

العلماء المخلصون والعلماء المتشبهون

كان الكلام في الأبحاث السابقة عن العلماء المخلصين الذين كانوا هداة على الطريق، منهم مصباح ظلمات، وكشاف عشوات ومفتاح مبهيات ودفاع معضلات، وهو ملاذ الضعفاء ومفزع العباد، وقد بين الإمام عليه السلام صفاتهم على أكمل وجه، أما هنا فقد تحدث الإمام عليه السلام عن المتشبهين بالعلماء من أهل الضلال الذين كمنوا للخلق وصدوهم عن الحق بباطلهم ومكرهم واستغلال سذاجتهم من أجل تحقيق أطماعهم المادية. فقد عدَّ الإمام عليه السلام عشر من صفاتهم فقال: «وَأَخْرُ قَدْ تَسْمَى عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ»، فالتعبير بالفعل «تسمى» بصيغة المتعدي تفيد أن اليقطين من أبناء الأمة لا يرونهم علماء، وهم ليسوا كذلك أيضاً عند الله، بل يزعم أحدهم أنه عالم، إلى جانب شلة من الجهال المتأثرة بكذبيهم ودجلهم. ثم قال في الصفة الثانية: «فاقتبس جهائل من جهالٍ، وأضاليل من ضلالٍ». فالمفردة «إقتبس» التي تعني هنا التعلم، تفيد أن هذا

العالم المزيف إنما أ جاء هذا الفن في الخداع والتضليل إثر تعلمه ممن سبقه، فوظف ما تعلم في هذا الانحراف دون أن يجعل جهاده وسعيه للعلم والعمل في خدمة الحق، وهذا لعمرى قة البؤس والشقاء. ولعل الفارق بين «جهائل» و«أضاليل» أن جهائل (جمع جهالة) تعني الجهل المركب؛ أي أنه جاهل ولا يدري أنه كذلك (ولا يدري أنه لا يدري) أما أضاليل (جمع أضلولة) فهي تعني الأمور المضلة التي يتجه إليها عن علم. ثم قال في الصفة الثالثة «و نصب للناس أشراكاً من حبائل غرورٍ، وقول زورٍ»؛ ياله من تعبير رائع! نعم فهو كالصياد الذي ينشر الحبوب فيجعلها فخاً للطيور والحيوانات البلهاء، فيبيعها ويتغذى على لحومها، وهذا ما يفعله هذا العالم المزيف تجاه السذج من الناس فيجني أطباعه المادية ومنافعه الشخصية. وما أبرز مصاديق هؤلاء على مر التاريخ في كل عصر ومصر، الذين يسخرون الدين لخدمة دنياهم، فقد جاء في الخبر أن الإمام عليه السلام وصف عبدالله بن الزبير قائلاً: «ينصب حباله الدين لاصطياد الدنيا»^١ (وقد قال الإمام عليه السلام ذلك حين لم تتضح شخصيته وبكشف عن مواقفه). ثم قال في الصفة الرابعة: «قد حمل الكتاب على آرائه وعطف الحق على أهوائه»، بالضبط على عكس العالم الذي طالعتنا صفاته في أنه أمكن الكتاب من زمامه وجعله قائده وإمامه، يحل حيث حل ثقله، وينزل حيث كان منزله، فهو تابع للقرآن بكل كيانه. والحق ليس هنالك من وسيلة أفضل من هؤلاء المزيفين للتعرف على العلماء العاملين. فذاك الذي جعل القرآن قائده وإمامه هو العالم المخلص، أما هذا الذي يفسر القرآن برأيه ويسعى لتطبيق القرآن على متطلباته ورغباته. لهو عالم سوء مزيف. وقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من فسر القرآن برأيه فليقبوه مقعده من النار»^٢. كما عنه صلى الله عليه وآله أن الله سبحانه وتعالى قال: «ما آمن بي من فسر برأيه كلامي»^٣ والدليل واضح فمن آمن بالله علم أن الحق ما كان من الله، فان رأى غيره الحق فهو على خطأ. كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من فسر برأيه

١. «اشراك» جمع «شرك» بمعنى اشباك الصياد.

٢. الكنى والألقاب ١/٢٩٤.

٣. عوالي اللئالي ٤/١٠٤.

٤. بحار الأنوار ١٠٧/٨٩، ح ١.

آية من كتاب الله فقد كفر»^١. ثم قال في الصفة الخامسة من صفات هذا الذي تشبه بالعلماء: «يؤمن الناس من العظائم، ويهون كبير الجرائم» وهكذا فإن الآثمين من الأفراد - الذين يشكلون الأكثرية في المجتمعات - يسعون لحشد الآراء لصالحهم، وبعبارة أخرى فإن هنالك الأغلبية الساحقة في المجتمع التي تسعى للتظاهر بالدين، أمّا في داخلهم فهم يسعون من خلال ذلك لجمع الأفراد حولهم واستقطابهم بواسطة مماشاتهم وتصغير الكبائر لديهم. ثم قال في الصفة السادسة واصفاً حال هذا العالم المزيف: «يقول: أقف عند الشبهات، وفيها وقع»، فهذا المرآي الماكر يتظاهر أمام الناس بالدين إلى درجة أنه يزعم لهم: (لا أجتنب المحرمات فحسب، بل أنا محتاط حتى في الشبهات) والحال تعج حياته بالشبهات، وأبعد من ذلك المحرمات. وقيل في تفسير هذه العبارة أن اقتحامه للشبهات نابع من جهله، فمثل هؤلاء الأفراد إنما يعانون عادة من الجهل المركب، فيرون ضلالهم هدىً ومعاصيهم تقوى. ومن الواضح أن هؤلاء الجهال يتحلون بهاتين الصفتين، فلا مانع من الجمع بين التفسيرين (لامكانية استعمال اللفظ في أكثر من معنى). أمّا الشبهات فتطلق عادة على الأمور التي لا تعرف بصورة تامة، فهل هي حرام أم حلال؟ بعبارة أخرى فقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «حلال بين، وحرام بين، وشبهات بين ذلك»^٢؛ أي أن الشبهات هي حد الحرام. ومن هنا فن أراد أن يصون نفسه عن الذنب وجب عليه عدم الاقتراب من هذا الحد، وإلا هوى في مستنقع الذنوب ووصل المعاصي. ولذلك جاء في آخر الحديث: «فمن ترك الشبهات نجا من المحرمات، ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرمات، وهلك من حيث لا يعلم».

ثم قال في الصفة السابعة: «و يقول: أعتزل البدع، وبينها اضطجع»^٣، يمكن أن يكون هذا الادعاء مما يفرزه المكر والخداع أو الجهل المركب، فاساس نشاط مثل هؤلاء الأفراد قائم على التشبث بالبدع وهجر السنن إرضاءً لاهواء العامة؛ الأمر الذي لا يمكن تحقيقه إلا من خلال البدع والأحداث في الدين، وحقيقة البدعة إدخال ما ليس من الدين فيه، أو إخراج ما كان

١. تفسير البرهان ١٩/١.

٢. الكافي ٦٨/١.

٣. «اضطجع» من مادة «ضجع» على وزن زجر بمعنى نام ووضع جنبه على الأرض.

من الدين، وعليه فالبدعة حرام، ولا يعني هذا رفض أساليب التجدد في الحياة في كافة جوانبها العلمية والادبية والاجتماعية. فالبدعة أن تحدث شيئاً وتنسبه إلى الدين وهو ليس منه، والعكس صحيح. وما حالات الافراط والتفريط التي يمارسها الجهال الا إفرازات طبيعية لعدم إدراك حقيقة البدعة. أمّا في الصفة الثامنة والتاسعة العاشرة التي تعد بمثابة نتيجة الصفات السابقة حيث أوردتها الإمام عليه السلام بقاء التفريع فقد قال: «فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ، وَالقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ. لَا يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى قَيْتَبَعُهُ، وَلَا بَابَ الْعَمَى فَيَصِدُّ عَنْهُ، وَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ». حقا ليس هنالك من تعبير يصور وضع هؤلاء العلماء المزيفون أبلغ وأدق من هذا التعبير. فصورتهم ومظهرهم صورة إنسان، بل إنسان كامل ورع وعالم، في حين يسبح هذا الإنسان - بهذه الصفات - في بحر من الجهل المركب، فاذا فكر يوما في الهداية، ضل الطريق بسبب ذنوبه ومعاصيه، فهو لا يعرف سبيل الحق والهدى ليتهدي إليه، ولا يعرف سبيل الباطل والضلال ليصد عنه، بالتالي فهو ميت يتحرك بين الأحياء، وقد ماتت فيه كل مقومات الحياة الانسانية. والواقع إنهم مصداق بارز للآية الشريفة: «إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْأَنْفُسَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ»^١، أو الآية الكريمة «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ»^٢.

تأملات

١ - علماء الضلالة

لا يخفى على أحد خطر علماء السوء والضلالة، فأغلب الجرائم البشعة التي يرتكبها الجهال، إنما تعود جذورها إلى ما يسمى بهؤلاء العلماء، المتطفلين على الدين المفارقين لأحكامه وتعاليمه، أو الذين جعلوا الدين مطية لدينهم. فقد وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام بأدق وصف، فهم جهال خلطوا الجهل بالضلال، فجعلوا أنفسهم أئمة للقرآن يفسرونه برأيهم ويحملون آياته

١. سورة النمل / ٨٠.

٢. سورة الاعراف / ١٧٩.

على رغباتهم وأهوائهم، فأصبحت حياتهم قائمة على أساس البدع والشبهات والذنوب والمعاصي، إلى جانب تصغيرها في أعين الناس وتزيينها لهم. فلم تبق لهم من الإنسانية سوى صورتها، أمّا السيرة فهي حيوانية تماماً. وقد تواترت الأخبار والروايات إلى جانب الآيات القرآنية التي لفتت إنتباه الأمة إلى أخطارهم، لتحذر الناس من مغبة الاستجابة لهم والسقوط في حبائلهم وشباكهم. فقد روى أمير المؤمنين علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «وإن أهل النار ليتأذون من ريح العالم القارك لعلمه»، بل إنّ الندم يصيبه وتعود مثل هذه الأمور بالوبال عليه، ومن هنا ورد في ذيل الحديث السابق: «وإن أشد أهل النار فدامة وحسرة، رجل دعا عبداً إلى الله، فاستجاب له، وقبل منه، فأطاع الله، فأدخله الله الجنة، وأدخل الداعي بترك علمه، واتباعه الهوى وطول الأمل»^١. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «أنّ الله أوحى إلى نبيه داود عليه السلام: «لاتجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا، فيصدك عن طريق محبتي؛ فإن أولئك قطاع طريق عبادي المرادين إلي، إنّ أدنى ما أنا صانع بهم، أن أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم»^٢. فمن بين العلامات التي صرحت بها الروايات والأخبار بشأن علماء سوء والضلالة، ترك العمل بعلمهم، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً»^٣. أمّا العلامة البارزة الأخرى فهي اندفاعهم نحو البدع وتوجيه الضلال والانحراف والانغراس في الدنيا، وكثرة الزعم والادعاء.



٢ - التفسير بالرأي، فخ الشيطان الأكبر

إنّ من أعظم آفات الدين وعقبات العبودية طلب الحق والحركة إليه إنّما تتمثل بمعضلة «التفسير بالرأي»؛ المعضلة التي تهدد الدين بخطرها العظيم وتقضي على روح أغلب الآيات القرآنية والروايات الإسلامية، فتحيلها إلى العوبة بيد هذا وذاك لتوجيه أهوائهم وسوء

١. الكافي ٤٤/١، باب استعمال العلم، ح ١.

٢. علل الشرايع ٣٩٤/١.

٣. منهاج البراعة ١٨٥/٦.

مقاصدهم، بعبارة أخرى تحيل الآيات والروايات إلى عجيبة يصنع منها هذا المفسر ما يشاء ولا يهدف سوى إلى تبرير فساده وإنحرافه وضلاله. وأبسط تعريف للتفسير بالرأي هو إخلاء الآيات والروايات من معناها الحقيقي وصبغها بالطابع المطلوب ومن الواضح أن الآيات والروايات لا تفقد حقيقتها في الهداية على ضوء هذه المعضلة - التفسير بالرأي فحسب، بل تصبح وسيلة لتبرير الضلال والانحراف. ومن هنا أكدت الروايات والأخبار بشدة النهي عن التفسير بالرأي، وقد مرّت علينا طائفة من هذه الأخبار والروايات في الأبحاث السابقة، ثم رأينا كيف أن أمير المؤمنين علي عليه السلام يذكر هذه الصفة في إطار وصفه لعلماء سوء والضلالة على أن أهم صفة من صفاتهم تكمن في التفسير بالرأي. فالعبارة التي تضمنها الحديث المعروف «من فسر برأيه آية من كتاب الله فقد كفر»^١ تفيد أن التفسير بالرأي أرضية خصبة للنزوع نحو الكفر، وكذلك ما ورد في الحديث الآخر بهذا الشأن: «من فسر القرآن برأيه، إن أصاب لم يؤجر، إن أخطأ خر أبعد من السماء»^٢.

وزبدة الكلام فإن أخطار التفسير بالرأي كثيرة نشير إلى جانب منها:

- ١ - إيجاد حالة من الفوضى والارباك في فهم الآيات والروايات.
- ٢ - إحالة وسائل الهداية والصلاح إلى أدوات للضلال والفساد ومضاعفة الأخطاء.
- ٣ - إيجاد الاختلاف والتشتت والنفاق واثارة التخريب في القضايا العقائدية والدينية.
- ٤ - الهبوط بالكتاب والسنة من مقام الزعامة والإمامة إلى مستوى التابع والمقلد.
- ٥ - تكييف التعاليم السماوية على ضوء انحرافات الأوساط الموبوءة.
- ٦ - إحالة المفاهيم السامية المطلقة المستندة إلى الوحي إلى أفكار الإنسان المحدودة الضيقة.

٧ - تمهيد السبل والذرائع للأفراد الضالين المضلين.

طبعاً ليس هنالك من علاقة بين التفسير بالعقل والآيات والروايات وتفسيرها بالرأي. والمراد بالتفسير بالعقل هو الاستفادة من الأدلة والقرائن العقلية من أجل فهم معنى الآيات

١. تفسير البرهان ١٩/١.

٢. وسائل الشيعة ١٤٩/١٨، ح ٦٦ الباب ١٣، أبواب صفات القاضي.

والروايات. على سبيل المثال فإن القرائن العقلية القطعية تصرح بأن المراد باليد في الآية الشريفة: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»^١ القدرة والقوة، لاهذه اليد العضو من أعضاء بدن الإنسان المركبة من اللحم والعظم والجلد. أما المراد بالتفسير بالرأي فهو الاستعانة بالقرائن الظنية أو الوهمية الخالية دون القرائن لتفسير الآيات والروايات وفقاً للأهواء والرغبات. على كل حال فإن هذا العمل نابع من الجهل أو الأهواء الشيطانية. ويتضح مما مر معنا أن أولئك الذين حاولوا توجيه ضلالهم وانحرافهم بواسطة التفسير بالرأي، قد ضلوا حتى في مسألة التفسير بالرأي وفسروها بوحى من رأيهم، ومن هنا نقف على أهمية ما ورد في الخبر الذي صرح بعدم إثابة من فسر برأيه وإن أصاب. فليس هنالك من ركن يستند إليه في التفسير بالرأي سوى الفرضيات الجوفاء والآراء الظنية والوهمية، الأمر الذي يقضي على روح إيصاله الوحي وإشاعة جو الفوضى والاضطراب في بيان المسائل الشرعية، كما يقدح في نورية القرآن ويهدد بالغرق سفينة النجاة المتمثلة بأئمة العصمة عليهم السلام. وإلا لو كانت هنالك الفرضيات العلمية المسلمة إلى جانب القرائن العقلية لتعذر تسمية هذا التفسير بالتفسير بالرأي، فهذا تفسير بالعقل. ومما يؤسف له أن المنحرفين قد فسروا حتى مسألة التفسير بالرأي برأيهم ليتخذوا من الوحي وسيلة لتوجيه انحرافهم وتحقيق أطماعهم وأغراضهم.



٣ - البدع مادة الانحراف

ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبة البدع التي تعد من الصفات التي يتصف بها هذا الصنف ممن تسمى بالعلماء، والحال أنهم يدعون أنهم يعيدون كل البعد عن البدع، وهم يسبحون في هالة منها. وكما أشرنا سابقاً فإن البدعة أن تحدث في الدين ما ليس منه، أو أن تخرج منه ما هو فيه، وعليه فهي لاتصدق على الإبداع والتجديد والخلاقية في الميادين السياسة والاجتماعية والاقتصادية وشؤون الحياة اليومية، أو بعبارة أخرى قد تكون البدعة في الدين وقد تكون في

غيره، فما كانت في الدين فهي حرام ومضلة، وما كانت في غيره فهي ممدوحة مطلوبة مالم تسمى إلى الدين. على سبيل المثال فإن رسول الله ﷺ أتى بحج التمتع؛ أي خرج من الاحرام بعد أداء العمرة ثم أحرم للحج بعد فاصلة، كما أجاز الزواج المنقطع، فان انبرى من يقول لا أستسيغ حج التمتع، ولا بد أن يكون الحج والعمرة معا، ولا أومن بالزواج المنقطع، فثل هذا الشخص مبتدع في دين الله، وهو الأمر الذي ذمته الروايات بشدة، حتى قال رسول الله ﷺ: «أهل البدع شر الخلق والخليقة»^١ كما قال ﷺ: «من تبسم في وجه مبتدع، فقد أعان على هدم دينه»^٢ وما ذلك إلا للأخطار العظيمة الناجمة عن البدع وفي مقدمتها القضاء على إصالة الدين، ولو فتح باب الدين بوجه البدع وتصرف الأفراد في العقائد والمفاهيم كما يحلوهم فسوف لن يمر وقت طويل حتى تنعدم آثار الدين ولا يبقى إلا اسمه، وبالتالي سوف لن يكون إلا أداة طيعة بيد المهووسين والمنحرفين المتطفلين على الدين. ومن هنا جاء في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام في جوابه لمن سأله عن أقل ما يتعامل به ذلك الكافر قال «أن يبتدع شيئا، فيتولى عليه، ويبرء ممن خالفه»^٣.

ولو قمنا في تاريخ الأديان الباطلة لرأينا أنها إنما استندت في الغالب إلى البدع.

❦❦❦

١. كنز العمال ٢١٨/١، ح ١٠٩٥.

٢. بحار الأنوار ٢١٧/٤٧، ح ٤.

٣. سفينة البحار، مادة «بدع»؛ بحار الأنوار ٢٢٠/٦٩.

القسم الرابع

«فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟» «وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ!» والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوبة. فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ، وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةٌ نَبِيَّكُمْ! وَهُمْ أَرِمَةٌ الْحَقِّ، وَأَعْلَامُ الدِّينِ، وَالسِّنَةُ الصِّدْقِ! فَأَنْزَلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ، وَرِدُّوهُمْ وَرُودَ الْهَيْمِ الْعِطَاشِ.

ۛۛۛۛ

الشرح والتفسير

لم الضلال، والعتره بين الاظهر؟

لقد وصف الإمام عليه السلام في المقطع السابق من هذه الخطبة العالم المخلص والآخر المزيف، ثم واصل الكلام في هذا الموضوع من الخطبة بالحديث عن أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله ومكانتهم في المجتمع الإسلامي، بغية معرفة الفريق الأول وتمييزه عن الثاني، إلى جانب الاقتداء به، إلا أنه أشار بصورة كلية إلى هذه المسألة فقال: «فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ، وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ»، والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوبة». فلا يحق لكم القول إننا نعيش في عصر تتقاذفنا فيه التيارات ولسنا لنا معرفة الحق من الباطل بعد أن إمتزجاً معاً، كلا ليس الأمر كذلك، فكل شيء واضح والموازن جلية بينه، وقد اعذر من انذر. فقد جرت العادة على نصب العلام في الطرقات بغية الاهتداء وعدم الضياع، فأحياناً توضع العلامات في مفترقات الطرق المنعطفات، وأحياناً أخرى توضع المصابيح المضاءة على المرتفعات (ولا سيما في الليالي الظلماء) ويكفي أي من هذه الطرق لمعرفة السبيل، فإذا اجتمعت هذه الطرق معاً، بلغ الإنسان المطلوب وسارع في خطاه نحو الهداية والصواب، فالذي أراد الإمام عليه السلام أن هذه الطرق قد سخرها الله سبحانه لكم. ثم طبق الإمام عليه السلام هذا الكلي على مصداقه فانتقل من العام إلى الخاص، كيلا يقال أن هذه

١. «تؤفكون» من مادة «افك» على وزن فـكـر، الانحراف والميل، ومن هنا يطلق الافك على الكذب والنهمة.

الكليات لا تحل مشكلتنا، فأعاد قوله ﷺ مستنكراً عليهم الحيرة والضلال، وعتره النبي ﷺ بين أظهرهم: «فأين يتاه^١ بكم! وكيف تعمهون^٢» نعم لا يرتجى منكم الضلال والحيرة وبين أظهركم عتره رسول الله ﷺ مصابيح الهدى وأعلام الورى والعروة الوثقى التي من تمسك بها نجى «وهم أئمة الحق، وأعلام الدين، وألسنة الصدق» فن أقبل عليهم أخذوا بيده إلى الحق، من إقتدى بهم عن بعد هدي إلى الرشد، بالتالى كل يهتدي بهديهم حسب تبعيته لهم. أما العبارة: «وهم أئمة الحق» فتفيد أن الحق يتحرك حول محورهم؛ المضمون الذي ورد في الحديث المعروف «علي مع الحق، والحق مع علي يدور حيثما دار»^٣. والعبارة: «وألسنة الصدق» تعني أنهم تراجمة الوحي. كما يمكن أن يكون المراد أن لسانهم ﷺ لا ينطق سوى بالصدق؛ سواء تحدثوا عن الله ورسوله ﷺ، أم حدثوا عن أنفسهم، فكل ذلك صدق محض. وبالطبع ليس هنالك من تضاد بين هذين التفسيرين ويمكن الجمع بينهما. ثم إختتم ﷺ كلامه بالقول: «فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، وردوهم ورود الهيم^٤ العطاش» فالقرآن قد يجري على لسان الإنسان، كما قد يظهر على عمله، وأخيراً قد يشغل حيزاً في عمق روح الإنسان، وأفضل موضع للقرآن هو الموضع الأخير من المواضع الثلاثة المذكورة. فالعبارة تصرح بحب أهل البيت التابع من أعماق القلب والروح، كما ينبغي أن يعيش القرآن في هذه الأعماق. والواقع هو أن هذه العبارة تؤكد حديث الثقلين الذي قرن العترة بالقرآن ودعا الناس كافة إلى اتباعها والتمسك بها بغية الأمان من الضلال والفرقة. كما قيل في تفسير هذه العبارة أنزلوهم أفضل المواضع التي أنزلهم بها القرآن الكريم، ألا وهو مقام الإمامة والولاية الذي أشار إليه القرآن بالقول: «إِنَّمَا وَلِيَّكُمْ اللَّهُ...»^٥ والآية: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ...»^٦ والآية: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى»^٧ وسائر الآيات القرآنية

١. «يتاه» من مادة «تياه» على وزن شئ والضلال والحيرة .

٢. «تعمهون» من مادة «عمه» على وزن فرح الحيرة والتخبط، وقيل: أن العمى في العربية عمى العين الظاهرة والعمه العين الباطنة.

٣. نقل هذا الحديث العلامة الأميني باسناد مختلفة من مصادر العامة (الغدير ١٧٦٣).

٤. «هيم» جمع «أهيم» الابل العطشى، وكذلك يقال للرمال تبتلع الماء، وأحياناً يستعمل هذا الاصطلاح للتعبير عن العطش.

٥. سورة المائدة / ٥٥.

٦. سورة المائدة / ٧٦.

٧. سورة الشورى / ٢٣.

الواردة بهذا الشأن.^١ ويبدو التفسير الأول أنسب. وأخيراً فالعبارة «الهمم العطاش» تفيد أنهم ﷺ منبع ماء الحياة، وأنكم بأشد الحاجة إليهم، وعليه يجب عليكم المسارعة إليهم دون أدنى تريث أو ترديد.

منزلة أهل البيت ﷺ

يتضح بجلاء مما مر معنا في هذا القسم من الخطبة أنّ وجود أهل البيت من عترة النبي ﷺ بين المسلمين، وتبعية الأمة لأقوالهم وأفعالهم إنّما تعصمهم من خطر الضلال، فهم أزمة الحق ومصايح الهدى وأعلام الدين وألسنة الصدق وتراجمة الوحي. أمّا الروايات والأخبار الواردة من الفريقين في التأكيد على حبهم فذلك لأنّ حبهم يبعث على إتباعهم، وبالتالي فإنّ اتباعهم هو أساس الهداية والحركة نحو الحق. ومن تلك الروايات ما أورده الفخر الرازي في تفسيره المعروف عن الزمخشري في الكشف أنّ رسول الله ﷺ قال:

«من مات على حب آل محمد مات شهيداً».

«ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له».

«ألا ومن مات على حب آل محمد مات قائماً».

«ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان».

«ألا ومن مات على حب آل محمد، بشره ملك الموت بالجنة».

«ألا ومن مات على بغض آل محمد، جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه أنس من رحمة

الله».^٢ وورد في حديث أنه ﷺ قال: «أنا أول وأقد على العزيز الجبار يوم القيامة، وكتابه

وأهل بيتي، ثم أمّتي، ثم أسألهم: ما فعلتم بكتاب الله وبأهل بيتي؟»^٣ هذا غيض من فيض

الأحاديث والروايات التي صرحت بمنزلة أهل البيت وأكدت على حبهم والتمسك بهم.



١. للوقوف بصورة أعمق على هذه الآيات وأقوال مفسري الشيعة والسنة راجع كتاب رسالة القرآن، ج ٨.

٢. تفسير الفخر الرازي ١٦٥/٢٧، الآية ٣٣ من سورة الشورى.

٣. أصول الكافي ٦٠٠/٢، ح ٤.

القسم الخامس

«أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ، وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ» فَلَا تَقُولُوا بِمَا لَا تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ، وَاعْذِرُوا مَنْ لَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ - وَهُوَ أَنَا - أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالنَّقْلِ الْأَكْبَرِ! وَأَتْرُكُ فِيكُمْ الثَّقَلَ الْأَصْغَرَ! قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَالِلِ الْحَرَامِ، وَالْبَسْتُكُمْ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي، وَفَرَشْتُكُمْ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، أَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي، فَلَا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لَا يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ، وَلَا تَتَغَلَّغَلْ إِلَيْهِ الْفِكْرُ».



الشرح والتفسير

أعلام الهدى

أكد الإمام عليه السلام ما ورد في القسم السابق بشأن عترة النبي صلى الله عليه وآله فاضاف قائلاً: «أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ، وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ» هناك كلام وخلاف بين شراح نهج البلاغة بشأن عودة الضمير في «خذوها» ولكن يبدو أنه يعد إلى الحقيقة أو الكلام الحق ويعلم ذلك من قرائن الكلام، وان لم ترد في العبارات السابقة، ففهوم العبارة: خذوا هذا الكلام الحق بشأن أهل البيت عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. أمّا قوله: إنه يموت من مات منا وليس بميت، ويبلى من بلى منا وليس ببال، فقد حمل على المعنى الحقيقي في أن أجساد أولياء الله تبقى غضة طرية في القبور وهم يتمتعون بنوع من الحياة بحيث يسمعون كلام الآخرين ويردون سلامهم، ولهم حياة

الشهداء الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرزَقُونَ»^١. وعليه فالعبارة «يموت» تعني الموت الظاهري، والعبارة «ليس بميت» تعني عدم الموت الواقعي، وهكذا عبارتي «يبلى» و«ليس ببال». وقال البعض أن المراد بعدم الموت والبلى هنا المعنى المجازي، أي أن آثارهم وتعاليمهم باقية بين الناس إلى يوم القيامة، وكأنتهم أحياء، ولعلنا نلمس هذا المعنى في رواية كميل في آخر نهج البلاغة بشأن العلماء العاملين «أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة»^٢. كما احتمل أن يكون المراد بالحياة هنا تلك الحياة البرزخية التي تكون فيها الروح في قوالب مثالية لطيفة، إلا أن هذا الاحتمال يبدو مستبعداً لأن مثل هذه الحياة لا تختص بالأئمة والمقربين من أولياء الله. ويبدو الاحتمال الأول هو الأصح، وبالطبع فأنها حياة أرفع من حياة الشهداء، فاننا نناديهم في الزيارة «تسمع كلامي وترد سلامي»^٣. ثم أكد الإمام عليه السلام ذلك قائلاً: «فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإن أكثر الحق فيما تنكرون» في إشارة إلى أن معلومات الإنسان محدودة جداً وأن حقائق العالم عظيمة واسعة. والواقع أن العقل يقول في مثل هذه الحالة «لا ينبغي للإنسان أن يفكر لكل شيء لا يعرفه». على سبيل المثال لو لم يكن لديه من علم بشأن حياة أولياء الله، فلا ينبغي له أن ينكر ذلك. فليس هذا الأمر الوحيد الذي لا يعلمه أغلب الناس، بل هناك آلاف الآلاف وملايين الملايين من الوقائع المتحققة في الخارج والتي لا ندركها، وحسب تعبير أحد العلماء أن وقائع العالم بمنزلة كتاب ضخم بحيث لو جمعت كافة علوم البشرية من أولها إلى آخرها لما أصبحت ورقة في ذلك الكتاب. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه ليكشف عن حقيقة مريرة صعبة وكذلك مفيدة نافعة بعيدة المعنى فقال: «واعذروا من لا حجة لكم عليه - هو أنا» أي أنني نهضت بكافة وظائف الملقاة على عاتقي، فلم أقصر في وظيفتي طرفة عين وقد أدت تكليفي أمام الله والعباد. وبناءً على هذا فليس هنالك ما يسئ إليّ، ومن تفوه على فهو إمّا خاطئ أو مغرض. طبعاً هذا لا يعني أنه لا تبدو آرائكم تجاهي وتدخلون

١. سورة آل عمران / ١٦٩.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار ١٤٧، «من حسن المصادفات انه كتب هذا القسم من الخطبة في الذكرى الحادية عشرة لرحيل الإمام الخميني (ره)».

٣. بحار الأنوار ٢٩٥/٦٧.

بالمشورة، إلا أنه يعني ليس لكم حق الاعتراض علي؛ الأمر الذي نلمسه في قوله لابن عباس: «لك ان تشير علي وأرى، فان عصيتك فأطعني»^١. ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح خدماته التي اسداها للأمة بسبع عبارات، فقال بادئ ذي بدء «ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر» فسيرة حياة الإمام عليه السلام ولا سيما زمان حكومته تفيد أن القرآن كان محوراً في كافة أقواله وأفعاله؛ الأمر الذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «علي مع القرآن، والقرآن مع علي»^٢. ثم قال عليه السلام: «وأترك فيكم الثقل الأصغر» وشاهد ذلك الحوادث التي وقعت ابان حياته عليه السلام بحيث كثيراً ما كان يتعرض أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقيّة الثقل الأصغر الإمام الحسن والحسين عليهما السلام إلى الاخطار، بينما كان يسعى الإمام عليه السلام جاهداً للحفاظ عليهما ومن ذلك أنه شاهد الإمام الحسن عليه السلام وهو يسارع إلى الميدان في معركة صفين فقال: «أملكوا عني هذا الغلام لا يهدني، فانني أنفسي بهذين يعني الحسن والحسين عليهما السلام - على الموت لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»^٣. ثم قال في العبارة الثالثة: «قد ركزت فيكم راية الإيمان». فكلام علي عليه السلام - ومن ذلك خطبه في نهج البلاغة - بشأن المبدأ والمعاد وأدلة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تفيد أنه كان ينتهز الفرص من أجل تقوية عرى الإيمان في قلوب الأمة. وقال في العبارة الرابعة: «ووقفتم على حدود الحلال والحرام» وقد بلغ من تأكيد الإمام عليه السلام على بيان مسائل الحلال والحرام بحيث أنه لم يكن يقتصر على بيانها في خطبه في المساجد وسائر الحلقات، بل كان يقوم بذلك كل يوم حين يتفقد السوق ويخاطب التجار والكسبة ويوصيهم بالتفقه بالدين، بل لم يحفل التأريخ بمثل أمير المؤمنين عليه السلام في بيانه لأحكام الشرع ومسائل الحلال والحرام. فقد جاء في الخبر أنه كان يطوف بالأسواق وينادي أهلها بالورع التقوى وعدم القسم في المعاملة، فانها تذهب البركة والتاجر فاجر إلا أن يأخذ حقاً ويعطي حقاً، ثم يأتي ثانية ويخاطبهم بهذه الكلمات^٤. كما كان يطوف في أسواق القصابين ويناديهم من غشنا ليس منا.^٥

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار ٣٢١.

٢. ينابيع المودة طبقاً لنقل إحقاق الحق ٣٥٤/٩، وقد نقل هذا الحديث في عدة مصادر أخرى من المصادر المعروفة للعامة، وللوقوف أكثر راجع ٦٣٩/٥، من إحقاق الحق.

٣. نهج البلاغة، خطبة ٢٠٧.

٤. الغارات، سيرة علي عليه السلام في نفسه.

٥. المصدر السابق.

ثم قال ﷺ في العبارة الخامسة: «وَأَبْسِطْكُمْ الْعَاقِبَةَ مِنْ عَدْلِي» فعدالة أمير المؤمنين ﷺ وتأثيرها في إعادة روح الاستقرار والهدوء إلى المجتمع ليست بخافية على أحد، لم يكف لحظة إبان حكومته عن التأكيد على ضرورة بسط العدل والقسط، حتى صرح ﷺ قائلاً: «وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتَهُ قَدْ تَزَوَّجَ بِهِ النِّسَاءَ، وَمَلَكَ بِهِ الْأَمَاءَ، لَرُدَّدْتَهُ فَإِنْ فِي الْعَدْلِ سَعَةٌ. وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجُورُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ»^١.

ثم قال في العبارة السادسة «وَفَرِّشْتُمْ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفَعَلِي» فأعمال الخير والاحسان قد تشيع وتتسع رقعتها في المجتمع عن طريق الوصايا والمواعظ الخطب، كما يمكن أن تنتشر عن طريق عرض النماذج والقذوات العملية، والحق أن الإمام ﷺ كان قدوة في الأمرين، وقد شحنت كتب التواريخ ونهج البلاغة بسيرته العملية وأقواله بشأن أمر الناس بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم قال ﷺ: «وَأَرَيْتُمْ كِرَائِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي». ففضائله الأخلاقية ﷺ وعدالته وإيثاره وتضحيته وزهده وورعه وتقواه ونصرته للمظلومين واليتامى والضعفاء وشجاعته وبسالته ومبارزته للباطل الظلمة ليست بخافية على أحد، حتى اعترف بها الأعداء كعواوية وعمرو بن العاص، فضلاً عن الأصدقاء. وقال البعض أن: «كِرَائِمَ الْأَخْلَاقِ» أسمى من «حَسَنَ الْأَخْلَاقِ»؛ فثلاً حسن الخلق يوجب مقابلة الاحسان بالاحسان، أو الرد عليه بما يربو عليه، أما كرم الخلق فإنه يوجب مقابلة الإساءة بالاحسان؛ العمل الذي قام به أمير المؤمنين علي ﷺ تجاه عبدالرحمن بن ملجم بعد أن ضربه. ثم اختتم كلامه ﷺ قائلاً: «فَلَا تَسْتَعْمَلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لَا يَدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ، وَلَا تَتَغَلَّغْ إِلَى الْفِكْرِ» في إشارة إلى أن ما بينه من منزلة للثقل الاصغر (عترة النبي) إنما هي من الأمور التي اقرتها الارادة الإلهية، فايكم والتشكيك فيها من خلال الوهم والظن والأفكار العاجزة. فهي منزلة حباهم بها العزيز الحكيم إلى جانب كونها نعمة عظيمة أنعمها الله على الأمة الإسلامية. والواقع هو أن هذه العبارة تأكيد للعبارة السابقة التي قال فيها ﷺ: «فَلَا تَقُولُوا بِمَا لَا تَعْرِفُونَ، فَإِنْ أَكْثَرَ الْحَقَّ فِيمَا نَنْكُرُونَ».

القسم السادس

ومنها: «حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِي أُمِّيَّةٍ؛ تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا، وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا، وَلَا يُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلَا سَيْفُهَا، كَذَبَ الظَّانُّ لِذَلِكَ، بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ يَتَطَعَّمُونَهَا بِرُزْمَةٍ، ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً!».

❦❦❦

الشرح والتفسير

زوال حكومة بني أمية

هذا هو ختام الخطبة. ويرى البعض أنه موضوع مستقل ليس له من إرتباط بالأبحاث السابقة. والواقع أن هناك عدة مطالب بين هذا القسم من الخطبة والأقسام السابقة لم يتعرض لها السيد الرضي (ره)، ومن هنا يبدو عدم وجود ارتباط بين هذا القسم وما سبقه من أقسام، مع ذلك لا يستعبد أن تكون هناك رابطة معقولة بين هذين القسمين، أي أن ما حذف منها ليس بالشيء الكثير. وكأن الإمام عليه السلام أشار إلى العبارة الأخيرة من البحث السابق حين قال فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإن أكثر الحق فيما تنكرون. ومن ذلك قوله لا تعتقدوا أن حكومة بني أمية دائمة خالدة، لا ليس الأمر كذلك، فسرعان ما تؤول حكومتهم إلى زوال وإنهيار. وقد ابتدأ المرحوم السيد الرضي (ره) هذا القسم قائلاً أن القسم الآخر من هذه الخطبة: «حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ^١ عَلَى بَنِي أُمِّيَّةٍ؛ تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا،^٢ تُورِدُهُمْ صَفْوَهَا، وَلَا يُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلَا سَيْفُهَا»، فالعبارة «معقولة على بني أمية» كناية عن تسليم الشيء إلى

١. «معقولة» من مادة «عقال» الحبل الذي تربط به رجل الناقة بعد الانحناء لكي لا يستطيع القيام فتبقى في مكانها، ثم اطلقت كناية على الأمور المستقرة.

٢. «در» تعني في الأصل ترشح اللبن من الثدي، ثم اطلقت على سائر السوائل كالمطر وأمثاله، كما اطلقت كناية على مختلف النعم المادية.

شخص، والعبارة «تمنحهم درها» جرياً على عادة العرب بتشبيه أغلب أمور حياتهم بالناقعة، حيث كان لها بالغ الأثر في حياتهم وعليه فهذه التشبيهات محببة إليهم. على كل حال فإن الأفراد السطحيين لا يكادون يرون أحدهم متربعاً على عرش السلطة وقد صفت له الدنيا وقع معارضية حتى يظنون بخلود هذه السلطة، والحال لا يعلم ما يجيء الغدو ليس هنالك من سبيل للتكهنات في المسائل السياسية، نعم لأولياء الله أن يزودوا الناس ببعض هذه الأخبار المستقبلية إستاناداً لعلمهم المستق من علم الله سبحانه، ومن ذلك هذا الأخبار من الإمام عليه السلام حيث قال مواصلة لكلامه: «و كذب الظان لذلك، بل هي مجة^١ من لذيذ العيش يتطعمونها برهة، ثم يلفظونها جملة»؛ أي سيستحوذون على الحكومة تدريجياً، ثم يفقدونها دفعة واحدة. فنحن نعلم أن حكومة بني أمية لم تدم أكثر من ثمانين سنة، فكانت أعظم مدتهم على عهد حكومة معاوية بعد شهادة الإمام علي عليه السلام وصلحه مع الإمام الحسن عليه السلام بعد أن أقيمت عليه الدنيا. ثم خلفه يزيد الذي اسود عهده بفعل قيام الإمام الحسين عليه السلام واستشهاده بتلك الطريقة البشعة فلم تدم حكومته أكثر من أربع سنوات، ثم تعاقبت الحكومات التي دام بعضها بضعة أشهر، بل كانت حكومة معاوية بن يزيد أربعين يوماً، ولم تشذ من ذلك سوى حكومة عبد الملك التي استغرقت عشرين سنة، ولعل السبب يعود إلى عدم استجابته لوصايا الحجاج وعدم إراقة دماء بني هاشم على كل حال وكما أخبر الإمام علي عليه السلام فقد كانت حكومتهم قصيرة مليئة بالأحداث المريرة - أما العبارة «هي مجة» فهي إشارة إلى أن بني أمية سيذوقون لمدة عابرة نعم الدنيا، إلا أن مثلهم كمثل الذي يضع طعاماً لذيذاً في فمه ويتذوق طعمه إلا أنه لا يقوى على إبتلاعه، فسرعان ما سيفقدون لذة الحكومة، والتاريخ أفضل شاهد على ذلك في أن حكومتهم التي دامت ثمانين سنة - سوى بعضها - كانت مليئة بالمخاطر والنزاعات والحروب والبلابل والاضطرابات.

١. «مجة» من مادة «مج» على وزن حجج، وفي الاصل تعني قذف الماء أو اللعاب من الضم بعيداً أو قريباً. ويقال لعصير العنب وما يشابهه «مجاج»، على وزن عُقاب، وأيضاً يقال للعسل «مجاج النحل». وهنا جاء هذا الاصطلاح تعبيراً عن النصر والنجاح والموفقية التي يحصل عليها الانسان ثم يفقدها بسرعة.

تأملان

حكومة بني أمية الفاشلة

صحيح أن بني أمية حكموا البلاد الإسلامية ما يقارب الثمانين سنة وقد تسلم زمام الأمور أربعة عشر من آل أبي سفيان^١ وآل مروان، حيث حكم بعضهم لشهر أو بضعة أشهر، وكانت أطولها حكومة هشام بن عبد الملك حيث دامت عشرين سنة، فكان متوسط حكومة أحدهم ستة أشهر، إلا أن حكومتهم كانت ملئى بالزاعات والخلافات؛ أمّا الحوادث التي وقعت خلال تلك المدة وأحالت عسل حكومتهم علقياً فهي:

أ) قيام الخوارج ضد بني أمية

شهدت حكومة بني أمية عدة نهضات للخوارج وهي:

- ١- قامت طائفة من الخوارج يبلغ عددها خمسمئة بزعامة فروة بن نوفل بعد حركة الإمام الحسن عليه السلام من الكوفة إلى الحجاز وورود معاوية الكوفة.^٢
- ٢- قيام عروة بن حدير المعروف بعروة بن أدية ضد معاوية وقتله من قبل زياد.

١. الأربعة عشر هم:

- ١- معاوية ٤٠-٦١ هـ
 - ٢- يزيد بن معاوية ٦١-٦٤
 - ٣- معاوية بن يزيد ٦٤-٦٤ هـ اربعين يوماً أو شهرين
 - ٤- مروان بن الحكم تسعة أشهر من عام ٦٥
 - ٥- عبد الملك بن مروان ٦٥-٨٦
 - ٦- الوليد بن عبد الملك ٨٦-٩٦
 - ٧- سليمان بن عبد الملك ٩٦-٩٩
 - ٨- عمر بن عبد الملك ٩٩-١٠١
 - ٩- يزيد بن عبد الملك ١٠١-١٠٥
 - ١٠- هشام بن عبد الملك ١٠٥-١٢٥
 - ١١- الوليد بن يزيد ١٢٥-١٢٦
 - ١٢- يزيد بن الوليد شهرين وعشرة أيام من عام ١٢٦
 - ١٣- إبراهيم بن الوليد سبعين يوماً من عام ١٢٦
 - ١٤- مروان بن محمد المعروف بمروان الحمار ١٢٦-١٣٢
٢. البداية والنهاية ٢٤/٨.

- ٣- نجدة بن عويم الحنفي أحد زعماء الخوارج الذي ثار ضد معاوية واستولى على اليمامة والطائف وعمان والبحرين ووادي تميم وعامر.
- ٤- قيام مستورد بن سعد الصميمي على المغيرة بن شعبة والي معاوية على الكوفة، فبعث له المغيرة بمعقل بن قيس وقد قتلا معاً^١.
- ٥- قيام حوثة الأسدي ضد معاوية فجهز له معاوية جيشاً من الكوفة فخطبهم حوثة: يا أعداء الله لقد قاتلتم بالام من أجل القضاء على حكومة معاوية واليوم من أجل تثبيت دعائهم، وقد قتل حوثة في هذه المعركة وتفرق أصحابه.
- ٦- قيام قريب بن مرة الأزدي وزحاف الطائي وهما من مجتهدي البصرة ضد زياد^٢.
- ٧- قيام نافع بن الأزرق الحنفي ونجدة بن عامر وهما من الخوارج وهجومهما على البصرة، وقد قتل في هذه المعركة أمير البصرة ابن عبيس ونافع، وتعرف هذه المعركة بمعركة دولاب وهي من المعارك المشهورة للخوارج.
- ٨- عبید الله بن بشير بن ماحوز اليربوعي الذي تزعم الخوارج بعد قتل نافع وواصل القتال.
- ٩- قيام الزبير بن علي السليطي بعد أن نزل البصرة والتحق به أهالي البصرة والاهواز.
- ١٠- قيام قطري بن الفجاعة المازني ضد معاوية بعد قتل الزبير بن علي. حيث أراد الخوارج أن يتزعمهم عبدة بن هلال إلا أنه قال أن قطري بن الفجاعة خير مني فبايعوه^٣.
- ١١- عبد ربه الصغير الذي بويع على عهد قطري والذي قتل في معركته ضد المهلب^٤.
- ١٢- قيام شبيب بن يزيد الشيباني في الموصل والجزيرة فقاتله الحجاج^٥، وقد تمكن من قتل عدد كثير من جيش الحجاج.

ب) قيام سائر الناس ضد بني أمية

- ١- قيام حجر بن عدي على المغيرة بن شعبة والي معاوية على الكوفة، حيث خطب

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣٢/٤ - ١٣٤.

٢. المصدر السابق/١٣٥.

٣. المصدر السابق/١٤٤.

٤. المصدر السابق/١٦٧.

٥. البداية والنهاية ١٧/٩.

الناس فذم علي عليه السلام ومدح معاوية، فقام إليه حجر، ثم قتلوه في مرج عذراء بعد أن منحوه الأمان.^١

٢ - قيام الإمام الحسين عليه السلام ضد يزيد واستشهاده في محرم الحرام عام ٦١ هـ.^٢

٣ - قيام عبدالله بن الزبير في مكة فخلع يزيد ودعى الناس لبيعته، ثم أخرج والي يزيد من مكة.^٣

٤ - قيام أهل المدينة بزعامه عبدالله بن حنظلة والذي يعرف بواقعة الحرة، فورد جيش يزيد بزعامه مسلم بن عقبة المدينة فقتل أهلها.^٤

٥ - قيام التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي عام ٦٥ في عين الوردة تحت شعار بالثارات الحسين.^٥

٦ - قيام المختار بن أبي عبيدة الثقفي بعد سليمان بن صرد الخزاعي، حيث وجه ابراهيم بن مالك بن الحارث لقتال عبيدالله بن زياد، فتمكن ابراهيم من قتله، ثم اقتص المختار من قتله الإمام الحسين عليه السلام.^٦

٧ - قيام مصعب بن الزبير ضد عبيدالله بن زياد، إلا أنه هزم بعد أن غدر به جمع من أهل العراق.^٧

٨ - قيام عبدالرحمن بن محمد الاشعث في سيستان، حيث كان والي الحجاج عليها، إلا أن الحجاج غضب عليه وهدده، فخلع الحجاج وقاتله في الأهواز عام ٨٣ هـ.^٨

٩ - قيام آل المهلب على يزيد بن عبدالملك عام ١٠٢ حيث بايع يزيد بن المهلب مائة وعشرين الف، فبعث يزيد بن عبدالملك بأخيه مسلمة بن عبدالملك فنشبت بينهما معركة

١. البداية والنهاية ٥٤/٨.

٢. تاريخ يعقوبي ٢٤٥/٢.

٣. تاريخ يعقوبي ٢٤٧/٢.

٤. تنمة المنتهى ٥٨/.

٥. البداية والنهاية ٢٧٦/٨.

٦. تاريخ يعقوبي ٢٥٩/٢.

٧. البداية والنهاية ٢٥٩/٢.

٨. تاريخ يعقوبي ٢٧٧/٢.

ضارية هزم في بدايتها أهل الشام.^١

١٠ - قيام سليمان بن كثير الخزاعي وصحبه عام ١١١ في خراسان وقد دعوا الناس لبيعة

بني هاشم فاستجاب لهم الكثير.^٢

١١ - قيام زيد بن علي بن الحسين عليه السلام على هشام بن عبد الملك، حيث استشهد أوائل شهر

صفر عام ١٢١، وقد بايعه بادئ الأمر جمع من قراء أهل العراق والاشراف، إلا أنهم انفرجوا

عنه حين قاتل عامل العراق يوسف بن عمر الثقفي ثم استشهد زيد، فاستخرجوا جسده بعد

الدفن وحزوا رأسه ثم حرقوا جسده.^٣

١٢ - قيام يحيى بن زيد ضد نصر بن سيار فهزم جيشه وقتل قائده، ثم استشهد مع سائر

أصحابه.^٤

١٣ - قيام الضحاك بن قيس الحروري ضد عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز حيث استولى

على واسط والموصل ونصيبين وحران، وفي عام ١٢٧ قتل الضحاك وتفرق أصحابه.^٥

١٤ - قيام أبو حمزة المختار بن عوف الحروري الأزدي واستيلائه على المدينة، ثم انطلق

للشام، فاشتبك مع مروان الحمار ثم عاد إلى المدينة.^٦

١٥ - قيام ابراهيم بن محمد الإمام وابومسلم الخراساني عام ١٢٩.^٧



١. البداية والنهاية ٢٤٦/٩.

٢. تاريخ اليعقوبي ٣١٩/٢.

٣. تممة المنتهى ١٢٤/١٢٧.

٤. البداية والنهاية ٧/١٠.

٥. تاريخ اليعقوبي ٣٣٨/٢.

٦. تاريخ اليعقوبي ٣٣٩/٢.

٧. البداية والنهاية ٣٢/١٠.



الخطبة ١

ومن خطبة له ﷺ

وفيه بيان للأسباب التي تهلك الناس

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من قسمين؛ القسم الأول في أنّ العذاب الإلهي لا يأتي بغتة، بل إنّ الله ليجهل الجبايرة والظلمة والأقوام الطاغية والمفسدة، وإنه لا يعجل في المؤاخذة، عليهم يعودون إلى أنفسهم وينيبون إلى الله. بعبارة أخرى فإن العذاب الإلهي لا يحمل طابع الانتقام، بل يهدف إلى الاعتبار والتربية، إلا أنّ المؤسف هو كثرة العبر وقلّة الاعتبار فلا من أذن تسمع ولا من عين تبصر الحق ولا قلوب تنزع إلى الهدى. أمّا القسم الثاني فيشير إلى الأقوام المنحرفة التي تلجأ إلى أفكارها الناقصة وآرائها الباطلة لحل خلافاتها الدينية بدلاً من الرجوع إلى الوحي والسنة النبوية المطهرة، فتكتفي بظنها؛ الأمر الذي يقودها إلى الهلاك.

١. سند الخطبة: نقل هذه الخطبة بفارق قليل المرحوم الكليني في كتاب روضة الكافي والشيخ المفيد في الإرشاد، كما نقلها ابن كثير في كتاب النهاية في ٤٦١ عن كتاب اللغة مادة «أزل».

القسم الأول

«أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْصِمِ [يَقْصِم] جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلَّا بَعْدَ تَمْهِيلِ رِخَاءٍ،
وَلَمْ يَجْبُرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ أَرْلٍ وَبَلَاءٍ؛ وَفِي دُونِ مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ
عَثْبٍ وَمَا اسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ مُعْتَبَرٍ وَمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِبَلِيبٍ، وَلَا كُلُّ ذِي
سَمْعٍ بِسَمِيعٍ، وَلَا كُلُّ نَاطِرٍ بِبَصِيرٍ».

٤٠٠٨

الشرح والتفسير

هل من عين باصرة واذن سامعة؟

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة إلى أمرين مهمين: الأول أن الله يمهّل الطواغيت
والجبابرة بغية اليقظة والعدوة. الثاني لانصر دون صعوبات ومعضلات، فقد قال عليه السلام: «أَمَا
بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْصِمِ^١ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلَّا بَعْدَ تَمْهِيلِ رِخَاءٍ» نعم فالله حكيم وحليم وغفور
ورحيم، واستناداً لهذه الصفات الحسنى فإنه لا يعجل بالعقوبة، بل يمهّل الاثمين والمذنبين عليهم
يرغبون ويفيدون على اهداء وصواب ويكفون أن الذنوب يرعون والمعاصي، بل أحياناً
يشجعهم فيغرقهم بوابل نعمه وآلائه، كما مر علينا ذلك في تأريخ نبي الله نوح وموسى عليهما السلام
وكذلك فرعون وقوم بني اسرائيل وقوم سبأ. ثم قال عليه السلام: «وَلَمْ يَجْبُرْ^٢ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا
بَعْدَ أَرْلٍ^٣ وَبَلَاءٍ» ليقدرُوا النعم فيجدوا في عدم تفارها والحفاظ عليها. ثم قال عليه السلام: «وَفِي

١. «يقصم» من مادة «قصم» على وزن غضب تعني في الأصل الكسر بشدة وتستعمل كناية بمعنى الهلاك.

٢. «يجبر» من مادة «جبر» تعني في الأصل إصلاح الشيء، وجبر العظم طيبه بعد الكسر حتى يعود صحيحاً،
كما تطلق على كل قهر وغلبة ولما كان القهر والغلبة ممزوج بالظلم عادة فقد يستعمل الجبار بمعنى الظالم،
وأحد أسماء الله الحسنى جابر العظم الكسير.

٣. «الأزل» بفتح الهمزة وسكون الزاي الضيق والشدة ومادتها الأصلية أزل على وزن فضل بمعنى الحبس.

دون ما استقبلتم من عتب^١ وما استدبرتم من خطبٍ معتبرٍ». وكان الإمام عليه السلام أراد أن يطيب خواطر صحبه ويرد على تساؤل قد تقتدح في أذهانهم بشأن إنتصارات بني أمية وانزعاجهم من ذلك، في عدم الاستعجال، فلن يدوم ظلم هؤلاء الظلمة، وهناك وقت معلوم للمهلة الإلهية فاذا جاءت حلّ عليهم العذاب. ولا تمتعضوا مما يحل بكم من خطوب، فتلك سنة إلهية في البلاء والاختبار وتحمل الشدائد ومن ثم الفرج واليسر، حتى في عهد انبثاق الدعوة اللاسلامية وفي الحروب والمعارك فلم يكتب الله للمسلمين النصر في موقعة الأحزاب حتى زلزلوا زلزالاً شديداً؛ الأمر الذي صورته القرآن بالقول: «وَبَلَغْتَ الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ... هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا»^٢. أما قوم بني إسرائيل فقد خاطبوا نبيهم موسى عليه السلام حين إشتد عليهم الاذى «أَوْ ذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا» فردّ عليهم موسى عليه السلام بالقول: «عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»^٣.

ونخلص مما سبق ان هذه السنة الإلهية جارية على الأمة الإسلامية كما جرت على الأمم من قبلها، ولم يستثن من ذلك أصحاب الإمام عليه السلام. نعم كل هذه الأمور دروس وعبر، إلا أنّها تنفع من كانت له عين باصرة وأذن سامعة وقلب واع!

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «و ما كلّ ذي قلبٍ بليبي، ولا كلّ ذي سمعٍ بسميع، ولا كلّ ناظرٍ ببصير» فتأريخ البشرية مفعم باللدروس العبر، قصر عمرنا هو الآخر - لو تأملنا ذلك بدقة - مليّ بالحوادث المعبرة، بل قد ملأت العبر أركان كل شيء في عالم الوجود، إلا أنّ المؤسف له أنه ينبغي أن يكون هنالك من يسمع ويبصر ويعي ويعتبر، وما أقل هؤلاء، ومن هنا يواصلون طريق الضلالة ويصابون بما أصاب من قبلهم من مصير أسود وعاقبة مريرة.



مصير الجابرة

يعتقد كل من يؤمن بالله وعدله أنّ أساس هذا العالم قائم على العدل والقسط، وأنّ الظلم

١. «عتب» على وزن حتم تعني الامتعاظ الباطني اريد به هنا عتب الزمان، وعتب عليه إذا وجد عليه.

٢. سورة الأحزاب / ١٠ - ١١.

٣. سورة الأعراف / ١٢٩.

والجور طارئ على طبيعة عالم الخليقة، ومن هنا يراود البعض هذا السؤال: إذا كان العدل هو الأساس، فما تفسير تسلّم الجبابة لمقاليد الأمور ومنحهم فرصة ممارسة نشاطهم وفعاليتهم؟ وللإجابة على هذا السؤال لا بدّ من القول بأنّ هنالك عدة دوافع تقف وراء ذلك منها: أولاً: فساد الناس ومثل هذه الحكومات هي عذابهم الدنيوي؛ الأمر الذي نلمسه في وصية الإمام علي عليه السلام لمن ترك النهي عن المنكر: «فيولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم».^١

ثانياً: قد يتحلى بعض الجبابة ببعض الخصال الحسنة التي تستلزم منحهم تلك المهلة التي يتقبلوا فيها في البلاد، فقد جاء في الخبر أنّ موسى عليه السلام قال: إلهي أمهلت فرعون أربعاً سنة وقد ادعى الربوبية وكذب نبيك وآياتك! فجاءه الخطاب: إنّه حسن الخلق وسهل الحجاب، (أي لم تكن هناك من صعوبة لدى الناس في الدخول عليه) واني أحب أن أثيبه على هذه الصفات.^٢

ثالثاً: ما ورد في الخطبة حيث قال الإمام عليه السلام: «أما بعد فإن الله لم يقصم جبّاري دهر قط إلا بعد تمهيل ورخاء» لعلمهم يفيقون من غفلتهم ويكفون عن ظلمهم وعدوانهم.

رابعاً هو أن بعض الجبابة قد أغلقوا جميع أبواب الهداية بوجوههم، فالله يمهّلهم إستدراجاً ليزدادوا ذنوباً وآثاماً فيضاعف عليهم العذاب، بالضبط كالذي يصعد شجرة وعاقبته السقوط، فكلما تسلق أكثر كان أذاه ومصابه أشد وأعظم. أما القرآن فقد صرح بهذا الشأن قائلاً: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُضَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُضَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ».^٣

وبناءً على ما تقدم فلا ينبغي أن يتفر إلينا الشك في مسألة العدل إذا ما رأينا ظالماً وقد تحكّم بمصير أمة، وذلك لاختلاف الأسباب المؤدية إلى ذلك والتي أشرنا إلى جانب منها سابقاً.

١. نهج البلاغة، الرسالة ٤٧.

٢. بحار الأنوار ١٢٩/١٣.

٣. سورة آل عمران / ١٧٨.

القسم الثاني

«فَيَا عَجَبًا! وَمَا لِي لَا أَعْجَبُ مِنْ خَطَا هَذِهِ الْفِرْقِ عَلَى إِخْتِلَافِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا! لَا يَقْتَصُونَ أَثْرَ نَبِيِّ، وَلَا يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيِّ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ، وَلَا يَعْفُونَ عَنْ عَيْبٍ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ. الْمَعْرُوفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا، وَالْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا، مَفْزَعُهُمْ فِي الْمَعْضِلَاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَتَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُهْمَاتِ [المبهمات] عَلَى آرَائِهِمْ، كَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِمَامٌ نَفْسِهِ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بِعُرَى ثِقَاتٍ [وثيقات - وموثقات]، وَأَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ».

٤٠٨

الشرح والتفسير

الاستبداد مادة الاختلاف

لما كانت العبارات الأخيرة من القسم السابق من الخطبة بشأن الدروس والعبر في حياة الناس، فإن الإمام عليه السلام أشار هنا إلى إحدى الموارد المهمة لهذه العبر، ألا وهو اختلاف الأفراد والأقوام إثر هجرهم للأنبياء والأوصياء والعموم في وادي الحيرة والضلال، فقال عليه السلام: «فيا عجباً! وما لي لا أعجب من خطايا هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها! لا يقتصون أثرن بي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفون عن عيب»، فقد بان الشقاق والتفاق في أوساط الأمة الإسلامية على عهد أمير المؤمنين عليه السلام وقد ظهرت مختلف

١. «يعفون» من مادة «عفا» على وزن ثواب، وفي الاصل تأتي بمعنى الامتناع عن الاعمال الشائنة والقييحة، ويقال للشخص الذي يجتنب الاعمال القبيحة «العفيف»، وقد جرى العرف على اطلاق هذا الاصطلاح على الذين يجتنبون القيام بالاعمال الجنسية الغير شرعية.

المذاهب في الاصول والفروع، إلى جانب إتساع رقعة البلاد الإسلامية التي أسهمت في انبثاق مختلف الفرق. فالإمام عليه السلام يضم هذا الاختلاف ويعز ذلك إلى تائر الاخباء زلات التي اشير إلى عشر منها في هذا الخطبة، أربع منها وردت في الخطبة: الأولى أنهم لا يتبعون تعاليم الوحي التي يبلغهم بها الأنبياء. الثانية أنهم لم يلتزموا وبقندو بالأوصياء من بعد الأنبياء. الثالثة عدم الإيمان بالغيب. أما ما المراد بالإيمان بالغيب فهناك خلاف بين مفسري القرآن وشرّاح نهج البلاغة. فقد ذهب البعض إلى أنّ المراد بالغيب الذات الالهية المقدسة، وقيل القيامة وقيل متشابهات القرآن بينما توسع البعض آخر فذهب إلى أنّ المقصود بالغيب كافة الأمور الخارجة عن دائرة حس الإنسان. وعليه فقد يراد بالغيب جميع ما ذكر، ويبدوا المعنى الأخير هو الأنسب. الرابعة عدم التورع عن العيوب وبعبارة أخرى فإنّ هؤلاء يرتكبون كل ذنب بسهولة بسبب افتقارهم للملكة الافاف التي تحجز الإنسان عن ذنب، وهكذا كانت مباني إيمانهم ضعيفة وأعمالهم خاوية، ومن الطبيعي أن يؤدي التزلزل في الإيمان إلى الفساد في العمل، كما يؤدي الفساد في العمل إلى زعزعة دعائم الإيمان. ثم قال عليه السلام في الصفة الخامسة العشرة: «يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات» العبارة «في الشهوات» إشارة إلى نقطة لطيفة وهي أنّ هؤلاء يخفون أعمالهم السيئة تحت غطاء الشبهات حتى لا يطلع الناس على قبائحهم. أنهم قلما يتجهون صوب محكمات القرآن والأحاديث، بل بالعكس إنما يسارعون إلى المتشابهات، وكذلك في الموضوعات الخارجية التي تعتبر من الموضوعات الواضحة، حيث يتعدون عنها ويفتفون آثار الموضوعات المشتبهة؛ ولا غرو فليس لهم من سبيل القيام بأعمالهم الشائنة إلا من هذا السبيل. والعبارة «يسيرون في الشهوات» تشير إلى أنّ محور حياتهم إنما يمر عبر الشهوات، لا أنّ الشهوات طارئة عليهم، أضف إلى ذلك فإنّ مقارفتهم لهذه الشهوات دائم متواصل، ويفهم ذلك من خلال العبارة التي تصدرتها الأفعال بصيغة المضارع «يعملون ويسيرون». والمجدير بالذكر أنّ أعمالهم إنعكاس لعقائدهم الفاسدة، كما يمكن أن تكون مقارفة الشهوات تدفعهم لأن يتجهوا صوب العقائد التي تبرر أفعالهم. ^١ ثم خاض

١. راجع ذيل الخطبة ٣٨ في المجلد الثاني من هذا الشرح بخصوص الشبهة ومعناها وتأثيرها في تحريف الحقائق. (٤٠٥/٣)

الإمام عليه السلام في إطار مواصلته لحديثه عن سائر صفات هؤلاء المضلين - الذين قد يكونون أحياناً من العلماء المزيفين - فقال عليه السلام: «المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا». نعم لما قطع هؤلاء رابطتهم بالله والنبي لم يعد الوحي السماوي والسنة النبوية وكلمات المعصومين هي المعيار في تمييز الصالح من الطالح والحسن من القبيح، بل المعيار هو هوى النفس والرغبات الباطنية، أو الافكار الفئوية والتعصبات القبلية والأموال التي تؤمن مصالحهم المادية، ولو كانوا حقاً من أهل الفكر فأنهم سيقعون في وادي الضلال أيضاً لعدم إنفتاحهم على تعاليم السماء وإرشادات الأنبياء والمعصومين، ففكر الإنسان عرضه للخطأ والانحراف. ثم قال عليه السلام في صفتهم التاسعة والعاشر: «مفرعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهفات على آرائهم» فاساس بؤسهم وشقائهم إنما ينبع من هذه القضية، وهي أنهم هجروا أولاً تبعية الوحي وسنة النبي وتعاليم المعصومين، وعليه فكلما تقدموا أكثر إزداد انحرافهم وابتعادهم عن الحق. ومن هنا صرح الإمام عليه السلام كأن كل امرئ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعري ثقات وأسباب محكمات، والحال لا ينطوون سوى على أفكار هزيلة وتصورات واهية «وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبُنَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»^١. نعم هذا هو المصير المحتوم الذي ينتظر الأفراد الذين يولون ظهورهم للمعايير الدينية الصحيحة في حل خلافاتهم الفكرية والعقائدية وتمييز الحق من الباطل والصراط المستقيم من الطريق السقيم ويعولون على أفكارهم القاصرة وآرائهم الباطلة، ولذلك وقعوا في أودية الشرك والوثنية المقيتة حتى جعلوا لله جسماً ويداً ورجلاً وشعراً مجعداً، بينما خالفهم البعض الآخر تماماً حتى عطل صفاته سبحانه وهبطوا بالفكر إلى الحضيض في أنه لا يستطيع إدراك صفاته والتطرق إلى ذاته، فذلك التجسيم الأبله وهذا التعطيل الأحمق هو الوليد الطبيعي للاستناد إلى الآراء الناقصة وهجر تعاليم أئمة الدين، فكان منهم الخوارج الذين يحسبون أنهم عابدون وقد سلكوا سبيل النجاة، بينما أنكروا أبسط بديهيات الإسلام وشرعة المقدس في ضرورة الحكومة وحاجة الأمة الماسة إليها.

المستبدون الظالمون

استفاضت الأحاديث التي تؤكد على أن الهوى يصد الإنسان عن الحق؛ الأمر الذي أشارت إليه بصورة جامعة هذه الخطبة، فهؤلاء الذين عجنت حياتهم بالشهوات لا يرون معروف الله معروفاً ولا منكره منكراً، فهم لا يستندون إلى أدلة العقل، والمعروف ما انسجم وميوهه النفسانية، وما خالفها فهو المنكر. وإذا ما صادفتهم بعض المسائل المعقدة إنما يلودون بأفكارهم المنحطة بدلاً من الاستعانة بالعقل والفكر، وأبعد من ذلك الآيات القرآنية وتعاليم الأئمة ليحلوا مشاكلهم. والعجيب أن هؤلاء الأفراد لا يقبل أحدهم الآخر، بل كل يرى أنه إمام نفسه وأنه مرجعها وملاذها. ومن الطبيعي أن لا يقود هذا السلوك سوى إلى الحيرة والضلال والسقوط، والاسوأ من كل ذلك يرون أنفسهم مهتدين؛ الأمر الذي صوره القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِبُونَ صُنْعًا﴾.





في الرسول الأعظم ﷺ وبلاغ الإمام عنه

نظرة إلى الخطبة

تتحدث الخطبة عن ثلاثة أمور مرتبطة مع بعضها؛ الأول تصوير جامع ورائع عن أوضاع العرب في الجاهلية تزامنا مع بعثة النبي الأكرم ﷺ يفيد أنهم كانوا في أسوأ حالة من الناحية المادية والمعنوية؛ الحالة التي لا يمكن معها وصفهم بالحياة، بل تشير الخطبة إلى الاوضاع الوخيمة والظلام الدامس الذي كان سائداً حتى خارج الجزيرة العربية. ثم حذر صحبه ومن عاصره من الظن بانقطاع عصر الجاهلية، بل عليهم الاعتبار بحياتهم والحيطه والحذر من العودة إلى الجاهلية. أخيراً صرح بهذه الحقيقة وهي مقارعة الجاهلية وأفكارها المنحرفة، وبينت لكم ما بينه رسول الله ﷺ في زمانه، حتى أتمت الحجة عليكم. ثم حذرهم ﷺ من الغرور والغفلة والتحلي باليقظة تجاه الأحداث والمخاطر التي تنتظرهم.

١. سند الخطبة: ورود هذه الخطبة أو بعضها في كلمات جمع من العلماء ممن عاشوا قبل السيد الرضي (ره)، فقد جاءت في تفسير علي بن إبراهيم الذي عاش لقرن قبل السيد الرضي، ورواها الكليني في أصول الكافي (٦٠/١)، وقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه اختلاف الروايات في بعض ألفاظ الخطبة مما يدل على أنها نقلت في مصادر أخرى غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة ١٣٨/٢).

القسم الأول

«أُرْسِلَهُ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَاعْتِزَامِ مِنَ الْفِتَنِ، وَانْتِشَارِ مِنَ الْأُمُورِ، وَتَلَخُّ [تَلْظِي] مِنَ الْحُرُوبِ، وَالدُّنْيَا كَأَسِيفَةٍ النُّورِ، ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ، عَلَى حِينِ اضْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا، وَإِيَّاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا، اغْوِزَارٍ مِنْ مَائِهَا، قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَى، وَظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى، فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا، غَائِبَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا، ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ، وَطَعَامُهَا الْجِيفَةُ، شِعَارُهَا الْخَوْفُ، وَدِتَارُهَا السَّيْفُ».

۸۰۰۸

الشرح والتفسير

العالم على أعتاب الدعوة

إن الهدف الغائي للإمام عليه السلام من هذه الخطبة هو إيقاظ الناس من سبات الغفلة والغرور، فقد إصطحبهم إلى عصر الجاهلية واستعرض لهم التاريخ، كيف كان الناس، والنقلة النوعية الكبرى التي أحدثتها نهضة النبي صلى الله عليه وآله، ثم حذر من عودة أوضاع الجاهلية، مؤكداً أنه وعلى غرار النبي صلى الله عليه وآله ثار من أجل إجتثاث جذور الجاهلية بما تتطوي عليه من أفكار وأوهام، ليعودوا إلى أنفسهم قبل قوات الآوان. فقد رسم صورة واضحة للجاهلية بعبارات قصيرة عظيمة المعنى في خمس عشرة. جملة بما يعجز الآخرون عن رسم مثل هذه الصورة. فقال عليه السلام «أرسله على حين فِتْرَةٍ^١ مِنَ الرُّسُلِ»، وقيل إنَّ هذه الفترة قد استغرقت خمسمائة سنة وقيل ستمئة سنة لم يبعث فيها نبي^٢ (وان كان أوصياؤهم بين الناس). ولذلك ساد الناس سبات

١. «فترة» تعني في الأصل الهدوء والسكنية، كما تعني الضعف، كما تطلق على الزمان بين حركتين أو حدثين، ومن هنا يصطلح بالفترة على الزمان الفاصل بين ظهور الأنبياء.

٢. ذكر البعض أن الفترة بين ولادة السيد المسيح صلى الله عليه وآله هجرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله استغرقت ٦٢١ سنة و١٩٥ يوماً

قاتل، وهذا ما أكده الإمام عليه السلام في العبارة الثانية «و طول هجعة^١ من الأمم»، ولعل هذه الفترة تستبطن امتحان الله للعباد وللوقوف على قدر الأنبياء ونعمته عليهم. مع ذلك فقد كان هناك أثر مباشر لهذه الفترة في تفعيل حركة شياطين الجن والانس؛ وذلك أن الميدان قد خلاهم فشددوا من حملاتهم على الأمم والشعوب فجرعوها أنواع الانحرافات والأضاليل ثم قال عليه السلام في العبارة الثالثة: «و اعتزام^٢ من الفتن» فقد شبه الإمام عليه السلام الفتن بالإنسان الشرير أو الحيوان الضاري الذي يهجم على الإنسان الأمن دون مبرر؛ وهذا ما كانت عليه الإمام في فترة الرسل. ثم قال عليه السلام في العبارة الرابعة: «و انتشار^٣ من الأمور» يمكن أن يكون المراد بهذه العبارة تشتت فعاليات الجماعة البشرية وانشطتها، وبعبارة أخرى ظهور الفوضى والهرج والمرج والاضطراب والتششت في المجتمعات والذي يعد من الفتن والقلاقل. ثم قال عليه السلام: «و تَلْظِ^٤ من الحروب» ياله من تشبيه رائع، حيث شبه الحرب بلهب الانار المحرقة التي تأتي على الأخضر واليابس فتحيله رماداً. كما شبه امتداد الحروب بالسنة النيران. ولو رجعنا قليلاً إلى الوراء لرأينا العالم برمته ولا سيما جزيرة العرب أنه كان مسرحاً للحروب الدامية فقد كانت الحرب قائمة على قدم وساق بين القبائل العربية ولأتفه الأسباب، إلى جانب معارك الروم وإيران، فكانت تسيل أودية من الدماء. وقال عليه السلام: «والدنيا كاسفة^٤ النور، ظاهرة الغرور» فالواقع أن نور البشرية ليس إلا نور الوحي ووجود الانبياء، فاذا كانت هناك ظلمة مطلقة تلتقي بعتمتها على كل شيء فتستفحل أمراض الخدع والمكر، وتتسع رقعة المذاهب الزائفة ويتلبس الدجالون لباس المسوح والاصلاح فيجدوا في إستغلال الخلق من أجل تحقيق منافعهم المادية. ثم شبه الإمام عليه السلام الناس في الجاهلية بمزرعة قد ذبلت جميع أشجارها واصفرت أوراقها (فهى في حال التساقط) وقد يأس المزارع من ثمرها بعد أن غار ماؤها

١ (تفسير ابو الفتح الرازي ١٥٤/٤، هوامش المرحوم العلامة العشراني) كما قيل أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد عام ٥٧٠ م وبعث عام ٦١٠ م (بينات خالدة ١/١٢١).

٢ «هجعة» من مادة «هجو» نوم الليل شبه به وضع الأقوام الجاهلية بالنسبة للهداية لعمقه.

٣ «اعتزام» من مادة «عزم» العزم والقرار وهو هنا فاعل فتنة.

٤ «تلظ» من مادة «لظن» بمعنى لهب النار، و«تنظي» بمعنى النار المشتعلة.

٥ «كاسفة» من مادة «كسوف» ومنه الكسوف والخسوف الذي تتعرض له الشمس والقمر) وهى هنا كناية عن إنطفاء أنوار الهداية في العصر الجاهلي.

وجفت عروقها: «على حين اصفرارٍ من ورقها، وإياس^١ من ثمرها، واغورار^٢ من مائها» وذلك لأن مزرعة المجتمع البشري إنما تزين بورود الأخلاق والفضائل، وثمارها العدالة والمروءة والمحبة، أما ماؤها فيمكن في الإيمان والورع والتقوى؛ المعاني التي كانت مغيبة تماماً في العصر الجاهلي. حتى من الناحية المادية فقد شلت الزراعة والتجارة بسبب الحروب وعدم شياع الأمن والاستقرار فكان الفقر قد ساء العالم الجاهلي بالشكل الذي كان يدفعهم إلى قتل أولادهم، وهذا ما أشار إليه القرآن بالقول: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ^٣ بَغْضِ النَّظَرِ عَنْ وَأَدْهَمِ الْبَنَاتِ خَشْيَةَ الْفُضِيحَةِ وَالْعَارِ. ثُمَّ قَالَ ﷺ فِي الصِّفَةِ التَّاسِعَةِ وَالْعَاشِرَةِ: «قد درست^٤ منار الهدى، وظهرت أعلام الردى» فالمنار موضع النور، حيث كانوا يشعلون في السابق سراجاً على مرتفع حين الليل فيكون علامة للقريء المدن يشاهدها القاصي والداني فلا يضل الطريق. فإذا تآلكت هذه المرتفعات وتهدمت لم يعد هناك من سراج فوقها، فالعبارة كناية رائعة إلى سراج الكتب السماوية وتعاليم الأنبياء التي تمثل نور الهداية للجماعة الإنسانية، وقد انطفئ هذا النور في العصر الجاهلي اثر غلبة الاهواء، فكان من الطبيعي إذا انطفئ النور أن يعم الظلام الدامس بكل معاني الحيرة والظلال والكفر والنفاق وقال ﷺ في الصفة الحادية عشرة: «فهي متجهمة^٥ لأهلها، عابسة^٦ في وجه طالبها» فالعبارة كناية عن شدة العنف والنزاعات وصعوبة المعيش وتعميق الحياة؛ كيف لا والحياة الوادعة الامنة لا تتحقق الا في ظل العدالة الاجتماعية والاخاء والمحبة والمودة التي لم يكن لها من أثر في العصر الجاهلي. ثم قال ﷺ: «ثمرها الفتنة، وطعامها الجيفة^٧». حقاً ليست هنا لك من ثمرة لذلك الوسط بتلك

١. «إياس» على وزن قياس عدم الأصل.

٢. «اغورار» من مادة «غور» الغوص في الأرض، وعادة ما يطلق على الماء داخل الأرض وهو هنا كناية عن انقطاع الهداية.

٣. سورة الاسراء / ٣١.

٤. «درست» من مادة «دروس» زوال الاثار وانعدامها.

٥. «متجهمة» من مادة «جهم» على وزن فهم العنف والغلظة، ويقال متجهم لمن يستقبل الآخرين وينظر إليهم بوجه كره.

٦. «عابسة» من مادة «عبوس» على وزن مجوس كناية عن الاسئ الشديد للناس في العصر الجاهلي.

٧. «جيفة» من مادة «جوف»، وتطلق عادة على الميت الذي يفسد جوفه فتهب منه ريح نتنة.

الصفات سوى الفتن وليس له من طعام سوى الميتة؛ والمفردة جيفة قد تكون إشارة إلى الوضع الذي كان عليه الناس في عصر الجاهلية حيث كانت العرب تأكل الميتة من شدة الاضطرار فالميتة متعفنة وتدعو إلى الاشمئزاز والنفرة، وقطعا فإن الحياة في مثل هذه البيئة إنما تتسم بالتعفن والاشمئزاز، كما كان دخلهم عن طريق شن الغارات ولسراقات وما شابه ذلك من الأمور التي يعجزها العقل السليم؛ أمّا الدليل على أكل أهل الجاهلية للميتة هو الآية القرآنية التي نهت عن ذلك: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ...»^١ وبالطبع فإن المراد بالثمرة والطعام في العبارة الجانب الكنائي. فطعام الإنسان عادة أمّا أن يكون من الثمار أو اللحوم، ولم يكن نصيب الناس في الجاهلية سوى الفتنة والأفكار المتعفنة التي تدعو إلى الاشمئزاز والتقرّز؛ ثمّاتهم ونعمهم المادية والمعنوية كانت معجونة بالتعفن والفساد والعار. ثمّ قال ﷺ: «وشعارها الخوف، ودثارها السيف» فبالالتفات إلى أنّ الشعار يعني الثوب الذي يلي البدن والدثار الثوب الداخلي يتبين أنّ العبارة كناية رائعة ولطيفة مصعمة بالفصاحة والبلاغة لتصوير ظروف ذلك الزمان وسيادة الخوف والسيف من الداخل والخارج، فكل يخشى الآخر، وكل قبيلة تتوقع أن تحمل عليها أخرى فتقتل رجالها وتسبي نساها وتنهب أموالها. فكانت السيوف مشهورة على الدوام بسبب ذلك الخوف والحشبية، ولعمري أنّ هذه العبارة قد أشارت إلى كافة أنواع البؤس والشقاء السائدة آنذاك. ومن الطبيعي أن يسود الخوف والرعب أوساط المجتمع الذي تغيب فيه أنوار الهدى وتشع فيه اعلام الضلال والردى ويبتعد فيه الافرد عن تعاليم السماء وإرشادات الأنبياء. أمّا الصورة التي رسمها أمير المؤمنين ﷺ بهذه العبارة التي تعرض إلى خصائص العصر الجاهلي فإنّها لا تقتصر على شبه الجزير العربية فحسب، بل تشمل كافة مناطق العالم آنذاك وإن بلغت ذروتها بين قبائل العرب. والحق لا يسع خطيب ولا كاتب مهما كانت قدرته على البيان أن يصور فجائع ذلك الزمان وانحرافاته كما صورها الإمام ﷺ بهذه العبارات المعجزة وهذا ما سنتعرض إليه في البحث القادم والمؤسف أن هذه الخصائص إنّما تشاهد اليوم بوضوح في عصرنا الراهن الذي تحكمه الجاهليات المعاصرة.

ومن هنا نقف على عظم جهود النبي ﷺ في إخراج تلك الجماعة الممزقة الميته من الظلمات إلى النور وتبديل خوفها أماناً و فقرها غنى ونزاعها وقاتها إلى إخوة و صلح و سلام، كما جعلهم أمة متحضرة متمدنة حتى إنتشر الإسلام و رفعت رايته خفاقة في أغلب ربوع المعمورة، و قد استسلمت الملوك و السلاطين و الجبابرة و الطغاة لجيوش المسلمين الفاتحة التي حملت مشاعل الهداية و الخير و الصلاح. كما نهض المجتمع الإسلامي نهضات عظيمة ليشهد ذلك التطور و الأزدهار في كافة المجالات العلمية و الاجتماعية و الاقتصادية. وحقاً إن هذا لمن معجزات الدين الإسلامي الخالد و الجهود المضنية التي بذلها الرسول الأكرم ﷺ؛ و لا غرو فإن كافة الحسابات المادية تشير إلى إن إنقاذ تلك الأمة مما كانت عليه و الأخذ بيدها إلى حيث العزة و الرفعة و السمو و الكمال لا يمكن تحقيقه في ظل المعادلات الطبيعية و الحسابات المادية؛ و كما أوردنا سابقاً فإن هدف الإمام ﷺ يكمن في تحذير الأمة من مغبة العودة إلى الجاهلية المقيتة بشيائها الجديدة و إن الإمام ﷺ سيقف بوجهها كما وقف بوجهها رسول الله ﷺ و اخمدها بجهاده.



الجاهلية المعاصرة

لقد وقفنا على الصورة الرائعة التي رسمها الإمام ﷺ للعصر الجاهلي بتلك العبارات المشحوتة بالفصاحة و البلاغة. و بالطبع فقد أشرنا إلى جانب من مميزات ذلك العصر في الخطبة الثانية من المجلد الأول و الخطبة السادسة و العشرين من المجلد الثاني. غير أنه لا يمكن الوقوف على عظمة جهود النبي ﷺ في هداية تلك الأقوام ما لم يتأمل الإنسان بعض تفاصيل حياة العرب في العصر الجاهلي من حيث الحروب و السلام و التقاليد و الأعراف و الخرافات و الأباطيل التي كانت تنظم شؤون حياتهم. و المهم هنا هو أن هذه الجاهلية إنما ترتدي اليوم حلة جديدة في مجتمعاتنا المعاصرة بينما تشترك في مميزاتها و خصائصها و الجاهلية الأولى. فقد كانت القيم الحققة مغيبية في العصر الجاهلي، و دماء الأبرياء العزل تسفك بسهولة، و يدينه غارات الأموال و الثروات و نهبها، و لا يفرق هذا مع الجاهلية المعاصرة التي لا تفكر سوى في الحصول على الأموال و بارخص الأساليب، أدناها بيع أسلحة الدمار الشامل و التجارة

بالمحدرات وشن الحروب من أجل الاستيلاء على مصادر الطاقة. وان شهد العصر الجاهلي وأد بعض البنات، فالقانون اليوم يبرر للناس حالة الإسقاط والإجهاض، كما شنت الحرب العالمية التي أودت بحياة الآلاف المؤلفة من البنين والبنات، فقد ذكر أن عدد قتلى الحرب العالمية الأولى والثانية ليفوق بكثير كافة ضحايا الحروب التي شهدتها البشرية طيلة التاريخ، بل كان قتلى مدينتي في اليابان من جراء قنبلتين نوويتين أكثر من كافة قتلى العصر الجاهلي! وإن كانت بعض النساء من ذوات الأعلام في الجاهلية، فبعض النسوة اليوم تجاوزت تلك الأعلام لتعلن عن فجورها وفسادها في أغلب صحف العالم وتنظم لنفسها بعض الاعلانات داعية الآخرين إليها؛ الأمر الذي دفع بالدول والحكومات إلى فرض بعض الضرائب عليهن، وهذا ما أدى بالتالي إلى توفير الدعم القانوني لهن. بيع البنين والبنات ما زال متواصلاً حيث يقدم الأوربيون والأمريكان على شراء الصبية من المناطق المعذمة وبييعونهم إلى الغرب؛ وهذا ما ينشر في الصحف والمجلات. أما الأخلاق فحدث ولا حرج فقد محتها أمواج الفساد والبغي والدعارة، ولو إستعرضنا بعض الجرائم والانحرافات لأدركنا أن الجاهلية المعاصرة أرهب وأرعب بكثير من تلك الجاهلية. ولعل الآية ٣٣ من سورة الأحزاب ناظرة إلى الجاهلية المعاصرة حين خاطبت نساء النبي ﷺ بالقول: ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرُجَ أَجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾.

فالتعبير بالجاهلية الأولى يفيد أن هناك جاهلية أخرى.

القسم الثاني

«فَاعْتَبِرُوا عِبَادَ اللَّهِ وَاذْكُرُوا تِيكَ الَّتِي آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهَنُونَ، وَعَلَيْهَا مُحَاسِبُونَ وَلَعَمْرِي مَا تَقَادَمَتْ بِكُمْ وَلَا بِهِمُ الْعُهُودُ، وَلَا خَلَّتْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الْأَحْقَابُ وَالْقُرُونُ [الدهور]، وَمَا أَنْتُمْ الْيَوْمَ مِنْ يَوْمٍ كُنْتُمْ فِي أَضْلَابِهِمْ بِبَعِيدٍ. وَاللَّهِ مَا أَسْمَعُكُمْ الرَّسُولُ شَيْئًا إِلَّا وَهَا أَنَا ذَا مُسْمِعُكُمْوهُ، وَمَا أَسْمَاعُكُمْ الْيَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِكُمْ بِالْأَمْسِ، وَلَا شُقَّتْ لَهُمُ الْأَبْصَارُ، وَلَا جُعِلَتْ لَهُمُ الْأَفْئِدَةُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ [الأوان]. وَوَاللَّهِ مَا بُصِّرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئًا جَهْلُوهُ وَلَا أُصْفِيتُمْ بِهِ وَحُرْمُوهُ، وَلَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمْ الْبَلِيَّةُ جَائِلًا خِطَامُهَا، رِخْوًا بِطَانُهَا فَلَا يَغُرَّتْكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ الْغُرُورِ، فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ».

٤٠٠٣

الشرح والتفسير

كلكم مسؤول

خاطب الإمام عليه السلام الناس في زمانه محذرهم من إمكانية تكرار أوضاع الجاهلية فتعمكم ما كانت عليه من الفساد والانحراف فعليكم باليقظة والحذر: «فَاعْتَبِرُوا عِبَادَ اللَّهِ وَاذْكُرُوا تِيكَ الَّتِي آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهَنُونَ، وَعَلَيْهَا مُحَاسِبُونَ». تيك التي تعني تلك إشارة شاملة إلى كافة ذنوب وآثام أقوام الجاهلية، وإنَّ الله سيحاسبهم عليها، ولم يذكر هنا المشار إليه حيث بين في القسم السابق، وعليه لم تعد هناك من حاجة إلى التكرار. هذا وقد ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد باسم الإشارة الدنيا والحياة الدنيوية أو الامانة الإلهية

التي أشارت إليها الآية القرآنية: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ...»^١ إلا أن هذا التفسير لا يبدو مستقيماً بالالتفات إلى صدر الخطبة وذيلها. ثم قال ﷺ: «و لعمرى ما تقادمت بكم ولا بهم العهود، ولا خلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب^٢ والقرون، وما أنتم اليوم من يوم كنتم في أصلابهم ببعيد». بناءً على التفسير المذكور فإن العهود هي المواثيق، والعبارة إشارة لما ورد في القرآن الكريم «قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ»^٣ أما البعض من الشراح فقد ذهب إلى أن المراد بالعهود هنا العصور وعلى هذا الضوء سيكون المفهوم واحداً مع العبارة القادمة: «و لا خلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب والقرون»، ثم أشار الإمام ﷺ إلى مكانته آنذاك والتي تصاف مكانة النبي ﷺ ازاء فجاج زمان الجاهلية فقال: «والله ما أسمعكم^٤ الرسول شيئاً إلا وها أنا ذا مسمعكموه، وما أسمعكم اليوم بدون أسمعكم بالأمس، ولا شقت لهم الأبصار، ولا جعلت لهم الأفئدة في ذلك الزمان، إلا وقد أعطيتهم مثلها في هذا الزمان» وعليه فانكم تشبهونهم في كل شيء، والحال إنكم تلوون رؤوسكم عن الحق الذي كانوا عليه. فالواقع هو أن الإمام ﷺ أشار ضمناً إلى حقيقة مريرة في عصره - بسبب سوء تدبير سابق الخلفاء والانغماس في الثروات التي ملأت الجزيرة العربية من خلال الفتوحات الإسلامية التي جرت عليهم هذه الغنائم - وهي بداية جاهلية أخرى قد أصيب بها الناس. فقد ظهرت الأصنام بصور أخرى، بحيث أصبح الدينار والدرهم صنماً، كما أصبح المنصب والمقام صنماً. فقد أوضح الإمام ﷺ أن رسالته في هذا العصر والزمان هي ذات رسالة رسول الله ﷺ، فهو يبين كل ما بينه النبي ﷺ، ثم قال ﷺ أن أسمعكم وابعاركم وأفئدتكم ليست باقل من أسمع وأبصار وأفئدة الناس في عصر الجاهلية الذي نهض فيه رسول الله ﷺ وصدع بالأمر، فلديكم ذات الحس والشعور والإدراك (بل إنكم لتفوقونهم في ذلك فقد انبثقت الدعوة وانتشرت، فكيف لا تكفون عن سوء الأعمال، ولم

١. سورة الاحزاب / ٧٢.

٢. «أحقاب» جمع «حقب» على وزن عتق قيل ثمانون سنة وقيل أكثر وقيل هو الدهر .

٣. سورة البقرة / ٨٠.

٤. من الواضح أن الضمان هنا لا ينبغي أن تكون بصيغة المخاطب (كم) بل لا بد أن تكون بصيغة الغائب (هم) لأنها إشارة إلى من عاش في عصر النبي ﷺ. ويبدو أن الاشتباه من النسخ، ولذلك قبله الشراح بهذا الشكل.

ترعون عن الضلال وتعودن إلى الهدى، ولم لاتفيقون من نوم الغفلة». ثم حذرهم الإمام قائلاً: «ولقد نزلت بكم البليّة جائلاً خطامها،^١ رخوأبطانها^٢» ذهب أغلب الشراح إلى أنّ المراد بهذه البلية فتنة بني أمية التي أحرقت الاخضر واليابس وطالت أموال الناس وأعراضهم. والمجدير بالذكر هو أن الإمام عليه السلام قد شبه هذا البلاء الكاسر بالناقة الجامحة التي إسترخى لجامها فهي تنذر بسقوط راكبها. وعليه فالراكب لا يتمكن من حفظ نفسه فضلاً عن السيطرة على الناقة وصدها عن الجموح. نعم هكذا كان بلاء بني أمية حيث لم يسلم أحد منهم.

وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام خطبته قائلاً: «فلا يغرنكم ما أصبح فيه أهل الغرور، فإنّما هو ظلّ ممدودٌ إلى أجلٍ معدودٍ».



١. «جائل» من مادة «جولان»، وفي الاصل بمعنى زوال الشيء من مكانه، لذا فيقال للحيوان الذي يتحرر من مكانه الموجود فيه بحيث يستطيع أن يذهب إلى أي مكان، يقال له «جائل».

٢. «خطام» ما جعل في أنف البعير لينقاد به وجولان الخطام، حركته وعدم إستقراره، لأنّه غير مشدود.

٣. «بطان» البعير حزام يجعل تحت بطنه، ومتى استرخى كان الراكب على خطر السقوط.

الخطبة ٩٥



وتشتمل على قدم الخالق وعظم مخلوقاته، ويختمها بالوعظ

نظرة إلى الخطبة

تتألف الخطبة من أربعة أقسام:

القسم الأول: الحديث عن إحاطة الله بالعباد وعلمه بخفايا الإنسان.

القسم الثاني: ازلية الحق سبحانه وشرحها بعبارات رائعة واضحة.

القسم الثالث: تهديد أعداء الله بالعذاب الاليم وبشارة أولياء الله بمجزي الأجر والثواب.

القسم الرابع: وعظ عباد الله والنصح لهم، وكأن الأقسام الثلاث كانت مقدمة لهذا الوعظ

المؤثر في الإنسان.



١. سند الخطبة: جاء في مصادر نهج البلاغة أنه رواها علي بن محمد الواسطي في عيون الحكم والمواعظ، وورد ذيلها في غرر الحكم مما يدل عد انها نقلت من مصدر آخر غير نهج البلاغة، ونقلها ابن أثير في النهاية (مصادر نهج البلاغة ١٤١/٢).

القسم الأول

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، الَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِمًا قَائِمًا: إِذْ لَا سَمَاءَ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَلَا حُجُبَ ذَاتُ إِرْتَاجٍ، وَلَا لَيْلَ دَاجٍ، وَلَا بَحْرَ سَاجٍ، وَلَا جَبَلَ ذُو فِجَاجٍ، وَلَا فَجَّ ذُو اعْوِجَاجٍ، وَلَا أَرْضَ ذَاتُ مِهَادٍ، وَلَا خَلْقَ ذُو اعْتِمَادٍ: ذَلِكَ مُبْتَدِعُ الْخَلْقِ وَوَارِثُهُ، وَإِلَهُ الْخَلْقِ وَرَازِقُهُ، الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ذَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ: يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيُقَرَّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ».

❦❦❦

الشرح والتفسير

كان ولم يكن أحد سواه

استهل الإمام عليه السلام خطبته بالإشارة إلى ثلاث من صفات الله فقال: «الحمد لله المعروف من غير رؤيئة» نعم فهو ليس بجسم ولا يحده زمان أو مكان يرى بالعين؛ فالجسمية دليل النقص والحاجة إلى الزمان والمكان، بينما الله منزّه عن هذا النقص والحاجة فهو كمال مطلق، مع ذلك فقد ملأت آثاره الآفاق بما يدل على وجود ذاته المقدسة، بما فيها الآيات الآفاقية والنفسية. فالرؤية محالة عليه، إلا أنه أوضح الواضحات، فكافة ذرات العالم تسبحه وتقدهسه وتشهد له بالوجود. وقال عليه السلام في الصفة الثانية: «و الخالق من غير رؤيئة»¹ فأنما يحتاج إلى الفكر من كان هناك أشياء مجهولة لديه، أما من لم يكن له من شيء مجهول فالفكر محال عليه. كما يحتمل أن يكون المراد يقوله «غير رؤيئة» بأن سابقة لم تكن لهذا الخلق الذي خلقه الله، خلافاً لخلاقية الإنسان التي تحتذي بالتجارب. ثم قال في الصفة الثالثة: «الذي لم يزل قائماً دائماً» فالازلية والأبدية من مختصات الذات المقدسة التي تعد من لوازم تلك الذات المطلقة

1. «رؤية» من مادة «ري» على وزن حي الفكر وإمعان النظر إذا وردت من باب التفعيل، ولما كان الإنسان يأخذ بنظر الاعتبار سوابق كل الأشياء والأعمال حين التفكير فإن هذه المفردة تطلق كناية على الأمور التي لاسابقة لها.

اللامحدودة. فلو كانت هناك من بداية لشيء كانت له نهاية فهو محدود قطعاً. أمّا الذات اللامحدودة واللامتناهية فهي لا تعرف البداية ولا النهاية. فهو الوجود الذي كان وكائن إلى الأبد. ثم وضع ﷺ أزليته سبحانه بالقول: «إذ لا سماء ذات أبراج، ولا حجب ذات إرتاج،^١ ولا ليلٌ داج،^٢ ولا بحرٌ ساج،^٣ ولا جبلٌ ذو فجاج،^٤ ولا فجٌ ذو اعوجاج، ولا أرضٌ ذات مهاد، ولا خلقٌ ذو اعتماد» يمكن أن تكون العبارة «حجب ذات ارتاج» إشارة إلى ما صرحت به الروايات والأخبار من حجب النور تحت العرش التي لا يسع مخلوق الاقتراب منها، فشدّة نورها التي تخيف الأبصار وتحول دون اجتيازها هي بعض مخلوقات الله التي يحتمل أنّها وجدت بعد خلق العرش وقد فصلت العرش عن السموات. فقد جاء في الخبر عن الإمام الكاظم ﷺ في فلسفة التكبيرات السبع في بداية الصلاة أنّه قال: «يا هشام إن الله خلق السماوات سبعا والأرضين سبعا والحجب سبعا...»^٥ ثم ورد في ذيل الحديث أن هذه الحجب كانت تطرح الواحد بعد الآخر أمام رسول الله ﷺ حين المعراج، فكان يكبر الله عند رفع كل حجاب وهذه هي فلسفة التكبيرات السبع (فالمصلي حين يقف بين يدي ربه للصلاة التي تعتبر معراج المؤمن يكبر سبعا من أجل رفع تلك الحجب عنه. كما تفيد المناجاة الشعبانية أنّ هذه الحجب النورانية قد رفعت عن بعض أولياء الله «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة...» وبالطبع ليس لدينا من إطلاع عن ماهية هذه الحجب، أمّا الذي يستفاد من عبارات المناجاة الشعبانية أنّ تلك الحجب تشير إلى سلسلة من المفاهيم وراء الطبيعة. وقد تعرض المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار بعد الإشارة إلى موضوع الحجب النورية الواردة في الروايات إلى بيان وتفسير الحجب في أبعادها الجسمانية والروحانية أو المادية والمعنوية.^٦ العبارة: «و لا ليلٌ داج، ولا بحرٌ ساج» في الوقت الذي تشير فيه إلى أزلية الله

١. «ارتاج» مصدر باب إفعال من مادة «رتج» على وزن خرج بمعنى الاغلاق وإذا جاء من باب الأفعال عنى الغلق المحكم.

٢. «داج» اسم فاعل من مادة «دجو» على وزن هجو بمعنى المظلم.

٣. «ساج» اسم فاعل من مادة «سجو» الساكن.

٤. «فجاج» جمع «فجع» الطريق الواسع بين جبلين.

٥. وسائل الشيعة ٧٢٣/٤ ح ٧ من الباب السابع، أبواب تكبيرة الإحرام.

٦. راجع بحار الأنوار ٤٦/٥٥.

وجوده المقدس قبل الخلق العالم، فهي تلمح إلى نعمه سبحانه على الخلق، وذلك لأنّ ظلمة الليل وسكون البحر من نعمه سبحانه، فالأولى تدعو إلى النوم والراحة التي تلعب دوراً بالغاً في بناء البدن والروح، والثانية في الملاحة والصيد واستخراج ما في أعماق البحر من لؤلؤ ومرجان، والعبارة: «جبل ذوفجاج» أي أنّ الجبال لو كانت كالجدران متصلة لانفصلت بقاع الأرض عن بعضها واختلت الحركة عليها، بينما إقتضت حكمة الله فصلها لتيسير الحركة والمشية. «فج ذو اعوجاج» يمكن أن يكون المراد بها لو لا انعطاف واعوجاج الأودية لأتت السيول بحركتها السريعة فجرفت كل شيء، حيث حال ذلك الاعوجاج دون طغيان السيول وسيطر عليها. «أرض ذات مهاد» إشارة إلى الأراضي الواسعة الساكنة. «خلق ذواعتماد» إشارة إلى القدرة الروحية والجسمية التي منحها الله للإنسان. ثم قال ﷺ: «ذلك مبتدع الخلق ووارثه»، فكل شيء زائل ولا يبقى سواه «وإله الخلق ورازقه»، وكيف لا يكون إله الخلق ومعبودهم وهو بهذه الصفات والكمالات. أضف إلى ذلك فالرزق بيده وهو يفيضه على العباد. فهو جدير بالعبادة لعظمته وهو أولى بها شكراً لنعمه. ثم اختتم كلامه بالإشارة إلى نعمتين تفيدان قدرته وعظمته فقال: «و الشمس والقمر دائبان^١ في مرضاقته: يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد» فقد سمى الشمس والقمر دائبين لتعاقبهما على حال واحدة دائماً لا يفترقان ولا يسكنان. فالقمر في حالة حركة دائماً، إلا أنّ نسب الحركة للشمس يمكن أن يكون إشارة إلى حركتها الظاهرية (وان كانت في الواقع ثابتة والأرض تدور حولها) أو إشارة إلى سائر حركات الشمس، بل جميع المنظومة الشمسية في المجرات.

والجدير بالذكر أنّ أغلب عبارات الإمام ﷺ قد اقتبست من آيات القرآن الكريم، ومنها الآية: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا^٢ لِيَسْأَلُوكَ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا^٣ وَالْأَيَّةُ «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا^٤ وَالْأَيَّةُ «وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ^٥».

١. «دائبان» مثنى «دائب» من مادة «دأب» و«دؤوب» على وزن قلب وقلوب بمعنى الاستمرار على عمل معين وفق عادة وسنة ثابتة.

وعلى هذا الأساس، يطلق على الشخص أو الشيء الذي يقوم بعمل أو برنامج معين بصورة مستمرة ودائمة وعلى حالة وسنة معينة بالدائب.

٢. سورة نوح / ١٩ - ٢٠.

٣. سورة النبأ / ٦.

٤. سورة إبراهيم / ٣٣.

القسم الثاني

«قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ، وَأَحْصَى آثَارَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ، وَعَدَدَ أَنْفُسِهِمْ، وَخَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ، وَمُسْتَقْرَّهُمْ وَمُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الْأَرْحَامِ وَالظُّهُورِ، إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ الْغَايَاتُ».

❦❦❦

الشرح والتفسير

العالم بالخفايا والأسرار

يتحدث الإمام عليه السلام هنا أيضاً عن صفات الله ذات الصلة بأوضاع الناس ومصائرهم كمقدمة للوعظ والنصح فقال عليه السلام: «قسم أرزاقهم»، طبعاً المراد بتقسيم الارزاق تقسيمها على ضوء السعي والعمل والاجتهاد، لا أن الله ضمن ايصال رزق كل فرد إلى باب بيته دون حساب، وان حصل الإنسان أحياناً على رزق «مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» إلا أن هذا ليس أصلاً وقانوناً، والأصل والقانون هو السعي والجد والاجتهاد والعمل والابداع. بعبارة أخرى فإن الرزق رزقان؛ يتوقف أحدهما على السعي والعمل وبدونها يحرم منه، والآخر حتمي يصل إلى الإنسان سعي إليه أم لم يسع. والأساس هو القسم الأول. وقد أشارت بعض الروايات إلى القسمين كقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك»^١ والجدير بالذكر أن الأرزاق لا تفسر بالماء والغذاء فقط، بل تشمل كافة النعم المادية والمعنوية. فقد قسم الله سبحانه العلم والإيمان والمقام والجاه والموقع الاجتماعي وما إلى ذلك على ضوء الجهود والحركة، مع ذلك هنالك بعض الحالات التي تتجاوز عالم الأسباب لتشير إلى قدرة

مسبب الأسباب فتخيب نتيجة هذا السعي وتنجح تلك دون سعي وجهد، إلا أن هذه أمور استثنائية مختصة به سبحانه ثم قال ﷺ: «وأحصى آثارهم وأعمالهم، وعدد أنفسهم، وخائنة أعينهم، وما تخفي صدورهم من الضمير» وليس هذا فقط فحسب بل «ومست قرهم ومس تودعهم من الأرحام والظهور، إلى أن تتناهى بهم الغايات» ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بالآثار يعني آثار وطئهم في الأرض، كما فسرها البعض الآخر بما يبق من الإنسان في العالم. وفسروا عدد الأنفس بعدد الناس في كل زمان ومكان، كما فسرت بعدد الأنفاس (و يصح هذا التفسير إذا كانت العبارة في النسخة أنفاس، كما نقل ذلك بعض شراح نهج البلاغة وهو الانسب لما قبل هذه العبارة وما بعدها). أما المراد بخيانة العين النظر الحرام، أو غمز الآخرين من أهل العفة والحياء. وأما العبارة «وما تخفي صدورهم» فهي إشارة إلى النيات الحسنة والقيحة والطاهرة والفاجرة والعقائد المختلفة. والمستقر رحم المرأة الذي تستقر فيه نطفة الرجل والمستودع صلب الرجل الذي يضم النطفة قبل إنتقالها إلى الرحم. والعبارة: «إلى ان تتناهى بهم الغايات» أي إلى أن يحشروا في القيامة، ولا يصح ما ذهب إليه بعض الشراح من تفسيرها بالجنة والنار لعدم انسجامها والعبارات السابقة. عل كل حال فالعبارات تشير إلى علمه سبحانه بسبعة أمور عن الإنسان، من قبيل الأعمال والحركات والعين والأنفاس والعقائد والنيات ومنذ ظهور النطفة في صلب الرجل إلى إنتقالها إلى رحم الأم مروراً بالولادة ومراحل الحياة وأخيرا الموت، ليعلم الإنسان بأنه في عين الله على كل حال فيلتفت إلى أعماله وحركاته وسكناته. والحق أن كلماته ﷺ إنما تستد إلى الآيات القرآنية الكريمة، كآية: «وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ»^١ والآية: «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ»^٢ والآية: «وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ»^٣.



١. سورة يس / ١٢.

٢. سورة غافر / ١٩.

٣. سورة هود / ٦.

القسم الثالث

«هُوَ الَّذِي اشْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَاتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ، قَاهِرٌ مِّنْ عَازِهِ، وَمُدْمِرٌ مِّنْ شَاقِّهِ، وَمِثْلٌ مِّنْ نَّوَاهِ، وَغَالِبٌ مِّنْ عَادَاهُ، مَن تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، وَمَن سَأَلَهُ أُعْطَاهُ، وَمَن أَقْرَضَهُ قَضَاهُ، وَمَن شَكَرَهُ جَزَاهُ».

ۛۛۛۛ

الشرح والتفسير

ليس كمثلته شيء

أشار الإمام عليه السلام إلى قدرة الله وشدة نقمته في ذات رحمته فقال عليه السلام: «هو الذي اشتدت نقمته على أعدائه في سعة رحمته»، ثم قال في الصفة الثانية: «و اتسعت رحمته لأوليائه في شدة نقمته» فالعبارتان تشيران إلى حقيقة واحدة من زاويتين، وهي أن الرحمة الإلهية الواسعة لا تمنع من شدة العذاب، كما أن العذاب الشديد لا يحول دون سعة الرحمة. فالواقع هو أن الخوف والرجاء العاملين الرئيسان في الحركة نحو الكمال قد تجسداً باروع صورة في هاتين العبارتين، لنظر العباد بعين إلى رحمته وبالأخرى إلى نقمته، فلا يغفلون ولا ييأسون، بل يعملوا بين الخوف والرجاء. ثم قال عليه السلام: «قاهر من عازيه،^١ ومدمر^٢ من شاقه،^٣ ومثل من ناواه،^٤ وغالب من عاداه» فالعبارات اشارة إلى حاكميته المطلقة سبحانه لعالم الوجود. وقد

١. «عاز» من مادة «معازه» اصلها عزة بمعنى الغلبة والعزيم من يغلب أعدائه ، وقد أريد بها هنا من رام مشاركة الله في شيء من عزته .

٢. «دمر» من مادة «تدمير» واصلها الدمار بمعنى الهلاك.

٣. «شاق» من مادة «مشاققة» العداء والمراد بها هنا المنازعة.

٤. «ناواه» خالفه من «نوء» على وزن نوع وتعني القيام مع المشقة وأريد بها هنا من يقف بوجه الارادة الإلهية فتذله.

تكررت رحمته الواسعة في العبارة، مع ذلك فهي لاتعني سعة الجبابة والظلمة على مقاومة إرادته سبحانه، وأما إمهاله لهم فإن ذلك يستند إلى بعض الأسباب، من قبيل امتحان العباد، أو تسليط بعضهم على البعض الآخر. وبالطبع فإن عبارات الإمام عليه السلام إنما تستند إلى آيات القرآن، كآية الواردة بشأن فرعون: «فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى» فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى»^١ ثم استنتج الإمام عليه السلام بعد ذكر هذه الصفات: «من توكل عليه كفاه، ومن سأله أعطاه، ومن أقرضه قضاها، ومن شكره جزاه» فهذه النتائج الأربع المترتبة على الأوصاف السابقة في أن الشخص الذي حصل على قدرة وأصبح صاحب نعمة وفيرة لا بد أن يكون ملاذا للمتوكلين ومائحاً للسائلين ومثيباً للمنفقين والشاكرين. وعليه فن حرم من الرحمة والعطاء والثواب فهو المقصر حيث لم يطرق بابه سبحانه ولم يقرضه ولم يشكر نعمه. ومرة أخرى نقول أن أغلب عبارات الإمام عليه السلام مملوءة بالمضامين الدينية المستوحاة من الآيات القرآنية، كآية: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ»^٢ والآية الشريفة: «مَنْ ذَا الَّذِي يَغْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً»^٣ والآية: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ»^٤.

﴿﴾

١. سورة النازعات / ٢٤-٢٥.

٢. سورة الطلاق / ٣.

٣. سورة البقرة / ٢٤٥.

٤. سورة إبراهيم / ٧.

القسم الرابع

«عِبَادَ اللَّهِ زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا، وَحَاسِبُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَنْفَسُوا قَبْلَ ضَيْقِ الْخِنَاقِ، وَانْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ، اعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظُ زَاجِرٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لِأَزَاجِرٍ وَلَا وَاعِظٌ.»

۴۰۴

الشرح والتفسير

محاسبة النفس

إختتم الإمام عليه السلام خطبته بهذه العبارات التي تمثل الكلام الفصيح النادر اللطيف حسبا ذكر ذلك ابن أبي الحديد^١. فقال عليه السلام: «عِبَادَ اللَّهِ زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا، وَحَاسِبُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا» فقد درج الإنسان في حياته حين المعاملات على زنة المتاع ثم حساب قيمته، وأنه ليفقد رأس ماله إذا التبس عليه الوزن أو الحساب ويصاب بالضرر والخسران، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه في الأمور المعنوية، فعليه أن يزن نفسه ويرى ماهى عليه من الأخلاق والإيمان ثم يحاسبها، فان رأى نقصاً هب لاصلاحه قبل أن يرد حساب الآخرة حيث لا سبيل للاصلاح وتدراك الافراط سوى الحسرة والندم. فما لاشك فيه أن وزن الأعمال في القيامة حق، الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم: «وَالْوِزْنُ يُومَنُذِ الْحَقِّ»^٢ كما أن الحساب من المسلمات، ومن هنان كان أحد أسماء يوم القيامة هو يوم الحساب: «وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ»^٣. ثم قال عليه السلام: «وَتَنْفَسُوا قَبْلَ

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٩٦/٦.

٢. سورة الاعراف / ٨.

٣. سورة غافر / ٢٧.

ضيق الخناق»^١. فالتنفس هنا كناية عن مبادرة العمل الصالح والعلم وتهذيب النفس والورع والتقوى. أمّا ضيق الخناق فيراد به الموت. فقد جاء في القرآن: «وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنُ مِنَ الصَّالِحِينَ»^٢ ثم قال ﷺ: «و انقادوا قبل عنف السياق»^٣ فإذا جاء الموت استسلم أعتى الأفراد كفرعون وهامان وغرود ومن على شاكلتهم ليصرخ «آمنت لا إله الا الله» ولم ينفعهم ذلك الإيمان. كما صرح القرآن بشأن الآثمين الذي يرون ملائكة الموت أنهم ينادون: «رَبِّ أَرْجِعُونَا» لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا»^٤. ثم إختتم ﷺ خطبته قائلاً: «و اعلموا أنه من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظٌ وزاجرٌ لم يكن له من غيرها لا زاجرٌ ولا واعظٌ» فالهداية لا بد أن تتبع من باطن الإنسان، ومادام باطن الإنسان ليس مستعداً فليس هنالك من تأثير للواعظ الخارجي. وعليه فالإنسان يجب أن يعزم بادي ذي بدء على إحياء ضميره ووجدانه لتحفه العناية الإلهية، وهنا يستعد الإنسان لاقتفاء آثار الأنبياء والأولياء ويعر آذانه لسماع الحق.



تأملان

١ - الوزن والحساب في المحشر

تفيد أغلب الآيات والروايات أن يوم القيامة هو يوم وزن جميع الأشياء والحساب عليها، ولا يقتصر هذا الوزن على الأعمال فحسب بل يخضع الإنسان للاختبار لمعرفة عقائده ونياته وأخلاقه. أمّا البعض فقد تصوروا أن موازين يوم القيامة كموازين الدنيا، إلا أنها أدق، فاضطروا للاعتقاد بوزن الأعمال المعنوية، إلا أن الأمر ليس كذلك، فميزان كل شيء بما يناسبه.

١. «خناق» على وزن نفاق بمعنى العنق، ويقال للحبل أو ما يشابهة والذي يُشد على العنق من أجل خنق الشيء «الخنّاق».

٢. سورة المنافقون / ١٠.

٣. «سياق» من مادة «سوق» إشارة إلى الموت الذي يسوق الإنسان من هذه الدنيا إلى الآخرة.

٤. سورة المؤمنون / ٩٩ - ١٠٠.

فالיום تستعمل كلمة الميزان ليقال ميزان الهواء وميزان الحرارة، والحال ليس هنالك مثل هذا الميزان. بل تستعمل الميزان بكثرة في الأعمال المعنوية ولا يراد بها هذا الميزان. والحق أن عالم الآخرة آخر واسع يتجاوز حدود هذا العالم بحيث يتعذر علينا تصور ابعاده وحدوده وجزئياته وان كان لنا علم إجمالي به. وقد أوصى الإمام عليه السلام بزنة الأعمال قبل وزنها هناك ومحاسبتها قبل الحساب؛ الأمر الذي أكدته سائر المعصومين عليهم السلام. فقد ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: «ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فان عمل خيراً استزاد الله منه، وحمد الله عليه، وإن عمل شراً استغفر الله وتاب عليه»^١. وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأبي ذر: «يا أباذر! حاسب نفسك قبل ان تحاسب، فانه أهون لحسابك غداً، وزن نفسك قبل أن توزن»^٢. كما قال عليه السلام لأبي ذر: «يا أباذر لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه، فيعلم من أين مطعمه، ومن أين مشربه، ومن أين ملسبه، أمن حل ذلك، أم من حرام»^٣.

٢ - الواعظ الباطني

إن النتيجة المطلوبة تتطلب أمرين؛ الموضوع المناسب والتربية الصحيحة، وبعبارة أخرى: قابلية القابل وفاعلية الفاعل. فالفلاح مهما كان ماهراً والماء مهما كان وافراً، والبذر مهما كان صالحاً، لا يجني أي ثمر إذا كانت الأرض الزراعية مالحة غير صالحة للزراعة، وذلك لأن إفتقار الموضوع لقابليته يبدد جميع الجهود. ويصدق هذا الأمر على تربية النفوس البشرية، فإلم يكن للإنسان واعظ من نفسه ونزوعاً نحو الحق والانصاف لم تؤثر فيه أقوى المواعظ من الخارج. ومن هنا شرب أبو جهل وابولهب الصدي وهما يجلسان على ساحل منبع الوحي الفياض، بينما ارتوى أمثال أويس القرني من ذلك المنبع رغم البعد الشاسع عنه. وبالطبع لا يفهم الجبر من هذا الكلام، لأن الواعظ الباطني يتبلور أيضاً عن طريق تهذيب النفس وتزكيتها، فشعلته

١. ميزان الحكمة ١/ ح ٣٨٤٥ (مادة حساب).

٢. المصدر السابق، ح ٣٨٤١.

٣. بحار الأنوار ٨٦٧٤.

تنطفئ في ظل الأهواء والشهوات، بينما تتقد إثر العفاف والطهارات.
 إلى هنا انتهينا بحمد الله من المجلد الثالث ويليه المجلد الرابع إن شاء الله. ولا يسعني هنا إلا
 أن أتضرع إلى الباري سبحانه بفائق الشكر والامتنان على ما وفقني إليه، كما أسأله أن يمن علي
 بمواصلة هذا الجهد الزهيد. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب وآخر دعوانا أن
 الحمد لله رب العالمين.

١٥ جمادى الثانية ١٤٢١



الفهرس

الخطبة الحادية والستون

- الفارق بين الخوارج وأهل الشام..... ٥
- تأملان ٧
- ١- أضل من الخوارج ٧
- ٢- جهل اتباع الحق وعلم اتباع الباطل ٩

الخطبة الثانية والستون

- لماذا أخشى الموت؟..... ١١

الخطبة الثالثة والستون

- نظرة إلى الخطبة ١٥
- الدنيا ظل زائل ١٧

الخطبة الرابعة والستون

- نظرة إلى الخطبة ٢١
- القسم الأول: الموت يلقي بظلاله على الجميع ٢٣
- القسم الثاني: التزود قدر المستطاع ٢٧
- القسم الثالث: الإنسان والغفلة ٣١

٣٣	تأملات
٣٣	١- فلسفة خفاء الموت
٣٣	٢- الاغترار بالاماني
٣٤	٣- تزيين الشيطان
٣٥	٤- عمر الإنسان حجة عليه
٣٥	٥- سكر النعم

الخطبة الخامسة والستون

٣٧	نظرة إلى الخطبة
٣٩	القسم الأول: الحمد والثناء
٤٧	القسم الثاني: تجليات جلال الله وجماله
٥٠	نقطة مهمة: الآثار التربوية لمعرفة الله

الخطبة السادسة والستون

٥٣	نظرة إلى الخطبة
٥٥	القسم الأول: طائفة من الفنون القتالية
٥٧	تأمل: الفنون القتالية في الماضي والحاضر
٥٩	القسم الثاني: الثبات والمقاومة

الخطبة السابعة والستون

٦٣	نظرة إلى الخطبة
٦٥	الاستدلال المنطقي على الخلافة
٦٦	تأمل: الخلافة وقصة سقيفة بني ساعدة
٦٩	أضواء على السقيفة

الخطبة الثامنة والستون

- ٧١ نظرة إلى الخطبة
- ٧٣ محمد بن أبي بكر وحكومة مصر
- ٧٤ تأملان
- ٧٤ ١- من هو هاشم المرقال؟
- ٧٦ ٢- محمد بن أبي بكر

الخطبة التاسعة والستون

- ٧٧ نظرة إلى الخطبة
- ٧٩ عظم الشكوى من الاصحاب الضعفاء

الخطبة السبعون

- ٨٥ رؤية رسول الله ﷺ
- ٨٧ تأملان
- ٨٧ ١- أصحاب علي عليه السلام
- ٨٩ ٢- الأفراد الملعونون

الخطبة الحادية والسبعون

- ٩٣ نظرة إلى الخطبة
- ٩٥ الشكوى من الاتباع الجهلاء
- ٩٨ تأملان
- ٩٨ ١- علي عليه السلام أول من أسلم
- ٩٩ ٢- إجابة عن سؤال

الخطبة الثانية والسبعون

- ١٠٣ نظرة إلى الخطبة

- القسم الأول: ربّ السموات ١٠٥
- القسم الثاني: آلف التحية والسلام على النبي ﷺ ١٠٧
- القسم الثالث: الحشر مع النبي ﷺ ١١١
- تأمل: معطيات الصلاة على النبي ﷺ ١١٢
- الاجابة على بعض الأسئلة ١١٥
- ١- ما سرّ هذه الاهمية للصلوات على النبي؟ ١١٥
- ٢- آثار الصلاة على النبي ﷺ ١١٥
- ٣- الفاظ الصلوات على النبي ﷺ ١١٦
- ٤- الصلاة على النبي واجبة أم مستحبة؟ ١١٧
- ٥- المفهوم الحقيقي للصلاة على النبي ﷺ ١١٨

الخطبة الثالثة والسبعون

- نظرة إلى الخطبة ١١٩
- الغنى عن بيعة مروان ١٢١
- تأمل: قصة غريبة من حياة مروان بن الحكم ١٢٣

الخطبة الرابعة والسبعون

- نظرة إلى الخطبة ١٢٥
- علم الجميع باحقيتي من غيري ١٢٧
- الإجابة عن بعض الأسئلة ١٢٨

الخطبة الخامسة والسبعون

- نظرة إلى الخطبة ١٣١
- العدو اللدود للمنحرفين ١٣٣

الخطبة السادسة والسبعون

- نظرة إلى الخطبة ١٣٧
- عشرون كلمة قيمة ١٣٩
- تأمل: الصبر واغتنام الفرصة ١٤٢

الخطبة السابعة والسبعون

- نظرة إلى الخطبة ١٤٥
- غيض من فيض جنایات بني أمية ١٤٧
- تأملان ١٤٨
- ١- من هو سعيد بن العاص؟ ١٤٨
- ٢- بني أمية ١٤٩
- الف- بني أمية في القرآن الكريم ١٤٩
- ب- بني أمية في أحاديث العامة ١٥٠
- ج- بني أمية في نهج البلاغة ١٥٠
- د- مفسد حكومة بني أمية ١٥٠
- ١- انحراف الخلافة عن مسارها الصحيح واستبدالها بالسلطة ١٥٠
- ٢- مسخ وتحريف الحقائق والمعارف الإسلامية ١٥١

الخطبة الثامنة والسبعون

- نظرة إلى الخطبة ١٥٣
- من الأدعية التربوية للإمام علي عليه السلام ١٥٥
- فصل في الدعاء ودوره في حياة الإنسان ١٥٩

الخطبة التاسعة والسبعون

- نظرة إلى الخطبة ١٦١

- القسم الأول: خطأ المنجمين ١٦٣
- القسم الثاني: اجتناب نبوءات المنجمين ١٦٥
- تأملات ١٦٦
- ١- ما هو علم النجوم؟ وما المحذور منه؟ ١٦٦
- ٢- الكهانة والكفر ١٦٧
- ٣- كيفية ظهور التكهنات النجومية ١٧٠

الخطبة الثمانون

- نظرة إلى الخطبة ١٧٣
- مكانة المرأة في المجتمعات البشرية ١٧٥
- تأملان ١٧٩
- ١- الفوارق والمساواة بين الجنسين ١٧٩
- ٢- أخبار عائشة ١٨٢

الخطبة الحادية والثمانون

- نظرة إلى الخطبة ١٨٥
- حقيقة الزهد ١٨٧
- تأمل: الزاهد أمير لأسير ١٨٩

الخطبة الثانية والثمانون

- نظرة إلى الخطبة ١٩١
- الدنيا وسيلة لأهداف ١٩٣
- تأملان ١٩٧
- ١- كيفية الحساب في الآخرة ١٩٧

٢ - المذموم عبادة الدنيا لانيلها ٢٠٠

الخطبة الثالثة والثمانون

- نظرة إلى الخطبة ٢٠١
- القسم الأول: البعيد القريب والعالي الداني ٢٠٣
- القسم الثاني: دور التقوى في تقرير مصير الإنسان ٢٠٥
- التقوى في كل زمان ومكان ٢٠٩
- القسم الثالث: حقيقة الدنيا ٢١١
- تقلب الدنيا ٢١٥
- القسم الرابع: أهوال المحشر ٢١٧
- تأملات ٢٢٠
- ١ - أضواء على المعاد الجسماني ٢٢٠
- ٢ - شبهة الأكل والمأكل المعروفة ٢٢١
- ٣ - بعث من في القبور ٢٢٢
- القسم الخامس: الإنسان، من أين وإلى أين؟ ٢٢٣
- تأمل: الدنيا دار إمتحان ٢٢٥
- القسم السادس: مواعظ شافية ٢٢٧
- شعب التقوى ٢٣٠
- القسم السابع: الجميع يدين له بالفضل ٢٣١
- القسم الثامن: الحذر، فالنعم إلى زوال ٢٣٧
- القسم التاسع: عاقبة الغضاضة الذبول ٢٣٩
- القسم العاشر: مواجهة الأهويل ٢٤٢
- تأملان ٢٤٥

٢٤٥	١- كيف نجتاز الصراط بسهولة؟!
٢٤٧	٢- صلاة الليل شرف المؤمن
٢٤٩	القسم الحادي عشر: المانع الآخر وساوس الشيطان
٢٥١	مكائد الشيطان
٢٥٣	القسم الثاني عشر: بداية حياة الإنسان ونهايتها
٢٥٥	النعم والجحود
٢٥٧	القسم الثالث عشر: الموت المفاجئ
٢٥٩	القسم الرابع عشر: حوادث ما بعد الموت
٢٦١	تأملان
٢٦١	١- وداع الأحياء للأموات
٢٦١	٢- سؤال القبر
٢٦٥	القسم الخامس عشر: القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من النار
٢٦٩	القسم السادس عشر: مصير الجاحدين من أصحاب السطوة
٢٧١	القسم السابع عشر: الحذر الحذر
٢٧٣	القسم الثامن عشر: حسن الختام

الخطبة الرابعة والثمانون

٢٧٧	نظرة إلى الخطبة
٢٧٩	ابن النابغة الكاذب
٢٨٤	تأملان
٢٨٤	١- نسب عمرو بن العاص وطرف من أخباره
٢٨٥	٢- المزاح في الإسلام

الخطبة الخامسة والثمانون

٢٨٩	نظرة إلى الخطبة
-----	-----------------------

٢٩١	القسم الأول: معرفة الله
٢٩٤	تأمل: كيفية معرفة الإنسان بالذات المقدسة
٢٩٧	القسم الثاني: الاتعاظ والاعتبار
٣٠١	القسم الثالث
٣٠١	درجات الجنة

الخطبة السادسة والثمانون

٣٠٣	نظرة إلى الخطبة
٣٠٥	القسم الأول: العالم بالخفايا والاسرار
٣٠٧	القسم الثاني: الزاد إلى المعاد
٣٠٩	القسم الثالث: الكتاب الجامع
٣١٠	جامعية القرآن والسنة
٣١١	إجابة عن سؤال
٣١٣	القسم الرابع: إغتنام الفرصة
٣١٥	طرق نفوذ الشيطان
٣١٧	القسم الخامس: من هو السعيد؟
٣١٩	مواطن السعادة لدى الإنسان
٣٢١	القسم السادس: الصفات والذميمة
٣٢٢	المواعظ البالغة

الخطبة السابعة والثمانون

٣٢٥	نظرة إلى الخطبة
٣٢٧	القسم الأول: أحب العباد إلى الله
٣٣٠	أفضل النعم

٣٣٣	القسم الثاني: خصائص المخلصين
٣٣٦	تأملان
٣٣٦	١- فتح باب الاجتهاد
٣٣٧	٢- شمولية القرآن
٣٣٩	القسم الثالث: العلماء المخلصون والعلماء المتشبهون
٣٤٢	تأملات
٣٤٢	١- علماء الضلالة
٣٤٣	٢- التفسير بالرأي، فح الشيطان الأكبر
٣٤٥	٣- البدع مادة الانحراف
٣٤٧	القسم الرابع: لم الضلال، والعثرة بين الاظهر؟
٣٤٩	منزلة أهل البيت <small>عليهم السلام</small>
٣٥١	القسم الخامس: أعلام الهدى
٣٥٥	القسم السادس: زوال حكومة بني أمية
٣٥٧	تأملان
٣٥٧	حكومة بني امية الفاشلة
٣٥٧	أ) قيام الخوارج ضد بني أمية
٣٥٨	ب) قيام سائر الناس ضد بني أمية

الخطبة الثامنة والثمانون

٣٦١	نظرة إلى الخطبة
٣٦٣	القسم الأول: هل من عين باصرة واذن سامعة؟
٣٦٤	مصير الجبابرة
٣٦٧	القسم الثاني: الاستبداد مادة الاختلاف

المستبدون الظالمون ٣٧٠

الخطبة التاسعة والثمانون

نظرة إلى الخطبة ٣٧١

القسم الأول: العالم على أعتاب الدعوة ٣٧٢

الجاهلية المعاصرة ٣٧٧

القسم الثاني: كلكم مسؤول ٣٧٩

الخطبة التسعون

نظرة إلى الخطبة ٣٨٢

القسم الأول: كان ولم يكن أحد سواه ٣٨٥

القسم الثاني: العالم بالخفايا والأسرار ٣٨٩

القسم الثالث: ليس كمثلته شيء ٣٩١

القسم الرابع: محاسبة النفس ٣٩٣

تأملان ٣٩٤

١- الوزن والحساب في المحشر ٣٩٤

٢- الواعظ الباطني ٣٩٥



Nafahāt al-Welāyah

Description of
Nahj al-Balāghah



آدين كرافيك

